

واحة التفسير

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الرابع عشر

من أول سورة الجمعة إلى آخر سورة المرسلات


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ (٦٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الجمعة هي السورة الثانية والستون في ترتيب المصحف، والسادسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت غالباً دفعة واحدة سنة ست من الهجرة بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وسميت سورة الجمعة: لورود لفظ يوم الجمعة فيها، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك، وهي سورة مدنية عند الجمهور، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدد، وهي ثمانون كلمة، وسبع مئة وعشرون حرفاً.

وكانت صلاة الجمعة قد فُرضت قبل نزول هذه السورة، وصلّى النبي ﷺ أول جمعة بعد يوم الهجرة في دارٍ لبني سالم بن عوف، كما أن أهل المدينة صَلَّوْا الجمعة قبل قدوم النبي ﷺ إليها مهاجراً.

ومن الأحاديث الواردة في القراءة بها مع غيرها في صلاة الجمعة وغيرها:

١- حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر، يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السجدة]، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان] وأن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[١].

٢- وعن جابر بن سمرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقون[٢].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٩)، وأبوداود برقم (١٠٧٤،١٠٧٥)، والترمذي برقم (٥١٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة برقم (١١١٨)، والنسائي (١١١/٣)، والبيهقي (٢٠٠/٣)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٧٣٥).

(٢) ابن حبان برقم (١٨٣٨) والبيهقي (٢٠٠/٣) وهو عند البزار (٣٧٥٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٢) وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو ضعيف.

٣-وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ①﴾ قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما في الصلاة[1]

٤-وعن سمرة بن جندب ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ①﴾[2].

٥-وعن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة، وخرج إلى مكة، فصلى بنا أبو هريرة الجمعة، فقرأ بعد الحمد: سورة الجمعة في الأولى، و﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ في الثانية، قال: فأدركتُ أبا هريرة حين انصرف فقلت له: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة، فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة[3].

موضوع السورة:

١- الآيات الأربع الأُول من السورة تتناول بعثة خاتم الرسل، محمد ﷺ وتبين أنه الرحمة المهداة، الذي أنقذ الله به الناس من الشرك والضلال إلى العلم والإيمان، وأن هذه الرسالة كانت من بين العرب الأمّيين، ولكنها ليست خاصة بهم، بل هي لهم وللناس جميعا، من كان موجودا منهم على وجه الأرض وقت بعثته ﷺ في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، ومن يأتي بعدهم من الأجيال المتتابعة على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وأبوداود (١١٢٢) وابن ماجة (١٢٨١) والترمذي (٥٣٣) والمسند (١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح وانظر (١٨٣٨١) وابن حبان (٢٨٢١) والنسائي في الكبرى (١٧٥٠).

(٢) أخرجه أبوداود (١١٢٥) والنسائي في الكبرى (١٧٥١،١٧٨٧) والمسند (٢٠١٥٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان (٢٨٠٨) والطيالسى (٨٨٨) وابن خزيمة (١٨٤٧) والطبراني في الكبير (٦٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) وأبو داود (١١٢٤) وابن ماجة (١١١٨) والترمذي (٥١٩) والمسند (٩٥٥٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (١٨٤٣) والنسائي في الكبرى (١٧٣٥).

وسورة الجمعة تقرر أن أمة الإسلام: هي الأمة المختارة لحمل الرسالة إلى عموم الجن والإنس إلى أن تقوم الساعة، وذلك بعدما تخلّى بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة، فخانوها بالتحريف والتغيير، وانقطعت صلتهم بالسماء، وصاروا كالذي يحمل أسفارا، وهذه الحقيقة تحدثت عنها صدر السورة ووسطها، فبينتْ أن الله تعالى صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب، وابْتعث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين، ليبلغ رسالته إلى العالمين، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢- وكان في هذا توطئة لذمّ اليهود الذين جاء ذكرهم في الآيات الأربع التالية، لأنهم حسدوا هذه الأمة على تشريفهم بحمل راية هذا الدين، وفيه إبطال لزعمهم أنهم أولياء الله، وبيان أنهم لما انحرفوا عن دين الله ولم يعملوا بما في التوراة شبههم القرآن بالحمار الذي يحمل أسفارا، لأنه لا يعلم ماذا فيها، ولا يعمل بها.

ومن جملة ما حسد اليهود المسلمين عليه : أن الله تعالى أعطاهم يوم الجمعة، بعد أن كان يوم السبت هو المفضل في الأسبوع.

والسورة تطلب من اليهود أن يدعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا شعب الله المختار كما يزعمون، مع أن الموت آت لا محالة، فلا فرار ولا مهرب منه لكل مخلوق.

٣- ومن أول أغراض السورة التي نزلت من أجله: هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة، وترْك كل ما يُشغل عنها عند النداء لها، فإن ما عند الله تعالى خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين، وقد دعت السورة في الآيات الثلاث الأخيرة منها إلى المسارعة لأداء صلاة الجمعة، وحَرَّمت عليهم العمل حين ينادى لها.

فصلاة الجمعة هو موضوع السورة الأساس، ولعل افتتاحها بالتسبيح تحريضًا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة، فيوم الجمعة فيه الاجتماع الحاشد للمسلمين، وفيه ساعة مباركة لا يوافقها عبد مقبل على الله تعالى بدعوة أو عبادة أو تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له، واستحب الإسلام الغسل والطيب لهذا اليوم. وفي الآيات توبيخ لمن ينشغل عن صلاة الجمعة لسبب من الأسباب غير مشروع.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

بَرَاعَةُ الاسْتِهْلَالِ تَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَوْصَافٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ

١- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

أُفتُتحت سورتا الجمعة والتغابن بالفعل المضارع للتسبيح، وكان افتتاح سور: الحديد والحشر والصف، بالفعل الماضي.

وافتتاح هذه السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السموات وأهل الأرض لله تعالى، من براعة الاستهلال، وفيه تحريض للمؤمنين على أداء فريضة الجمعة وسماع الخطبة.

إن جميع المخلوقات من إنسان وملائكة وجن وحيوان ونبات وشجر ووحوش وطيور وحشرات وشمس وقمر وجماد وغيرها كلها تسبح الله تعالى بحمده، وتقدسه وتنزهه عن كل ما لا يليق بجلاله، وكلها تنقاد لأمره وتتوجه له بالعبادة والتقديس والتعظيم، وإذا كان كل شيء يحمد الله تعالى فَلِمَ يتأخر المسلمون عن المشاركة في هذا الحفل الأسبوعي الجماعي العام، وفيه مغفرة ذنوبهم، وتحقيق إيمانهم، وتكثير سواد المسلمين، وتقوية صفوفهم؟

وفي هذا توبيخ للذين خرجوا من المسجد لمّا سمعوا قدوم قوافل التجارة.

وفيه تنويه بأن هذا الكون دائم التسبيح لله تعالى بصفة متجددة لا يَملّ ولا يفتُر.

ثم وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف:

١- فهو سبحانه ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي المالك لهذا الكون بما فيه ومن فيه، له ملك العالم العُلوي والعالم السفلي المدبر لشؤونه، المتصرف فيه تصرف المالك في ملكه بلا منازع.

٢-وهو سبحانه ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ المعظم المنزه عن كل نقص وعن كل آفة، المتصف بصفات الجلال والكمال.

٣-وهو سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالَب، ولا يُقهر، ولا يُذل، يَعتزّ به كل من يلْتفّ

حوله ويلوذ بجنابه، ويفقد العزة والكرامة كل من فارق حضرته ولاذ بغيره.

٤- وهو جل شأنه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنعه وتدبيره، وفي أقواله وأفعاله، يضع الأمور في نصابها، وصاحب هذه الأوصاف العظيمة هو المستحق للعبادة ون غيره.

أُمِّيَّةُ الْعَرَبِ، وَوَصْفُ الرَّسُولِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ

٢، ٣- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

ومن حكمته سبحانه أنه أرسل في العرب رسولاً منهم، وهم أمة أمية، لم يُرسل فيهم رسولاً قبل ذلك، وهم أمة أمية في مجموعها، وليسوا جميعًا أميّين، فقد كان منهم كُتّاب الوحي، وهم يُعدّون بالعشرات، ومنهم كُتّاب التنزيل على وجه الخصوص.

فعن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنا أمة أمية لا نكتب، ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا**» يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين[1].

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: كان هذا الحي من العرب، أمة أمية، ليس فيها كُتّاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى، يهديهم به[2]:

أ- **فالأميّ**: نسبة إلى أُمِّه يوم ولدتْه، وهو لا يعرف القراءة والكتابة وبقى على أميته، على المعنى الدارج بين الناس.

والمراد بالأميين في الآية : الذين لا كتاب لهم، وليس عندهم أثر رسالة، لا من العرب ولا من غيرهم، فليسوا من أهل الكتاب.

والأميون على هذا المعنى هم العرب كما قال تعالى ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾[آل عمران: ٢٠].

وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم آكد وأبلغ، كما

---

(١) البخاري برقم (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠) وأبوداود (٢٣١٩) والنسائي (٢١٤٠)

(٢) عبد الرزاق (٢/٢٩١) وابن جرير (٢٢/٦٢٦)

قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف] وذلك لأنهم كانوا عادمين للعلم والخير، وكانوا قبل الرسالة في ضلال مبين، يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار، وكانوا غلاظًا قُساة، يأكل القوي فيهم الضعيف، ويسيئون الجوار، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، وكانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، وفي أقبح الأخلاق وأسوئها، فبعث الله إليهم رسولاً منهم، يعرفون حسبه ونسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعاهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق وصِدْق الحديث وأداء الأمانة ..

ولا ينافي ذلك عموم الرسالة إلى العالم أجمع لقوله تعالى ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا .... ﴾[الأعراف:١٥٨] وقوله ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام:١٩] أي وأرسلت إلى كل من بلغه هذا القرآن من الناس جميعا إلى قيام الساعة، ومن لم يؤمن بهذا القرآن فهو في نار جهنم، قال تعالى ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ ... ﴾[هود:١٧]، والعرب هم نقطة انطلاق الدعوة، وهم الذين اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة العالمية إلى العالم.

ب-وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون، كما قال تعالى عنهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ... ﴾[آل عمران:٧٥] فتحدى الله اليهود بأن يبعث من هؤلاء الأميين رسولاً منهم، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن هذا الفضل ليس خاصًا بالأميين ولا باليهود ولا بغيرهم ﴿ ...قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[آل عمران].

وهكذا رد الله عليهم بأنه سبحانه بعث محمدا نبيًا أميًا، ومع كونه أُميًا فقد أتى بجميع ما جاء به الرسل غير الأميين، وزاد عليهم، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم، إنهم (جُوييم) وهي كلمة عبرية معناها بالعربية: (أمميّون) نسبة إلى الأمم،فهم يسمون أنفسهم:(شعب الله المختار) ويقولون على غيرهم (الأمم)

جـ وكان اليهود ينتظرون مبعث النبي الأخير، المبشّر به في كُتبهم، ليجمعهم بعد فُرقة، وينصرهم بعد هزيمة، ويُعِزّهم بعد ذل، وكانوا يقولون للعرب: نحن أول من سيفتح عليه بالدخول في دينه، فلما وَجَدَ اليهود أن هذا النبي الخاتم بُعث من العرب، حقدوا عليه وحسدوه، وكفروا به، لأنه ليس من بني إسرائيل؛ كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ أي يقولون للكفار الوثنيين من غير أهل الكتاب : نحن أول من سيفتح عليه ويؤمن به عندما يبعث، كما جاء هذا في كتبهم، قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ أي فلما جاءهم محمد الذي عرفوه بأوصافه كما هي عندهم ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الذين ليس عندهم كتاب سماوي سابق، ولا يُوجد لديهم أثر رسالة، فأرسل فيهم ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليس غريبا عنهم، بل إنهم يعرفون حسبه ونسبَه، وصدقه وأمانته وعفافه، أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وهذا نص في استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام فيهم حين قال ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة] .

وهو ﷺ أمّي مِثْلَ قومه، لم يقرأ كتابًا سماويًّا قبل ذلك، وليس لديه أثر من آثار الرسل السابقين، وقد جاء نعتُه في كتب الأنبياء السابقين بـ (النبي الأمي) وهذه الأمية أقرب إلى تصديق رسالته، لدفع توهّم أنه ﷺ استعان بكتب مَنْ قبله، ولا بالكتابة والقراءة على ما يأتيه من الوحي، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[العنكبوت] وقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ...﴾[الشورى:٥٢].

وقال جل شأنه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس] فكانت معجزته ﷺ في أمّيته.

وقد وصف الله اليهود بالأميين أيضًا:

قال تعالى عن بني إسرائيل:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة] فقد وصف الله سبحانه اليهود أيضا بالأمية في هذه الآية.

وفي هذا رد على من قال منهم عن النبي ﷺ: (هو رسول الأميين وليس رسولا إلينا) فهم أميون أيضًا.

قال ابن صيّاد للنبي ﷺ لما قال له: (أتشهد أني رسول الله) قال: أشهد أنك رسول الأميين، وكان ابن صيّاد يهودياً متدينا باليهودية.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الآيَةِ:

وكما وصف الله تعالى نفسه في الآية السابقة بأربعة أوصاف، فقد وصف رسوله محمدًا ﷺ في هذه الآية بأربعة أوصاف هي جماع البلاغ النبوي للأمة، وتعداد لنعم الله تعالى عليهم، وبيان لبعض ما حباهم به من فضل:

الوصف الأول: أنه ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن الموجب للإيمان واليقين، مع كونه أميًا، وفيه منهج الله تعالى إلى خلقه بما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، إنْ هم استجابوا له، وأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه، وأقاموا حدوده.

والتلاوة: هي القراءة المتتابعة المرتلة، يتلو بعضها بعضا مع إقامة الحروف وتدبر المعاني.

الوصف الثاني: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من العقائد الفاسدة، وعلى رأسها: الكفر والشرك، ويدعوهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله، ويطهرهم من الأخلاق الذميمة ويزجرهم عنها، كأكل الميتة وشرب الخمر، ووأد البنات، وقطع الطريق، ويرغبهم في الأخلاق الفاضلة.

لقد دعا إبراهيم ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، كما جاء ذلك في آية سورة البقرة ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]

فكان طلب تزكية الأخلاق في نهاية دعائه، ولَمَّا أجاب الله دعوة إبراهيم كان أول بند من بنود الرسالة الخاتمة، هو تزكية الأخلاق، كما جاء ذلك في آية سورة البقرة ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٥١] وفي هذا إشارة إلى مكانة حسن الخلق في الإسلام.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

الوصف الثالث: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، وقيل: الكتاب: الخط بالقلم، والحكمة: الفقه في الدين،وعلم الكتاب والسنة يشتمل على علوم الأولين والآخرين.

وبتزكية الأخلاق، وعلم الكتاب والسنة يكونون أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الناس خلقًا، وأحسنهم هدياً، اهتدَوْا في أنفسهم، وصاروا أئمة في الهدى لغيرهم، فكانوا هداة مهدين، وهذه أكمل نعمة وأعظم منحة.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ...﴾ [البقرة:٢٣١].

وليست رسالة محمد ﷺ قاصرةً على تخلِّي الأمة عن النقائص والرذائل، وتحلِّيها بالفضائل والكمالات، بل إنها مُنْقذة للأمة مما كانت فيه من ضلال أهل الشرك والوثنية.

الوصف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإن أمة العرب كانوا قبل رسالة محمد ﷺ في شرك وجاهلية عمياء وضلال بيّن.

وهذا الضلال المبين وصفه جعفر بن أبي طالب للنجاشي في قوله:

(أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنُوحّده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسْن الجوار، والكف عن المحارم والدماء،

ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام)[1].

عالمية الرسالة : ومع هذا كله فقد عَلِمَ الله سبحانه أن هذا الضلال سيزول، وأن هذه الأمة هي المؤهلة لأن يختم الله بها الرسالات السماوية، وعَلِمَ جل شأنه أن جزيرة العرب هي أفضل البقاع لتحرير العالم من هذا الضلال، وأنها أقرب إلى قبول الصلاح والإصلاح من غيرها ، فاختارها للرسالة الخاتمة وإصلاح البشرية.

وقد كان العرب قديما متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام، ولكنهم بدَّلُوه وغيّروه، فجعل أكثرهم: التوحيد شِرْكاً، واليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله.

وأهل الكتاب كذلك بدّلُوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمدا ﷺ بشرع شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، وجمع له جميع المحاسن، ليُخرج هذا العالم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى..

وكان بدءُ انْطِلاقة هذا الدين إلى العالم: من جزيرة العرب إلى العالم كله، وإلى الأجيال المتتابعة من العرب والعجم وسائر البشر، فقد بعث الله تعالى محمدا ﷺ من الأميين في مكة إلى من سواهم، وفي آخرين من العرب لم يكونوا في عصر النبي ﷺ، وآخرين من غير العرب يتّصلُون بهم، ويَصيرُون في جملتهم من كل من يدخل في الإسلام شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، فيصيرون من أبناء الإسلام ويصبحون أقرب إلى المسلمين من العربي غير المسلم، وإن كان من الأهل والعشيرة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي وأرسل الله تعالى محمدا ﷺ إلى قوم آخرين لم يجيئُوا بعد، وسيجيئون تباعاً من العرب ومن غيرهم، وهذا يصدُق على كل من أسلم ويُسلم إلى يوم القيامة في أي بقعة من العالم.

---

(١) ينظر : المسند (١٧٤٠) بإسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، وهو في سيرة ابن هشام (١ / ٣٥٧) وعند البيهقي في الدلائل (٢ / ٣٠١).

فليست هذه الرسالة خاصة بالعرب كما يزعم من يجهل حقيقة الديانات، وإنما هي رسالة عامة للعرب ولغيرهم من الإنس والجن إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ...﴾ [الأنعام:١٩] أي وأُنذر كل من بلغتْه الرسالة من البشر من كل جنس ولون ولغة، ومنهم أهل الكتاب فقد أمروا في الدخول في الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾[آل عمران:٢٠].

وجاء عموم الرسالة إلى الناس كافة في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله جل شأنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا ...﴾ [سبأ:٢٨].

بل إنها رسالة رحمة إلى العالم كله، بما يتجاوز الإنس والجن إلى غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[الفرقان].

والآية فيها بشارة غيْبيّة بأن دعوة النبي ﷺ ليست للعرب وحدهم، بل هي إلى: فارس، والروم، والأكراد، والبربر، والسودان، والأرمن، والترك، والتتار، والمغول، والصين، والهند، وأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، والحبشة، والبلقان، وروسيا، والشيشان، والفلبين، وغير ذلك من سائر أرجاء الدنيا في قارّات العالم كله، سواء من أجاب منهم دعوة النبي ﷺ أو ممن هو مدعوّ إلى الدخول فيها، ومطالب بالانتماء إليها.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأُنزلتْ عليه سورة الجمعة، فلما بلغ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال له رجل: من هم، يا رسول الله؟ فلم يراجعْهُ حتى سأل ثلاثا، قال: - وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله يده على رأس سلمان- ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال من هؤلاء»[1]

---

(١) البخاري برقم (٤٨٩٧) ومسلم برقم (٢٥٤٦) والترمذي (٣٣١٠، ٣٩٣٣) والنسائي في الكبرى (٨٢٧٨، ١١٩٢) والطبري (٢٢/٦٣٠) والبيهقي (٦/٣٣٣) في الدلائل والمسند (٩٤٠٦) وابن حبان (٧٣٠٨) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (٢٢٩٦).

والمراد: أن أمة فارس من بين الأمم التي تدخل في الإسلام، وهذا يفيد أن نزول هذه السورة كان بعد إسلام أبي هريرة ﷺ عام خيبر.

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في أصلاب، أصلاب، أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب**» ثم قرأ الآية[(١)].

وقال مجاهد: هم الناس كلهم الذين بعث إليهم محمد ﷺ.

وفي الآية إشارة إلى أن ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ أي من غير العرب، وفي ﴿مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى العرب، وفي هذا امتنان من الله تعالى على كل من يدخل في الإسلام من العالم أجمع من أهل الكتاب ومن غيرهم، مِمّن لم يلحقوا بمن سبقهم من أهل الإيمان في الفضل، ولم يلحقوا بهم في الزمان، فإن الوقت الذي بعث فيه محمد ﷺ حصل لأهله من الفضائل والخصائص مالم يحصل لغيرهم.

ثم ختم الله الآية بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يغلب ولا يقهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، ومن عزته وحكمته أنه لم يترك عباده سُدى، بل ابتعث فيهم رسوله فأمرهم ونهاهم. قال تعالى:

٤- ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

أشار سبحانه إلى أن ما اختص به محمدا ﷺ من هذه الرسالة الخاتمة، هو محض فضل من الله تعالى، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، كما أشار سبحانه إلى توفيق من وُفق إلى الدخول في الإسلام فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وهذه الإشارة تشمل صاحب الرسالة ﷺ وتشمل من أُرسل إليهم النبي ﷺ من العرب ومن سائر الأمم، ممن سيلحقون بهم زمن البعثة وبعدها، فوصلتهم الدعوة وأدركوا فضلها واعتنقوها.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٢٠١) (٦٠٠٥) وصححه الألباني في كتاب السنة برقم (٣٠٩) وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده جيد، المجمع (١٠/٤٠٨).

وقد امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه الرسالة فقال ﴿ ... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:] .

وامتن سبحانه وتعالى على المؤمنين بهذه الرسالة في قوله ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:] .

وختم الله الآية ببيان سعة فضله وعظيم إنعامه فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي هو صاحب الإحسان والفضل والعطاء الجزيل، ومن ذلك: إفاضة التعليم على الأمة، ببركة هذه الرسالة، بعد أن كانت أمة أمية، ولا نعمة أفضل من نعمة الدين، فهي مادة الفوز والسعادة الأبدية، ومن هذه النعمة : اتّساع رقعة الإسلام بحيث شمل العالم بأسره.

ومنها: زوال اختصاص بني إسرائيل بالرسالة، كما قال تعالى ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:] .

الذي لا ينتفع بما يعلم كالحمار يحمل أسفاراً

٥ - ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ[١] ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ[٢] يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

ولما مَنّ الله تعالى على حبيبه محمدا ﷺ بختْم النبوة، حسدَه اليهود على تحوُّل الرسالة منهم إلى العرب، قال تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] وكان اليهود يفتخرون على العرب بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم.

---

(١) أمال الأصبهاني وأبوعمرو وابن ذكوان والكسائي وخلف ألف ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وقللها الأزرق وبالفتح والتقليل لقالون، وبالتقليل فقط للأزرق، وبالتقليل والإمالة لحمزة، وبالفتح الباقين.

(٢) أمال ألف ﴿ٱلْحِمَارِ﴾ أبوعمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وبالتقليل للأزرق، وللسوسي وقفا الإمالة والفتح والتقليل، والباقون بالفتح.

لذا: شرعت الآيات في ذم اليهود، فقد بيّن سبحانه وتعالى أنه قد أعطى اليهود التوراة، ولكنهم لم ينتفعوا بها، ولم يعملوا بما فيها، فلم يهتدوا بهديها، ولم يُزكُّوا أنفسهم بما فيها، بل كانوا يحملون التوراة، وينتقلون بها من مكان إلى مكان، ويزعمون أن مجرد حملهم لها وافتخارهم بها كافٍ عن القيام بما فيها، فأبطل الله سبحانه زعمهم هذا، وبيّن أنهم لا حظّ لهم من التوراة في مجرد حملها دون علم ولا فهم ولا عملٍ بمقتضاها، وفي مقدمة ذلك مقاومتهم لدعوة محمد ﷺ ومظاهرة المشركين عليه، مع علمهم بأنه رسول الله حقًا وصدقًا، ولكنهم كتموا ذلك.

فأفاد سبحانه وتعالى أن اليهود قد انتهى دَوْرهُم في حمل أمانة الله تعالى، لأن هذه الأمانة لا يحملها إلا ذوو القلوب الحية الواعية التي تعقل عن الله أمره ونهيه، وتُتَرْجِمُها إلى عمل وواقع.

ولـهذا شبههم الله تعالى بالحمار، لأنه لا ينتفع بما يحمله، وشبّه التوراة بأسفار الكتب الجامعة للعلوم للنافعة.

وشبّه تكليف اليهود بالعمل بما في التوراة، بما يحمله الحمار من تلك الأسفار.

وكما أن الحمار لا ينتفع بما يحمله على ظهره من العلوم النافعة، وليس له إلا ثِقَل الحِمْل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها، فكذلك اليهود كُلِّفوا في التوراة، باتباع محمد ﷺ وإظهار صفاته للناس حين يأتي، فخانوا وحرفوا وبدّلوا، ولم ينتفعوا بسائر ما فيها من الـهدى والنور.

فوجْهُ الشبه: هو عدم انتفاع اليهود بما كلَّفهم الله به في التوراة مع علمهم بما فيها، فهم يعرفون محمدًا أكثر مما يعرفون أبناءهم، ومع هذا كفروا به.

وفي هذا غاية التحذير للمؤمنين ألاّ يعملوا بما كلَّفهم الله به وألا يبلِّغوه للناس.

﴿ مَثَلُ ﴾ أي حال اليهود في البلادة والغباء، وهم الذين أنزل الله عليهم التوراة لهدايتهم ثم لم يعملوا بها ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ أي يحمل كُتُباً لا يدري ما فيها.

قال الضحاك: وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب، كان مَثَلُكُم كَمثَلِهم.

قال تعالى في آية مماثلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ...﴾ [الأعراف:١٧٩] .

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ...﴾ [الأعراف:١٧٦].

ثم ذَمَّ الله تعالى مَنْ كان مَثَلُهم هذا، ونفّر سبحانه من حالهم، فقال: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فلم ينتفعوا بها ولم يعملوا بما فيها، بئس المثل مثلهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسوله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق لطاعته وهدايته القوم الظالمين، لأنهم تجاوزوا حدود الله، وخرجوا عن أمره ونهيه، ومن ظُلم اليهود أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق وأنهم أولياء لله من دون الناس .

قال ميمون بن مهران: يا أهل القرآن، اتبعوا القرآن، قبل أن يتبعكم، ثم تلا هذه الآية.

وجاء عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليست له جمعة»**[1].

فكل من يحمل اسمًا من أسماء أبناء المسلمين، ولا يعمل بعمل أهل الإسلام فهو داخل في هذه الآية.

وكل من يقرأ القرآن ولم ينهض للعمل بما فيه فهو كالحمار الذي يحمل أسفارًا.

وهكذا ذم الله اليهود لعدم العمل بما في التوراة، وشبههم بهذا التشبيه الذي يود يهود اليوم أن يتخلصوا منه فضلا عن يهود الأمس، وأنى لهم ذلك؟

وهو قرآن يُتلى إلى قيام الساعة، وفيه هذا الوصف الذي يلحقهم في كل زمان ومكان، وهم مستحقون له بجدارة.

---

(١) المسند (٢٣٠/١) برقم (٢٠٣٣) بإسناد ضعيف لضعف مجالد بين سعيد الهمداني وابن أبي شيبة (١٢٥/٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/٢) فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه بعضهم ووثقه النسائي في رواية، ورواه الطبراني في الكبير (١٢٥٦٣) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٦٠).

مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةْ أَحَبَّ التَّخَلُّص مِنْ دَارِ الأَكْدَارِ

٦-﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾

ثم أظهر الله تعالى كذب اليهود، في زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وافتخارهم بذلك على سائر الناس، فقال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ قل - أيها الرسول - لهؤلاء الذين تمسكوا بالديانة اليهودية المحرفة، وادّعوا أنهم متبعون لها ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على حق وادعيتم كذباً أنكم أحباء الله، كما قال تعالى عنكم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾إن كنتم كذلك فاطلبوا لقاءه، وتمنوا الموت مادمتم صادقين في دعواكم.

فإن كنتم على حق في زعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعائكم حب الله لكم، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه كما قلتم ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ...﴾[البقرة:١١١].

ولو أن أحدهم تمنى الموت لأصابه شَرْقة فمات بها ورأى مقعده من النار[1].

وفي الآية الأخرى ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾.

ولما لم يطلبوا ذلك أبطل سبحانه زعمهم هذا، وبيّن أنهم كغيرهم، وأنهم ليسوا أفضل من الناس في شيء، فقال في تتمة الآية من سورة المائدة ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ...﴾[المائدة:١٨].

وقد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث نقاط من هذه السورة وهي:

١-أنهم لما افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه، كذّبهم الله في قوله ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) ينسب هذا إلى ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير الطبري (١/٤٢٧).

٢-ولما افتخروا بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم، شبههم الله بالحمار الذي يحمل أسفاراً.

٣-ولما افتخروا بيوم السبت، وأنه ليس للمسلمين مثله، شرع الله لهم يوم الجمعة ثم رفعه عنهم.

٤ ـ وقد بيّن القرآن أن اليهود والنصارى مِثْل جميع الناس يجري عليهم ما يجري على غيرهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ ...﴾ [المائدة:١٨]

ثم نفى الله سبحانه تمنيهم لقاءه تعالى بسبب سوء أعمالهم من الذنوب والمعاصي التي يخافون من الموت بسببها فقال ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد بين سبحانه أنهم أحرص الناس على حياة، أي مهما كانت هذه الحياة، ومهما كانت قليلة أو قصيرة فقال ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ ...﴾[البقرة:٩٦].

وفي الحديث عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: «**ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه كره لقاء الله وكره الله لقاءه**»[1].

ويحتمل أن تكون هذه الآية من باب طلب المباهلة، وهي أن يقف الفريقان المتنازعان وجهًا لوجه، ويتوجهان بالدعاء إلى الله تعالى أن يخذل المبطل منهما، ويُحتمل أيضاً أن يكون هذا من باب التحدي لهم.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٧) عن عبادة، وجاء عن عبادة في صحيح مسلم برقم (٢٦٨٣)، وعن عائشة بنحوه برقم (٢٦٨٤).

عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبوجهل -لعنه الله -إن رأيتُ محمدًا عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لو فعل لأخذتْه الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنّوا الموت، لماتوا، ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا، لا يجدون مالاً ولا أهلا**»[1].

فماذا يخيف اليهود إذن من الموت، ويجعلهم أجبن خلق الله؟ وهم عندما يموتون يلْقون ما يلْقاهُ أولياء الله المقربون، على حدّ زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس!! فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب التخلص من دار الأكدار.

ورد أنه لما ظهر النبي ﷺ كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتبعتم محمداً أطعناه، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا: - أي يهود خيبر:- نحن أبناء خليل الرحمن، ومنا عزير ابن الله، ومنا الأنبياء، ومتى كانت النبوة في العرب؟ نحن أحق بها من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه، فنزلت هذه الآيات[2].

وقد سُمّي اليهود: يهودا، نسبة إلى أبيهم (يهوذا) أحد أبناء يعقوب، فهم من نسله، وهو الذي أشار بقتل يوسف عليه السلام، أو أنهم سُمُّوا يهودا من قوله تعالى حكاية عنهم ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ...﴾ [الأعراف:١٥٦] أي رجعنا إليك وتبنا من عبادة العجل.

مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ تَمَنِّي الْيَهُودِ لِلْمَوْتِ

٧- ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

كشف الله سبحانه في هذه الآية عن سبب عدم تمني اليهود للموت، فبين أنهم يذكُرون الموت بألسنتهم، ولكنهم لن يتمنوه لسببين:

---

(١) المسند (١/٢٤٨) برقم : (٢٢٢٥، ٣٤٨٣) عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عكرمة فمن رجال البخاري، والبخاري برقم(٤٩٥٨) والترمذي برقم (٣٣٤٨)، وقال حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٦٨٥).

(٢) تفسير الألوسي (٩٦/٢٨).

أحدهما: شدة حرصهم على الحياة، لِعلمِهم أنهم إذا تمنوا الموت ماتوا من فورهم، وأنهم إذا ماتوا دخلوا النار، كما تقرر ذلك آية سورة البقرة ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

وثانيهما: ما قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي،كقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ... ﴾ [آل عمران:١٨١] وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ...﴾[المائدة:٦٤]، وقولهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ...﴾ [التوبة:٣٠].

وجاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال (لو تمنّوا الموت، لشرق أحدهم بريقه)[١].

وجاء عنه أيضا: (لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات)[٢].

ولم يتمن أحدهم الموت، لأنهم موقنون في واقعهم بصدق النبي ﷺ، فعلموا أنهم لو تمنوا الموت لغص أحدهم بريقه فمات مكانه، ولماتوا جميعا من ساعتهم، وهذا من معجزات القرآن الكريم.

ولو أن أحدا من اليهود تمنى الموت لنُقِل ذلك عنهم واستفاض، ولو أن يهوديّا نطق بتمني الموت مع حرصه على الحياة فإن هذا لا يعارض الآية.

قال الألوسي: لم يتمن أحد منهم الموت، لأنهم كانوا موقنين بصدقه ﷺ فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفي هذا التمني بلفظ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...﴾ [آية:٩٥] وهو من باب التفنن، على القول المشهور[٣].

ذلكم قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ولا يتمنى اليهود الموت أبدًا بحال من الأحوال، إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة، وخوفاً من عقاب الله لهم، وذلك

(١) تفسير الطبري ٢٦٨/٢ وابن أبي حاتم (١٧٧/١) (٩٣٦).

(٢) ابن إسحاق، سيرة ابن هشام (٥٤٢/١) والطبري (٢٧٣،٢٦٩/٢) وابن أبي حاتم (٧٧/١) (٩٤٠،٩٣٧).

(٣) تفسير الألوسي (٩٦/٢٨).

بسبب ما قدموه من الكفر والمعاصي وسوء الفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧﴾ وما يصدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي لا يخفى عليه ـ سبحانه ـ من ظلمهم شيء.

وقد وصف الله اليهود بالظالمين في مواطن كثيرة من كتابه، كقوله تعالى عن عبادتهم للعجل: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى في عقوبتهم: ﴿... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝١٦٢﴾ [الأعراف].

وقوله سبحانه: ﴿... ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة].

وقوله جل شأنه: ﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة].

لاَ فِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ

٨-﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

ومهما حرص اليهود على الحياة ولم يتمنوا الموت، فإنهم لن يفروا من قبضة الله تعالى، ولن ينجو أحد منهم من الموت، فهو مدركهم لا محالة ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ﴾ أي تهربون ﴿مِنْهُ﴾ لا مفرّ من لقائه، ولن ينجو منهم صغير ولا كبير، ولا طبيب ولا مريض، ولا رئيس ولا مرؤوس.

كما قال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...﴾ [النساء:٧٨].

وقال سبحانه ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ...﴾ [آل عمران].

فالموت نازل بكم إن عاجلاً أو آجلاً، وبعد موتكم سترجعون إلى عالم السر والعلانية، فيجازيكم بما تستحقون، وهذا معنى ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ أي يوم البعث والنشور ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ترجعون بعد الموت واستكمال الآجال إلى العالم بما غاب وما حضر، فيخبركم يوم القيامة بأعمالكم وأقوالكم، خيرها وشرها ويجازيكم عليها.

عشرة مباحث في يوم الجمعة

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾

يأمر الله عباده المؤمنين بالمبادرة إلى صلاة الجمعة حين يُنادى لها، وأن يهتموا بذلك ويجعلوها من أهم الأمور، وأن يتركوا أعمالهم من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذلك ويمضوا إليها، فإن في هذا خير لهم وأبقى من أعمالهم الدنيوية، وليس المراد بالسعي إليها : العدو وسُرعة المشي، وإنما المراد : المبادرة إليها والاهتمام بها.

هذا: وكان اليهود يفتخرون على المسلمين بيوم السبت، حيث يتفرغون فيه للعبادة ويمتنعون من العمل فيه، فشرع الله للمسلمين يوم الجمعة، وقد ثبت أن الأمم قبلنا أُمروا بيوم الجمعة فضلُّوا عنه.

واختار اليهود يوم السبت لأنه لم يقع فيه خلْق، واختار النصارى يوم الأحد، الذي ابتُدىء فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الخلق.

ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: **«نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، بَيْد أنهم أُوتوا الكتاب مِنْ قبلنا، وأُوتيناه مِنْ بعدِهم ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد»**[١].

والمراد: نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقْضي بينهم قبل الخلائق.

والآيات الثلاث الأخيرة من سورة الجمعة هي الغرض الأساس من السورة، وما قبلها من الآيات توطئة ومقدمة لهذا الغرض. وفي ذلك مباحث:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٥٥) والبخاري (٢٣٨، ٨٧٦) والصحيحة للألباني (٧٠٣٦،٦٦٢٤) والمسند (٧٣١٠) باسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٧٨٤) والنسائي في الكبرى (١٦٦٦،١٦٦٥) وأبو يعلى (٦٢٦٩) والحميدي (٩٥٤).

أولاً: أيام الأسبوع:

ويوم الجمعة هو اليوم السابع من أيام الأسبوع، وهو عيد المسلمين الأسبوعي، وقد أمر الله تعالى عباده باستئناف العمل والانتشار في الأرض سعياً على طلب الرزق، عقب الفراغ من صلاة الجمعة، فترك العمل في يوم الجمعة كله ليس أمرًا شرعياً.

وأيام الأسبوع عند العرب قديما كانت تُسمى هكذا: أوَّل، أهْوَن، جُبَار، دُبار، مُؤْيس، عَرُوبَة، شِيار.

ثم أحدثوا أسماء لهذه الأيام هي: الأحد، الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، وهي التي تسمى عَروبة، والسبت، معناه القطع، واليهود يقطعون فيه العمل فيمتنعون عنه تديُّناً، وقد شاعت هذه الأسماء عند العرب[1].

وقد اختص المسلمون بالاجتماع في يوم الجمعة، وشرع الله لهم فيه صلاة الجمعة، والاستماع إلى خطبة الجمعة لتذكيرهم بفضل الله تعالى ونعمه عليهم.

واختص النصارى بيوم الأحد لأنهم زعموا أن عيسى عليه السلام قام من قبره في يوم الأحد، فأمر قسطنطين سلطان الروم سنة ٣٢١م بجعل يوم الأحد عوضًا عن يوم السبت، وصار هذا ديناً لهم، بأمر أحبارهم[2]، وما أنزل الله به من سلطان.

وكأن الله تعالى أمر عباده أن يجتمعوا في يوم من أيام الأسبوع، ليشكروه على نعمه، وعلى عظيم فضله، فكان لأهل كلِّ ملَّة يومًا يجتمعون فيه لهذا، فلليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة.

ثانياً: أول جمعة في الإسلام:

كانت العرب تسمى يوم الجمعة، يوم (عَرُوبة) ومعناه: الرحمة، وأول من سمَّاها جمعة: (كعب بن لُؤي) جد أبي قصي.

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٢١/٢٨)، (٢٢٢)

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٢٢/٢٨)

وسبب ذلك: أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبي ﷺ إليها، فقالت الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فلْنجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة، فاجتمعوا إلى (أسعد بن زُرارة) فصلّى بهم يومئذ ركعتين، وذكّرهم، فسُمّيت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاة، فتغَدوا وتعَشوا منها، فهي أول جمعة كانت في الإسلام[١] ، وبهذا يُعلم أن الأنصار هم الذين سمّوها (الجمعة) وأن الإسلام أقر ذلك، وأن صلاة الجمعة كانت مشروعة من أول أيام الهجرة، وأن الصحابة قد صلُّوها في المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إليهم.

روى البيهقي عن الزهري أن مُصعب بن عمير ﷺ، كان أول من جمّع الجمعة بالمدينة، قبل أن يَقْدُمها النبي ﷺ فعن أبي مسعود الأنصاري قال: أول من قدم من المهاجرين بالمدينة مصعب بن عمير، وهو أول من جمّع بها يوم الجمعة، جمّع بهم قبل أن يَقْدَم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلا[٢]، فأول من صلاها من الأنصار سعد ابن زرارة ، وأول من صلاها من المهاجرين مصب بن عمير .

ويتعين أن يكون النبي ﷺ قد بلغه ذلك، وأن الأنصار بلغهم حديث فضل يوم الجمعة، وأنه يوم المسلمين.

ثالثًا: أول جمعة صلاها النبي ﷺ:

وأول جمعة صلاها النبي ﷺ كانت في خامس يوم وصلَ فيه إلى المدينة مهاجرًا، فقد كان قدومه إليها ﷺ في يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وكان أول وصوله إلى قباء، وفي يوم الجمعة خرج إلى المدينة فأدركه وقت الجمعة في وادٍ لبني

---

(١) تفسير الألوسي (٢٨/١٠٠) وتفسير أبي السعود (٨/٢٠٦) وفتح الباري (٢/٢٩٤) ورواه بنحوه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين (٥١٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٩٤).

سالم بن عوف، وكان لهم فيه مسجد، فجمع الناس، وصلى بهم الجمعة، وخطب فيهم أول خطبة بالمدينة[١].

فدل هذا على أن صلاة الجمعة كانت مشروعة قبل الهجرة، لأن النبي ﷺ أدركه وقتها وهو في طريقه إلى المدينة فصلاها، ثم صلى الجمعة الثانية في مسجده بالمدينة، وهي أول جمعة أقيمت في المسجد النبوي، وثاني جمعة صلاها الرسول ﷺ بالمدينة.

رابعاً: أول جمعة أقيمت خارج المدينة:

وكان أول جمعة صُلّيت في بلاد الإسلام في مسجد (جُؤَاثَا) في الإحساء، وكانت تسمى البحرين، وكانت لعبد القيس[٢] وكان أهل (جُؤَاثا) قد ثبتُوا على الإسلام، لَمّا ارتدّ بعض العرب بعد وفاة النبي ﷺ.

خامساً: في فضل يوم الجمعة: ومما ورد في ذلك ما جاء:

١-عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»**[٣].

٢-وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُهبط من الجنة، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مُصيخة -أي مُصْغية لنفخة الساعة -يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الإنس والجن، وفيها ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه»**[٤].

---

(١) ذكر نصها القرطبي في تفسيره وقد أخرجه الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن ابن شهاب.

(٢) ينظر حديث أبي هريرة في سنن النسائي الكبرى (١٦٦٧).

(٣) صحيح مسلم (٢/٨٥٤،٨٥٥) والمسند (٩٢٠٧،١٠٩٧٠) وإسناده صحيح، والترمذي (٤٨٨) والبيهقي في الشعب (٢٩٧٠) والنسائي في الكبرى (١٦٦٢).

(٤) رواه مالك في الموطأ بسند صحيح (١/١٠٨) وقال الترمذي (٢/٣٦٣) هذا حديث صحيح.

٣-وعن أوس بن أبي أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ**»، قال: قالوا: يا رسول الله، كيف تُعرَض صلاتُنا عليك وقد أَرَمْت؟ يقولون: بَلَيْت، فقال: «**إن الله عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[1].

٤-وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسّ الحصا فقد لغا**»[2].

٥-وفي صحيح البخاري وغيره عن عَبَايَةَ بنِ رِفاعة قال: أدركني أبوعيسى وأنا أذهب إلى الجمعة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اغبرّتْ قدماه في سبيل الله، حَرَّمه الله على النار**»[3].

٦-وفي البخاري وغيره عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طُهر، ويدّهن من دُهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج، فلا يُفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى**»[4].

---

(١) أبوداود بسند صحيح برقم (١٠٤٧) وفي صحيح أبي داود (٩٦٢) وابن ماجة برقم (١٠٨٥) عن شداد بن أوس، وصححه الألباني (١٧٩/١) برقم (٨٨٩) والمسند ٨/٤ (١٦١٦٢) بإسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح وابن أبي شيبة (١٤٩/٢) والحاكم (٢٧٨/١) وصحيح سنن أبي داود (٩٢٥) والطبراني في الكبير (٥٨٩) وابن خزيمة (١٧٣٣).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٥٧).

(٣) صحيح البخاري برقم (٩٠٧)، وانظر (٢٨١١).

(٤) صحيح البخاري برقم (٨٨٣،٩١٠) والمسند (٢٣٧٢٥،٢٣٧١٠) وإسناد صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات، وابن أبي شيبة (١٥٢/٢) والطبراني في الكبير (٦١٩٠) والبغوي في شرح السنة (١٠٥٨).

٧-وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبوالقاسم ﷺ: «في يوم الجمعة ساعة، لا يوافقها مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله خيرا، إلا أعطاه، وقال بيده قلنا: يقلّلها، يزهّدها»[(١)].

٨-وعن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيرًا إلا أعطاه الله إياه، وهي بعد العصر»[(٢)].

٩-عن أبي لبابة بن عبد المنذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه خمس خلال: خلق الله فيه آدم، وأهبطه فيه إلى الأرض، وفيه توفّى الله آدم، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئا إلا أعطاه الله، ما لم يسأل حراما، وفيه تقوم الساعة، ما من ملك ولا أرض ولا سماء، ولا رياح، ولا جبال ولا بحر، إلا هُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة»[(٣)].

١٠- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «إن في يوم الجمعة لساعة ما دعا الله فيها عبد مسلم بشيء إلا استجاب له»[(٤)].

١١-وعن هلال بن يَسَاف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه» فقال رجل: يا رسول الله، ماذا أسأل؟ قال: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[(٥)].

سادساً: فضل الاغتسال في يوم الجمعة:

ويستحب للمسلم أن يغتسل قبل صلاة الجمعة بنية غسل الجمعة:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٢٩٤،٦٤٠٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥٢).

(٢) المسند (٧٦٨٨) حديث صحيح بشواهده، (محققوه) ومصنف عبد الرزاق (٥٥٨٤)، والطبراني في الدعاء (١٧٩) بدون (وهي بعد العصر)، والبزار (٦١٩)، وموطأ مالك (١/ ١٠٩).

(٣) ابن أبي شيبة (٢/١٥٠) والمسند (١٥٥٤٨) وأبوالشيخ في العظمة (١١٩١) وصحيح سنن ابن ماجة (٨٨٨).

(٤) ابن أبي شيبة (٢/١٤٩) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٣٣) الحديث صحيح بمجموع طرقه، وانظر البخاري (٩٣٥) ومسلم (٨٥٢).

(٥) السلسلة الصحيحة (١٥٢٣) وابن أبي شيبة (١٠/٢٠٧).

١-فقد صح عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»**[(١)].

٢-وعن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«غُسْل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستنّ وأن يمس طيبا إن وَجد»**[(٢)].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده»**[(٣)].

وحمل بعض أهل العلم الأمر على الوجوب، إذ لا صارف يصرفه عن ذلك، ومن اغتسل يوم الجمعة للنظافة دون أن ينوي غُسل الجمعة، فلا ثواب له.

كما يسن للمسلم أن يتطيب ويتسوك لصلاة الجمعة، كما في حديث أبي سعيد السابق.

سابعًا: ويسن للمسلم أن يلبس أحسن ثيابه كما جاء:

١- عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: **«ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»**[(٤)].

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار فقال: **«ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته، سوى ثوبي مهنته»**[(٥)].

ثامناً: فضل البكور إلى الجمعة:

قالوا: أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وأن أهل الجنة يجلسون في الجنة، للنظر إلى وجه الله الكريم، على قدر تبكيرهم إلى صلاة الجمعة:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٨٧٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٧٩،٨٨٠) وهذا لفظه وصحيح مسلم برقم (٨٤٦).

(٣) صحيح البخاري برقم (٨٩٧) وصحيح مسلم برقم (٨٤٩).

(٤) أبوداود برقم (١٠٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (٨٥٠).

(٥) سنن ابن ماجة برقم (١٠٩٦) قال البوصيري في الزوائد (٣٥٦/١١) هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

١-عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدْر تَزواحهم إلى الجمُعات، الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، وما رابع أربعة من الله ببعيد».

أي: ولما وجد عبد الله بن مسعود ﷺ ثلاثة قد سبقوهُ إلى المسجد يوم الجمعة أخذ يؤنب نفسه، ويقول: رابع أربعة، ثم عزّى نفسه قائلاً: وما رابع أربعة من الله ببعيد.

٢- وعن أوس بن أبي أوس الثقفي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، ويكّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع، ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة أجرُ سنة: صيامُها وقيامُها»[١].

٣-قال أبو هريرة ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قلت لصاحبك: أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت»[٢].

٤-وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطلع الشمس ولا تغرب، على يوم، أفضل من يوم الجمعة، وما من دابة إلا تفزع ليوم الجمعة، إلا هذين الثقلين من الجن والإنس، على كل باب من أبواب المسجد ملكان يكتُبان الأول فالأول، فكَرَجُلٍ قدّم بدنة، وكَرَجل قدّم بقرة، وكرجُل قدّم شاة، وكرجُل قدّم طائرًا، وكرجُل قدّم بيضة، فإذا قعد الإمام طويت الصحف»[٣].

---

(١) المسند (٤/١٠٤) برقم (١٦١٧٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وبرقم (١٦١٦١) وأبوداود برقم (٣٤٥) والترمذي برقم (٤٩٦) وسنن النسائي (٣/٩٥) وابن ماجة برقم (١٠٨٧) والنسائي في الكبرى (١٦٩٧) وابن حبان (٢٧٨١) وابن خزيمة (١٧٥٨) وعبد الرزاق (٥٥٧٠) والطبراني في الأوسط (١٧٧٤).

(٢) المسند (٧٦٨٦) قال محققوه : هذا الحديث له إسنادان : الأول صحيح على شرط مسلم، والإسناد الثاني على شرط الشيخين، ويجمع الإسنادين معًا حديث رقم (٧٧٦٤) وذلك لأن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ من رجال مسلم، وهو في إسناد الحديث الأول، والحديث في مصنف عبد الرزاق (٥٤١٤) وابن خزيمة (١٨٠٥) وأبي يعلى (٥٨٤٦)، وأخرجه مسلم (٨٥١) والبخاري (٩٣٤) والترمذي (٥١٢).

(٣) المسند (٢/٢٧٢) برقم (٧٦٨٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وصحيح ابن خزيمة برقم (١٧٢٧) بإسناد صحيح، ومصنف عبد الرزاق (٥٥٦٣) وعبد بن حميد (١٤٤٣).

٥-وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح، فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[(١)].

والمراد بغسل الجنابة: أنه اغتسل للجمعة كغسله للجنابة، وهذه الساعات الخمس، إذا عُدَّتْ من بعد صلاة الضحى، أي من الساعة الثامنة مثلاً إلى الساعة الثانية عشرة فهي خمس ساعات فعلا من الساعات المعروفة اليوم -كما أرى -، وفيها مجال للتنافس والتسابق على هذا الأجر، فلا يستوي من تصدّق ببدنة، بمن يتصدق ببيضة.

ثم إن الأجر المعدّ على البكور لصلاة الجمعة، وكون العبد ضمن العدد الذي تنعقد به الجمعة، مقيد بصعود الإمام إلى المنبر، فإذا حضر العبد بعد أن يصعد الإمام إلى المنبر، فإنه يكون قد جاء بعد أن طُويت الصحف، وجفّت الأقلام، وجلست الملائكة يستمعون الخطبة!

ولا ينطبق عليه غفران صغائر الذنوب ما بين الجمعتين كما جاء في الحديث.

وإن صلى الجمعة دون أن يستمع إلى الخطبتين، لا يُعدّ من أهل الجمعة، لأن الخطبتين يقومان مقام الركعتين في صلاة الظهر.

تاسعًا: عقوبة من ترك صلاة الجمعة:

١-عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن العباس وأبي هريرة ﷺ أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول على منبره: «لينتهينّ أقوام عن ودْعهم الجُمُعات، أو ليختمنّ الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٨٨١) وصحيح مسلم برقم (٨٥٠) والمسند (٩٩٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٧٧٥) وأبوداود (٣٥١) وابن حبان (٢٧٧٥) والترمذي (٤٩٩) والنسائي في الكبرى (١٧٠٨) والموطأ (١/ ١٠١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٦٥) وابن أبي شيبة (١٥٤/٢) والطيالسي (٢٠٦٤،٢٨٥٨) والمسند (٢١٣٢،٢٢٩٠) حديث صحيح ورجاله ثقات والنسائي (١٣٦٩) وفي الكبرى (١٦٥٩) وابن ماجة (٩٧٤) وابن حبان (٢٧٨٥) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (٣١٨٦،٣١٨٧).

٢-وعن أبي الجعْد الضمْري - وكان له صحبة- أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك ثلاث جُمع تهاوُناً طبع الله على قلبه»[1].

٣-وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال لقوم يتخلّفُون عن الجمعة: «هممتُ أن آمر رجُلاً أن يصلي بالناس، ثم أحرق على رجال يتخلّفون عن الجمعة بيوتهم».

عاشراً: من لا تجب عليهم الجمعة:

ولا تجب الجمعة على المرأة، ولا على الصبي، ولا على المسافر، ولا على المريض، وإن صلاها أحدهم أجزأته عن صلاة الظهر، وصحت منه، ومن حال بينه وبين المسجد وحَلٌ وطين ومَطر فإنه يُعذر.

٤-فقد جاء عن ابن عباس ﷺ أنه خطب في يوم ذي رَدْغ، فلما بلغ المؤذن حي الصلاة قال: قل: الصلاة في الرحال، فنظر بعضهم إلى بعض، كأنهم أنكروا ذلك، فقال: كأنكم أنكرتم هذا؟ إنّ هذا فعلَه من هو خير مني، يعني النبي ﷺ وإنها عزمة، وإني كرهت أن أحرجكم»[2]، أي فتمشون في الطين والدحض والزلق.

ولا يجوز للرجل أن يُنشيء سفرًا غير ضروري يوم الجمعة، يتعارض مع صلاتها.

مشروعية الأذان في الإسلام:

أولاً: شُرع الأذان في المدينة بعد الهجرة:

١-في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر ﷺ قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة، يجتمعون فيتحيّنُون الصلاة، وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذُوا ناقُوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قرناً مثل قرن اليهود،

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/١٥٤) والمسند (١٥٤٩٨) وابن حبان (٢٥٨) قال محققوا المسند: إسناده حسن وأخرجه أبوداود (١٠٥٢) والترمذي (٥٠٠) وابن خزيمة (١٨٥٨) والنسائي في الكبرى (١٦٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٦١٦،٦٦٨) وصحيح مسلم (٦٩٩).

فقال عمر: أوَلا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال، قم فناد بالصلاة»[1].

دون أن يعين له ألفاظًا.

٢-وفي الموطأ أن النبي ﷺ كان قد أراد أن يتخذ خشبتيْن يُضْرَبُ بهما ليجتمع الناس للصلاة، فرآى عبد الله بن زيد الأنصاري خشبتين في النوم فقال: إن هاتين لنَحْوٌ مما يريد رسول الله ﷺ فقيل: أفلا تؤذِّنُون بالصلاة؟ فأتى رسول الله ﷺ حين استيقظ، فذكر له ذلك، فأمر رسول الله ﷺ بالأذان[2] دون تعيين للألفاظ كذلك.

٣-وفي حديث عبد الله بن زيد عند أبي داود وغيره أنه: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمل ليضرب به للناس لجميع الصلوات، طاف بي وأنا نائم، رجل يحمل ناقوسًا في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلّك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، فقال: تقول:

(الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

ثم استأخر مني غير ببعيد، ثم قال: تقول إذا أقمت للصلاة: (الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

فلما أصبحتُ أتيت النبي ﷺ فأخبرتُه بما رأيت، فقال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقُم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذِّن به، فإنه أندى صوتا منك»، فقمتُ مع بلال،

(١) صحيح البخاري برقم (٦٠٤) ومسلم برقم (٣٧٧) وابن ماجة (٧٠٧) والترمذي (١٩٠) والمسند (٦٣٥٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من رواية أبي مصعب الزهري المدني برقم (١٧٩).

فجعلتُ ألقيه عليه، ويؤذّن به، فسمع عمر وهو في بيته، فخرج يجرُّ رداءه ويقول: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيتُ ما رأى، فقال ﷺ: «فلله الحمد»[1].

ورؤيا عبد الله في حد ذاتها لا تجعل الأذان مشروعًا، وإنما مشروعيته جاءت من إقرار النبي ﷺ بهذه الألفاظ، ومن قوله لعبد الله بن زيد (ولقد أراك الله حقًّا) ومن قوله لعمر «فلله الحمد» فهي سنة تقريرية.

٤-ثم إن النبي ﷺ علّم أبا محذورة هذا الأذان، وفيه: أنه سمع مؤذن النبي ﷺ فأخذ هو ونَفَرٌ معه يحاكُوه استهزاءً، فسمعهم النبي ﷺ فأحضرهم، وكان ذلك في يوم حنين، وقال لهم: أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع، فأشاروا إلى أبي محذورة، فحبسه وأرسلهم، ثم قال له: قم فأذّن بالصلاة فعلّمه[2] فصار ذلك سنة ثابتة.

٥-وفي مراسيل أبي داود أن الوحي قد جاء بالأذان.

ولما أخبر عمر النبي ﷺ بما رأى قال له: سبقك بذلك الوحي.

ثانياً: ومما يتعلق بالأذان من أحكام:

١-أنه من أفضل الأعمال (والمؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة) كما جاء ذلك في صحيح مسلم عن معاوية[3].

والمؤذن يشهد له كل من سمع صوته من شجر أو حجر أو مدر، كما في حديث أبي صعصعة أن أبا سعيد قال له: أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك،

---

(١) رواه أبوداود برقم (٤٩٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٩) وهو في المسند (١٦٤٧٨) بإسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيحين، وأخرجه ابن خزيمة (٣٧١) وابن حبان (١٦٧٩) وابن ماجه (٧١٦) والترمذي (١٨٩) وقال : حديث حسن صحيح وأخرجهم غيرهم.

(٢) ينظر صحيح مسلم برقم (٣٧٩) وصحيح سنن أبي داود (٤٧٢-٤٧٧) وسنن النسائي الكبرى (١٦٠٨،١٦٠٩) والحديث بطوله في المسند (١٥٣٨٠).

(٣) جاء هذا في حديث معاوية بن أبي سفيان في صحيح مسلم (٣٨٧).

فأذّنت للصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة، سمعتُه من رسول الله ﷺ [(١)].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : **«ولو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول لاستهموا عليهما»**[(٢)].

٢- و(الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين).

ويؤم الناس أقرؤهم لكتاب الله، وأعلمهم به، وأكثرهم عملا بما فيه، ويؤذّن لهم خيارهم.

٣- وكان النبي ﷺ يُغير على الناس إذا طلَع الفجر، فيستمع إلى الأذان، أوّلاً، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر، قال ﷺ: **«على الفطرة»**، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال ﷺ: **«خرجْت من النار»** فنظر فإذا هو راعي مِعْزى[(٣)].

ألفاظ الإقامة : وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أمر بلالاً أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة[(٤)].

وجاءت روايات بمساواة ألفاظ الإقامة لألفاظ الأذان، كما هو عند الحنفية ودليلهم في ذلك حديث أبي محذورة أن النبي ﷺ قال: **«الأذان تسعة عشرة كلمة، والإقامة سبعة عشرة كلمة، ثم عددها»**[(٥)].

وفي حديث الروقي عن أبي محذورة في آخره (وعلمني الإقامة مرتين مرتين)[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩،٣٢٩٦،٣٤٨٠) ومالك من رواية أبي مصعب برقم (١٨٣) والنسائي.

(٢) ينظر : الموطأ من رواية أبي مصعب برقم (١٨١) عن أبي هريرة وصحيح البخاري برقم (٦١٥) وصحيح مسلم برقم (٤٣٧).

(٣) انظر: صحيح البخاري برقم (٦١٠) وصحيح مسلم برقم (٣٨٢) واللفظ له.

(٤) مسلم (٣٧٨) والبخاري (٦٠٥،٦٠٧) ومسند أحمد (١٢٠٠١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن خزيمة (٣٦٦) وعبد الرزاق (١٧٩٤) والبغوي (٤٠٥) وابن حبان (١٦٧٥) وغيرهم.

(٥) رواه النسائي في الكبرى (٦٣٠) وقال الألباني : حسن صحيح، وسنن النسائي.

(٦) صحيح ابن خزيمة (٣٨٥) باب التثويب في أذان الصبح، وذكر يزيد بن سنان الإقامة مرتين.

ودليل الحنابلة ومن وافقهم: حديث أنس بن مالك ﷺ «... **فأمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة**»[1].

وفي حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: كان الأذان على عهد رسول الله مرتين، والإقامة مرة، غير أنه كان يقول: (**قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة**)[2].

ترجيع ألفاظ الأذان :

وجاء ترجيع الأذان بصوت منخفض في قول النبي ﷺ لأبي محذورة «**ثم ارجع**»، ويمد المؤذن صوته بالشهادتين، جاء ذلك بسند صحيح وكان بعد فتح مكة[3].

قال السندي: قوله : ثم أرجع، صريح في الترجيع، وقد ثبت الترجيع في أذان أبي محذورة ثبوتًا لا مردّ له، كما ثبت عدمه في أذان بلال، فالوجه جواز الوجهين، والأقرب الترجيع إن كان المؤذن جديدَ الإسلام، وتركه إن كان قديمَ الإسلام، كأبي محذورة وبلال.

التثويب في صلاة الفجر:

وَثبت التثويب من حديث بلال وأبي محذورة في أذان الفجر فيقول المؤذن (**الصلاة خير من النوم**) بعد الحيْعلتينْ وهو خاص بالفجر[4].

من البدع في الأذان:

وألفاظ الأذان ثابتة في الصحيحين والسنن وليس فيها (**حي على خير العمل**) وكان ابن عمر يقولـها أحيانًا، وليس في ألفاظ الأذان (**أشهد أن عليًا ولي الله**).

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٨).

(٢) عند أحمد في المسند (٥٥٦٩) وهو حديث صحيح وإسناد قوي بزيادة في ألفاظه، وأبوداود (٥١٠،٥١١) والنسائي في الكبرى (١٦٠٥) وابن حبان (١٦٧٤) والبغوي (٤٠٦) والطيالسى (٩٢٣).

(٣) النسائي في الكبرى ١٦٢٣ والمسند ١٥٣٧٩ وشرح مشكل الآثار للطحاوي ٦٠٨٠ والحديث صحيح.

(٤) انظر حديث أبي محذورة بطوله في مسند أحمد برقم (١٥٣٧٦، ١٥٣٧٨، ١٥٣٧٩) وهو حديث صحيح بطرقه، ومصنف عبد الرزاق (١٧٧٩)، وأبو داود (٥١٠) وابن خزيمة (٣٨٥).

ومن البدع: الصلاة على النبي ﷺ في نهاية الأذان، بصيغة أو بأخرى.

حكم الأذان:

والأذان فرض كفاية، فإذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين، وقد يتعين على الإنسان إذا لم يوجد غيره، وليس على النساء أذان ولا إقامة.

ثالثاً: الأذان لصلاة الجمعة:

المراد بأذان الجمعة: هو الأذان إذا جلس الإمام على المنبر، إذْ لم يكن في عهد النبي ﷺ أذان سواه، أما الأذان الذي قبله فقد أراد به عثمان ﷺ تنبيه أهل السوق حتى يستعدوا ويذهبوا إلى صلاة الجمعة، إذ لا يوجد ساعات ولا تقاويم ولا وسائل إعلام، وكان ذلك بمحضَر من الصحابة لـمّا اتسعت المدينة، فأراد ﷺ أن يبلغ الأذان أرجاءها، إذ لم يكن وقتها مكبرات للصوت، وقد ابتدع بعض الناس في بعض القرى أذاناً ثالثاً قبل هذين الأذانين لتنبيه الناس حتى يستعدوا لصلاة الجمعة:

عن السائب بن يزيد ﷺ أنه قال: كان النداء يوم الجمعة: أوَّلُه، إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان زمن عثمان رضي الله عنه وكثُر الناس، زاد النداء الثالث على الزّوْراء، فثبت الأمر على ذلك[١].

قلت: إنما أراد عثمان إعلام أهل السوق بقرب وقت صلاة الجمعة.

وهذا الأذان نُقل من الزوراء إلى باب المسجد، ثم من فوق المآذن، وأخيرًا من مكبرات الصوت.

والمراد بالنداء الأول، هو أذان الظهر، الذي كان ينادَى إليه والنبي ﷺ على المنبر، أي بين يدي الخطيب.

والمراد بالأذان الثاني: الإقامة للصلاة، فيقال لها أيضاً: أذان.

---

(١) صحيح البخاري برقم: ٩١٢،٩١٣،٩١٥،٩١٦

أما الأذان الذي حدث في عهد عثمان رضي الله عنه، فكان لما كثُر الناس بالمدينة، فجعل المؤذن يؤذن أذاناً قبل الأذان الذي بين يدي الخطيب، وقبل الإقامة للصلاة، لإعلام الناس بدخول الوقت، وكان هذا الأذان يؤذن له في مكان يقال له : الزّوراء، وهو مكان تجمع الناس بسوق المدينة بمكان مرتفع عند قبر مالك بن سنان، مكان المسجد المعروف الآن بمسجد فاطمة، على بُعد مئتين وخمسين مترا من المسجد النبوي.

والأذان الذي أحدثه عثمان رضي الله عنه، هو الأول من حيث الترتيب، والأذان الذي بين يدي الخطيب هو الثاني، والإقامة هي الأذان الثالث، فيكون المقصود من الأذان الذي أَمر به عثمان ﷺ هو إعلام الناس بالوقت وذهابهم للمسجد، وهو اجتهاد منه ﷺ.

وجاء في بعض الروايات أنه الأذان الثاني وليس بالثالث، فقد أخرج البخاري عن ابن شهاب أن السائب بن يزيد أخبره أن التأذين الثاني يوم الجمعة، أمر به عثمان بن عفان ﷺ حين كثر أهل المسجد، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام[1].

قلت: ولعل هذا الحديث لم يُنظر فيه إلى الإقامة، واعتبر أذان الزوراء هو الأول وأذان جلوس الإمام على المنبر هو الثاني.

ولما كان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، لم يؤذن للجمعة إلا أذاناً واحداً على الأصل، كما كان في عهد النبي ﷺ فلعل بعض خلفاء بني أمية أرجعه بعد ذلك[2].

قلت: وإذا كان الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا فإن وسائل الإعلام المختلفة، ومتابعة الوقت بالدقيقة والثانية في الحضر والبدْو، في وقتنا الحاضر في الساعات والتقاويم، جعل الناس يعتمدون عليها في معرفة الوقت، فضلاً على مكبرات الصوت، وكذا الأذان الذي يُرفع من أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، فالتنبيه حاصل بطرق متعددة والتقصير إنما هو من بعض الناس.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٩١٥).

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٢٤).

ومَنْ صلى ركعتين بين الأذان الأول والأذان الذي بين يدي الخطيب، فهو من باب (بين كل أذانين صلاة قالها ﷺ ثلاثا ثم قال في الثالثة: لمن شاء)[1] ومن لم يفعلها فهو على الأصل الأول.

ولنرجع إلى تفسير الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يا معشر المؤمنين المصدقين بالله ورسوله ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة، ويغلمكم بحلول وقتها ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي اذهبوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، ويادروا إليها واهتموا بها ، واجعلوها أهم ما يشغلكم.

والسعي هو المشي المتوسط إلى الصلاة بسكينة ووقار دون إفراط ولا تفريط، كما في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»[2] فهو سعي القلوب والنية والخشوع، وليس المراد بالسعي إلى صلاة الجمعة : السعي الحثيث وسرعة المشي، بل المراد به: المبادرة إليها والاهتمام بها وألا يشغلهم شاغل عنها، ولذا قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أي اتركوا البيع والشراء، وجميع ما يشغلكم عن الصلاة إذا نودي لها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرتكم به من السعي إلى مرضاة الله، وترك البيع والشراء والشواغل عن ذكر الله تعالى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع من تجارات الدنيا وكل ما فيها، لما في الصلاة من المثوبة وغفران الذنوب.

فـ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ مصالح أنفسكم، وأن ما عند الله خير وأبقى فافعلوا ذلك، واتركوا أعمال الدنيا واسعوا إلى مرضاة الله، فهذا هو شأن أهل الفهم الصحيح والعقل السليم.

---

(١) من حديث عبد الله بن مغفل المزني في البخاري (٦٢٧) ومسلم (٨٣٨) وهذا لفظه وأخرجه أبوداود (١٢٨٣) وابن ماجة (١١٦٢) والترمذي (١٨٥) والمسند (١٦٧٩٠) باسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (١٥٥٩) وابن خزيمة (١٢٨٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٠٢) وصحيح البخاري برقم(٦٣٦،٩٠٨).

لَيْسَ لِعُطْلَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَصْلٌ فِي الإِسْلَامِ

١٠- ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

أي أن ترك البيع والشراء في يوم الجمعة أمر مؤقت مدة الخطبة والصلاة، ثم إن المسلم له في بقية النهار - بعد صلاة الجمعة وقبل النداء لها - وقتاً طويلاً يبتاع فيه ويشتري، ويطلب رزق الله تعالى، ويؤدي عمله المشروع، على أن يكون ذلك بعد الاستماع إلى خطبة الجمعة وأداء الصلاة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ أي إذا سمعتم الخطبتين، وفرغْتم من أداء الصلاة، وذكرْتُم الله تعالى بعدها ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأداء أعمالكم التي تركتموها عند النداء للصلاة والخطبة، واذهبوا لمكاسبكم وتجاركم ونحوها ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي اطلبوا رزق الله تعالى بسعيكم في مناكبها، فإن الرزق بيد الله، وهو سبحانه المنعم المتفضل على عباده، الذي لا يُضيّع سعْي من أخذ بالأسباب وبذل جهده فيما يسعى إليه.

وهذا الأمر الوارد في الآية للإباحة وليس للوجوب، لأنه وارد بعد حظر، وهو كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ... ﴾[المائدة:٢] على ألا يشغلكم هذا السعي عن ذكر الله تعالى والإكثار منه، وفي مقدمة ذلك عندما ينادي المنادي لأداء فرض من فرائض الله، فإن في الإكثار من ذكر الله تعالى، والمواظبة على أداء الفرائض في أوقاتها، والإكثار من النوافل، فيها الفلاح كل الفلاح، وهذا معنى ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي في جميع أحوالكم، في تقلباتكم وسكناتكم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، ولما كان الاشتغال بأمور الدنيا مظنة الغفلة عن ذكر الله، فقد أمر سبحانه بالإكثار من ذكره، وألا يشغل العبد السعي على المعاش عن ذكر الله؛ لأن فيه الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، ولذا كان ختام الآية بقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ وتفوزون بخير الدنيا والآخرة عندما تكثرون من ذكر الله تعالى وطاعته.

ومن أكثر من ذكر الله تعالى بلسانه، ولكنه لم يقُم بأداء الفرائض، ولم يجتنب المحرمات، فإن ذكره هذا تمثيل ودَجَل، لأنه بدون تطبيق عملي، وهو إيهام وتضليل للناس بالصلاح.

وكان عمران بن مالك إذا صلى الجمعة، انصرف فوقف على باب المسجد وقال: اللهم أجبتُ دعوتك، وصلّيتُ فريضتك، وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين.

مَشْرُوعِيَّةُ الْخُطْبَةِ قَبْلَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ

١١ -﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

اسباب النزول:

١- عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً، إذْ قدمتْ عير إلى المدينة، فابْتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم أحد، إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم، وأبوبكر وعمر، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾[1].

٢- وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﷺ قال: جاءت عير عبد الرحمن بن عوف، تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعة، بعضهم يريد أن يشتري، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً**»[2].

٣- وعن مجاهد ومقاتل: كان النبي ﷺ يخطب، فقَدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة، فتلقّاه أهله بالدفوف، فخرج الناس[3].

---

(١) البخاري برقم (٤٨٩٩) ومسلم برقم (٨٦٣) والترمذي برقم (٣٣١١) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي برقم (٦١٣) وابن أبي شيبة (١١٣/٢) وأحمد في المسند (١٤٣٥٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبيهقي (١٨١/٣) والطبري (٦٤٧/٢٢).

(٢) تفسير الشوكاني(٢٢٦/٥) وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٢٢٨/١٣).

٤- وقال الحسن وأبومالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء أسعار، فقدِم دِحية بن خليفة الكلبي بتجارة: زيت وطعام من الشام، والنبي ﷺ يخطب، فلما رأوْهُ بالبقيع، قاموا إليه خشْية أن يُسبَقوا إليه، فلم يبق مع النبي ﷺ إلا رهط فيهم أبوبكر وعمر، فنزلت الآية، فقال النبي ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده: لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي ناراً»**[1].

٥- وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن أباه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحّم على أسعد بن زُرارة، فقلت له: يا أبتاه، أرأيتَ استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان للجمعة، ما هو؟ قال: لأنه أول من جمّع بنا في نقيع يقال له: نقيع الخضمات - موضع من أودية الحجاز يدفع السيل إلى المدينة- من حَرّة بني بياضة، قلت: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعين رجلا)[2].

٦- قال مقاتل: وكانت تجارة الشام إذا قدمت لم تبقَ عاتق بالمدينة إلا أتتْه، وكان (دحية) يقدُم بكل ما يُحتاج إليه من دقيق وبر وزيت وغيره، ويُنزل بها عند أحجار الزيت، وهو مكان في سوق المدينة، ثم يُضرب بالطبل، لإعلام الناس بحضوره، فخرج إليه الناس ليبتاعوا منه، فقدم دحية ذات جمعة، وكان ذلك قبل أن يُسْلم، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس، ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلا وامرأة، فقال ﷺ كم بقي في المسجد؟ فقالوا: اثنا عشر رجلا وامرأة، فقال ﷺ: **«لولا هؤلاء لسُوّمتْ بهم الحجارة من السماء»** وأنزل الله الآية[3].

ثم إن الله تعالى وبَّخَ الذين انفضّوا عن نبيه وهو يخطب، وجاء هذا التوبيخ عن طريق صَرْفِ الخِطاب عنهم في السياق، والالتفات إلى مخاطبة النبي ﷺ، حِرْماناً لهم بنقل الكلام من أسلوب الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور (٤٨٦/١٤) ومسند أبي يعلى (٤٦٨/٣).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٩٤٤) بإسناد حسن، وسنن أبي داود (٩٨٠)، وابن ماجة (١٠٨٢)، وصحيح ابن ماجه (٨٨٦) بإسناد حسن، وابن حبان (٧٠١٣) والبيهقي (١٧٦/٣).

(٣) تفسير الخازن (٢٦٩/٤) والبحر المحيط (٢٦٨/٨).

وفي هذا بيان أن من الناس من يؤثر الدنيا على الآخرة، فإذا وجد أمراً دُنيويًا يخشى فواته، فإنه سرعان ما يتجه إليه تاركاً ما هو فيه من أمر الآخرة.

وفيه أيضا عتاب صارم لمن ينصرف عن حظوظ الآخرة إلى حظوظ الدنيا.

ذلكم قول الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ أي وإذا رأى بعض المسلمين أو سمع بتجارة رابحة أو صفقة حاضرة ﴿أَوْ﴾ رأى أو سمع ﴿لَهْوًا﴾ خرجوا إليه حرصًا على ذلك اللهو، وتركوا الاستماع إلى الخطبة، وذلك لأنَّ خروجهم كان تارة لمجيء العير من الشام، وتارة لحضور اللهو.

قيل: وقد تكرر ذلك ثلاث مرات[1].

قال جابر بن عبد الله ﷺ: (كانت الجواري إذا نُكحْن أي تزوجْن، يَمرُرْنَ بالمزامير والطبل فلا يقفْن عندها).

فإذا رأوْا شيئا من ذلك ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي تفرقوا إليها، وتوجهوا نحوها، وخرجوا من المسجد ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ أيها الرسول ﴿قَائِمًا﴾ واقفا على المنبر تخطب لصلاة الجمعة.

قال الجمل: والذي سوغ لهم الخروج وترك الرسول ﷺ يخطب، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز، لانقضاء المقصود وهو الصلاة، وذلك لأن الناس في أول الإسلام كانت تصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما نزلت هذه الآية، قدّم الرسول ﷺ الخطبة، وأخّر الصلاة[2].

ونقل أبوداود في مراسيله عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يومٌ، والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة، قد قدِمَ بتجارة فانفضوا[3] ولم يبق معه إلا نفر يسير والذين خرجوا كانوا يظنون أنه ليس في ترك الخطبة شيء.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٢٨/٢٨).

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٣٤٥/٤).

(٣) مراسيل أبي داود برقم: (٦٢ ص ٩٤).

فالسبب في انصراف بعض المسلمين وقت أداء الخطبة أمران:

الأمر الأول: هو ظنهم أن الأمر فيه سعة بالنسبة لمن يجلس أو ينصرف بعد الصلاة، كما هو الحال الآن في أداء خطبة العيد بعد الصلاة، فبعض الناس ينصرف من المصلىٰ بعد الفراغ من الصلاة ولا يجلس للخطبة، وهكذا كانت الجمعة قبل هذه الحادثة.

الأمر الثاني: أن الناس كانوا في غلاء أسعار، وحاجة ماسة إلى ما تَحْمِله هذه العير من القوت الضروري الذي لا غنى للإنسان عنه، فقد كان أهل مكة يعيشون على رحلتي الشتاء والصيف، وهذه إحداهما.

العدد الذي تنعقد به الجمعة:

وهذا النفر اليسير الذي بقي مع النبي ﷺ وصلى بهم الجمعة، مختلف في عدده، وبعض الروايات على أنهم كانوا أربعين رجلاً، وقيل: اثني عشر رجلاً كما جاء في حديث البخاري وقيل: غير ذلك، وذكر ابن حجر في العدد الذي تنعقد به صلاة الجمعة خمسة عشر قولا، لأن الآية لم تحدد ذلك، ولم تحدد السُّنة كذلك عدداً معينا باتفاق.

وقد صح في حديث جابر بن عبد الله ﷺ السابق ذكره قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ فثار الناس إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾[1].

وذكر الدارقطني في حديث جابر ﷺ أنه قال: (ليس مع رسول الله إلا أربعون رجلا أنا فيهم)[2].

وجاءت روايات أخرى أنه بقي مع النبي ﷺ: الخلفاء الأربعة، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبوعبيدة، وسعيد بن زيد، وبلال، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، فهؤلاء أربعة عشر[3].

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٩٣٦، ٢٠٦٤، ٤٨٩٩) وصحيح مسلم برقم (٨٦٣) والترمذي (٣٣١١) وسنن الدارقطني (١٥٨٤) والمسند (١٤٣٥٦، ١٤٩٧٨) وابن حبان (٦٨٧٦). وقد سبق ذكره بأوسع من هذا.

(٢) سنن الدارقطني برقم (١٥٨٣).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٣/٢٢٨).

قلت: والمختار ما تشير إليه أصح الأحاديث من أن الجمعة تنعقد باثنى عشر رجلاً.

ولا يجوز أن يُصلّي الظهر بعد صلاة الجمعة، كما يفعله بعض الناس من أتباع المذهب الشافعي مثلاً في بعض البلاد، نظرا لأن العدد لم يكتمل أربعين.

ثم أرشد الله تعالى خلقه إلى ما هو أنفع لهم، وإلى مافيه سعادتهم وصلاحهم فقال ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لمن يؤثر الفانية على الباقية، فتشغله دنياه عن أخراه، قل لهم ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب العظيم، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فرب مال كثير لم ينتفع به صاحبه، ورب رزق وفير لم ينتفع به من كان حريصا على جَمْعه، ورب رزق قليل انتفع به صاحبه، وكان مليئاً بالخير والبركة، فالعبرة بالبركة في الرزق والرضى به، وليس بكثرة المال والحرص عليه والصبر على أداء طاعة الله تعالى لا يفوت الرزق، ومن اتقى الله تعالى رزقه من حيث لا يحتسب ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير مَنْ رزَقَ، وخير من أعطى، فاطلبوا منه الرزق، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾[فاطر].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[النحل].

وقد نهى الله تعالى أن تشغلنا الدنيا على الآخرة في مثل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾[المنافقون].

ووصف الله قوما بأنهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ [النور:٣٧].

ومما يتعلق بالآية: أن صلاة الجمعة فريضة - على المكلف الصحيح المقيم- وأن المبادرة إليها والاهتمام بها والسعي إليها واجب، وأن المراد بالذكر في الآية: هو الخطبتان، وأن الخطبتين شرط في صلاة الجمعة، فهما فريضتان يجب حضورهما، وأنه يشرع النداء للإعلام بوقت الجمعة.

وفي الآية ذم لمن لم يحضر الخطبتين وأن الاشتغال بالبيع والشراء، أو أي عمل آخر عندما ينادى لها، أمر محرم، يجب على الدولة المسلمة أن تغلق فيه المحال التجارية وتعطل فيه جميع الأعمال.

شروط صحة الخطبتين:

وقد اشترط الشافعية والحنابلة لخطبتي الجمعة أربعة شروط هي: حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وقراءة آية من كتاب الله، والوصية بالتقوى.

زاد الشافعية: والدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

ولم يشترط الحنفية في الخطبتين سوى ذكر الله تعالى، فأي كلام يشتمل على الحمد والثناء، يسمى خطبة.

واشترط المالكية شرطاً واحداً هو الترغيب والترهيب، وهو ما يسمى بالموعظة[1]

قلت: الموعظة هي أساس الخطبة، بالإضافة إلى أن الموعظة تبدأ بحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، كما هو مقرر شرعا، ولابد لهذه الموعظة أن تكون غنية بالمادة العلمية من الكتاب والسنة، وإلا كانت كلاماً أجوفاً لا روح له.

ومما ورد من الأحاديث في الخطبتين ما جاء:

١- في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يخطب خطبتين يقعد بينهما[2].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر بن سمرة ﷺ قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويُذَكِر الناس[3].

٣- وعنه أيضا قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً[4].

٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة، والإمام يخطب فقد لغوت**»[5].

---

(١) ينظر في ذلك: الفقه على المذاهب الأربعة (١/٣٩٠).

(٢) صحيح البخاري (٩٢٨) وصحيح مسلم (٨٦١) وابن أبي شيبة (٢/ ١١٣) والترمذي (٥٠٦) والنسائي في الكبرى (١٤١٥) وابن ماجه (١١٠٣).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٣/٥٤٨) والحديث في مسلم (٨٦٢) والمسند (٢٠٨١٣) وابن أبي شيبة (٢/١١٣) والترمذي (٥٠٦) والنسائي (١٤١٤) وابن ماجة (١١٠٦).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٦٦) وابن أبي شيبة (٢/١١٤).

(٥) صحيح مسلم (٨٥١) وصحيح البخاري (٩٣٤) وأبوداود (١١١٢) وابن ماجة (١١١٠) والترمذي (٥١٢) والمسند (٧٦٨٦) وابن حبان (٢٧٩٣) والنسائي في الكبرى (١٧٤٠).

وقت صلاة الجمعة:

ووقت صلاة الجمعة يبدأ من وقت الضحى إلى دخول وقت العصر.

وفي البخاري عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس[(١)].

وكانت صلاة الجمعة ركعتين: لقيام الخطبتين مقام الركعتين الأخيرتين.

قال مكحول: إنما قُصرت الجمعة لأجل الخطبة[(٢)].

بم تدرك صلاة الجمعة:

وتدرك صلاة الجمعة بإدراك ركعة كاملة مع الإمام، ومن فاتته الجمعة صلاّها ظُهرا.

ساعة الإجابة:

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال أبوالقاسم ﷺ: «**في يوم الجمعة ساعة، لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله خيرا إلا أعطاه، وقال بيده، قلنا: يقللها، يزهّدها**»[(٣)].

الخطبة من قيام:

وكان النبي ﷺ يخطب قائما، فقد سئل ابن مسعود ﷺ: أكان النبي ﷺ يخطب قائما أو قاعدا؟ قال: أما تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾[(٤)].

وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يخطب قائمًا غير أنه كان يقعد قعدةً ثم يقوم[(٥)].

(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٩٠٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٢/١٢٢).

(٣) صحيح مسلم (٨٥٢) وصحيح البخاري (٥٢٩٤،٦٤٠٠).

(٤) ابن أبي شيبة (٢/١١٢) وابن ماجة (١١٠٨) وصحيح سنن ابن ماجة (٩٠٩) بإسناد صحيح، والطبراني (١٠٠٠٣).

(٥) صحيح سنن ابن ماجة (٩٠٧) والمسند (٢٠٨١٨)، وهو حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطيالسى (٧٥٧)، (٧٥٧)، وابن حبان (٢٨٠١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: إنما خطب معاوية قاعدا حين كثُر شحم بطنه ولحمه[1].

من خطب النبي ﷺ :

أ- ومِن خطب النبي ﷺ أنه كان يقول: **«كل ما هو آت قريب، لا بُعْد لما هو آت، لا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف - أي يسرع- لأمر الناس، ماشاء الله لا ماشاء الناس، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً، وماشاء الله كان ولو كره الناس، لا مُبعِّد لما قرّب الله، ولا مقرّب لما بعّد الله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله»**[2].

ب- وعن الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته يوم الجمعة «يا أيها الناس، إن لكم عِلْماً فانتهوا إلى عِلْمكُم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لايدري كيف صنع الله فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري كيف الله بصانع فيه، فليتزوّد المرء من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشباب قبل الهَرَم، ومن الصحة قبل السّقم، فإنكم خُلقْتم للآخرة، والدنيا خُلقت لكم، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مُستعْتَب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار، وأستغفر الله لي ولكم»[3].

ج- وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة: يحمد الله، ويثني عليه، بما هو أهله، ثم يقول على إِثْر ذلك، وقد علا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه مُنْذر جيش، صبحكم ومسّاكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويُقْرن بين أصبعيه، السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: «أنا أوْلى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ»[4].

تم تفسير (**سورة الجمعة**) ولله الحمد والمنة

---

(١) ابن أبي شيبة (١١٣/٢).

(٢) أخرجه البيهقي عن ابن شهاب في الأسماء والصفات برقم (٣٤٦) وإسناده صحيح.

(٣) ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٩٠) والبيهقي في الشعب (١٠٥٨١) والديلمي (٨١٧٨) عن الدر المنثور (٤٩٠/١٤).

(٤) صحيح مسلم (٨٦٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ(٦٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المنافقون) هي السورة الثالثة والستون في ترتيب المصحف، والثانية بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحج) وقبل (سورة المجادلة)، وكان ذلك سنة خمس من الهجرة، في أعقاب غزوة بني المصطلق على الأصح.

وهي سورة مدنية بالإجماع، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وهي مئة وثمانون كلمة، وتسع مئة وستة وسبعون حرفًا.

وسميت (سورة المنافقون) - بالرفع، على حكاية اللفظ الذي في أولها- لأنها تختص بذكر أحوال المنافقين وصفاتهم، وهكذا جاء اسمها في كتب التفسير والحديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحرِّضُ بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرِّع بها المنافقين[1].

وفي حديث زيد بن أرقم ﷺ قال: فلما أصبحنا -وكانوا في سفر - قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين[2]، وهذا على الجر موافقة للغة .

وقد فضحتْ هذه السورة أحوال المنافقين، وكشفتْ عن صفاتهم الذميمة، ومقالاتهم الشنيعة في شأن الإسلام وأهله، وبينتْ دخائل نفوسهم، وحقدهم على الإسلام وأهله.

وحذَّرت السورة في نهايتها الذين آمنوا أن لا يشوبهم شائبة من النفاق - ولو في أدنى درجاته- ويكون ذلك بالتجرد إلى الله تعالى، وعدم الغفلة عن ذكره سبحانه لأي

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٢٩٧) وإسناده حسن، ومحمد بن عمار هو الوازعي، وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأي، وثقهما ابن حبان وأخرجه البزار (٣٧٥٩) والطبراني في الكبير (٩٢٧٩) ورواه مسلم بنحوه (٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣١٣) من حديث طويل. قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

سبب من الأسباب، وعدم التقاعس عن البذل في سبيل الله، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وذلك لأن النفاق ازْدِواجٌ في الشعور والسلوك، حيث يلقى صاحبه الناس بوجهين، يُظهر وجهاً ويبطن آخر، ولا يزال ينمو النفاق في نفسه حتى يصطبغ بألوان شتى يستخدمها حسب المقام، والحلف الكثير والكذب من أول أخلاق المنافقين.

حديث القرآن عن المنافقين:

وقد كثُر الحديث عن النفاق والمنافقين في كثير من سور القرآن المدنية، كما في سورة البقرة، بدْءًا من الآية الثامنة إلى الآية العشرين، وما يتخلل السورة من الآيات الكثيرة.

وفي (سورة آل عمران) توبيخ شديد لمن تقاعسوا من المنافقين يوم أحد وثبّطوا همم المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.

وفي (سورة النساء) آيات كثيرة تتحدث عن قبائحهم وتَحاكُمِهم لغير الله ورسوله، وتَذبذُبِهم بين الكفر والإيمان، ثم تُبينّ أنهم في الدرك الأسفل من النار يوم لقاء الله رب العالمين.

ومعظم (سورة التوبة) تتحدث عن المنافقين، وتفضحهم، وتكشف عن مكنون صدورهم، وتُبعْثر أسرارهم،ولذا سُميت (الفاضحة) فلا زالت تقول : ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى أتت على جميع أحوالهم، وكشفت زيفهم وفضحت سرائرهم.

وهكذا لا تخلو سورة مدنية من الحديث عنهم وعن سوء أحوالهم وسلوكهم.

وقد ظهرت حركة النفاق في المدينة بعد أن قوِيَ المؤمنون وانتصروا في غزوة بدر، وأصبح لهم شأن ودولة، وقد استمر النفاق في عصر التنزيل إلى قرب وفاة النبي ﷺ وهو لم ينقطع على مدى التاريخ وإن تغيّرت مظاهره ووسائله بين الحين والحين.

والنفاق من أخس الصفات، وكثرة الحلف والكذب المتكرر من مظاهره ، والمواقف لا تدع النفاق مستورًا، بل تكشفه في فلتات اللسان ولحن القول وتقاسيم الوجه، والتعليق المفاجيء على الأحداث.

وهذه السورة تحمل الاسم الخاص بالمنافقين، وهو يدل على موضوعها، فقد فضحت زعماء النفاق في عصر التنزيل، وسجّلت عليهم ما حاولوا الفرار منه، فقد حملتْ عليهم حَملة عنيفة كشفت عن دسائسهم ومُناوراتهم، وقد كانوا حريصين على أن تكون صورهم جميلة، ومظاهرهم خلاّبة، لتستُر خباياهم، ولكن حقدهم غلبهم، فخرج منهم ما يسيء إلى المهاجرين والأنصار، ممّا سجّله الله عليهم في كتابه إلى يوم القيامة.

وتُختم السورة بما يجعل العقلاء يُؤْثرون ما عند الله، ولا يَتْزِلون إلى حُطام الدنيا الفاني، فما عند الله خير وأبقى.

سبب نزول السورة:

يدور سبب نزول هذه السورة على أمر تافه في حد ذاته، كثيرًا ما يقع بين بعض الخدم، ولكنه يكشف عن خبايا المنافقين، ويُظهر مكنون صدورهم تجاه الإسلام وأهله.

وذلك: أن عبد الله بنَ أُبيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ إلى «الْمُرَيْسيع» وهو مكان به ماء لبني الْمُصْطَلِق، وقد خرجوا طلباً للغنيمة، لا رغبة في الجهاد، وكانت مسافة السفر قصيرة، فلما فرغ النبي ﷺ من الغزوة، ازْدَحَم الناس على الماء، ومنهم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه بن سعيد» وحليف لعبد الله بن أُبيّ، اسمه «سنان الجهني» ودار بينهما كلام، فرفع (غلام عمر) يده ولطم بها (الجهني)، فصرخ الأول قائلا: يا لَلْمهاجرين، وصرخ الثاني قائلا: يا لَلأنصار، فأقبلوا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب وقال: «**ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة**» أي اتركوا هذه العصبية لعشيرتكم، فقد أعزكم الله بالإسلام، ووحّد صفكم، وجمع كلمتكم، وأصلح الأمر بينكم.

ولما بلغ الخبر عبد الله بن أُبيّ، قال: وعنده جماعة من المنافقين: أَوَ قَدْ فعَلُوها، والله ما مَثَلكم ومَثَلُ هؤلاء الرهط من قريش، إلا كما قال الأَوَل: (سمّن كلْبك يأكلك) فقد آويتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، ولو أمسكتم أيديكم عنهم لتفرّقت جموعهم، أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين:

وكان في القوم «زيد بن أرقم» غلام صغير، فقال لعبد الله بن أُبيّ: أنت والله الذليل القليل، وأخبر النبي ﷺ بما قال، فعرض عليه عمر أن يضرب عنقه، فقال ﷺ: «**إذن ترتعد له آنُفٌ كبيرة**»، أي يغضب من أجله قوم كبار، فالنبي ﷺ يدفع دائما بأخف الضررين، ويرجح المصلحة العامة، ولذا فإنه ﷺ قال لعمر بعد أن انتهت أحداث القصة، «**أي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله**»؟ قال: نعم، فقال ﷺ: «**والله لو قتلْته يومئذ لرغمتْ أنوف رجال، لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوا**» قال عمر: فإن كرهتَ أن يقتله رجل من المهاجرين، فمُرْ سعد بن عبادة، أو محمد بن مسلمة، أو عبّاد بن بشر، فلْيقْتله، فقال ﷺ: «**إذن يتحدث الناس أن محمدا يقْتُل أصحابه**».

فأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ، فأتاه، فقال: «**أنت صاحب هذا الكلام؟**» قال: والذي أنزل عليك الكتاب، ما قلتُ شيئا من هذا، وإن زيداً لكاذب.

وقال الحاضرون: إنه غلام صغير، فعذَره رسول الله ﷺ ولام الناسُ زيداً، وأراد النبي ﷺ أن يطفىء نار الفتنة، فمشى بالناس يوما وليلة ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس.

وقال أسيد بن الحضير للنبي ﷺ: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنّا لننظم له الخَرز لنُتوّجه ملِكًا، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه. فأنزل الله تعالى هذه السورة في ابن أُبيّ تكذّبه وتُصدِّق زيدًا.

فلما نزلت قال ﷺ لزيد: يا غلام إن الله قد صدّقك وكذّب المنافقين، وفَرك النبي ﷺ أُذن زيد وضحك في وجهه، قال زيد: فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا.

وقيل لعبد الله بن أُبَيّ: لقد نزلتْ فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك؟ فلَوى رأسه، وقال: لقد أمرتموني أن أؤمِن فآمنت، وأمرتموني أن أُزكّي فزكيت، وما بقى لي إلا أن أسجد لمحمد.

عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ:

وكان لعبد الله بن أُبيّ ولد صالح من خيار الصحابة هو (عبد الله بن عبد الله بن أبي) فجاء إلى النبي ﷺ يقول له: والله لقد عَلِمَت الخزرج، ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وأني والله لا أحدّق عيني في وجهه هيبة له، ولقد بلغني ما كان من أبي، وبلغني أنك تريد قتله، فإن كنت فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتُل قاتله، فأكون قد قتلتُ مسلما بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: «بل تُحسن صحبته ما بقي معناً» فخلِّ سبيله حتى يصل إلى منزله.

الابن يرفع السيف في وجه أبيه نصرة لرسول الله ﷺ:

ولما رجع الناس إلى المدينة وقف عبد الله (الابن) على باب المدينة واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فيتركهم، فلما جاء أبوه قال له: وراءك قال: ويلك، ما لك؟ قال: والله لا تجُوز من ها هنا، حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل.

وكان الرسول ﷺ يسير في مؤخرة الجيش، فلما وصل إلى مدخل المدينة، اشتكى إليه عبد الله (الأب) ما يفعله الابن، فقال عبد الله : والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له النبي ﷺ فقال عبد الله (الابن): أمّا إذْ أذن لك رسول الله، فجُز الآن.

ولم يلبث عبد الله بن أُبيّ إلا أيّاماً حتى اشتكى ومات[1].

ولما مات (ابن أبيّ) جاء ابنه (عبد الله) إلى النبي ﷺ يطلب قميصه ليكفنه فيه بِرّاً بأبيه، وخوفًا عليه من عذاب النار، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، ثم طلب منه أن يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ ومشى معه، وقام على قبره حتى فرع منه، رغم معارضة عمر ﷺ

(١) ينظر فيما سبق: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٥،٢٩٠) وتفسير الطبري (٧١/٢٨) والطبراني (٥٠٤١) والحاكم (٤٨٨/٢) والبيهقي في الدلائل (٥٤/٤) وابن عساكر (٢٦٩/١٩) وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٠) وصحيح البخاري برقم (٤٩٠٢،٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤،٢٧٧٢) وسنن الترمذي برقم (٣٣١٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٤) والمسند (٣٩٢/٣، ٣٧٣/٤) برقم (١٩٢٨٥، ١٩٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول: ٣٢١ وكلها من طرق متعددة.

وذلك تطييبًا لخاطر ولده، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة] فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل[1].

خطورة النفاق:

وشأن (عبد الله بن أُبيّ) شأن سائر المنافقين في العقيدة، في عدم جواز الصلاة عليهم، وعدم الدعاء لهم أو الترحم عليهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يُخرج المنافقين من الصف الإسلامي، ماداموا يُظهرون الإسلام، ويؤدون فرائضه في الظاهر، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب وهو الذي يحاسب على ما فيها.

وكان النبي ﷺ يَعْرِف المنافقين بلَحْن القول، وما يبدو على ألسنتهم من أساليب الالتواء والمداراة، ولم يُعرّفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قُرب وفاته ﷺ.

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ فعرّفه بهم واحداً واحداً، وكتم حذيفة ذلك ولم يُفشه بين الناس، حتى إن عمر ؓ على جلالة قدره، كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه من أن الرسول ﷺ لم يُسمّه له ضمن المنافقين! فكان يقول له: يا عمر، لست منهم، ولا يزيد! وكان الصحابة يعرفون المنافق عندما يرون النبي ﷺ لا يصلي عليه إذا مات. ولما مات النبي ﷺ كان حذيفة ؓ لا يصلي على من عرف أنه منهم.

وكان عمر رضوان الله عليه لا ينهض للصلاة على الميت إلا إذا رأى حذيفة قد قام للصلاة عليه.

وذكر بعض أهل العلم أن هذه السورة نزلت في غزوة تبوك، في السنة التاسعة للهجرة، وهو قول ضعيف، لأن المنافقين وقتها قد زالت دولتهم وضعُف شأنهم، ولم يكن لهم جُرأة على مثل قولهم الذي قالوه عن النبي ﷺ وأصحابه.

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد برقم (٩٥) بإسناد حسن، ورجال ثقات، وانظر البخاري برقم (٤٦٧٢) ومسلم برقم (٢٧٧٤) والترمذي برقم (٣٠٩٨) وقال: حسن صحيح والنسائي برقم (٢٤٤) وابن ماجة برقم (١٥٢٣)، وانظر القصة في سورة التوبة عند الآية (٨٤)، من هذا التفسير.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْمُنَافِقُ يَتَسَتَّرُ بِالأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ وَاللهُ تَعَالَى يَكْشِفُ سِتْرَهُ

١ - ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون، وصاروا أعزة أقوياء، أخذ بعض الناس من الأوس والخزرج يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، ليحقنوا دماءهم، وتَسْلم أموالهم، ويبقى جاههم، فذكر الله أوصافهم ليعرفهم المسلمون ويحذروهم.

وتبدأ السورة بوصف طريقة المنافقين في إخفاء ما في قلوبهم، وتوثيق ذلك بالأيمان الكاذبة، ليُصدقهم الناس، وليخْدعُوهم بهذه الأيمان الكاذبة، لتكون وقاية لهم يخفون وراءها حقيقة أمرهم.

والآية الأولى من هذه السورة، تُعرّض بكذب عبد الله بن أُبيّ وأضرابه من المنافقين الذين يسيؤون إلى الإسلام وأهله، وذلك بصيغة العموم لتجنّب التصريح بالمقصود.

ومن هذا القبيل في تعميم الخطاب أن مولى «بَرِيرة» لما أراد أن يبيعها لعائشة رضي الله عنها، اشترط أن يكون الولاء له، فقال النبي ﷺ **«ما بال أناس يشترطون شروطا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مئة مرة»**[1] فعمم ولم يخصص. وقد اشتملت هذه الآية على قضايا ثلاث:

القضية الأولى: الإخبار عن المنافقين أنهم يشهدون للرسول ﷺ بالرسالة.

والقضية الثانية: المبادرة بتثبيت رسالة محمد ﷺ.

---

(١) من حديث عائشة في المسند (٢٤٥٢٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في البخاري (٢٥٦١) ومسلم (١٥٠٤) وأبي داود (٣٩٢٩) والترمذي (٢١٢٤) وقال : حسن صحيح، وابن ماجة ٢٥٢١ وابن حبان ٤٢٧٢ والنسائي في الكبرى (٤٩٩٦).

والقضية الثالثة: تكذيب الله للمنافقين في دعوى الإيمان.

والمنافق هو: من يُظهر خلاف ما يُبطن من الأقوال والأفعال، وأعظم ذلك أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر. والكذب هو الإخبار بخلاف الواقع.

وقد خاطب الله تعالى رسوله ﷺ مبينا له أنه إذا حضر المنافقون مجلسه في حياته ﷺ أو حضروا في مجلس القضاء أو العلماء أو الحكام أو الدعاة بعد مماته، فشهدوا بألسنتهم خوفًا ونفاقًا بأن الإسلام حق، وأن الرسول صادق فيما يبلغه عن ربه، وهم يضمرون خلاف ذلك، فإنهم كاذبون في دعواهم التي أكّدوها بإنّ واللام، للإشعار بأن شهادتهم صادرة من صميم قلوبهم، وصِدْق اعتقادهم، ووفْرة رغبتهم ونشاطهم[1] وهي شهادة تجري مجرى القسم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟﴾ كذبًا ونفاقًا ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهنا تم الخبر عنهم، ثم ابتدأ سبحانه وتعالى فبين أن الرسول ﷺ ليس في حاجة إلى هذه الشهادة التي تخالف بواطنهم، فكانت هذه الجملة الاعتراضية للفصل بين كلام الله تعالى وكلام المنافقين، أي بين الصدق والكذب، فقال تعالى:﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ حقًا وصدقًا، فهو الذي أرسلك رحمة للعالمين، ويعلم صدق قولك وفعلك.

ثم أعلم الله نبيه وأعلم المسلمين كافة، بحقيقة أهل النفاق، وأنهم كاذبون في شهادتهم بأنك رسول الله، فقال ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما أظهروه من شهادتهم لك، وحلفوا عليه بألسنتهم، وأضمروا الكفر بك، وأن قولهم ليس على وجه الحقيقة منهم.

ولفظ ﴿نَشْهَدُ﴾ خبر مؤكد، لأن الشهادة هي الإخبار عن أمر مقطوع به، وهي مشتقة من المشاهدة، والمعاينة أقوى طُرُق العلم.

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا وافق اللسان ما في القلب، وهؤلاء قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فالمقصود هو تكذيب إقرار المنافقين بالرسالة، وبيان أنهم لا يقرون

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (١٦٤/٥).

بها حقًّا، ولا يشهدون بها صدقًا، وفي هذا مبادرة بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين، حتى لا يُتوهم أن المقصود هو تكذيب المنافقين في شهادتهم بالرسالة، لأن حلفهم مُنْصَبٌّ على دعوى إيمانهم.

وإذا كان المنافقون كاذبون فيما قالوه، فكيف بهذه الإيمان التي يحلفونها؟ لقد أجاب الله تعالى عن ذلك بقوله:

٢-﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾

أي إنما جَعل المنافقون أيمانهم الفاجرة التي أقسموا بها سُترة ووقاية لهم من المؤاخذة والعذاب، فهم يستترون بالحلف الكاذب حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين، وهم يجعلونها ترسًا يمنع نسبتهم إلى النفاق.

كما جاء ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾[التوبة:٧٤] .

وقوله سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة].

وقوله جل شأنه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾[التوبة] .

قال قتادة: كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لدمائهم وأموالهم[(١)]

وقد تمكن المنافقون بأيمانهم الكاذبة من صدّ بعض الناس عن الطريق القويم، وتشكيكهم في صحة ما جاء به النبي ﷺ لأنهم اغتروا بظاهرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون وصدّقوهم، فهم بهذا قد أعرضوا عن دين الله الذي بُعث به محمد ﷺ ومنعوا أنفسهم من الإيمان به ﷺ، ومنعوا غيرهم ـ ممن اغترّ بهم ـ عن دين الله القويم، وجمعوا بين ثلاث رذائل هي: تعمّد الأيمان الكاذبة، وإعراضهم عن الحق، وصرف الناس عنه،

---

(١) تفسير الألوسي (٢٨/١٠٩).

وهذا هو معنى ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم عن دين الله، ممن كان يريد الإيمان أو الجهاد، فأنكروا عليهم، وثبطوهم.

ثم ذم الله فعلهم وقبّح سلوكهم، لظهورهم بمظهر الإيمان، وهم كاذبون منافقون معرضون عن دين الله، يقفون في وجه الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي فبئست أعمالهم القبيحة وساءت أخلاقهم الذميمة، فقد أظهروا الإيمان لكم، والكفر لأعدائكم، وأقسموا على ذلك، وأوهموكم بالصدق، وبئس الكفر بعد الإيمان.

رَسُوخُ الْكُفْرِ فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ

٣-﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾

ثم بين سبحانه سبب إقدام المنافقين على الأعمال السيئة، وسبب استخفافهم بأيمان الله تعالى، وذلك أنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن، وصرّحوا بالكفر عند شياطينهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾[البقرة].

ثم أظهر الله كفرهم لرسوله ﷺ وللمؤمنين، فهم يترددون على الكفر مرة بعد مرة، فرسخ الكفر في نفوسهم، وتجرؤوا عليه، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها لا يصل إليها خير ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ نطقوا بكلمة الكفر في الظاهر وفعلوا أفعال المسلمين في العلن ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ في الباطن فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين إخوانهم في الكفر والنفاق، فهم مترددون بين الكفر والإيمان، يظهرون الإيمان كذباً ثم يرجعون إلى الكفر باطناً.

وهذا أعظم من الكفر الصريح ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي ختم الله عليها، فلا يصل إليها هدى ولا خير ولا نور﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾ مافيه صلاحهم، ولا يميزون بين الحسَن والقبيح، والخير والشر، فإن من يتذوق الإيمان، ويتفيأ ظلاله، ويحيى في نور الإيمان، ثم يعود إلى الكفر، فهو مطموس البصر والبصيرة، لا يحس ولا يشعر.

وكان الطبع على قلوبهم نتيجة كفرهم، فهم السبب، كما قال تعالى ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا

بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء:١٥٥] وقال سبحانه ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[الصف:٥].

وهم مع هذا الختم على القلوب لا يعقلون، كما قال تعالى﴿ ... إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف] .

وَصْفُ أَجْسَادِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ وَصفِ عُقُولِهِم

٤-﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ(١) تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ(٢) خُشُبٞ(٣) مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

وبعد أن وصف القرآن عقول المنافقين وما يخفى من أحوالهم في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾وصف أجسادهم وأشكالهم التي تظهر للناظر بقوله تعالى ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ فوصفهم الله تعالى بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: يتعلق بأشكالهم ومظاهرهم، فأجسامهم ضخمة، وهيئتهم حسنة، ومظهرهم جميل، فيهم حُسن ونضارة ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ ﴾ أي إنك إذا نظرت إلى المنافقين تعجبك هيآتهم ومناظرهم، لحسنها وسلامتها ونضارتها ووسامتها، فلا تُفْتن ولا تغتر بحُسْن صورهم، فإنها أجسام البغال وأحلام - أي عقول- العصافير.

وصاحب الهيئة الحسنة، والجسم الضخم، يظل موضع إعجاب الناظرين مادام صامتاً، فإذا تكلم أفصح عن محتوى هذه الهيئة، فإما أن يكون ذا قيمة كبيرة في عقله وجسمه، فتزداد مهابته لدى الناس، وإما أن يفقد هيبته وقيمته بجهله، والجهل يفضح صاحبه.

ولذا : فإن أبا حنيفة رحمه الله كان يَمُدُّ رجله بين طلابه لما فيها من الألم، ولمّا دخل عليه رجل ذو مهابة، قبض رجله، وصبر على تعبها، تقديرًا له، فلما تكلم الرجل

(١، ٢) قرأ الأصبهاني بتسهيل الهمزة في ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ و ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ وصلا ووقفا، وكذا حمزة عند الوقف بخلف عنه في ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾.

(٣) قرأ أبوعمرو والكسائي وقنبل بخلف عنه بإسكان الشين من ﴿خُشُبٞ﴾ والباقون بضمها، وهو الوجه الثاني لقنبل.

وأفصح عن مستواه العقلي والعلمي، قال أبو حنيفة قولته المشهورة: آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله، أي ليتخلّص مما يلحق به من ألم حال قبضها!

الوصف الثاني: يتعلق بفصاحة لسان المنافقين، وحُسن منطقهم وقوة حُجّتهم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإن يتحدثوا تسمع لحديثهم، وتصغي لقولهم، لفصاحة ألسنتهم، وبلاغة حجتهم، وحسن منطقهم.

قال ابن عباس: كان ابن أُبيّ، جسيماً صحيحاً ذلق اللسان.

وقال الكلبي: المراد: ابن أُبيّ، والجدّ بن قيس، ومتعب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة.

وهكذا كل منافق عليم اللسان، فصيح البيان، حذّر منه الإسلام كما جاء في حديث عمر ﷺ مرفوعاً: (إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)[1].

وفي الحديث عن أم سلمة (فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فإنما أقطع له قطعة من النار)[2].

وكم من محامٍ فصيح اللسان أخرج القاتل بريئا، وقلَب الحق باطلا والباطل حقاً، ولا أنسى هذا البدوي الذي حضر بنفسه أمام القاضي لوثوقه أنه صاحب الحق ولا يحتاج إلى من يحامي عنه، فلما سمع فصاحة محامي الخصم يدافع بقوة وجرأة عن الباطل، قال للقاضي: يا حضرة القاضي: أجّل القضية حتى أحضر لي كذّاباً مثل هذا!!

الوصف الثالث: أن قلوبهم فارغة من الإيمان، وعقولهم خاوية من الفهم والعلم النافع، ثم إن المنافقين مع أن أجسامهم تعجب الناظر، وأقوالهم تغري السامع، إلا أنهم لعدم الانتفاع بهم، كالخشَب الملقى على الحائط، وهو جماد لا حياة فيه ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

---

(١) المسند برقم (١٤٣،٣١٠) بإسناد قوي، وأخرجه عبد بن حميد (١١)، والبزار (٣٠٥)، والبيهقي في الشعب (١٧٧٧).

(٢) جزء من حديث أم سلمة في البخاري (٢٤٥٨،٦٩٦٧) ومسلم (١٧١٣).

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ فقلوبهم تخلو من الهدى والأخلاق الفاضلة، وقد شبه الله المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ كأنهم يستندون إلى خُشُب مسندة إلى حائط، وهي لا تفهم ولا تعلم شيئاً، وهكذا المنافقون تخلو قلوبهم من الفقه النافع والفهم الصحيح، فهم لخلوّهم من العلم والنظر الصحيح، كأنهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا عقول.

وقد جاء هذا الوصف للتنفير منهم، وعدم الاغترار بمظهرهم، ولئلا يُتوهم أن المراد مدحهم بحُسْن الهيئة وفصاحة اللسان، وإنما هو ذم وتوبيخ لهم، والعلم الذي أوتُوه علم ضار، يأخذ بيد صاحبه إلى الضلال والإضلال.

الوصف الرابع: أن المنافقين ـ مع حسن أشكالهم وحلاوة منطقهم ـ في غاية الضعف والجبْن والخوَر، كلما وقع أمر، أو حدث شيء، يعتقدون – لجُبنهم- أنه نازل بهم، فهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون كل صوت عال واقعاً عليهم، وضارًّا بهم، لعلمهم بحقيقة حالهم، ولفرط خوفهم، أن يطلع عليهم أحد، والرعب الذي تمكن من قلوبهم.

وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ...﴾[الأحزاب:١٩].

وهم أيضاً في خوف ووَجل من أن ينزل فيهم من القرآن ما يهتك أسرارهم، ويستبيح أموالهم ودماءهم، فكانوا يتوقعون أن يأمر النبي بقتلهم، وهنا تم الكلام في الآية.

ثم حذَّر الله تعالى رسوله ﷺ وحذَّر المسلمين إلى يوم القيامة من الذين يظهرون ما لا يبطنون في أقوالهم وأفعالهم ليصلوا إلى أغراضهم وأهدافهم، فقال تعالى ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي هم ألدّ الأعداء الذين تناهت عداوتهم للإسلام وأهله، فهم يُظْهِرون المودة للمسلمين، ويتربصون بهم الدوائر، ويتمنَّوْن الوقيعة بهم، وهم الكاملون في عداوتهم للمسلمين، الراسخون في بُغضهم لهم، وذلك لأن العدو البارز الظاهر في أحواله، أهون من العدو المخادع الماكر الذي لا يشعر به أحد، يظهر محبته ويبطن عدوانه، فكن على حذر منهم، ولا تأمنهم على سرّ، فإنهم عيون لأعدائك، ولا تترك لهم فرصة

يتمكنون من خلالها: الاطلاع على أحوالك حتى لا يُفْشُوها لأعدائك.

ثم إن الله تعالى دعا عليهم بالطرد من رحمته فقال ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أخزاهم ولعنهم وأبعدهم من رحمته، بسبب أفعالهم القبيحة، وصفاتهم السيئة،

ثم تعجب سبحانه من حالهم، كيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم فيه من النفاق والضلال فقال ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف ضلَّت عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين فانصرفوا عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال،

في الأثر عن أبي هريرة ﷺ (إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيَّتُهم لَعْنة، وطعامُهم نُهْبه، وغنيمتُهم غلُول، لا يقْربُون المساجد إلا هُجْرا، ولا يأتون الصلاة إلا دُبُرا، مستكبرين، لا يألفون ولا يُؤلفون، خشُب بالليل، صخُب بالنهار)[1].

التَّكَبُّرُ وَالإِعْرَاضُ عَنِ الْحَقِّ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ

٥ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا[2] رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

إذا طلب من المنافق أن يعتذر عما صدر منه امتنع واستكبر بغيًا وعنادًا، وهكذا كان حال المنافقين وقت التنزيل إذا طُلب منهم أن يذهبوا للنبي ﷺ ليدعو الله لهم أنفوا وتكبروا.

ولما نزلت هذه الآيات التي تفضح المنافقين وتكشف أستارهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين يقولون لهم: لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم به، فتوبوا إلى الله منه، واذهبوا إلى رسول الله ﷺ يستغفر لكم، فأبوْا وحرَّكوا رؤسهم، سخرية واستهزاء، ثم ذهبوا إلى ابن أُبيّ وسألوه ذلك، فلوى رأسه تكبراً، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا قيل لهم: أَقبِلُوا تائبين معتذرين عما بدر منكم

(١) المسند (٢/٢٩٣) برقم (٧٩٢٦) بإسناد ضعيف، قال محققوه : لضعف عبد الملك بن قُدامة، وجهالة إسحاق بن أبي الفرات، وأخرجه البزار (٨٥) - كشف الأستار، وابن حبان في المجروحين (٢/ ١٣٥)

(٢) قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى من ﴿لَوَّوْا﴾ من لَوَى الثلاثي مخففا، والباقون بتشديدها على التكثير من لوى الرباعي.

من سيء القول وسفَه الحديث، كي يطلب لكم رسول الله ﷺ من ربه أن يعفو عنكم، حتى تحسُن أحوالكم، وتُقبل أعمالكم، فتوبوا من النفاق، وأخلِصوا الإيمان لله، وسلوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لكم على ما فرط منكم، فإذا قيل لهم ذلك ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي حرّكُوها، وأعرضوا عمن قال لهم ذلك استكبارًا واستهزاءً.

فالمنافقون عندما عرفوا أن مقولتهم السابقة في النبي ﷺ وصحبه الكرام بلغت رسول الله ﷺ جبُنوا وتخاذلوا، وعندما قيل لهم: اعترفوا بخطئكم، استكبَروا وأعرضوا.

وهاتان صفتان لأهل النفاق، فأنت ـ أيها المخاطب ـ تُبصرهم حين يتكبروا ويُعْرضوا عن الامتثال، وقد لَوّوْا أعناقهم تكبُّراً، وانصرفوا عنك مدبرين، لَمَّا طُلب منهم الندم والتوبة والاعتراف بخطئهم، وهذا معنى ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم يرون أنفسهم أكبر من ذلك، ويحتقرونها لو فعلوا.

وقد تكرر هذا الموقف من (ابن أُبيّ): فقد ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما رجع من غزوة أُحُد قام عبد الله ابن أبي، والرسول ﷺ يخطب للجمعة فقال: يا أيها الناس: هذا رسول الله ﷺ أكرمكم الله به وأعزكم، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا.

فأخذ بعض المسلمين بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس يا عدو الله، فلستَ لهذا المقام بأهل، وقد صنعت ما صنعت، يَعنُون مَرْجعَه بثُلث الجيش دون الاشتراك في الغزوة، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: لكأني قلت مُنْكَرا، فلقيه رجل من الأنصار، فقال له: ارجع للنبي ﷺ يستغفر لك، فقال: والله ما أبغي أن يستغفر لي[1]

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ دعا المنافقين ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم.

شَقَاءُ الْمُنَافِقِ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى فَلاَ يَنْفَعَهُ اسْتِغْفَاره

٦ - ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾

(١) ينظر البيهقي في الدلائل عن الزهري (٣/٣١٨).

بين سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه لا فائدة في الاستغفار للمنافقين، لأنهم مردوا على النفاق وثبتوا عليه، فقال تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يستوي بالنسبة للمنافقين أن تطلب لهم - يا رسولنا- المغفرة من الله تعالى أم لم تطلبها، فإن استغفارك لهم لن ينفعهم بشيء، لِفسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وسبق الشقاوة عليهم، فهم قوم قد آثروا الكفر على الإيمان فلا ينفع فيهم استغفار الرسول لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة] وقال سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴾ [التوبة:٨٠] فهم لرسُوخهم في الكفر وإصرارهم على العصيان (لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) أي لن يصفح عن ذنوبهم أبداً، لتأصُل الجحود فيهم، وعدم إيمانهم بالثواب والعقاب، وعدم تفرقتهم بين الحق والباطل، لذلك فإن الله تعالى لن يغفر لهم مهما كنت حريصاً على هدايتهم.

ثم علل سبحانه ذلك بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فإن من سنة الله تعالى في خلقه أنه لا يوفق للإيمان من كفر به وجحد طاعته، وآثر الباطل على الحق، والمنافقون يدخلون في الفاسقين دخولا أوّلياً.

ورد أنه لما نزلت آية سورة التوبة ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴾[التوبة:٨٠] قال ﷺ: «**لأزيدنّ على السبعين**»[1] فبين الله تعالى في هذه الآية أن العدد غير مقصود، وأن المراد أنه مهما استغفرت لهم فلن يغفر الله لهم، وكانت آية سورة المنافقين هذه، هي السابقة في النزول على آية سورة التوبةالتي وضّحتْ هذا المعنى.

ولهذا فإن النبي ﷺ قال: «**لو علمتُ أني إن زدت على السبعين غُفر لهم لزدت**»[2] فقد شدد الله عليهم في هذه السورة، وأعلم الله رسوله أنه لن يغفر لهم مهما استغفر لهم الرسول ﷺ.

---

(١) تفسير الطبري (٦٠١/١١، ٦٥٩/٢٢) عن عروة وابن عباس.

(٢) أحمد (١٦/٦) ورقمه (٩٥) عن عمر، بإسناد حسن ورجال ثقات، وانظر البخاري بأرقام: (١٣٦٦،٤٦٧١، ٤٦٧٢) والترمذي برقم (٣٠٩٧) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي برقم (٢٤٥).

في سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ثم ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية طرفاً من سياسة المنافقين في تجويع المؤمنين مما استوجب قضاء الله تعالى فيهم، بعدم جدوى الاستغفار لهم، فقال جل شأنه في وصفهم:

٧- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾

من شأن المنافقين أنهم يمنعون خيرهم عن المؤمنين، ومن ذلك المنافقين في وقت التنزيل، لما رأوا اجتماع الصحابة وتآلفهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، وقد زعموا أن أموالهم لها سبب في وحدة المسلمين، فقال بعضهم: لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول رسول الله ﷺ، فأخبر سبحانه أن خزائن الرزق بيده ولكنهم لجهلهم لا يفقهون ذلك.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أُبيّ ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ﴾ وقال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أُبيّ فسأله، فاجتهد يمينَه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلوّوا رؤوسهم، وهو قوله ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ قال: كانوا رجالا أجمل شيء)[1].

و﴿مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هم من كانوا في رعايته ﷺ مثل أهل الصُفّة، ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب.

وكان في غزوة بني المصطلق فريق من الأعراب يُموّنهم النبي ﷺ.

---

(١) البخاري برقم (٤٩٠٢،٤٩٠٣) ومسلم برقم (٢٧٧٢) والنسائي برقم (٦١٨) وفي الكبرى (١١٥٩٧، ١١٥٩٤) والترمذي (٣٣١٤) والمسند (١٩٢٨٥،١٩٢٩٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن سعد (٦٥/٢) والطبراني (٥٠٥٠) وغيرهم.

فقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وهو رأس المنافقين، وأُسند القول إلى ضمير المنافقين، لأنه شاع بينهم ولم ينكروه.

لقد ابتلى الله المهاجرين بترك أموالهم وبيوتهم في مكة، وابتلى الأنصار باستقبال المهاجرين في المدينة، فما وجه كلام ابن أُبيّ، فيمن خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء وجه الله؟

إن سياسة التجويع والحصار الاقتصادي، سياسة معروفة في كل زمان ومكان من أعداء الإسلام، وخصوم الحق، ومن ذلك خطة قريش في شعب أبي طالب بمكة، لمقاطعة بني هاشم وتضييق الخناق عليهم اقتصاديا لينفضّوا عن نُصرة رسول الله ﷺ وهي نفس الخطة التي تستعملها القوى الكبرى في العالم نحو ما يسمى بالعالم الثالث، أو الدول النامية في العصر الحاضر، وكلها خطط يراد بها الشر للإسلام وأهله، وتمزيق الشمل، وبعثرة الصفوف، والخضوع لهم، والسير في ركابهم، والاستيلاء على ثرواتهم.

وقد كان عبد الله بن أُبيّ مرشحاً لزعامة المدينة قبل الهجرة، فلما قدم النبي ﷺ إليها ابتعد عنه التاج الذي كانوا يَنْظُمونَه له ليُتوّج به مَلِكاً على البلاد، وذهب عنه هذا الحلم، فحقد على الإسلام ورسوله، وأضمر له المكائد، ولو أن ابن أُبي، آمن بالله ورسوله، لكان له من المجد ما هو أرجح من الدنيا وما فيها، ولو أنه عندما أخطأ، جاء لرسول الله ﷺ معتذراً، لاستغفر له الرسول، وتاب الله عليه، ولكنها حماقة الكفر، وعمى البصيرة.

وهؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل المدينة: لا تنفقوا على أصحاب رسول الله من المهاجرين، حتى يتفرقوا عنه، فرد الله تعالى عليهم بأن مفاتيح الرزق، وخزائن المُلْك بيده سبحانه، فهو المعطي المانع، المعز المذل، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله تعالى عن أحد، لأنه مجرد السبب الذي يجري على يديه العطاء، والله تعالى هو المعطي المانع، النافع الضار، والمنافقون لا يفقهون هذا المعنى، ولذا فهم يهرفون بما لا يعلمون قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي بيده وحده خزائن العالم العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما من أرزاق.

والمراد بالخزائن: مقار أسباب حصول الأرزاق، كالمطر، وأشعة الشمس، والرياح الصالحة، وتربة الأرض، وكنوزها، فهو سبحانه المتصرف فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١] وقال سبحانه: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢،٢٣].

وأمر الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهكذا يُطمئن الله المؤمنين: بأنّ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ لم يخلُقوا رزق أنفسهم حتى يتحكّموا في رزق غيرهم، ويقْطَعوه عن الآخرين، فما أغباهم وما أجهلهم ﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أن الذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لا يقطع رزقه عن أعدائه ويُجوّعهم، ولا يفكِّر في سياسة التجويع إلا أخس خلْق الله.

وأخلاق النبي ﷺ على النقيض من هذا، وهي سياسة الإسلام في كل زمان ومكان.

فقد كان ﷺ لا يرد سائلاً وإن جاء على فرس، وكان يعطي الأقوياء من الأعراب الذين آوَوْا إليه، ولا يقطع عنهم عطاءه.

كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال ﷺ: **«ما عندي شيء، ولكن ابْتَغ عليّ - أي اشتر على حسابي ما تحتاجه- فإن جاءني شيء قضيْتُه»** فقال عمر: يا رسول الله، ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا، فتبسم النبي ﷺ وعُرف في وجهه البشر لقول الأنصاري، ثم قال: **«بهذا أُمرت»**[1].

وعن أبي مسعود ﷺ أنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فسأله، فقال: **«ما عندي ما أعطيك، ولكن ائت فلاناً»** فأتى الرجل فلاناً فأعطاه، فقال رسول الله ﷺ: **«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»** أو **«عامله»**[2].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الشمائل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٣٥١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٨٩٣)، وابن حبان (٢٨٩)، والطيالسي (٦١١)، والترمذي (٢٦٧١).

وعن المنهال بن عمرو قال: بعثت امرأة إلى النبي ﷺ بابنها فقالت: قل له: اكسُني ثوباً، فقال: (ما عندي شيء) فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسُني قميصك، فرجع إليه، **فنزع قميصه فأعطاه إياه ...)**[1].

يا ألله! ما هذه الأخلاق؟ ما هذا الإيثار؟ إنه رسول الله صاحب الخلق العظيم، ينزع قميصه مِنْ على جسده ليعطيه للسائل، ويقول للآخر: اشتر على حسابي ما يلزمك من البائع وسأدفع له الثمن!

وهذا جانب آخر من فسق المنافقين:

ثم ذكر سبحانه مقولة عبد الله بن أُبيّ الثانية، وهي مقولة حاضرة متجددة، يبيتُها أعداء الإسلام لأبنائه، ويصرّحون بها في كل زمان ومكان، لإخراجهم من ديارهم، والتحكم في مواردهم، والتسلط عليهم:

٨- ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أي أن العزيز منا سيُخرج الذليل من المدينة ويبعده عنها عند العودة إليها، وفي قراءة غير متواترة[2] (ليَخْرُجَنَّ الأعزَّ منها الأذلّ) بالنصب على الحال، أي نحن الذين كنا أعزة سنخرُج منها أذلاء.

والمعنى الثاني هذا ضعيف، والقائل هو عبد الله بن أُبي بن سلول كما سبق، ونُسِبتْ هذه المقالة إلى المنافقين جميعاً لأنهم رضوا بها، وجاءت المقالة بلفظ المضارع لاستحضار تجدّدها وصورتها البغيضة في النفوس، لمن يمكرون بالإسلام وأهله في كل عصر ومصر.

فالمنافقون يقولون: لئن عُدنا من غزوة بني المصطلق، ليخرجنّ فريقنا الأعز، من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٩/٣٢٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٣١٥).

المدينة، فريق المؤمنين الأذل، حتى لا يبقى منهم أحد، فتخلُو المدينة منهم، وقد رأينا كيف تحقق عكس ذلك على يد ابن القائل، فلم يدخل الأذل وهم المنافقون، إلا بإذن الأعز وهو رسول الله ﷺ.

موقف عبدالله بن عبدالله من أبيه:

في حديث مرسل عن عكرمة من طريق الحكَم، أن عبد الله بن أُبيّ بنَ سلول، كان له ابن يقال له: حُباب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، فقال للنبي ﷺ: إن والدي يؤذي الله ورسوله، فذرني حتى أقتله، فقال له النبي ﷺ: (**لا تقتل أباك**)، وكرر ذلك مرتين.

ثم قال: يا رسول الله، فذرني حتى أسقيه من وَضُوئك، لعل قلبه أن يلين، فتوضأ رسول الله ﷺ وأعطاه إليه فسقاه، ثم قال له: هل تدري ما سقيْتُك؟ قال: نعم، سقيتني بول أمك، فقال له ابنه: لا، والله، ولكن سقيتك وَضُوء رسول الله ﷺ.

قال عكرمة: وكان عبد الله بن أُبيّ (الأب) عظيم الشأن فيهم، وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ وهو الذي قال ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[1].

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين، أن النبي ﷺ كان مُعَسْكِراً، وأن رجلا من قريش كان بينه وبين رجل من الأنصار كلام، فاشتد الأمر بينهما، فبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ، فخرج فنادى: غلَبني على قومي من لا قومَ له، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخذ سيفه ثم خرج عامداً ليضربه، فذكر هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] فرجع فدخل على النبي ﷺ وأخبره فقال ﷺ: قم فناد في الناس يرتحلوا، فارتحَلُوا، وتعجل عبد الله بن أُبيّ (الابن) حتى أناخ بجامع طرق المدينة، ودخل الناس، حتى جاء أبوه، فقال: وراءك، والله لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ﷺ

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦٥٠/٨): مرسل عن عكرمة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الفتح (٦٤٨/٨) وهو عند الطبري (٦٢٢/٢٢) وعبد الرزاق (٦٦٢٧).

ولتعلَمنّ اليوم من الأعزِّ من الأذل، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه النبي ﷺ أنْ خلّ عنه حتى يدخل، ففعل، ثم لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى عبد الله واشتد وجعه، فقال لابنه عبد الله: يا بنيّ، ائت رسول الله ﷺ فادعُه، فجاء النبي ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فقال لأهله حين دخل النبي ﷺ: أجلسوني، فأجلسوه، فبكى، فقال ﷺ: (أجَزعاً يا عدوّ الله الآن)؟ فقال: يا رسول، إني لم أدْعُك لتؤنبني، ولكن دعوتُك لترحمني، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ فقال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا مِت، أن تشهد غسْلي وتكفنّي في ثلاثة أثواب من أثوابك، وتمشي مع جنازتي وتصلي عليّ، ففعل النبي ﷺ فنزلت ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[1] [التوبة:٨٤].

وهذا الموقف يشير إلى أن ابن أبي كان يعتقد أن محمداً رسول الله، ولكن الكبر والعناد والحرص على الزعامة كان يمنعه من التسليم والاذعان.

وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالمذلة والهوان للكافرين والمنافقين، وللشيطان وأهله.

والمؤمن يستمد عزته من إيمانه، فالعزة صنْو الإيمان في قلب المؤمن، وعزة المؤمن من عزة الله تعالى.

رأى بعض الناس امرأة صالحة في هيئة رثّة، فقال لها: ألسْتِ على الإسلام؟ وهو العز الذي لا ذُل معه؟ والغنى الذي لا فقر معه؟

فالعزة المطلقة، والقوة التي لا تقهر هي التي حَبَى الله بها رسوله ﷺ والمؤمنون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، فلا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله تعالى، ولا ينبغي له أن يتلمس النصرة والعزة لدى أعداء الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٩].

---

(١) الدر المنثور (٥٠٦/١٤) وانظر القصة في صحيح البخاري (٤٩٠٠،٤٩٠٣،٤٩٠٤) وصحيح مسلم (٢٧٧٢)، وانظر ما سبق في مقدمة السورة.

والعزة: أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيُكْرمها، ويضعها في موضعها اللائق بها، وهذا يختلف عن الكبر، فإن المتكبر يجهل حقيقة نفسه، فيضعها فوق منزلتها.

كما أن التواضع يختلف عن الضعة، فالمسلم يتواضع، ولكنه لا يكون وضيعاً، يضع نفسه حيث يُهان، ولا يضعها حيث تكرم[1].

نَهْي المؤمنين عن التشبه بالمنافقين:

وبعد ذكر قبائح المنافقين حذر الله سبحانه المؤمنين أن يتشبهوا بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والإعراض عن ذكر الله تعالى، فقال:

٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ ﴾

يا من صدقتم بالله ربا ومعبودا واحداً لا شريك له، واتبعتم رسوله محمداً ﷺ لا تشغلكم الدنيا وما فيها من مال وجاه وولد عن عبادة الله تعالى وطاعته، وأداء ما افترضه عليكم من الصلاة والزكاة والحج كما شُغل المنافقون.

وذِكْرُ الله تعالى عام يشمل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن وسائر الطاعات.

والاشتغال بالمال يكون عن طريق كسبه ونمائه، والاشتغال بالأولاد يكون بتربيتهم، وتعليمهم، وتحصيل القوت لهم، وتدبير شؤونهم، والأُنس بهم، وكل هذا مطلوب، وغير مذموم في حد ذاته، ولكن الاشتغال به عن طاعة الله الواجبة هو المذموم.

وخُصّت الأموال والأولاد بالذكر، لأنهما أكثر ما يُلْهي الإنسان ويُشغله، وقد يَقْضي الإنسان معظم أوقاته في جمع المال بطرق مشروعة أو غير مشروعة مُضحّياً بما يفرضه عليه الإسلام من واجبات وأخلاق وآداب!

ومن أجل تربية الأولاد وتعليمهم قد يضحي الآباء براحتهم ومروءاتهم، فإذا اشتغل

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي (١٥١/٨).

الإنسان بحسن تربية أبنائه، وبتحصيل المال من حلّه ولم يصرفه ذلك عن أداء حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فإن هذا لا يكون مذموماً، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

أما من كان عكس ذلك فقد خسر دنياه وأخراه، وخسر السعادة الأبدية والنعيم المقيم كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي هم الذين غبنوا حظهم من كرامة الله ورحمته، وبلَغوا غاية الخسران والغفلة، لأنهم آثروا ما ينفعهم في العاجلة، عما ينفعهم في الآجلة.

أَمرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُدَاوَمَةِ عَلَى إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٠ - ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن[1] مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وبعد أن نقض سبحانه وتعالى كيد المنافقين وأبطل قولهم السابق ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ﴾ أمر المؤمنين بالمداومة على إنفاق المال في وجوه الطاعات والخيرات، من الزكاة المفروضة، ومن الصدقات المستحبة، ويدخل في ذلك نفقة الزوجات والأبناء وكل من يعول، ويدخل فيه بذل المال في مصالح المسلمين العامة. ولْيكن ذلك بسخاء وسماحة نفس، أنفقوا مما رزقكم الله من نعمه التي لا تعد ولا تُحصى، على عكس سياسة التجويع التي ينتهجها أعداء الإسلام.

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ ﴾ أيها الناس ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ أي من بعض ما أعطاكم الله من نعمه، في وجوه الخير والبر، والله تعالى لا يكلف الناس ما لا يطيقون ولا ما يشق عليهم، وإنما طلب منهم الإنفاق بجزء من أموالهم لا بكله، أنفقوا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ بظهور دلائله وعلاماته، وحينئذ فإن الندم، وطلب الإمهال، أو طلب

(١) قرأ أبوعمرو (وأكون) عطفا على ﴿فَأَصَّدَّقَ ﴾ والباقون ﴿وَأَكُن﴾ لالتقاء الساكنين وإسكان النون للجزم.

الرجعة إلى الدنيا لا ينفع ﴿فَيَقُولَ﴾ نادماً متحسراً على ما فرط منه، سائلاً ربه الرجعة ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي ألتمس منك يارب أن تؤخر أجلي إلى وقت قريب كي أتدارك ما فاتني ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي أتصدق من مالي ما أنجو به من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، وأُحسن عملي، فأكون من الصالحين الأتقياء الممتثلين للأوامر المجتنبين للنواهي.

وجاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩،١٠٠].

وهكذا يقول كل ظالم عندما يحتضر للموت حيث يقول الظالمون ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم:٤٤].

فكل مفرّط يندم عند الاحتضار، ويَسأل طول المدة في الدنيا، ولو وقتاً يسيراً جداً يستدرك فيه ما فاته.

وما من إنسان إلا ويندم يوم القيامة: المحسن يتمنى لو ازداد من حسناته، ولو بتسبيحة أو تهليلة، ولو بخطوة يخطوها إلى المسجد، ولو بكلمة طيبة، ولو بإماطة الأذى عن الطريق، والمسيء يندم على تقصيره وتفريطه في جنب الله تعالى.

العُمُرُ مَحْدُودٌ، لاَ يَتَقَدَّمُ وَلاَ يَتَأَخَّرُ

١١ - ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ[1] ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] ﴿١١﴾﴾

ثم بين جل شأنه أنه لن يمهل أحدا أيّاً كان، إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره ولا لحظة ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ وحان وقت موتها بانتهاء عمرها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩].

---

(١) قرأ ورش وأبوجعفر بإبدال همزة ﴿يُؤَخِّرَ﴾ واوا، وصلاً ووقفاً وكذا حمزة عند الوقف، ورقق الأزرق راءها والباقون بالتفخيم.

(٢) قرأ شعبة بياء الغيب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ والباقون بتاء الخطاب

والأجل هو المدة المحدّدة لحياة الإنسان التي يتصل فيها الروح بالجسد.

وهذا إرشاد من الله تعالى للمؤمنين، ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، وليحترسوا من التفريط والتقصير في حق الله تعالى وحق العباد، فإن الله سبحانه محيط بهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خير أو شر، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

روى الترمذي بسند فيه انقطاع عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من كان له مال يُبلِّغه حج بيت ربه، أو تجب فيه عليه زكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال: سأتلو عليك بذلك قرآنا، وقرأ هذه الآيات الثلاث، قال الرجل: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مئتين فصاعدا، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير)[1].

فالآية من باب الترهيب والوعيد لكل من حضره الموت وهو تارك لما عليه من فرائض.

ومعنى الأثر صحيح وإن كان في سنده ضعف.

على أن الندم عند الاحتضار لا يلزم منه العذاب الأخروي إلا في شأن الكافرين والمنافقين.

في حديث أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «**أنْ تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهِل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[2].

تم تفسير (**سورة المنافقون**) ولله الحمد والمنة

---

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣١٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (١٤١٩،٢٧٤٨) وصحيح مسلم (١٠٣٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّغَابُنِ (٦٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التغابن) هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة بعد المئة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الجمعة) وقبل (سورة الصف)، على القول بأنها سورة مدنية، ولعل الأصح أن الآيات الثلاث الأخيرة من السورة مدنية، نزلت في قوم أسلموا وأرادوا الهجرة من مكة فأبى أزواجهم وأولادهم:

أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة، في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله، فأنزل الله الآيات[1].

والسورة من أولها يبدو عليها طابع القرآن المكي، فهي تتحدث عن دلائل التوحيد واليوم الآخر، وتضرب الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية، التي كذبتْ رسل الله، وتبين ما حلّ بالمكذبين من الهلاك والدمار نتيجة كفرهم وضلالهم.

وسميت سورة التغابن لورود هذا اللفظ فيها، ولم يُذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثماني عشرة آية باتفاق.

وهي مئتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

مقاصد السورة:

ومن مقاصد السورة: غرس حقيقة التوحيد في قلوب البشر، وتنزيه الله تعالى عن الشركاء، وتقوية الصلة بين الخالق والمخلوق، فكل ما في هذا الكون يسبح الله تعالى ويقدسه، وينزهه عن جميع النقائص، لأنه الخالق الرازق، الجدير بالحمد والشكر.

---

(١) تفسير الشوكاني (٥/٢٣٢) وينظر: تفسير الطبري (٢٨/٨١) وهو عند النحاس (ص ٧٤٥).

والآيات تشير إلى قدرة الله المطلقة، وتبين أثر هذه القُدْرة في خلْق الإنسان، وإبداع صورته، واختيار توجّهه، وأثرها في إبداع خلق السموات والأرض، وتبين إحاطة علمه تعالى بجميع ما في الكون٠ هذا ما تضمنته الآيات الأربع الأول من السورة.

وفي هذا المقطع: تذكير بمصارع الغابرين من المكذبين لرسل الله، المعترضين على بشرية الرسل، آية ٥،٦.

وبعد ذلك يأتي ذكر المكذبين للبعث والنشور، وتوثيق الرد عليهم بالأيمان المغلظة، ومن ثَم إلى بيان ما في يوم القيامة من بعث وحساب وجزاء على الأعمال وذلك من الآية ٧-١١.

وفي أعقاب ذلك دعوة الخلق جميعاً إلى طاعة الله تعالى ورسوله آية ١٢،١٣ فإن أرادوا النجاة، فليؤمنوا بالله وحده، وليصدقوا برسوله ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء، ثم تحذر الآيات من فتنة الأزواج والأبناء والأموال.

وتُختم السورة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى قدر الطاقة، والسمع والطاعة، وبذل المال في سبيل، الله وقاية للنفس من الشح والبخل، فإن في هذا، الفوز والفلاح، وهذا من الآية ١٤-١٨.

وهكذا فإن سورة التغابن فيها ثلاثة مقاطع:

١- ففي الآيات الست الأول تسبيح الله تعالى، تنبيهاً على شذوذ المعصية، ووضاعة مرتكبيها، فالكون كله يعرف ربه وينقاد لأمره.

أما الناس: فمنهم من يجحد حقوق الله تعالى ويحارب رسله، مع أن الله تعالى قد خلقه وأحسن صورته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ومنهم المؤمن المعترف بربه المسبح بحمده، المطيع لله والرسول.

وللجاحدين المكذبين عبرة وعظة فيمن سبقهم بما نزل بهم من عذاب دنيوي، فيرجعوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم.

٢- وفي الآيات السبع بعدها قَسَمٌ على أن البعث حق لابد منه، سواء أقرّ به الجاحدون أم أنكروه، فكثير من الناس في زحمة الحياة وحضارتها لا يوجد لليوم الآخر مكان في قلوبهم بالاستعداد له.

٣- وفي الآيات الخمس الأخيرة، بيان أن الضلال والعدوان يحتاجان إلى تضحيات ينبغي أن يتحملها أهل الإيمان بصبر ومصابرة وجلَد، ومقاومة إغواء الأبناء والأزواج، وضرورة البذل والكفاح ...

وهكذا: فإن السورة تحدثت عن العقيدة في مطلعها، وتلا ذلك الحديث عن الوحي والرسالة في الآيتين الخامسة والسادسة، ثم تحدثت عن اليوم الآخر بدءاً من الآية السابعة، وهذه العناصر الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وفي نهاية السورة دعوة إلى طاعة الله ورسوله، وألاّ يثنيهم عن ذلك فتنة المال والجاه والولد، والله تعالى لم يكلّفنا فوق الطاقة بل أمرنا بالسمع والطاعة والاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، وعلاج الشح والبخل في النفس البشرية، والله تعالى يضاعف الأجر والجزاء لمن يُقرض الله قرضاً حسناً، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، والله شكور حليم، يعلم ما غاب وما شوهد، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُوَحِّدُ اللهَ تَعَالَى وَتُنَزِّهُه عَنْ كُلِّ نَقْصٍ

١ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

ابتدأت سورة التغابن وسورة الجمعة بتسبيح الله تعالى، بلفظ المضارع: للدلالة على التجدد والاستمرار في التسبيح بحمد الله من جميع الكائنات.

وابتدأت سور: الحديد والحشر والصف بصيغة الماضي: للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت من جميع الكائنات لله وحده من قديم الزمان.

والتسبيح بلفظ الماضي يعقبه حديث عن العالم العلوي وأوصاف الله تعالى ، والتسبيح بلفظ المضارع يعقبه حديث عن العالم السفلي .

ولمّا كان مقصود السورة الأعظم: هو إبطال الشرك، ومقاومة إنكار البعث، والرد على تكذيب خاتم الرسل ﷺ والقرآن الذي نزل عليه، وهذه الثلاث هي أصول الضلال.

لما كان الأمر كذلك، ابتدأت السورة بالإعلان عن ضلال المكذبين المنكرين، الكافرين بالنِعم التي أنعم الله بها عليهم، فبينتْ أن جميع ما في السموات والأرض، ينزه الله تعالى عن جميع النقائص بلسان المقال ولسان الحال، فكلها مربوبة لله تعالى، ومسخَّرة لما أراده منها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالكل يعرف أن الله تعالى خالقُه ومُوجدُه، وأن بقاءه مستمدّ منه سبحانه، ولذلك فهم يسبحون الله بحمده، وينقادون لأمره ونهيه، وينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله.

وهو جل شأنه المتصرف في ملكه كيف يشاء، تصرُّف اختصاص لا شريك له فيه.

أحد عشر وصفاً لله تعالى في السورة:

وقد اشتملت الآيات الأربع الأول من السورة على أحد عشر وصفاً ودليلاً لله تعالى وهي: الملك والحمد والقدرة. وهذه الثلاثة في الآية الأولى.

ثم ذكرت خلْق العباد، وأنه تعالى بصير بهم، وهاتان الصفتان في الآية الثانية.

ثم ذكرت خلْق العلم العلوي والسفلي، وتصوير الإنسان في أحسن صورة، وإليه المرجع

والمصير، وهذه الثلاثة في الآية الثالثة.

ثم بيّنتْ إحاطة علم الله تعالى بالكون، وعلمه على وجه الخصوص بالسر والعلن، وما هو بداخل الصدور، وهذا في الآية الرابعة.

فهذه أوصاف لله تعالى، ودلالات بارزة على أن خالق هذه الكائنات هو الجدير بالتنزيه والتقديس والتعظيم والتوجه له وحده بالعبادة، ولذا: فإن جميع الكائنات تسبح بحمده.

وقد وصف الله تعالى نفسه في الآية الأولى بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنه سبحانه ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الكامل التام المطلق لهذا الكون كله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، وله الثناء الحسن. والذكر الجميل، وهو الغني عن خلقه، وجميع الخلائق مفتقر إليه.

الوصف الثاني: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لأن أصول النعم وفروعها كلها منه سبحانه، ولا يُحمد في جميع الأحوال إلا هو عز وجل، فالحمد كله له، حمد على مَالَهُ من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من المخلوقات، وحمد على ما شرعه لعباده من الأحكام، وما أسداه عليهم من نعم، فهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء كما يشاء، بلا مانع ولا مدافع.

الوصف الثالث: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرته شاملة لا يندُّ عنها مخلوق، ولا يشق عليه شيء يريده، ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو القادر على كل شيء، لا يعجزه شأن في الأرض ولا في السماء.

وهذه المخلوقات تسبح بحمد الله تعالى، وجميع الكائنات تَدين لله تعالى بالولاء والربوبية وتدُل على صفة القدرة.

ومن يشاهد المخلوقات في جنبات هذا الكون الفسيح يعلم أن خالقها قادر على كل شيء ولهذه القدرة آثار كثيرة:

أَرْبَعَةٌ مِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ: خَلْقُ الإِنْسَانِ هُوَ الأَثَرُ الأَوَّلُ

٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

هو الذي خلقكم ـ أيها الناس ـ بقدرته وزودكم بالعقول التي تُعينكم على معرفة الضلال من

الهدى، وأرسل لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، ومع ذلك فقد وُجد منكم من اختار الإيمان، ومنكم من اختار الكفر، فالله تعالى قد خلق الكافر، وكُفْره مِنْ كَسْبه، وخلق المؤمن، وإيمانُه من كَسْبه، وقد علم الله كفر الكافر وإيمان المؤمن في الأزل.

فالإنسان له شأن آخر أراده الله منه ليثيبه ويعاقبه عليه، غير الانقياد الشامل كسائر المخلوقات، فقد بدأت السورة بهذا التسبيح، من جميع الكائنات إشارة إلى شذوذ من يخالف هذا الانقياد، ولا يخالفه إلا الثقلان من الإنس والجان فيعصي الله تعالى ويخالف أمره ونهيه.

ومن النقائض أن يخلق الله العبد ويُحْسن صورته، ويسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ثم يكون من الذين يتجرؤون على الله تعالى، ويجحدون وحدانيته، ويحاربون رسله، كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:٤] وخلْق الإنسان أثر من آثار قدرة الله تعالى، وخلْق الإيمان والكفر، أثر من آثار قدرة الله تعالى أيضاً.

ومن الناس من اختار الإيمان عقيدةً له ومنهجاً، ومنهم من اختار الكفر طريقاً له ومسلكاً، وتحقُّق كل منهما في الوجود وفْق علم الله الأزلي، أمر كائن لا محالة، فقد تم تقدير ذلك وتدوينه في أم الكتاب عند نفخ الروح في الإنسان قبل أن يكون بشراً سوياً.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ أيها الناس من العدم في هذا الشكل البديع المحكم، فكان من الواجب عليكم ألا تجحدوا حق الخالق سبحانه، بأن تكونوا مؤمنين قاطبة، ولكن كان منكم الجاحد لألوهية الخالق، ومنكم المصدق به العامل بشرعه ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ [النحل:٣٦].

وقُدِّم الكفر على الإيمان، لأنه الأكثر، مع أن الله تعالى خلَق لنا عقولاً، تُعين على معرفة الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومع ذلك فمنكم من اختار طريق الكفر، ومنكم من اختار طريق الإيمان، ولو شاء الله لصرَف أهل الكفر جميعاً إلى الإيمان، ولكنه سبحانه خلق البشر

خلقاً مختلفاً عن الملائكة والحيوانات، فجعل له حرية وإرادة فيما يكتسبه من أعمال وأقوال، وهذا مقتضى انكشاف علم الله تعالى بما سيكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، وهو كالعِلْم المشاهد الذي لا خفاء فيه بالنسبة لله تعالى، ولا دخل لهذا العلم في اختيار العبد وتصرفه، ولا يحاسب على ما لا اختيار له فيه، كالطول والقصر، والسواد والبياض.

وهذا ما تفسره الأحاديث:

١ - كقول النبي ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق للجنة أهلا، خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلَق للنار أهلا، خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[1].

٢ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتْب رِزْقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[2].

٣ - وفي حديث أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**وكّل الله بالرحم ملَكاً، فيقول: أيْ رَب نطفة، أي رب علقة، أيْ رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلْقها، قال: أي رب، أَذَكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيُكْتب ذلك وهو في بطن أمه**»[3].

٤ - وفي أثر موقوف على أبي ذر ﷺ أن المني إذا مكَث في الرحم أربعين ليلة، أتاه

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٢).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٣) وصحيح البخاري برقم (٣٢٠٨،٧٤٥٤، ٦٥٩٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٣١٨، ٦٥٩٥) وصحيح مسلم (٢٦٤٦).

ملَك النفوس، فعَرج به إلى الرب، فيقول: يارب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتبُ ما هو لاقٍ، وقرأ أبوذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

وقد ذكر الله تعالى خلْق الخلْق في هذه الآية، ثم وصفهم بفعلهم وكسبهم وهو الإيمان والكفر.

قال في تفسير الخازن: وجملة القول فيه: (أن الله تعالى خلَق الكافر، وكُفْرُهُ فعلاً له وكسباً، وخلَق المؤمن، وإيمانهُ فعلاً له وكسباً، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالمؤمن بعد خلْق الله إياه، يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدَّره عليه، وعَلِمهُ منه.

والكافر بعد خلق الله إياه، يختار الكفر، لأن الله تعالى قدَّر ذلك عليه، وعَلِمهُ منه)[2].

وعلم الله تعالى سابق على اختيار العبد، وهذا العلم لا يجبر العبد على اختيار أحد النجدين، ولذا: فقد ختم الله الآية بما يفيد انكشاف علْمه تعالى في الأزل عما سيكون عليه العبد قبل أن يُخلق، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم كفر الكافر قبل أن يكون بشراً سوياً، ويعلم إيمان المؤمن كذلك، وهو سبحانه مطّلع على كل شيء وسيجازيكم بأعمالكم وأقوالكم (وكل عبد يبعث على ما مات عليه)[3].

الأَثَرُ الثَّانِي مِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ: خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

٣- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾

ثم ذكر الله سبحانه أثراً ثانياً من آثار قدرة الله تعالى، وهو خلْق السموات والأرض،

---

(١) أخرجه الطبري موقوفاً (٢٣/٦) وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه كما في الدر المنثور (١٤/٥١٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٢٧٤).

(٣) من حديث جابر في المستدرك (٢/٤٩٠) وصححه الحاكم والذهبي.

بعد أن ذكَر خلْق الإنسان المكلف بالأوامر والنواهي، وبيّن أن من الناس كافر يحيد عن طريق الحق الذي أقيم عليه هذا الكون، ومنهم مؤمن.

وهذا الحق الذي خلق الله به السموات والأرض هو: أن يؤمن الناس كلهم بخالقهم ويُفْردوه بالعبادة، وهو الهدف الذي أراده الله منهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦] وقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠] .

فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر، فقد حاد عن الحق والفطرة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالحكمة البالغة المتضمنة لمصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهي حكمة لا يشوبها عبث ولا لهو.

والمراد بالسموات والأرض ذواتهما، وما فيهما من الملائكة والإنس والجن وسائر العوالم.

والمعنيُّ بلفظ الحق في الآية، هو الإنسان، لأن بعض الناس يخرج عن هذه الحكمة أو الغاية التي خُلق لأجلها، وهي توحيد الله تعالى وطاعتُه، فالإنسان هو الذي يعمل بهذا الحق، ويقوم بهذه الحكمة، ليحقق الغاية التي خُلق لأجلها

وقوله تعالى: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ إشارة إلى أن كلاًّ من المؤمن والكافر، سيُبعث ويحاسب ويجازى يوم القيامة على ما قدمت يداه، ولو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، لاستوى المؤمن والكافر، والمطيع والعاص، والبر والفاجر، ولَكانَ تكليف الناس بالطاعات، ونهْيهم عن المعاصي عبثاً ولهواً.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ﴾[ص:٢٧] .

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الدخان:٣٨،٣٩] .

وما وجود الفساد في الدنيا، إلا بسبب عدم مجازاة الناس على أعمالهم بالعقوبات المستحقة شرعاً، وعدم تحقيق العدل بينهم، فكثيرا ما نرى أهل الصلاح في السجون،

وفي الفقر والكروب، ونرى أهل الفساد في نعمة وحياة عريضة.

الأثر الثالث من آثار قدرة الله تعالى: خلق الإنسان في أحسن صورة:

ثم امتن الله تعالى على عباده بأنه خلقهم في أحسن صورة، وأجمل هيئة فجعل الإنسان منتصباً غير منكب على وجهه، مع استقامة وتناسب أعضائه ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة وأبهاها منظراً، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] . وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:٦٤] .

وقال جل شأنه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٧،٨] .

وما يعرض لبعض الناس من تشويه، أو نقص في صورته، فهو من عوارض يتعرض لها الجنين مدة تكوينه، كأمراض أو علل أو صدَمات وهو في بطن أمه.

ولأن الآية تشير إلى البعث والنشور، فقد ختمها الله بقوله ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب يوم لقاء رب العالمين، فيسألهم عما أنعم عليهم به من نعم، ويسألهم عن إيمانهم وكفرهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

الأَثَرُ الرَّابِعُ مِنْ آثَارِ الْقُدْرَةِ: عِلْم مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ

٤ - ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾

هذه الآية اشتملت على ثلاثة أمور، كل منها أثر من آثار القدرة الإلهية:

الأمر الأول: أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في جوف الأرض ولا في جو السماء، ولا ما بينهما، يعلم السرائر والظواهر، والغيب والشهادة، فعلمه تعالى شامل ومحيط لكل ما في الكون، من الكليات والجزئيات، ومن ذلك ما تأكله الأرض من أجساد الموتى، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] .

ولما كان الكافرون ينكرون البعث والنشور، ويقولون: إن الإنسان إذا مات وتفرقت أجزاء جسده في الأرض، فإنه لا يمكن جمعها وإعادتها مرة أخرى، كما قال الله تعالى

عنهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي دُفِنّا فيها وغُيّبنا تحت التراب ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة:١٠] .

وقال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٤٩] .

وقد دحض الله شبهتهم وكذّب مقولتهم في قوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يغيب عن علمه ما تفرق من أجزاءهما أو تناثر فيهما، ويعلم ما فيهما من أجرام وكائنات ومخلوقات، ومن ذلك جميع الموتى الذين احترقوا بالنار، أو غرقوا في البحار، أو أكلتهم السباع، أو صارُوا أشْلاء ممزقة في الحروب، أو أتت عليهم أسلحة الدمار الشامل ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٣،٤] .

وكثيراً ما استبعد الملحدون هذه الإعادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٧،٨] .

الأمر الثاني: أن علْم الله تعالى شامل لكل شيء، لا تخفى عليه خافية في ظاهر النفس البشرية وباطنها، فهو يعلم الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.

وهو عِلْم شامل محيط بالكليات والجزئيات، لا يعزب عنه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم ما تخفونه فيما بينكم ويعلم ما تظهرونه لغيركم كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] أي يعلم السر والنجوى، ويعلم ما هو أخفى من السر، مما تكنه الصدور، وما تضمره النفوس.

الأمر الثالث: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ومن ذلك علْمه سبحانه بالخفايا والنوايا والخواطر، وما تخفيه الصدور، وتكنه القلوب، يستوي في علمه ما ظهر وما بطن ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] .

والذي يعلم ذلك، لا يعجزه جمع ما تفرق من أجزاء الجسد في الأرض أو البحر أو الجو، فإن معرفة السر أدق وأخفى من معرفة الأجزاء المتفرقة.

قال أبوحيان: نبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بِسِرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليها بالثواب والعقاب[1].

وُجُوبُ الاعتِبَارِ بِمَا حَدَثَ لِلأُمَمِ الكَافِرَةِ مِنْ عَذَابٍ دُنْيَوِيٍّ

٥- ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا[2] الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

وبعد أن توعّدت الآيات الفريق الذي كفر بالله ورسوله بالعذاب الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ توعّدهم الله بعد ذلك في هذه الآية بالعذاب الدنيوي الذي حل بأمثالهم ممن كذب رُسل الله، تحذيراً لهم من تكذيب خاتم المرسلين، حتى لا يصيبهم ما أصاب من سبقهم.

والخطاب في هذه الآية موجه للفريق الذي تقدم ذكره في قوله تعالى في الآية الثانية ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ بعد أن ذكر سبحانه من أوصافه ما به يُعرف ويُعبد، ويُبذل الجهد في مرضاته وتجنُّب سخطه.

ذلكم هو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي ألم يصل إلى علمكم أيها الجاحدون المكذبون ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي خبر الذين كفروا بالله ورسله من الأمم الماضية قبلكم، الذين لم تزل أنباؤكم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل بالحق من عند الله كذبوهم وعاندونهم فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا وعاقبهم في الآخرة، كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ...

---

(١) تفسير البحر المحيط (٢٧٧/٨).

(٢) رسمت (نبؤ) بالواو في المصحف، وقد وقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بخمسة أوجه هي:

١- الإبدال ألفا، ٢- التسهيل بالروم، ٣- الإبدال واوا على الرسم مع السكون المحض والروم والإشمام.

فكان عاقبتهم الدمار والهلاك، لقد وصل إلى علمكم خبر هؤلاء وغيرهم، وعلمتم أن إصرارهم على الكفر قد أدى بهم إلى الهلاك في الدنيا، فعليكم أن تعتبروا بهم، وأن تفيئوا إلى رشدكم، وأن تتبعوا هذا الرسول الذي ختم الله به النبوة، فإن مَنْ سبقكم قد مسّهم سوء عاقبة كفرهم، وسوء أفعالهم وهم في الدنيا ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي نالهم عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجع مؤلم في الدار الآخرة.

التَّكْذِيبُ بِخَاتِمِ الرُّسُلِ ﷺ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الْكُفْرِ

٦ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

بين سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن عدم الاستفادة من دراسة التاريخ أدت إلى سوء عاقبة المكذبين، فقد أنكر بعض الناس الإيمان بالله واليوم الآخر وأنكر بعضهم الوحي، لأن الذين حملوه إليهم بشر مثلهم، وقالوا ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت:١٤] إنه يصعُب على نفوسهم أن يعبدوا إلهاً واحداً ويصعُب عليهم أن يتفوّق عليهم غيرهم من البشر، ولذا: فإنهم يسعوْن في هدْم ما جاؤوا به، ويتطاولون عليهم، ولا يعترفون بتميُّز غيرهم عليهم، ولهذا فقد كفروا بالله تعالى ورسله، وتكبروا عليهم، وأعرضوا عن دعوتهم.

وفي هذه الآية تقرير لهذه الحقيقة، وهي عدم الإيمان بالله والتكذيب لرسله ، لاسيما تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ الذي نزلت عليه هذه الآيات، وهو المعنيّ بها، إذ ليس بعده نبي يبعث: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أن الهلاك الذي لحق بمن كذب برسل الله في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة، سببه: أنه كانت تأتيهم رسل الله بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، فيكذبونهم، معتقدين استحالة أن يرسل الله إليهم بشراً مثلهم ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي قالوا منكرين: أبشر مثلنا يرشدوننا؟ وليس لهم فضل علينا، فلأي شيء خصهم الله دوننا، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن

﴿ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١] إنهم ينكرون أن يكون الرسول بشراً ولا ينكرون أن يكون الإله حجراً!! كما قال المكذبون بمحمد ﷺ: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس:٢] .

وقال تعالى عنهم: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤] .

وقال أيضا: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق:٢] .

ومن العجب لديهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، يأكل ويشرب، ويتزوج النساء، ويقضي حاجاته بنفسه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧].

لقد جهلوا أنه لا يصلح لإرشاد الناس إلا من كان من نوعهم ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥] .

والسبب أن البشر لا يقوى على مخالطة الملَك، ولا يفهم كلامه، ولا يقدر على التلقي عنه، ونتيجة لهذا الجهل، فقد كفروا بالله، وجحدوا رُسله، وأعرضوا عن الحق فلم يقبلوه ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ﴾ وهكذا قال قوم صالح له ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر:٢٤،٢٥] .

قال الفخر الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً[1].

﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ عنهم وعن إيمانهم، وعن طاعتهم، فهو صاحب الغنى التام المطلق كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر:٧] .

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] .

﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ ﴾ عنهم، لا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم في شيء، وهو سبحانه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي محمود على كل حال في أقواله وأفعاله وذاته وأسمائه وصفاته.

إِنْكَارُ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْكُفْرِ

٧- ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/٢٣).

وبعد أن ذكرت السورة كُفْر من كَفَر بخالق السموات والأرض، وبصاحب الرسالة الخاتمة، وبالكتاب الذي نزل عليه، ذكرتْ ضرباً ثالثاً من ضُروب الكفر، وهو كفرهم بالبعث والجزاء، بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير، وقد أمر الله رسوله أن يقسم لهم على بعثهم وجزائهم بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً.

وبدأت الآية، بتسمية مقالة الكفار هذه زَعْماً، وهذا تكذيب لهم ولزعمهم في أول كلمة من الآية ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ وبين الزعم والكذب عموم وخصوص، فالزعم هو القول الخاطىء المخالف للواقع.

والكذب: هو الذي يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن السامع.

وكُنْيةُ الكذب: الزعم كما قال شريح، وفي الأثر (بئس مطية الرجل إلى الكذب: زَعَمُوا)[1].

فالزاعم يتوهم أنه صادق فيما قال، كما يزعم الكفار انتفاء البعث والنشور، وأن الله تعالى لن يبعثهم من قبورهم، وهو ادّعاء باطل أَمر الله رسوله أن يقسم على عدم صحته ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي والله لَتخْرُجُنّ من قبوركم أحياء ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ووالله ليُخْبركم ربكم بما عملتموه في الدنيا من خير أو شر.

وإحياء الناس بعد موتهم أمر سهل يسير على الله تعالى؛ وإن كان أمراً مستحيلاً بالنسبة للبشر، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وكل شيء هيّن على الله تعالى، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، ولكن لما كانت الإعادة أهون من البدء في عرف الناس، عبر سبحانه بها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

وقد أكّد القرآن ذلك بأعظم توثيق، إذ ليس بعد قسم الرسول بربه توكيد.

وهذه هي الآية الثالثة التي يأمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه جل وعلا على صدق البعث.

---

(١) رواه أبوداود عن حذيفة بن اليمان بسند فيه انقطاع، ورواه ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (٨/٤٤٩) وأحمد في المسند (١٧٠٧٥،٢٣٤٠٣) والبيهقي في الشعب معلقاً (٥٢٢٥) وضعفه محققو المسند، لأن أبا قلابة لم يدرك أبا مسعود البدري، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣٣٩٢).

والآيتان قبلها هما قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: إنكار البعث جريمة قديمة، ولكنها لم تلْق الانتشار الذي أتيح لها في هذا العصر، فالحضارة التي تُظلنا زيّنت الحياة الدنيا، وأهالت التراب على ما بعدها، بل إن الكلام عن اليوم الآخر وَهم، لا يجوز أن يجري على ألسنة العقلاء! وأهل الكتاب يقودهم اليهود في هذا الإنكار، وملاحدة العرب يُجَرِّئون الجماهير على نسيان الله وجحْد لقائه، ويَضيقُون بالقرآن وهو يصور مشاهد الآخرة، إن قضايا الدين كلها تحتاج إلى عرض جديد يقاوم الإلحاد السائد[1].

وُجُوبُ الاعْتِصَامِ بِالإِيمَانِ وَالتَّمَسُّك بِالْقُرْآنِ

٨- ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

وفي ظل هذا التوكيد الموثق على وجوب الإيمان بالبعث والنشور، تأتي الدعوة إلى التمسك بالإيمان بالله ورسوله، وبالكتاب المنزل عليه قبل فوات الأوان، فإن الإيمان بالله ورسوله، هو الذي يعصم من الزلل، وينجي من الهلاك والشقاء، وفيه الخروج من موجبات الكفر السابق ذكرها، وهو نور يهدي به الله من يشاء، فإن ما في هذا الكتاب من الأحكام والشرائع والأخبار، نور يبدد ظلمات الجهل، وإذا علمتم ما حل بالمكذبين قبلكم ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ أيها الجاحدون المكذبون ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لئلا ينزل بكم ما نزل بغيركم من العقوبة، واهتدوا بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، فهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، وهو النور الوضّاء، المبدّد للشبهات، كما يُبدّد النور الظلام.

ولا يوجد كلام موثّق مِنْ أَلِفِه إلى يائه، محفوظ بحفظ الله تعالى من التحريف والتغيير والتبديل، إلا هذا القرآن، فقد أحصى العقائد المنْجية، وساقها في حشْد من الأدلة تورث اليقين.

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص (٤٦٣).

وقد سماه الله نورا في كثير من آياته، فقال هنا: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

ومما ورد في غير هذه السورة قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥،١٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وقوله عز وجل في وَصْفه بالهداية والرحمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان أنه تعالى مُطَّلع على جمع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأنتم مكشوفون أمام الله تعالى، وسوف يمنحكم الخير إن آمنتم، ويُلْقِي بكم في النار إن كفرتم.

والخبير هو العليم بالمحسوسات وغير المحسوسات، كالمعتقدات، والإيمان بالبعث والحساب والجزاء، أما البصير فهو يخص المحسوسات.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بِحَرَّةِ الوَبَرَة، أدركه رجل قد كان يُذْكَر منه جُرْأة ونجْدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوْهُ، فلما أدركه قال: يا محمد، جئتُ لأتَبعك وأُصيبَ معك، فقال له رسول الله ﷺ: «**أتؤمن بالله ورسوله؟**» قال: لا، قال: «**فارجع فلن نستعين بمشرك**» ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه، فقال له كما قال أول مرة، فقال له رسول الله ﷺ كما قال أول مرة، قال: لا، قال: «**فارجع فلن أستعين بمشرك**» فرجع، ثم أدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ «**أتؤمن بالله ورسوله؟**» قال: نعم، قال: «**فانطلق**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١٧) وأبوداود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وسنن النسائي الكبرى (١١٥٣٦) والمسند (٢٤٣٨٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وابن حبان (٤٧٢٦)، والدارمي (٢٤٩٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٧٢).

وبهذا يعلم أنه لا تجوز الاستعانة بغير المسلمين في الحرب، فالنبي ﷺ لم يقبل مشاركة الرجل معه في المعركة إلا بعد أن أسلم، وكان قد رفض مشاركته قبل ذلك ثلاث مرات. وليس هذا على إطلاقه، فهناك أدلة أخرى مخالفة في بعض المواقف، كما استعان النبي ﷺ بعبد الله بن أُريقط، في رحلة الهجرة لخبرته بالطريق، وهو غير مسلم.

يَوْمُ التَّغَابُنِ

وبعد هذه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب، تستكمل الآيات، مشهد البعث الموثق، لتحذير الناس من أهوال يوم القيامة، **قال تعالى:**

٩- ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ (١) لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ (٢) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

أي اذكر يوم يجمع الله الأولين والأخرين، فيقفون بين يديه، وينبئهم بما عملوا، فيظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع الله أقواماً ويضع آخرين بسبب ما قدموه لأنفسهم في الحياة الدنيا.

ويوم الجمع هو يوم الحشر، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، كما قال تعالى ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧].

وقال جل شأنه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات:٣٨].

وهو اليوم الذي يحاسب الله فيه الخلائق، ويجازيهم على أقوالهم وأعمالهم:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩،٥٠].

ويوم القيامة يسمى يوم التغابن ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ أي ذلك يوم يغبن فيه المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم الخاسرون، والغبن في الأصل هو الشعور بالنقص والخسران، وأكثر ما يُستعمل الغبن في البيع والشراء.

---

(١) قرأ يعقوب بنون العظمة في ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ والباقون بالياء.

(٢) قرأ نافع وابن عامر بالنون في ﴿يُكَفِّرْ﴾ و ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ وهي نون العظمة، والباقون بالياء لموافقة السياق.

ومعناه في الآية: غبنُ أهل الحق لأهل الباطل، أو غبنُ المؤمنين للكافرين، حيث يأخذ السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس.

وقد بيّن العلماء حقيقة الغبن في هذا المقام، بأن كل إنسان له مكان في الجنة ومكان في النار، فإذا دخل أهل النار النار، بقيتْ أماكنهم في الجنة فيأخذها أهل الجنة، وإذا دخل أهل الجنة الجنة، بقيت أماكنهم في النار فيأخذها أهل النار، وعندئذ تكون منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة يتوارثُونها عنهم، فيكون الغبن الأليم، وهو استبدال مكان في النار بمكان في الجنة، لأنهم ورثوا أماكن الآخرين الذين ذهبوا إلى النار(١).

وهذا هو معنى الأثر (ما من عبد يدخل الجنة إلا أُري مقعده في النار - لو أساء- ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعده من الجنة - لو أحسن- ليزداد حسرة).

ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس.

ومعنى هذا: أن يوم القيامة هو اليوم الذي تظهر فيه خسارة الكافر الذي اشترى النار بالجنة، ففقد منزله في الجنة بسبب تركه للإيمان، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦] والكافر هو الذي يأتي مُفْلساً يوم القيامة، وهذا هو الغبن الحقيقي، والخسران المبين، وليس غبن الأسواق، ولا خسارة المال والأهل والأسهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥].

ثم بين سبحانه وتعالى موجب الغبن، وهو الإيمان، بالنسبة للغابن، والكُفْر بالنسبة للمغبون، فقال تعالى بالنسبة للأول ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي يصدّق به وبرسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي يعمل عملاً صالحاً خالصاً من الشرك، متّبِعاً فيه هدْي محمد

---

(١) ينظر بتصرف: تتمة اضواء البيان للشيخ عطية سالم (٣٤١/٨).

ﷺ من الفرائض والنوافل، وأداء حقوق الله وحقوق العباد، ويستمر على الإيمان والعمل الصالح إلى أن يموت ﴿يُكَفِّرْ﴾ الله ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي يمح عنه ذنوبه التي عملها في الدنيا، بأن يزيلها من صحيفة عمله، ويبدلها حسنات فضلاً منه وكرماً ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي يدخله بمنّه وإحسانه جنات النعيم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها وثمارها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ أي خلوداً أبدياً بلا انقطاع، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧].

وهذا الخلود في جنات النعيم هو أعظم الفوز وأجزل الجزاء ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهي حياة أبدية لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. ثم ذكر سبحانه النوع المغبون، فقال:

١٠- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي جحدوا وحدانية الله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي أرسل الله بها رسله وأيدهم بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦]. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

وقد ختم الله الآية بذم مصيرهم الذي آلوا إليه فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وساء المرجع الذي صاروا إليه وهو جهنم إذا استمروا على كفرهم وتكذيبهم إلى أن يموتوا.

وفي يوم التغابن يقول بعض الناس ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤].

ويندم بعض الناس لأنهم فوّتوا على أنفسهم فُرَص النجاة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] وهيهات، لقد مضت أيام العمل، وأتت أيام الحساب.

ويندم آخرون على صداقات كانت سبباً في ضلالهم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِىۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ويندم قوم لأنهم أضاعوا أوقاتهم هذرا، وبدّدوا طاقاتهم في غير فائدة (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[1].

كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِهِمَا يُوَفِّقْهُ اللهُ لِلرِّضَا وَالتَّسْلِيم

١١ - ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

أي ما أصاب أحدا مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده إلا بعلم الله تعالى وتقديره، فجميع ما أصاب العباد إنما هو بقضاء الله وقدره، ومن يثبّته الله على الإيمان، يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وإذا كان الله تعالى قد توعّد مَنْ كفر به وكذّب رسله بالعذاب الأليم في الآخرة، يوم يجمع الله الناس للحساب، فماذا بالنسبة لمن أساء إلى خلق الله، ولم يُنتصَفْ منه في الدنيا، كالذين يؤذون المسلمين المستضعفين في أرجاء العالم، والذين يؤذون الإسلام وأهله، ومن ذلك ما حدث لضعفاء المسلمين في مكة في بدء الدعوة، فكيف يكون التشفي منهم؟ ولم ينزل بهم - في كثير من الحالات- من المصائب، ما فيه عقوبة لهم في الدنيا؟

والجواب من الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أي ما نزل بأحد شيء من البلاء في نفسه أو ماله أو ولده أو أهله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي بأمره وإرادته، لأن كل شيء بقضاء الله وقدره، سبق به عمله، ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته.

والمصيبة في الأصل: كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، كما قال تعالى:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء:٧٩].

واختصت المصيبة في الاستعمال اللغوي بما يلحق الإنسان من شر وضر.

وفي الآية تعليم الصبر للمسلمين على ما ينالهم من المصائب.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ ﴾ [الحديد:٢٢].

---

(١) من حديث ابن عباس في البخاري (٦٤١٢).

ومن آثار الإيمان بالقضاء والقدر: هداية القلب، فإذا علم العبد أن الخير والشر من الله تعالى اطمأن قلبه واستراح، وأدرك أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيصبر إذا مسه الضر، ويشكر إذا مسه الخير، وهو مأجور في كلا الحالتين ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي يوفقه للتسليم بأمر الله تعالى والرضا بقضائه، فيصبر على البلاء، ويشكر عند الرخاء، وفي الحديث عن صهيب «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**»[1].

فإذا آمن العبد وأيقن أن ما أصابه هو من عند الله، فرضى به وسلّم، هدى الله قلبه ورزقه الثبات، ولم تزعجه النكبات، فيحصل له بذلك الأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومن لم يصبر على ما يصيبه من نكبات، ولم يلحظ قضاء الله وقدره، فإنه يُخذل، ويكله الله إلى نفسه، فيصاب بالجزع والهلع، وهو عقوبة عاجلة في الدنيا قبل الآخرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يهد قلبه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[2].

وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى بها ويسلم لقضاء الله[3]، ويثبته الله في أحواله وأقواله وأفعاله، وهذا الثبات أفضل ما يُجْزى به العبد على الصبر واليقين في الدنيا والآخرة.

ومعنى الآية أشمل من كل هذا: إن علماء المسلمين وحكامهم مكلفون بإقامة دولة الإسلام في كل مكان، ونشْر كلمة الله الأخيرة إلى خلقه في أرجاء المعمورة، وهذا يحتاج إلى صعوبات بالغة، وخصومات عنيفة، وقوة إيمان، وصبر ويقين، والمسلم

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) عن صهيب الرومي.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/٢٣).

(٣) تفسير الطبري (٧٩/٢٨) والبيهقي (٩٩٧٦) وعبد بن حميد وابن المنذر.

الذي يفارق وطنه وأهله نصرة لدين الله، يحتاج إلى صبر شاق لا يقوى عليه كل إنسان.

وكأني بهذه الآية في مكانها من السورة بالنسبة إلى الآيات المكية السابقة والآيات المدنية اللاحقة: تشير إلى هذه المعاني، وتضع قاعدة من قواعد العقيدة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

ثم ختم الله الآية ببيان شمول علمه تعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليمُ مَن انقاد لأمر الله، ولا كراهية من لم يرض بقضاء الله. فالمؤمن لا يجزع ولا يهلع، وإذا أصابته مصيبة قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] وهو لا يحزن ولا يفزع قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٩، ١٤٠].

عِقَابُ اللهِ تَعَالَى لِمَنْ خَالَفَ طَاعَةَ اللهِ وَالرَّسُولِ

١٢ - ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

وتمضي آيات الدعوة إلى الإيمان، فتدعوا الناس إلى طاعة الله والرسول، بعد أن بينت مصير الذين تولّوا عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي امتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وانقادوا له انقياداً تاماً، فإن الطاعة فرع عن الإيمان ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ ﷺ فيما بلّغكم به عن ربه، ففي ذلك السعادة والفوز بنعيم الجنة والبعد عن النار.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ وأعرضتم عن طاعة الله والرسول، فإن مهمة الرسول هي البلاغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وقد أدى الرسول ﷺ ما عليه، فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وبهذا البلاغ تقوم الحجة على العباد، وليس بيد الرسول هدايتهم، وحسابهم على الله.

والله سبحانه يعاقب من كذّب وخالف، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠، ٢١].

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤].

وَحدَانِيَّةُ اللهِ تَعَالَى تُوجِبُ الاعتِمَادَ عَلَيْهِ

١٣ - ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

هذا تذكير للمؤمنين بأن من آمن بالله وحده لا شريك له، كان حقاً عليه أن يطيعه، وأن لا يعبأ بما يصيبه في جانب الله تعالى مِنْ أذى، وطاعة الرسول ترجع إلى طاعة الله تعالى:

هذا: ولما دعت الآية السابقة إلى طاعة الله والرسول، ذكَّرتْ هذه الآية، بما يجب على الناس جميعا أن يَعْلموه، ذكَّرتْهم بحقيقة التوحيد ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا رب غيره، ولا معبود سواه، وهو المستحق للعبادة دون سواه، فعليه وحده توكلوا - أيها المؤمنون - في جميع أموركم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وفي هذا تعليم للأمة، ألاَّ يلْجؤوا إلا إلى الله تعالى، وألاَّ يثقوا إلا بالله تعالى، وألاَّ يعتمدوا إلا عليه سبحانه بعد بذل الأسباب في كل شيء، وحسن الظن بالله والوثوق في كفايته، وكلما قوى إيمان العبد قوى اعتماده على ربه.

فِتْنَةُ الْمَالِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلإِنْسَانِ

١٤ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

يحذر الله عباده من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو للإنسان، والنفس مجبولة على محبة الزوجة والأولاد، فنصح الله عباده ألا تسبب لهم هذه المحبة، الوقوع في المحاذير الشرعية إن هم استجابوا لمطالبهم ورغباتهم، فعليهم أن يقدموا رضا الله تعالى على رضا أزواجهم وأولادهم، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا، وفي حالة عدم تلبية رغباتهم لا تغلظو عليهم ولا تعاقبوهم، فإن في العفو والصفح غفران الذنوب ورحمة علام الغيوب.

سبب النزول:

١ - أخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا سأله عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ في المدينة، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدعوهم، فلما هاجروا بعد مُدة، وكان معهم أزواجهم وأولادهم، رأوْا الناس قد سبقوهم في التفقّه في الدين، لتأخُّرهم عنهم في الهجرة، فهمُّوا أن يعاقبوا زوجاتهم وأولادهم لأنهم السبب في ذلك، فأنزل الله هذه الآية[1].

٢ - وعن عطاء بن يسار أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزْو اجتمعوا حوله وبَكَوْا إليه ورقّقُوه، وقالوا: إلى مَنْ تدَعنا، فيرقّ لهم ويقعدُ عن الغزْو، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية[2].

وفي السبب الأول: أن أُناساً لبُّوا نداء الهجرة لأول وهلة، فسبقُوا سبْقاً بعيداً في الفضل والتفقّه في الدين، وأن آخرين تقاعسوا عنها بعض الوقت بسبب الأهل والأبناء، وصموا آذانهم عن نداء الواجب تعلّقا بالحياة وحُباً فيها، ففاتهم خير كثير، ثم إنهم أرادوا عقابهم، لأنهم كانوا السبب في تأخرهم عن الهجرة، وفوات خير كثير عليهم من التفقه في دين الله ونحوه، ولكن الله تعالى أمرهم بالعفو والصفح، ليبين سبحانه أن علاج مشكلات الحياة الزوجية، وتربية الأبناء، لا تقابَل إلا بالعفو والصفح والغفران، وأن هذا العفو يخفف، أو يُذْهِب، أو يُجنّب الزوج والوالد نتائج هذا العداء، وأنه خير من المشاحنة والخصام.

أما السبب الآخر: فإنه يبين أثر فتنة الأهل والأبناء في التخلف عن الجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك من عظائم الأمور، مما يجب الحذر منه.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣١٧) وقال: حسن صحيح وابن جرير (٨٠/٢٨) والطبراني في الكبير برقم (١١٧٢٠) وصححه الحاكم (٤٩٠/٢) ووافقه الذهبي، والواحدي في أسباب النزول (٣٢٢) والسيوطي في الدر (٢٢٨/٦) وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٤٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٣٢٠/٥) وتفسير الخازن (٢٧٦/٤) والطبري (١٥/٢٣).

ورد أن الرجل كان يريد الهجرة فتحبسه امرأته وولده، فيتوعَّدهم إنْ جَمَعَه الله بهم في دار الهجرة ليفعلن كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

فيا معشر المؤمنين بالله والرسول، إن بعض الزوجات والأولاد:

١- قد يَصْدُر منهم ما يُعَدّ بمثابة العداوة لكم، قد يصُدّونكم عن الجهاد في سبيل الله، أو يُثَبِّطُونكم عن طاعته، أو يحملونكم على الكسب الحرام، فكونوا على حذَر منهم، ولا تطيعوهم، ولا تستجيبوا لداعي النفس والهوى، فليس المراد حقيقة العداوة على هذا المعنى، وإنما المراد أنه قد يصدر منهم ما يصدر من الأعداء.

٢- وعداوة الزوجة والأبناء، قد تكون عداوة حقيقية بسبب سوء التعامل والعشرة، أو سوء التفكير والانحراف.

٣- ويجوز أن يكون المراد بالعداوة؛ أنهم كالعدُوّ في المعاملة، فيتعاملون معكم كما يتعامل الأعداء، وسُموا أعداء: لأنهم حالوا بين الرجل وبين حصول الخير، فَعَدُوِّي هو الذي يباعدني عن الخير، ويُقرّبُني من الشر.

ثم ختمت الآية ببيان علاج هذا العداء في محيط الأسرة:

فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فهذه ثلاثة عوامل:

١. العفو: وهو ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها.
٢. والصفح: وهو الإعراض عن المذنب دون عتاب ولا تأنيب.
٣. والغفر: وهو ستر الذنب وعدم إشاعته.

والمعنى: إنكم إن تعفُوا عن معاتبة أزواجكم وأولادكم بسبب تثبيطهم لكم عن الخير، أو حملكم على الشر فتتجاوزوا عن سيئاتهم، وتُعرضوا عنها، وتستروها عليهم، فإن الله تعالى واسع الرحمة بكم، عظيم المغفرة لكم، وسوف يثيبكم على ذلك أحسن الجزاء. قال تعالى:

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (١٤/١٧٥).

١٥ - ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾

المراد بالفتنة: ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهيه عن المداومة على طاعة الله عز وجل، وقد حذرت هذه الآية من فتنة الأموال والأولاد، وقُدِّم فيها المال على الولد، لأن فتنة المال أشد، ولم يُذكَر المال في الآية السابقة، واكتفى في هذه الآية بذكر الأولاد عن الزوجات: لدلالة فتنة الأولاد عليهن، فإن فتنة الأزواج أشد من فتنة الأولاد، لأن جُرأتهن على التسويل لأزواجهن ما يُرِدْنَه منهن، أعظم من جُرأة الأولاد[١].

وكلمة ﴿ فِتۡنَةٞ ﴾ إما أن يراد بها: الابتلاء والاختبار، والمقصود: التحذير من عدم التجرد والإخلاص لله تعالى.

وإما أن يراد بها: أنها تُوقع في المخالفة والمعصية، ويقصد بذلك: التحذير من البعد عن الله تعالى.

وكلا المعنيين قريب من بعضه، فما أموالكم ولا أولادكم إلا ابتلاء واختبار لكم.

وأصل الفتنة: اختبار الذهب بالنار لتخليصه من الشوائب، وهذا الاختبار للعباد، ليُظهر الله في عالم الوجود: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، حيث تسجل عليه الملائكة أقواله وأعماله، فيكون هذا حجة عليه في صحيفة أعماله يوم لقاء رب العالمين.

في حديث كعب بن عياض ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال**»[٢].

والمقصود: جمع المال من طرق غير مشروعة وإنفاقها في وجوه غير مشروعة.

وإلا ففي حديث عمرو بن العاص ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٢٨٥).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٩٠٥) والمسند (١٧٤٧١) وهو حديث صحيح بإسناد قوي، وفي الترمذي (٢٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (١٠٣٠٩)، والطبراني (٤٠٤) والحاكم (٤/٣١٨).

(٣) مسند أحمد بإسناد صحيح على شرط مسلم برقم (١٧٧٦٣)، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٥٦)، وابن حبان (٣٢١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٢١٣)، والحاكم (٢/ ٢٣٦)، والبغوي (٢٤٩٥).

ولما سمع عمر ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتن، قال: أتحب أن لا يرزقك الله مالا ولا ولدا؟ أيكم استعاذ من الفتن فليستعذ من مضلاتها[١].

ومن فتنة المال والأولاد: الانشغال بهما عن الطاعات، **والأحفاد في حكم الأولاد:**

عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي، بُريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويَعْثُران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: «**صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ فنظرتُ إلى هذين الصبيّين يمشيان ويَعْثُران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما**»[٢].

وهذا الذي حدث من النبي ﷺ هو من باب الشفقة، والحب، والحنان، والرحمة، مما جعله ﷺ يعطف على حفيديه، ولا يصبر على تركهما يتعثّران بين الناس، فدفعه هذا الحب إلى قطع حديثه وحَمْلِهما شفقةً بهما وخوفاً عليهما، وعُدّ ذلك فتنة لأنهما أشغلاه عن حديثه.

وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند ابن مردويه أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، ما دريتُ أني نزلت عن منبري!**».

وذكر ابن عطية: أن عمر ﷺ قال لحذيفة ﷺ: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، فقال عمر: ما هذا؟ فقال: أحب ولدي، وأكره الموت[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الضحى (٤٣/١٥).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد، السنن برقم (٣٧٧٤)، وأبوداود برقم (١١٠٩)، والنسائي (١٠٨/٣)، وابن ماجة برقم (٣٦٠٠)، وابن خزيمة برقم (١٨٠)، وابن حبان (٦٠٣٨)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي (٢٨٧/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢٩٠٠)، وهو في المسند ٣٥٤/٥ (٢٢٩٩٥) حديث صحيح وإسناد قوي، وفي صحيح سنن أبي داود (٩٨١) وعند ابن أبي شيبة (١٨٠/٨).

(٣) تفسير ابن عطية (٣٢٠/٥) وتفسير التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٨).

ومن يصبر على مُضلاَّت الفتن، ويقاوم عوامل الانحراف عن مرضاة الله تعالى، فإن أجره عظيم عند الله سبحانه كما جاء في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وأعظم هذا الأجر ما يكون على إعطاء حق الله تعالى من المال في الزكاة ونحوها، وما يكون في تربية الأبناء والرأفة بهم.

كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك**»[1].

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة:٢١٥].

وفي الحديث الحث على الإنفاق على الأهل، وبيان عظم الأجر عليه: (**حتى اللقمة يضعها الرجل في فيّ امرأته**).

وجاء في الحث على تربية البنات على وجه الخصوص: (**من ابتُلي من هذه البنات بشيء كُنّ له سترا من النار**)[2].

وفي الأثر أيضاً (**إن الصبر على سوء خلق الزوجة عبادة**).

فلا تشغلكم - أيها المؤمنون- الأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى، لما فيهما من الفتن واللهو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

خَمْسَةُ أَسْبَابٍ لِلْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

١٦- ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

في هذه الآية خمسة أسباب للفوز والفلاح في الدارين، وهي:

---

(١) صحيح مسلم (٩٩٥).

(٢) من حديث عائشة في البخاري (١٤١٨، ٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٩).

١- تقوى الله تعالى قدر الاستطاعة، ٢- حُسْن التلقي والاستماع لأحكام الشريعة، ٣- العمل والطاعة، ٤- إنفاق المال في وجوهه المشروعة، ٥- وقاية النفس من الشح.

فمعنى الآية: وإذا كانت الأموال والأولاد فتنة، فابذلوا الجهد والطاقة - أيها المسلمون- في تقوى الله تعالى بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، فإن في ذلك وقاية لكم من النار، واتقوا الله في معاملة الأزواج والأولاد، وإنفاق المال في وجوهه المشروعة، ولا يشغلكم حب ذلك عما يجب عليكم من طاعات، ولا يُجَرّئكم على اقتراف المنهيات، ولا يُخرجكم الغضب عن العدل بين الناس، وفي مقدمتهم: الأهل والعشيرة، ولا يصرفكم حب المال عن إخراج حق الله تعالى منه.

وفي الآية خمس توجيهات، وهي:

١- ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذلوا نهاية قُدْرتكم واستطاعتكم في طاعة الله تعالى، ويسقط عن العبد كل واجب يؤمر به عند العجز عن أدائه، وداوموا على ذلك إلى الممات.

وهذه الآية كما أفاد أبوجعفر النحاس أنها مُبيّنة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

فإن مقصده: في ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولا يُعقل أن يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته[١].

وتقوى الله تعالى قدْر الطاقة، يكون في المأمورات وفضائل الأعمال، أما في المحرمات والمحظورات، فلابد من تركها بالكلية مرة واحدة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... **إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فدعوه**»[٢].

فلا تتحقق التقوى في المنهيات إلا بتركها جملة وتفصيلاً، أما في المأمورات فتتحقق بفعل المستطاع.

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٢١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فلقنني: «**فيما استطعت والنصح لكل مسلم**»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا إذا بايعنا النبي ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا «**فيما استطعتم**»(٢).

وكونُ هذه الآية مبينة لآية سورة آل عمران ١٠٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أولى من القول بالنسخ بينهما، كما جاء عن سعيد بن جبير أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرّحت جباههم، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٣).

قال قتادة في الآية: هي رخصة من الله، قد أنزل الله في سورة آل عمران ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وحق تقاته: أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفف الله عن عباده فأنزل الرخصة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ قال: والسمع والطاعة فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع النبي ﷺ أصحابه، على السمع والطاعة فيما استطاعوا(٤)، اسمعوا ما شرعه الله لكم وما يعظكم به.

وعن الحَكَم بن حَزَن الكُلَفِيّ قال: وفَدْنا إلى رسول الله ﷺ فلبثنا أيّاما شهدنا فيها الجمعة مع رسول الله ﷺ فقام متوكئاً على قوس، فحمد الله، وأثنى عليه كلمات خفيفات، طيبات مباركات، ثم قال: «**أيها الناس: إنكم لن تُطيقوا كل ما أُمرتم به، فسدّدوا وأبشروا**»(٥).

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٢٠٤) وانظر (٥٧)، وصحيح مسلم برقم (٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد فيه ابن لهيعة (٧٢٢/٣) (٣٩١١).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر كما في الدر (٥٢١/١٤).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٩٧١)، والمسند (١٧٨٥٦،١٧٨٥٧)، إسناده قوي وابن سعد (٥١٦/٥)، وأخرجه أبو يعلى (٦٨٢٦)، وابن خزيمة (١٤٥٢).

٢- ولما كان ترك المأمورات يؤدي إلى إتيان المنهيات، لأن الأمر بالشيء نَهْي عن ضده، فقد أمر سبحانه وتعالى بالسمع والطاعة فقال: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي أطيعوا الله تعالى بالاستماع إلى رسوله ﷺ وتلقِّي الشريعة عنه، والإقبال على سماع أحكامه ومواعظه، فإن ذلك وسيلة للتقوى، كما قال تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٧،١٨] أي يفكرون فيه ويتدبرونه ويعملون بمقتضاه.

٣- ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله في كل ما سمعتم من أمر أو نهي.

٤- ثم خص بالذكر مما سمعوه: الإنفاق في سبيل الله وهو يشمل النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي أنفقوا مما رزقكم الله، لما فيه من الخير لكم، فإن من سَلِم من الشح والبخل والطمع، فقد فاز وأفلح، والخير كله في امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نهيه وقبول نصائحه والشر كل في مخالفة ذلك.

٥- ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي مَنْ يقيه الله من شح نفسه وبُخْلِها فتسمح نفسه بالإنفاق في وجوه الخير والبر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بكل مطلوب والناجون من كل مرهوب.

وذلك لأن إنفاق المال في الخير يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فيكون من الفائزين، لأن الشح من الطباع الخسيسة، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨].

ولما سئل النبي ﷺ عن أفضل الصدقة قال: «**أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، وأن لا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[1].

قال تعالى في وصف الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

---

(١) البخاري (١٤١٩،٢٧٤٨)، ومسلم (١٠٣٢) عن أبي هريرة.

وقد اشتملت هذه الآية على خمس صفات هي: التقوى، والسمع، والطاعة، والإنفاق، ووقاية النفس من الشح. وفيها تخصيص بعد تعميم، لأن السمع والطاعة من التقوى، ثم تخصيص للإنفاق بعد التعميم، لأنه من المأمورات، وتُوّج ذلك بثمرة الإنفاق، وهو الوقاية من الشح، ورُتِّب عليه الفوز والفلاح، فإن كانت النفس بما في يدها حريصة على ما في يد الآخرين، فهي من أهل الخسران في الدنيا والآخرة، وإن كانت النفس سمحة كريمة فازت بالرضا والرضوان.

التَّرْغِيبُ فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ

١٧ - ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ[1] لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

رغّب سبحانه وتعالى في إنفاق المال في شتى وجوه الخير، وتلطّف في طلبه، إذْ سمَّى النفقة قرضاً، وكأن المنفِق للمال على الفقراء والمساكين والمنفق له في أبواب البر والجهاد، كأنه يعطي المال لله تبارك وتعالى، قال عز وجل: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ أي إن تنفقوا المال في سبيل الله، بإخلاص وطِيب نفْسٍ، ابتغاء وجه الله تعالى، من أطيب كسبكم، فإن هذا القرض يكون من الإحسان في معاملة العبد لربه، ويسمى ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ فالقرض الحسن هو: ما يكون من الكسب الطيب، خالصا لوجه الله تعالى، لا يريد العبد من ورائه فائدة دنيوية، مادية ولا معنوية، ولا منفعة خاصة ولا عامة، ولا سمعةً ولا رياءً، وإنما يطلب الأجر من الله وحده، فهو قرض حسن خالص لله سبحانه دون مقابل دنيوي، والقرض الحسن لا يتبعه مَنّ ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين من (يضعفه) مضارع ضعّف، والباقون بإثبات الألف وتخفيف العين، مضارع ضاعف.

وهذا القرض الحسن يضاعف الله لصاحبه الأجر والجزاء ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ أي يضاعف لكم ثواب ما أنفقتم، على قدر إخلاصكم ورغبتكم فيما عند الله كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «**استقرضتُ عبدي فأبى أن يقرضَني، وشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول: وادهره! وادهرَاه! وأنا الدهر، ثم تلا الآية**»[١].

ثم بين سبحانه أن الإنفاق في سبيل الله يسبب غفران الذنوب ومحو الخطايا والسيئات، فقال تعالى ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ كما في الحديث: (الصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يجزل الأجر والمثوبة على فعل الصالحات.

وقد سمّى الله تعالى الثواب شُكْراً، وجعل نفسه شاكراً، تعليماً لخلقه أن يشكروا مَنْ أنعم عليهم.

وعملُ الصالحات من العباد، ليس فيه نعمة منهم على الله تعالى حتى يشكرهم عليها، ولكن هذا من باب التشبيه لفعل المتفضل بالجزاء، ولذا فقد أعقب ذلك بصفة الحلم، فبين سبحانه أنه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي أن هذا الجزاء من الله تعالى لعباده، من حلمه بهم، وليس لهم حق عليه، ومن حلمه تعالى بعباده أنه لا يعجل العقوبة في الدنيا لمن عصاه بل يمهلهم ويُنظرهم.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤١٨/١)، (٤٥٣/٢، ٤٩١)، والطبري (٦٤٢/٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٧٧).

ختام السورة

١٨- ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾

ثم ختم الله السورة مذكِّرا بعظمته سبحانه، ومبيناً أنه يعلم أحوال العباد، ما ظهر منها وما بطن، ويجازي عليها جميعاً، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم ما غاب وما حضر، وما هو محسوس وما هو غير محسوس وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُقهر ولا يغالب ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وإتقان صُنعه ومعاملته، وهو الذي يضع الأمور في نصابها وفق مناسباتها.

تم تفسير (سورة التغابن) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلاق(٦٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الطلاق) هي السورة الخامسة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الإنسان) وقبل (سورة البيّنة).

وهي سورة مدنية خالصة.

وسُمّيتْ سورة الطلاق: لأنها صُدّرت بلفظ الطلاق، وسماها عبد الله بن مسعود ﷺ سورة النساء القصرى[1] والمراد الصغرى والأخيرة، وهذا في مقابلة سورة النساء الكبرى التي بعد سورة آل عمران، لأن كليهما تتحدثان عن الأحكام الخاصة بالنساء غالباً.

وهي إحدى عشرة آية في المصحف البصري، وثلاث عشرة آية في الحمصي، وفيما عدا هما اثنتا عشرة آية، وهم: الحجازيون والكوفي والدمشقي.

وعدد كلماتها مئتان وتسع وأربعون كلمة، وهي ألف وستون حرفاً.

موضوع السورة:

هي سورة كاملة، موقوفة على تنظيم أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع ربط ذلك بأضخم حقائق الإيمان في المجال النفسي والكوني، وهذا يدل على خطورة شأن الأسرة في الإسلام، وقد أودع الله سبحانه في سورة الطلاق جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسُس سليمة، وتعالج ما قد يَعْرِض لها من عِلَل ومتاعب.

وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية مترابطة الآيات، متماسكة السياق، جديرة بالتأمل العميق، فهي تتناول أحكام الطلاق، والإشهاد عليه وعلى المراجعة، وتبين أحكام الطلاق السني والبدعي، ثم أحكام العدة، والإرضاع، والإنفاق، والسكَن، ونَهَتْ

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٢/٨) برقم (٤٥٣٢) ومعلقاً برقم (٤٩١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٦٨٥، ٥٦٨٧، ١٠٩٧٦، ١١٥٤٠).

السورة عن الإضرار بالمطلقات، والتضييق عليهن، وأمرتْ بالتشاور والائتمار في شأن الأولاد، وقد وضع الله لكل شيء حُكْمه، ولا يعجزه سبحانه تنفيذ أحكامه، وتخلّل كل ذلك الأمر بتقوى الله تعالى بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين.

وتبين السورة حُسْن عاقبة التوكل على الله تعالى، وتيسير تشريعاته، وأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا ما آتاها، وأعقبت ذلك بوجوب الاتعاظ بالأمم التي خالفت أمر ربها، وحذّرت من تعدّى حدود الله، وبينت السورة أن الله جل شأنه أرسل رسوله محمداً ﷺ يتلو عليهم آيات الله تعالى ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وخُتمت السورة بالإشارة إلى قُدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وهما من البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته.

والسورة بهذا تحتفي بالعلاقات الزوجية والعائلية احتفاءً كبيراً، وتهتم اهتماماً بالغاً بالأسرة في الإسلام، وتُبين أن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، وتضع السورة جميع الضمانات التي تَكْفُل ذلك، للرفع من شأن الأسرة والمجتمع، وقيام العلاقات الإنسانية على أسس قويمة.

وتوزيع الموضوعات على آيات السورة هكذا:

١- الآيات الثلاث الأوَل تتحدث عن الطلاق في الوقت المناسب، وعلى الوجه المشروع.

٢- الآية الرابعة والخامسة تتحدثان عن العدّة وضبط أيامها لئلا تختلط الأنساب.

٣- الآيتان السادسة والسابعة تتحدثان عن السكن بالنسبة للمرأة المطلقة والنفقة للحمل والرضاع.

٤- الآيات الثلاث: ٨،٩،١٠ فيها تعقيب يحمل الوعيد لمن يخالف أمر الله تعالى.

٥- الآية الحادية عشرة تُثْني على رسول الله ﷺ.

٦- والآية الأخيرة تبين جانباً من قدرة الله تعالى وشمول علمه.

أسباب النزول:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلّق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيّظ رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تَطْهُر، ثم تحيض وتَطْهُر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهرا قبل أن يمسّها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلَّق لها النساء، وقرأ صدر السورة[1].

٢- وعن أنس ﷺ قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: (راجعها فإنها صوّامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة)[2].

وقيل: إن النبي ﷺ لم يطلق حفصة ولم يراجعها، إنما هي قضية الإيلاء، فقد آلى النبي ﷺ من نسائه، فقال الناس: طلَّق نساءه، ولما سأله عمر قال: لا، آليتُ منهن شهراً، وكان هذا بسبب حفصة.

ستة احكام عامة في الطلاق:

أولاً: الأصل في الطلاق هو الحظْر:

لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء:٣٤].

ولِمَا جاء في الأثر «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[3].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨،٥٢٥١،٧٦١٠)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧١)، وأبوداود (٢١٨٥)، والنسائي (٣٣٨٩،٦٢١)، وابن ماجة (٢٠١٩)، وأبي يعلى ٥٥٦١ والترمذي (١١٧٥)، والمسند (٥١٦٤، ٥٢٩٩، ٦١٤١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٩٥٢)، ومالك (٥٧٦/٢)، والشافعي (١٠٤)، والطيالسي (١٨٥٣)، وابن حبان (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وجاء من طرق أخرى فيها ضعف عند ابن ماجة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٦/٤): رواه البزار وأبويعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) حديث مرسل أخرجه أبوداود عن ابن عمر برقم (٢١٧٨)، وابن ماجة (٢٠١٨)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٣٢٢/٧)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٧٢)، وضعيف سنن ابن ماجة (٤٤١)، وجاء عن معاذ عند عبد الرزاق (١١٣٣١)، وانظر ما قاله ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٥/٢).

ووجه الدلالة في الآية: أن المرأة إذا كانت مطيعة، فإن طلاقها يكون ظُلماً.

ووجه الدلالة في الأثر: أن بُغض الشيء دليل على كراهيته، وإن كان الطلاق جائزاً في حد ذاته.

قال ابن عطية: الطلاق على الجملة مكروه، ونقل عن أنس ﷺ قوله (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق)[١].

وعن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس حرمت عليها رائحة الجنة**»[٢].

ثانياً: الطلاق على قسمين:

أحدهما: طلاق سني، وهو أن يُطلّق الرجل المرأة طلقة واحدة في طُهر لم يجامعها فيه، أي وهي غير حائض، ولا نُفَساء، ولا يطلقها بعد جماع لم تطهر بعده، وهذا معنى استقبالها للعدة.

ومن الطلاق السني: أن تكون المرأة حاملاً، قد استبان حملها.

فإذا أراد الرجل أن يطلق المرأة طلاقاً موافقاً للسنة، انتظرها حتى تحيض وتطهر، فإن طَهُرَتْ طلّقها قبل أن يمسها، طلقة واحدة، وهذا هو الطلاق السني.

وطلاق الصغيرة، والآيسة، وغير المدخول بها، لا يوصف بأنه سني ولا بدعي.

وثانيهما: طلاق بدعي، وهو أن يطلق الرجل المرأة في أثناء الحيض أو النفاس، أو في أثناء طهر جامعها فيه، أو بلفظ الثلاث، مجموعة أو متفرقة.

فإن حدث الطلاق في شيء من هذه المخالفات، فإنه يقع مع الإثم، عند الجمهور.

---

(١) تفسير ابن عطية (٣٢٢/٥).

(٢) أبوداود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٧٨)، وابن ماجة (٢٠٥٥)، والطبري (١٥١/٤)، والحاكم (٢٠٠/٢)، والبيهقي (٣١٦/٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٦٧٢)، وهو في المسند (٢٢٣٧٩،٢٢٤٤٠) حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح.

ثالثاً: وجوب شهادة عدلين على الطلاق والرجعة:

لقوله تعالى: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ الآية:٢.

أي أشهدوا رجلين عدلين على الإمساك وعلى الفراق، والإمساك هو الرجعة، والفراق هو الطلاق.

هذا هو ظاهر الآية، وقيل: بوجوب الشهادة على الرجعة، وأنها مندوبة عند الطلاق.

رابعاً: الطلاق يكون بائنا ورجعياً:

والطلاق البائن: هو ما لا يملك المطلّق معه حق الرجعة، كمن طُلّقت امرأته ثلاثاً، أو انقَضَتْ عدتها وليس لها رجعة، أو طُلقت قبل الدخول بها، أو حدث خُلْع.

والطلاق الرجعي: هو ما يملك الزوج معه حق المراجعة، وما كان دون الثلاث، ولم يطلقها على عوض.

خامساً: الطلاق الصريح والكناية:

ومن الطلاق ما هو صريح لا يحتاج إلى نية، مثل: أنت طالق.

ومنه: ما هو كناية يحتاج إلى النية، مثل: إلْحقي بأهلك، اخْرُجي من البيت.

ومنه الطلاق بلفظ الحرام، فهو يحتمل الظهار، فتحرم المرأة حرمة أبدية، ويحتمل الطلاق كل ذلك حسب نيته.

وفي الحديث عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما «إذا حرّم الرجل امرأته فهي يمين يُكَفِّرُها، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[1].

وفي لفظ عند البخاري «إذا حرم امرأته ليس بشيء»[2].

(١) من حديث ابن عباس في الصحيحين عند مسلم برقم (١٤٧٣)، وهذا لفظه وفي البخاري برقم (٤٩١١).
(٢) البخاري (٥٢٦٦)، ومسلم (١٤٧٣).

سادساً: الطلاق المنجز والمعلق:

ومن الطلاق ما هو منجَّز، يقع في الحال، كقوله: أنت مطلقة، ومنه ما هو معلّق على فعل شيء أو تركه، يقع بعد وقوع الشيء المعلّق عليه.

وعلى هذا فإن الحلف بالطلاق على فعل شيء أو تركه، يعود إلى نية الحالف، فإن كان يقصد الطلاق فِعْلاً إن حدث هذا الشيء، فهو طلاق إن تحقق المحلوف عليه، وإلا فلا، أي: وإن كان يقصد التهديد ومنع المرأة من فعل هذا الشيء أو يقصد حملها على فعل شيء معين، فهو بمثابة اليمين بالله تعالى، وفيه كفارة اليمين، وعلى هذا جرت الفتوى، ولا ينبغي التوسع في ذلك بحمله على الحلف بالله تعالى مطلقاً.

ومن زعم أن الحلف بالطلاق أعظم من الحلف بالله، أو أكثر تأثيراً منه في النفس، يكون قد أتى باباً من أبواب الشرك، ووقع في محظور أكبر من الطلاق.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سِتَّةُ أَحْكَامٍ مِنَ الآيَةِ فِي الطَّلَاقِ وَالتَّعْقِيبُ عَلَيْهَا

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ(١) إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ(٢) وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ(٣) وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم طلاق النساء، فلا تبادروا بطلاقهن من غير سبب، والتمسوا لطلاقهن الحالة المشروعة، بأن تطلقوهن في طهر لم تجامعوهن فيه حتى لا تطول عليهن العدة، فإن طلقتموهن في حيض أو في طهر جامعتموهن فيه يحتمل أن يحدث معه حمل، فإن العدة تطول بسب ذلك، وقد أمر الله بضبط العدة بعدد الحيضات أو الأطهار ثلاثاً، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، أو بوضع الحمل إن كانت حاملاً، لأن إحصاء العدة يترتب عليه الوفاء بالحقوق والواجبات، ولا تخرجوهن من بيوتهن مدة العدة في الطلاق الرجعي فإن هذا من حقوقها، ولا يجوز لهن الخروج إلا إذا أتين بفاحشة من القول أو الفعل، وهذا بالنسبة للمطلقة طلاقاً رجعياً، أما البائن بينونة كبرى فليس لها حق السكنى ولا النفقة، وهذه حدود الله فلا تتجاوزوها، وقد شُرع بقاء المطلقة رجعياً في بيت الزوجية لعل المياه تعود إلى مجاريها، وتستأنف العشرة بينهما.

هذا: وقد ابتدأت سورة الطلاق بتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ، ثم توجهّت بالخطاب

---

(١) قرأ نافع بالهمز بدل الياء في (النبيء) فيجتمع همزتان، ويقرأ فيهما بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية وإبدالها واوا خالصة.

(٢) قرأ ورش وأبوعمر وابن عامر وحفص وأبوجعفر ويعقوب بضم الباء من ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء من ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾ على أنها اسم مفعول، والباقون بكسرها، اسم فاعل.

له ﷺ مع أمته، لأنه المبلّغ عن ربه، المنفّذ للشريعة فيها، والمبيّن لأحوالها لهم، والحكم عام له ﷺ ولجميع الأمة، وخُصَّ النبي ﷺ بالنداء تشريفاً له، كما ينادى رئيس القوم لأمرٍ يهمّ الجماعة، ومناداة قائد الأمة وإمام الهدى في شأن، يشير إلى أهمية هذا الأمر، ويتجاوز أفراد الأمة إلى النطاق الجماعي العام.

هذا: وخطاب النبي ﷺ في القرآن الكريم:

١ - تارة يكون خاصا به، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

٢ - وتارة يكون شاملاً له ﷺ ولأمته، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣].

٣ - وتارة يكون الخطاب للأمة وحدها، كما في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] فإن من المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن له والدين ولا أحدهما وقت نزول هذه الآية.

ولذلك فإن الخطاب في هذه الآية انتقل من مخاطبة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إلى مخاطبته مع الأمة في قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أي أنت وأمتك، وأمرهم بستة أحكام:

الحكم الأول: أن يكون الطلاق سُنّياً:

والمعنى: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء في المستقبل ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي طلقوهن وهن مستقبلات للعدة، أو قبل العدة، أي في طهر لم يقع فيه جماع، حتى تكون المرأة مستعدة للدخول في العدة مباشرة بعد وقوع الطلاق عليها، فتنتهي عدتها في الطهر الثالث، ولا تطول عليها المدة، وهذا هو طلاق السنة.

وذلك لِمَا صح أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما طلق امرأته وهي حائض، فأمره النبي ﷺ أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها،

فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل[١].

فالطلاق السني هو: أن يطلق الرجل امرأته في غير حيض ولا نفاس وهي طاهر قبل أن يجامعها، ويطلقها طلقة واحدة، والطلاق في غير هذه الحالات محل خلاف بين أهل العلم.

قال مجاهد: سأل ابن عباس يوماً رجل، فقال: يا ابن عباس: إني طلّقتُ امرأتي ثلاثاً. فقال ابن عباس: عصيتَ ربك، وحَرُمَتْ عليك امرأتُك، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً. يطلّق أحدكم ثم يقول يا أبا عباس؟ وقرأ الآية[٢].

والطلاق البدعي عكس هذه الحالات، بأن يطلق الرجل المرأة وهي حائض أو نفساء، أو يطلقها في طهر جامعها فيه، أو يطلقها ثلاثاً، ومع أن الطلاق في هذه الحالات يكون غير مشروع، إلا أنه يقع مع الإثم.

ومعنى هذه الآية: ألاّ يطلّق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسها فيه، وهذا على مذهب مالك وغيره ممن قال: بأن الإقراء، هو الإطهار، فيطلق الرجل في طهر لم يمسّها فيه، ثم تحيض حيْضتين، تعتدّ بالطهر الذي بعدهما، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلّت.

ومن قال: بأن الإقراء هو الحيض، وهم العراقيون، قال: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ معناه: أن تُطلّق المرأة طاهرا، فتستقبل ثلاث حيضات كوامل، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حلّت[٣].

ولا يجوز طلاق الحائض، لأنّ العدة تطوّل عليها، والآية حجة لمالك والشافعي والجمهور على أن العدة تكون بالإطهار لا بالحيض.

---

(١) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨) وأهل السنن والمسانيد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٣٥٢)، والطبراني (١١١٣٩،١١١٥٧)، والبيهقي (٣٣١/٧)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٢٣)، وفي هذا الأثر عند ابن عمر أيضا قراءة الآية هكذا (فطلقوهن في قُبُل عدتهن) وهي قراءة غير متواترة.

(٣) تفسير ابن عطية (٣٢٣/٥) باختصار.

الحكم الثاني: إحصاء العدة:

ثم أمر سبحانه بضبط وإحصاء أيام العدة أو انقضاء ثلاثة قروء، وذلك لأن التساهل في هذا قد يؤدي إلى زواج المعتدة قبل انتهاء عدتها، فيختلط النسب، أو أن المدة قد تطول على المطلقة، فتمنعها من الزواج بعض الوقت، أو تفُوت مدة المراجعة إن كان الزوج سيراجعها، وله حق الرجعة، ففي إحصاء مدة العدة كثير من المصالح، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي احفظوا وقت العدة وعدد أيامها ولا تتساهلوا في ذلك، واعرفوها لتعلموا وقت الرجعة، أو تمام البينونة، ومعرفة حق النفقة والسكنى.

ثم يربط الله تعالى المطلّق لزوجته بربه، بأن يخشى الله تعالى ويخافه في أمر الطلاق، فإن ضرَرَهُ يتجاوز الرجل الذي أوقع الطلاق إلى أولادهما وأسرتهما، فلابد له أن يتق الله تعالى لدفع الضرر عنه وعن أسرته.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي صونوا أنفسكم عن معاصي الله، ومنها إلحاق الضرر بالزوجة، بتطليقها في أثناء الحيض أو النفاس أو بعد طهر مسها فيه، فامتثلوا أمر الله تعالى واجتنبوا نهيه.

الحكم الثالث: النهي عن خروج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهي العدة:

وهذا معنى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي لا تُخرِجوا المطلقات طلاقاً رجعياً من البيوت اللاتي يسْكُنّ فيها، ولا تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارج البيت، ولا تخرج نهاراً إلا لضرورة، فلا تخرج بنفسها ولا يُخرجها غيرها إلا لحاجة ماسّة إلى أن تنقضي عدتهن، وهي ثلاث حيضات لغير الصغيرة والآيسة والحامل.

والمطلوب من المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً أن تبقى أمام زوجها في بيت الزوجية، مع التزين له وطيب العِشْرة، لعل الله يُغير القلوب، فتنقلب العداوة إلى محبة، وتتم العودة في مدة العدة (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً).

أما التي بانت بينونة كبرى، بمجرد وقوع الطلاق، فتبقى في بيت الزوجية أيضاً إلى انتهاء العدة، دون التعرض للرجل، لأنها قد بانت منه ولا رجعة لها، وبهذا قال مالك

والشافعي وأبو حنيفة، وعند أحمد أنه لا سكنى لها.

فلا ينبغي للرجل أن يُخرج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً وهي في العدة غضباً عليها أو كراهة لتواجدها في البيت، أو للحاجة إلى المسكن، فإن كان للمرأة سكن آخر، فيه بعض محارمها، فلا مانع من أن تخرج إليه.

ولا يجوز للمرأة أن تبيت خارج بيتها وهي في أثناء العدة، وليس لها أن تخلع ثيابها خارج بيتها بغير إذن زوجها، ولا يجوز لها أن تغيب عن بيتها نهاراً إلا بمقدار الضرورة، لعلاج أو تعليم أو عمل ونحو ذلك.

وفي عدم خروج المرأة من بيتها أثناء العدة، استصحاب لحال الزوجية، فإن لها حكم الزوجة مادامت في العدة وفي طلاق رجعي.

ولا يجوز للمرأة المطلقة أن تخرج بنفسها من بيت الزوجية قبل انقضاء عدتها لغير ضرورة، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت ، وإن كان هناك ضرورة فلا بأس، وقد أذن النبي ﷺ لخالة جابر أن تخرج وهي في العدة لجذاذ نخلها[1].

الحكم الرابع: خروج المرأة من بيت الزوجية في العدة لسبب فاحش:

فإن فعلت المرأة فعلاً منكراً ظاهراً كالزنى أو سوء القول أو الفعل، فيحل إخراجها لسوء خُلُقِها، وذلك لإقامة الحد عليها، ثم تعود مادامت في العدة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي باختيارهن في مدة العدة ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

ولفظ الفاحشة: إذا جاء مُعرفاً: يراد به الزنى وما يشبهه كاللواط والسحاق، وإذا جاء منكراً يراد به المعاصي الكبيرة، من كل ما فحش من الذنوب، كالسرقة والقذف وكذا النشوز، وخروج المرأة من بيت زوجها بغير إذن.

والفاحشة في الآية بمعنى الزنى، وقيل: سوء الكلام وبذاءة اللسان، فيباح لكم إخراجهن في هذه الحالة.

---

(١) تفسير الخازن (٤/٢٧٨).

وعلى هذا فإن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة، لأنها معتدة لأجل حفظ نسبه وعرضه، وفي هذا جبر لخاطر المطلقة وحفظ لعرضها، وهذا إن كان الطلاق رجعياً، وذلك عند جميع الفقهاء، فإن كان الطلاق بائناً فلا سكنى لها عند أحمد ولها السكنى عند غيره من الأئمة الأربعة.

والمطلَّقة يكثر التفات العيون إليها، وقد يتسرب سوء الظن إليها، ويدور الكلام حولها، ولذا شُرع لها السكنى وعدم الخروج إلا للحاجة، لأنها ممنوعة من الزواج مدة العدة.

فالمراد نهيُ الأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من مساكنهن عند الطلاق إلا لضرورة حتى تنتهي عدتهن، ونَهْيُ المعتدات عن الخروج من البيت إلا عند ارتكابهن الفاحشة الشديدة القبح وهي الزنى.

وقد تضمنت هذه الآية تحذيران للتخويف من غضب الله تعالى في التعامل مع الزوجات:

التحذير الأول يتوسط الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

والتحذير الآخر يأتي عند نهايتها، وهو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي أن هذه أحكام الله تعالى التي شرعها لعباده فيما يتعلق بأحكام الطلاق، يجب عليكم الالتزام بها، ولا يجوز لكم أن تتجاوزوها، بل قفوا عند حدودها، ونفِّذوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، وفي هذا نهي عن طلاق الثلاث بلفظ واحد، وعن الطلاق في الحيض.

والحدود لغة: ما يُمنع اجتيازها أو اقتحامها إلى ما وراءها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يتجاوز أحكامه إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وأوردها المهالك، وعرّضها للعقاب، وأضرَّ بها.

وبعد الترهيب من مخالفة أمر الله تعالى، رغّب سبحانه في امتثال أحكامه، وأَمَر بفتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه، وعدم قَفْلِه، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي﴾ أيها المطِّلق ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ النزاع الذي بلغ ذروته بينك وبين زوجك ﴿أَمْرًا﴾ آخر، يحوّل البغض إلى حب،

والخصام إلى وئام، والغضب إلى رضا، فتعود المياه إلى مجاريها، ويَرْغَب كُلاً من الطرفين في الآخر بعد أن كان كارهاً له، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] وكما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلُقاً رضيَ منها خلقا آخر**»[١].

وقد خُلقت المرأة من ضلع أعوج، فاستمتعوا بهن على عوج، ونسبة النجاح في عامة الطلاب – مثلاً – من خمسين، فإن أخذت المرأة ٥٠% فهي ناجحة، ولا تَطْلُب منها الكمال، فالكمال لله وحده، وكما أن في الزوجة مساوىء فإن في الزوج مساوىء يعرفها منه الآخرون.

ومن أجل هذا فقد أبقى الإسلام على المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً في منزل الزوج مدة العدة، لعل أحدهما أو كلاهما يندم، ويخلق الله في قلبه حب الرجعة والمودة ..

الْحُكْمُ الْخَامِسُ: الطَّلَاقُ أَوِ الإِمْسَاكُ بِالْمَعْرُوفِ

٢، ٣- ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ[٢] وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا[٣] ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ[٤] قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فإذا وصلت المطلقة إلى آخر فترة العدة، فإما أن يمسكها الزوج ويعيدها إلى عصمته إن كان لها رجعة، وإما أن يطلقها، والرجل مأمور بعدم المضارة، وأن يعاملها

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٦٩).

(٢) عد الدمشقي وحده ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ آية، وتركه سائر أئمة العدد.

(٣) عد الكوفي والمكي والمدني الأخير لفظ ﴿مَخْرَجًا﴾ آية، فيكون متروكاً لغيرهم.

(٤) قرأ حفص بعدم التنوين في ﴿بَٰلِغُ﴾ وبالجر في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب على الأصل في إعمال اسم الفاعل.

بالمعروف في حالتي الرجعة أو الفراق.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي إذا قاربت المطلقات على انقضاء الأجل، وشارفت على نهاية العدة، لأن العدة لو انتهت لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفراق ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي أرجعوهن إلى عصمتكم مع حسن الصحبة والمعاشرة وعدم إرادة الضر أو الشر أو الحبس ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي اتركوهن من غير سب ولا شتم ولا قهر، ولا إساءة لهن، ولا أخذ شيء من مالهن، مع الوفاء بأداء حقوقهن، وعدم المضارة، لإطالة العدة، بأن يراجعها في أواخر العدة، ثم يطلقها في نهايتها، إيذاء لها، وليس لكم عند نهاية العدة إلا الإمساك بمعروف أو الفراق بمعروف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة:٢٣١].

والمعروف في حالة الرجعة: يكون بحسن اللقاء، والاعتذار، وحُسْن العِشْرة والصُّحبة.

والمعروف في حال الطلاق: يكون بكف اللسان عن ذكر المساوىء، وعدم إظهار الفرحة بالاستراحة منها، وإعطائها حقوقها المشروعة.

الحكم السادس: الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق:

ثم أمر سبحانه بالإشهاد على الإمساك وهو الرجعة، وعلى الفراق وهو الطلاق، فقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي وأشهدوا على الرجعة وعلى المفارقة: رجلين عَدْلين مسلمين منكم، مشهود لهما بالاستقامة والأمانة والعدالة ممن تثقون فيهما، لأن في الإشهاد سدًّا لباب الخصام والكتمان والكذب.

والأمر بالإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة، سببه: مخافة الإنكار من أحد الطرفين، ولئلا يُتهم الرجل في إعادة المرأة إليه أو مفارقتها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث، ولشرعية الإنجاب الذي يحدث منهما، وغير ذلك.

قال أبو حيان: وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة، وعند الشافعية واجب في

الرجعة، مندوب إليه في الفرقة[1].

وللفقهاء كلام في وجوب أو ندب هذه الشهادة في حالتي الطلاق والإمساك فيهما أو في أحدهما، وقاسه الأحناف على الشهادة في البيع والشراء في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قلت: لا وجه للمقارنة، لأن الشهادة ليست واحدة في جميع أحوالها، فالشهادة على ثبوت الزنى تكون بأربع، والشهادة على ثبوت الحقوق تكون باثنين، كما أن الأمر يكُون للوجوب ما لم يصرفه صارف، ولا صارف له عن ظاهره في هذه الآية، ويشهد لهذا ما جاء عن عمران بن حصين ﷺ أنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: «**طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة، أَشْهِد على طلاقها، وعلى رجعتها ولا تعُد**»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها، أَشْهدَ رجلين، عند الطلاق وعند الرجعة، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك لنفسها ثم تتزوج من شاءت، هو أو غيره[3].

ثم أمر سبحانه وتعالى بأداء الشهادة على وجهها الصحيح بالحق والعدل والأمانة، خالصة لوجهه الكريم، امتثالاً لأمره سبحانه فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ أي أدُّوا أيها الشهود ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ خالصة ﴿لِلَّهِ﴾ من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى لا لِهوى في النفس، ولا قصداً لصالح أحد الطرفين، فلا تراعوا قريباً لقرابته ولا صاحباً لمحبته، وأدوا الشهادة دون تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ودون مراعاة للمشهود له أو المشهود عليه.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٢٨٢/٨).

(٢) سنن أبي داود برقم (٢١٨٦)، وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٢٥)، وإسناده صحيح، وبنحوه عند عبد الرزاق (١٠٢٥٥،١٠٢٥٧).

(٣) أخرجه الطبري عند تفسير الآية، بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

التعقيب على أحكام الطلاق بالموعظة الحسنة:

ثم أشار سبحانه إلى جميع ما تقدم من أحكام فيها موعظة للمؤمنين فقال ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الذي أمركم الله به، وشرعَه لكم من أحكام وحدود ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي يتعظ به من يخشى الله تعالى ويخاف عقابه فهو الذي ينتفع ويتعظ.

والوعظ هو التذكير المليّن للقلوب المحذّر مما يضر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة:٢٣٢].

ويتخلل هذه الأحكام: الأمر بتقوى الله تعالى، والتوكل عليه، لأن الطلاق يوقع في الضيق والكرب والغم فقال تعالى هنا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي يخَفْ ربه فيعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه، ومن ذلك أحكام الطلاق والرجعة ﴿يَجْعَل﴾ الله ﴿لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ويجعل له من كل ضيق مخرجاً.

وهذه الجملة وإن خُتم بها أحكام الطلاق إلا أنها عامة في كل من اتقى الله تعالى وطلب مرضاته في جميع أحواله، فإن الله تعالى يجعل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً.

ومن لم يتق الله يقع في الشدائد والكروب ولا يقوى على التخلص منها والخروج من تبعتها، ومن ذلك من لم يتق الله في الطلاق فيوقعه على غير وجهه المشروع.

قيل: نزلت هذه الجملة والتي بعدها في عوف بن مالك الأشجعي، كان له ابن، وأن المشركين أسرُوه، فاشتكى ذلك لرسول الله ﷺ كما اشتكى إليه حاجته وفَقْره، قال له النبي ﷺ: اتق الله واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ففعل الرجل ذلك، وأخبر زوجته أن النبي ﷺ يأمره وإياها بالإكثار من الحوْقلة، فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه، بعد أن انتهز فرصة غفلة العدو واستاق غنمهم، فجاء إلى أبيه بأربعة آلاف شاة، فذهب الأب إلى النبي ﷺ يسأله: أَيحِلّ له أن يأكل ما أتى به ابنه، قال ﷺ: نعم، ونزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٨/٨٩) عن سالم بن جعد، مرسلاً، والحاكم في المستدرك (٢/٤٩٢) عن جابر، بإسناد تكلم فيه الذهبي وضعفه.

أي يجعل له مخرجاً من وجه لا يخطر له على بال، ولا يكون في حسبانه، ويسوق الله له الرزق من طُرق لا يعرفها، ومن وجوه لا يحتسبها ولا يشعر بها، ولم يكن في حسبانه ولا ظنه.

وجاء في معنى: ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ أي مخرجاً من شُبهات الدنيا، ومن غمزات الموت، ومن شدائد يوم القيامة، وجاءت هذه القصة من طريق آخر أكثر وضوحاً.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في رجل من أشجع، كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ فسأله فقال: (اتق الله واصبر) فرجع إلى أصحابه، فقالوا: ما أعطاك رسول الله ﷺ؟ فقال: ما أعطاني شيئاً، قال: (اتق الله واصبر) فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم، أصابها من العدوّ، فسأل رسول الله ﷺ عنها وأخبره خبرها، فقال رسول الله ﷺ: (إياكها)[1]. أي خُذْها وانتفع بها.

وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة تبين أن تقوى الله تعالى من أسباب فتح أبواب الرزق:

١- جاء في الأثر عن أبي ذر رضي الله عنه: (إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وأخذ يكررها)[2].

٢- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن أجمع آية في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل:٩٠] وإن أكثر آية فرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[3].

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»**[4].

---

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٢/٢)، وضعفه الذهبي، وهو في أسباب النزول للواحدي (٣٥٦)، والسيوطي ص (٣٠٥)، وتفسير القرطبي (١٦٠/١٨) وغيرهم وقد رُوي من عدة طرق.

(٢) من حديث طويل بنحوه في المسند (٢١٥٥١)، والمستدرك (٤٩٢/٢)، وأبونعيم في الحلية (١٥٦٩)، والبيهقي (٤٩٤/٦)، وقد ضعف رَفْعه محققو المسند لانقطاعه، لأن أبا السليل لم يدرك أبا ذر.

(٣) تفسير ابن كثير (١٤٦/٨).

(٤) المسند (٢٤٨/١) (٢٢٣٤) بسند ضعيف، لجهالة الحكم بن مصعب، والنسائي في الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجة (٣٨١٩)، وضعيف سنن أبي داود (٣٢٧)، وهو في الطبراني (١٧٧٤) وغيرهم.

٤- وعن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العُمر إلا البرّ»[1].

٥- وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من نزلت به فاقة، فأنزلها بالناس، لم تُسدَّ فاقتُه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله، فيوشك الله برزق عاجل أو آجل»[2].

٦- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان خلف النبي ﷺ يوماً فقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[3].

٧- قال مجاهد: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فجاءه رجل فقال: إنه طلّق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننتُ أنه رادّها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحْمُوقته، ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ وإنك لم تتق الله، فلا أجد لك مخرجا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك[4].

٨- ورد أن رجلاً جاء إلى عمر ﷺ فقال: ولّني مما ولاّك الله، فقال له عمر: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال: فأنا لا أُوَلّي من لا يقرأ القرآن؟ فتعلّم الرجل القرآن رجاء الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن، تخلف عن عمر، فلقيه يوماً، فقال له عمر: ما أبطأ بك؟ قال

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٨٦،٢٢٤٣٨)، قال محققو المسند: حسن لغيره، دون قوله (إن العبد ليحرم الرزق)، وصحيح سنن ابن ماجة دون الشطر الأول (٣٢٤٨،٢٧٣)، وابن حبان (٨٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٣٣/٢).

(٢) صحيح سنن أبي داود (١٤٤٨)، والترمذي (٢٣٢٦)، والحاكم (٤٠٨/١).

(٣) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٣٢٦)، ورواه أحمد (٢٩٣/١) برقم (٢٦٦٩) بإسناد قوي وأبو (٢٥٥٦)، والطبراني (١٢٩٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة معلقاً (٣١٦)، والبيهقي في الشعب (١٩٥) وغيرهم.

(٤) محاسن التأويل (٥١٣٨/١٦).

له: لقد تعلمتُ القرآن، فأغناني الله تعالى عن عمر وعن بابه، ثم قرأ هذه الآيات[(١)].

وهكذا قال الإمام الغزالي: طلبْنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

ثم إن من يعتمد على الله تعالى، ويثق به في كل ما أصابه وأنابه، فإن الله تعالى يكفيه همه وغمه، مع وجوب الأخذ بالأسباب، لأنها سنة الله تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

٩- وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا**»[(٢)].

فإذا أخذ العبد بالأسباب، وتحقق له أن الأمور بيد الله، لا يعجزه شيء، ولم يُعوّل على ماسواه، فإنه يبلغ ما يريد، ويصل إلى مبتغاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فأمره نافذ في جميع خلقه، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وكل شيء في هذا الكون له أجل ينتهي إليه، وله قدر لا يتجاوزه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي مقداراً معلوماً، ووقتاً محدداً لا يزاد عليه ولا ينتقص منه وفق الحكمة الإلهية، ومن ذلك الشدة والرخاء، والصحة والمرض، والفقر والغنى ..

لِلْمَرْأَةِ سِتَّةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِدَّةِ

٤- ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى[(٣)] يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٢٤).

(٢) ابن المبارك في الزهد (٥٥٩)، والطيالسي (٥٢)، وأحمد (١/٣٠) (٢٠٥،٣٠٧،٣٧٣) بإسناد قوي ورجال ثقات، والترمذي (٢٣٤٤)، والحاكم (٢/٤١٨)، وابن ماجة (٤١٦٤)، وصحيح سنن ابن ماجة (٣٣٥٩)، والسلسلة الصحيحة (٣١٠)، وأبويعلى (١/٢١٢)، والكبرى للنسائي (١١٨٠٥)، وابن حبان (٧٣٠).

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة مدية، وصلا ووقفا في ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى﴾ ووقف حمزة بتسهيل الهمزة مع المد والقصر، وقرأ البزي وأبوعمرو بهمزة مكسورة وصلا من غير ياء. ولهما وصلا ووقفا إبدال الهمزة ياء مع المد المشبع، وتسهيلها مع المد والقصر، وقرأ ورش وأبوجعفر بهمزة مسهلة مع المد والقصر وصلا وبدون ياء، فإذا وقف كان لهما أوجه ثلاثة مثل البزي وأبي عمرو، وقرأ قنبل وقالون ويعقوب بحذف الياء، وهمزة محققة وصلا ووقفا، وكل على أصله في المد.

﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا[١] ﴿٤﴾ ﴾

ولما ذُكرت العدة من الطلاق الجائز شرعاً في قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ تحدثت هذه الآية عن ثلاثة أنواع من عدة المرأة، وهي الصغيرة التي لم تحضْ، واليائس التي انقطع عنها الحيض، فعدة كل منهما ثلاثة أشهر، والنوع الثالث هو الحامل وعدتها بوضع الحمل.

وسبق في سورة البقرة أن الحائض، عدتها ثلاثة قروء، أي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، وأن المتوفي عنها زوجها، عدتها أربعة أشهر وعشراً.

وفي سورة الأحزاب أن غير المدخول بها لا عدة عليها، فهذه ستة أنواع من العدة.

سبب النزول:

أولاً: لما نزلت عدة المطلقة والمتوفي عنها زوجها في الآيتين من سورة البقرة [٢٢٧و٢٣٢] قال أُبيّ بن كعب: يا رسول، إن نساءً من أهل المدينة يَقُلْن: قد بقي من النساء ما لم يُذكر فيه شيء، قال: وما هو؟ قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية[٢].

ثانيا: لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨] قال خلاد بن النعمان الأنصاري: يا رسول الله، فما عدة التي لا تحيض؟ وعدة التي لم تحض؟ وعدة الحبلى؟ فنزلت هذه الآية[٣].

عدة الكبيرة والصغيرة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ أي والنساء المطلقات اللاتي انقطع عنهن دم الحيض لكبر سنهن، من العجائز اللاتي لا يُرجَى لهن أن يحضْن ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾

---

(١) ضم السين من ﴿ يُسْرًا ﴾ أبوجعفر، وأسكنها الباقون.

(٢) قاله عمرو بن سالم كما في أسباب النزول للواحدي ٣٢٤ وانظر: تفسير الطبري (١٤١/٢٨)، والحاكم (٤٩٢/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وهو عند السيوطي في الدر (٦٢٣٤).

(٣) قاله مقاتل بغير سند كما في أسباب النزول للواحدي ٣٢٤ ونقله البغوي والخازن في تفسيرهما عن قتادة.

أي إن شككتم وجَهِلتم مقدار العدة بالنسبة لهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ قمرية، ويشترك معهن في الحكم: الصغيرات اللاتي لم ينزل عليهن الحيض، فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، وكذا البالغات اللاتي لم ينزل عليهن الحيض أبداً، وهذا معنى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ عطفاً على ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ أي أنهما يشتركان في حكم واحد.

والمراد بالريبة في الآية: هو ما حصل من التردُّد في معرفة عدة غير الحائض كما جاء في سبب النزول، وليس المراد الارتياب في شأن المرأة، بل الارتياب في مقدار العدة.

عدة الحامل: ثم انتقلت الآية إلى بيان عدة الحامل فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي أن ذوات الحمل من النساء عدتهن بوضع الحمل، فإذا وضعت المرأة ما في بطنها واحداً أو أكثر، فقد انقضت عدتها وبرىء رحمها

عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل:

والحكم السابق يشمل المطلقة، والمتوفي عنها زوجها، ولو بعد لحظات من وضع الحمل في قول جمهور العلماء من السلف والخلف:

١- فقد ورد أن سُبيْعة الأسلمية قُتِل زوجُها وهي حُبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخُطبتْ، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبوالسنابل فيمن خطبها[١].

٢- وفي رواية لمسلم أن زوجها تُوفى في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تنْشب أن وضعتْ حملها بعد وفاته، فلما رآها أبوالسنابل تجمّلَت للخطّاب، قال لها: والله ما أنتِ بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشرا، قالت سُبيْعة: فلما قال لي ذلك، جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيْت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألتُه عن ذلك «فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»[٢].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٩)، وأورده من طرق أخرى منها (٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٥)، وسنن النسائي (١٩١/٦).

(٢) صحيح مسلم (١٤٨٤)، والبخاري (٥٣١٩،٣٩٩١)، وعبد الرزاق (١١٧٢٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه لما بلغه أن علياً ﷺ يقول: تعتدّ آخر الأجلين، فقال: من شاء لاَ عَنَنْهُ، إن الآية التي في سورة النساء القصرى، هي آية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهر، فكل مطلقة أو متوفي عنها زوجها، فأجلها أن تضع حملها[1].

وسورة النساء القصرى هي سورة الطلاق، والآية التي نزلت في سورة البقرة في عدة المتوفي عنها زوجها هي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة:٢٣٤].

٤- وعن ابن مسعود ﷺ قال: (أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة؟ أنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إذا وَضَعَتْ فقد انقضت العدة)[2].

٥- وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن المرأة يُتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقال: إذا وضعتْ حملَها فقد حلّت، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لو ولَدت وزوجُها على سريره لم يُدفن لحلّت[3].

٦- وقال الشعبي: ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين فقال: من شاء قاسمْتُه بالله أن هذه الآية التي في سورة النساء القصرى، نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر، ثم قال: (أجلُ الحامل أن تضع ما في بطنها)[4].

والمراد بأبعد الأجلين: أطول المدتين من عدة الحامل أو من عدة المتوفي عنها زوجها، أي أن المرأة الحامل المتوفي عنها زوجها تعتد بأطول المدتين من الحمل أو

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١٧١٤)، وابن أبي شيبة (٢٩٧/٤)، وصحيح سنن أبي داود (٢٠٢٢)، والنسائي (٣٥٢٢)، وابن ماجة (٢٠٣٠) مختصراً، وفي صحيح ابن ماجه (١٦٥٠)، والطبراني (٩٦٤١،٩٦٤٦).

(٢) البخاري (٤٥٣٢،٤٩١٠)، والطبراني (٩٦٤٧).

(٣) مالك (٥٨٩/٢)، والشافعي (١٠٠/٢) (١٧٠) وعبد الرزاق (١١٧١١٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٧/٤).

(٤) تفسير الطبري (٩٢/٢٨).

من الأشهر، وبهذا قال علي وابن عباس رضي الله عنهما.

والأدلة السابقة ترجح ما عليه الجمهور، وهو أن عدة الحامل، بوضع حملها، سواء أكانت معتدة من طلاق أم معتدة من وفاة، لأن هذه الآية نزلت بعد آية سورة البقرة فهي مخصصة لها، ولأن النبي ﷺ قضى في عدة سُبيعة الأسلمية بذلك.

ثم ختم الله آية العدة كما ختم آية الطلاق بالحث على تقوى الله سبحانه، والتحذير من مخالفة أمره تعالى، لاسيما فيما يتعلق بشؤون الأسرة، والترغيب في حسن المعاملة بين الزوجين، ولو كان ذلك عند الفراق، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي من يَخَفْ ربه في السر والعلانية، ويخافه في معاملة زوجه المطلقة خاصة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي يسهل الله له أموره في الدنيا والآخرة، ويسهل له كل أمر عسير.

التَّعْقِيبُ عَلَى أَحْكَامِ الْعِدَّةِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

٥ - ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾

أي هذا الذي أنزله الله إليكم من أحكام الطلاق والعدة، لتعملوا به، ومن يخَفْ ربه في كل شؤونه وأحواله، فإن الله تعالى يمح عنه ذنوبه، ولا يؤاخذه عليها، ويضاعف له الأجر والمثوبة يوم لقائه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي يغفر له ذنوبه ولا يؤاخذه عليها ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي يُجْزِل له الثواب في الدار الآخرة ويدخله الجنة.

وهذه الآية تعقيب على حكم العدة كالتعقيب السابق على حكم الطلاق، وفي كليهما الأمر بتقوى الله تعالى لكل من الزوج والزوجة.

وقد كرر الله تعالى التقوى في نهاية الآية الأولى والثانية والرابعة والخامسة، لأنه لا يصبر على كيد النساء إلا أهل التقوى، ولأن الطلاق لا يحدث إلا عن بُغض ونفور، وتقوى الله تعالى هي التي تجعل الزوج يحكّم العقل ويخاف الله، فيحسن إلى المطلقة ولا ينسى ما بينهما من فضل ومودة سابقة.

تَفصِيلُ أَحكَامِ السُّكنَى وَالنَّفقَةِ وَالرَّضَاعَةِ

٦- ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ[1] وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

وبعد ذكر أحكام الطلاق والعدة، وبعد أن نهى سبحانه عن إخراج المطلقات من بيوتهن، ونهاهن عن الخروج بأنفسهن، أمر سبحانه بسكناهن حسب المستوى الاجتماعي للزوج، وتذكُر هذه الآية أربعة أحكام بالنسبة للمرأة المطلقة، وهي: حقها في السكنى وعدم مضارتها، والنفقة عليها مدة العدة، وحق الرضاع والحضانة.

الحكم الأول: فيه ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: هو حق السكنى والنفقة بالنسبة للمطلقة طلاقا رجعيّاً.

وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا المطلقات من نسائكم في أثناء عدتهن، مما تجدونه، أي مِثْل سكناكم، على قدر فقركم وغناكم، فإن كان المطلّق مُوسرا وَسّع عليها في مستوى السكن، وإن كان فقيرا فعلى قدْر الطاقة، والجمهور على أن المطلقة طلاقاً رجعياً لها حق السكنى والنفقة مادامت في العدة، أما السكن فلقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أما النفقة فلأن المطلقة طلاقاً رجعياً كالزوجة في بقاء العلاقة الزوجية وسلطان الزوج عليها، ولو لم تكن حاملاً.

الوقفة الثانية: بالنسبة للمتوفى عنها زوجها:

وأما المعتدة عن وفاة زوجها، فلا نفقة لها ولا سكنى عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم: لها حق السكنى والنفقة مدة العدة، كما قال النبي ﷺ للفريعة بنت مالك بن سنان، أخت أبي سعيد الخدري ﷺ، لما مات زوجها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ

---

(١) قرأ روح بكسر الواو من ﴿وُجْدِكُمْ﴾ والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى الوسع.

الكتاب أجله»[1].

الوقفة الثالثة: حكم النفقة والسكنى للمطلقة طلاقاً بائناً:

أما المطلقة طلاقاً بائناً بالثلاث، أو بالخلع، أو باللعان، فإن لها حق السكنى مدة العدة، سواءاً كانت حاملاً أم غير حامل عند أكثر أهل العلم.

أما النفقة، فظاهر القرآن يفيد أنه لا نفقة للمطلقة إلا إن كانت حاملاً، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

ولأن أبا عمرو بن حفص، طلّق زوجه فاطمة بنت قيس، طلاقاً ثالثاً غيابيّاً، حيث إنه كان في اليمن مع علي بن أبي طالب ﷺ، فأرسل لها وكيله بشعير (نفقة) فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرتْ له ذلك فقال: «**ليس لك عليه نفقة**» وأمرها أن تعتدّ في بيت أم شريك، ثم قال: «**تلك امرأة يغشاها أصحابي، فاعتدِّي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللت فأذنيني**»[2].

وإنما أمرها النبي ﷺ أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، لأنها كما قالت عائشة: كانت في مكان موحش، فخيف عليها منه وهذه رخصة خاصة بها[3].

وقال سعيد بن المسيب: إنما نُقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها.

وعن أبي إسحاق قال: كنت مع الأسود بن يزيد، جالساً في المسجد الأعظم، ومعنا الشعبي، فحدَّث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس، أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، ثم أخذ الأسود، كفّاً من حصى فحصبه بها، فقال: ويلك! تُحدّث بمثل هذا؟ قال عمر: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة، لا ندري، لعلها حفظت أو نسيت،

---

(١) رواه أبوداود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسائي (٣٥٢٨)، ومالك (٢/٥٩١)، وعبد الرزاق (١٢٠٧٥)، وابن ماجة (٢٠٣١) من حديث طويل، صححه الألباني (١٦٥١)، وفي إرواء الغليل (٢١٣١) التحقيق الثاني، وصحيح سنن أبي داود (٢٠١٦).

(٢) ينظر صحيح مسلم برقم (١٤٨٠).

(٣) البخاري (٥٣٢٥،٥٣٢٦)، ومسلم (١٤٨١).

لها السكنى والنفقة، قال الله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[١].

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً: فذهب مالك والشافعي إلى أن لها حق السكنى، ولا نفقة لها، وذهب أبوحنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة معاً، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور، أنه لا نفقة لها ولا سكنى، قال الشوكاني: وهذا هو الحق[٢].

الحكم الثاني: عدم المضارة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي لا تؤذوا المطلقات في أثناء العدة، وتلحقوا بهن الضرر، فلا تنقصوهن حقهن في النفقة، ولا تضيقوا عليهن في السكن، ولا تطيلوا عليهن في العدة حتى لا تبقى كالمعلقة، ولا تؤذوهن بقول أو فعل، فتلجئوهن للخروج ، أو التنازل عن حقهن.

والإضرار بالمطلقات منهي عنه مطلقا، لأن فيه عدوان عليهن، ولو لم يكن القصد منه التضييق عليهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة:٢٣١].

الحكم الثالث: النفقة على الحامل حتى تضع حملها:

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي وإن كان نساؤكم المطلقات ذوات حمل ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وهن في عدتهن ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهذا بالنسبة لمن طُلقت طلاقاً بائناً، لأن المطلقة طلاقاً رجعياً، لها حق النفقة، سواء أكانت حاملاً أم غير حامل، وقد نُصَّ على الحامل البائن، لأن الحمل تطول مدته، فالبائن بينونة كبرى لها حق النفقة حتى تضع الحمل، فإن أرضعت المولود بعد وضعه، فلها حق الحضانة على ما يأتي تفصيله، فإن لم ترضعه فلا نفقة لها.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال: هذه المرأة يطلقها زوجها

---

(١) ينظر حديث فاطمة بنت قيس برواياته في صحيح مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها.

(٢) فتح القدير (٢٤٣/٥).

فيبتُّ طلاقها وهي حامل، فيأمره الله أن يُسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت، فحتى تُفْطم.

وإن أبان طلاقها وليس بها حَبَل، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ولا نفقة.

وكذلك المرأة يموت زوجها، فإن كانت حاملا أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان له ميراث، وإن لم يكن له ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ فإن لم تكن حاملاً، فإن نفقتها تكون من مالها.

الحكم الرابع: على مَن يجب الرضاع؟ على الرجل أو المرأة؟

لما كان الحمل ينتهي بالوضع، بيّن سبحانه ما يجب للمطلقات بعد الوضع، ومنه أن رضاع الولد لا يلزم الزوجة، إلا إذا لم يَقْبل الطفل ثدي غيرها ولم يوجد بديل صناعي.

ورضاع الزوجة لولدها وهي في عصمة الزوج من باب التشريف وحنان الأمومة، وليس من باب الوجوب والتكليف، ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي أولادهن منكم ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي وفّوهن أجورهن على الإرضاع، والتزموا بدفْعه لهن ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للأزواج والزوجات اللاتي وقع الفراق بينهن بالطلاق، أي ليأمر كل من الزوجين الآخر بما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، وما فيه تعاون على البر والتقوى، لأن عدم الائتمار بالمعروف يؤدي إلى النزاع والشر والضرر، وإن اختلفتم على أجرة الرضاع والحضانة، فليتراضى الأب والأم على الأجر بالمعروف السائد بين الناس، وليتشاوروا ويتبادلوا الرأي في هذه المسألة، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل في شأن الولد، وليأمر بعضكم بعضاً بما عُرف عن سماحة وطيب نفس، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

فإن اشتد الخلاف بينكم ولم تصلوا إلى حل، بأن امتنع الأب عن دفع الأجرة، وامتنعت الأم عن الإرضاع إلا بأجر معين، فعلى الأب أن يبحث له عن مرضعة أخرى حتى لا يبقى الولد جائعاً ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم وتشددتم، وعسُر الاتفاق بين

الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع وأبت الزوجة أن ترضع ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي وإن لم تتفقوا على إرضاع الأم، فسترضع للأب مرضعة أخرى بأجر، غير الأم المطلقة.

قال تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

قال السدّي: إن أبت الأم أن تُرضع ولدها إذا طلقها أبوه، التمس له مرضعة أخرى، والأم أحق إذا رضيتْ من أجر الرضاع بما يَرْضى به غيرها، فلا ينبغي له أن ينتزع الولد منها، وليس لأحد أن يمنعها من إرضاع ولدها محتسبة أجرها عند الله تعالى، قياما بواجب الأمومة، أو إذا أرضعته بأجر المثل.

أما إذا لم يقبل المولود إلا ثدي أمه ولم يقبل البديل الصناعي، فإن إرضاعه يتحتم عليها، فتُجبَر إن امتنعت، ولها أجر المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من معنى الآية، لأن المولود لمّا كان في بطن أمه تعيّن على والده النفقة عليها، فكذلك الشأن لمّا خرج إلى الدنيا ولم يقبل ثدي أمه يتعيّن عليها إرضاعه، ولمّا كانت النفقة عليها وهي حامل على قدر طاقة الرجل، فكذلك يكون أجر الرضاع على قدر طاقته.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقاً بائناً، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر المثل، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك، لأنها أحق به من غيره، لشدة شفقتها عليه، وليس للأب أن يسترضع غيرها في هذه الحالة.

ويؤخذ من ذلك أن نفقة الولد الصغير على أبيه واجبة، لأن أجرة الرضاع لزمتْه، فبقيّة النفقات من باب أولى، وفي هذا عتاب للأم إن هي لم تقبل إلا بأجر معين، وعتاب للأب لأنه كان عليه أن يسترضي الأم.

النَّفَقَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مُسْتَوَى مَعِيشَةِ الْمُنْفِقِ

٧- ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

ثم وضع سبحانه المعيار لنفقة المعتدة والمرضع، فقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن

سَعَتِهِۦ﴾ أي أن من وسع الله عليه في الرزق، فلينفق على زوجته المطلقة، ويُنفق على ولده، بمقدار ما وسع الله عليه، ولا يبخل في النفقة على المعتدة، ولا على أولاده، ولا يبخل في أجرة الرضاع، أما من كان رزقه قليلاً - وهو الفقير- فلينفق على قدر ما أعطاه الله من الرزق ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ أي ضُيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق، ولهذا فإن النبي ﷺ قال لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان: «**خذي من ماله ما يكفيك ويكفي ولدك بالمعروف**».

والمعروف: هو ما تعارف عليه الناس في نفقاتهم وتصرفاتهم المعتادة في غير ما يحرّمه الله، أو يبطله الشرع كالتدخين، وآلات اللهو، والكماليات الزائدة.

والنفقة تكون في الطعام واللباس والشراب والمسكن، وهي لا تتحدد بمقادير معينة لاختلاف أحوال الناس في كل زمان ومكان.

ثم وضع الله سبحانه قاعدة عامة فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فالفقير لا يكلَّف نفقة الغني، ولا يَطلبُ المنفَق عليه من المنفِق ما هو فوق مقدرته، فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجه وعلى ولده، وعلى من تلزمه نفقتهم، على حسب عسره ويسره، بقدر ما أعطاه الله من رزق.

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل عن أبي عبيدة، فقيل له: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل الخشن من الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ماذا يصنع إذا أخذها، فلما أخذها، ما لبث أن لبس ألين الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال عمر: رحم الله أبا عبيدة، لقد عمل بهذه الآية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[1].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ثم ختم الله الآية ببشرى عظيمة، وهي أن اليسر يعقُب العسر، والسعة تكون بعد الضيق، والغنى يكون بعد الفقر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عسى أن يجعل الله بعد

---

(١) تفسير الطبري (١٤٩/٢٨).

عسركم يسراً لكم، فمن كان في عسر، فعليه أن يرجو فضل الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥،٦] ولن يغلب عُسْر يُسرين، وفي هذا إشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة.

وليس في الآية وعد لكل معسر، بأن يحول الله عسره يسراً، وإن تحقق ذلك في أحوال كثيرة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: (دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البريّة، فلما رأت امرأته ذلك، قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنّور فسجّرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال: فرجع الزوج، فقال لأهله: أأصبتم بعدي شيئا؟ قالت امرأته: نعم، مِن ربنا، فذكر الرجل ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «أما إنه لو لم ترفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة»[١].

التَّحْذِيرُ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ

٨- ﴿وَكَأَيِّن[٢] مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا[٣] ﴿٨﴾﴾

وخلال ذكر أحكام الطلاق والعدة والحضانة، حذر الله تعالى عباده من مخالفة هذه الأحكام في مواطن ستة هي:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

٢- وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

---

(١) المسند (٥١٣/٣) برقم (١٠٦٥٨)، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي بكر بن عياش، فمن رجال البخاري، وأخرجه البزار (٣٦٨٧)، والطبراني في الأوسط (٥٥٨٤)، والبيهقي في الشعب (١٣٣٩)، والدلائل (٦/ ١٠٥).

(٢) قرأ ابن كثير وأبوجعفر (وكائن) ويسهل أبوجعفر الهمزة مع المد والقصر، وقرأ الباقون ﴿وَكَأَيِّن﴾ ويقف أبوعمرو ويعقوب على الياء فيها ساكنة، فهي كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي المنونة، ولحمزة عند الوقف التسهيل والتحقيق.

(٣) قرأ نافع وابن ذكوان وشعبة وأبوجعفر ويعقوب بضم الكاف من ﴿نُكْرًا﴾ والباقون بإسكانها.

٣- وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾.

٤- وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾.

٥- وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾.

٦- وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ﴾.

بعد هذه التحذيرات الست من مخالفة أحكام الله ورسله، يُذَكِّر الله سبحانه بما حلّ بكثير من الأمم من عقاب كبير، بسبب أنهم لم يكترثوا بأمر الله ورسله، وتهاونوا في شريعته ولم يعملوا بها، ويبّن سبحانه أن كثرة أهل هذه الأمم، وقوتهم، وشدة بطشهم، لم تنفعهم شيئاً حين نزل بهم عقاب الله، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي وكثير من القرى والأمم الخالية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي عصى أهلها أمر الله تعالى وأمر رسله ﷺ وتمادَوْا في طغيانهم وكفرهم ﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ أي جازيناها على عصيانها وطغيانها بألوان من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي عذبناهم عذابا عظيما منكرا يفوق التصور، بسبب خروجهم عن طاعة ربهم وعصيان رسله.

للخارجين على حدود الله تعالى عقاب دنيوي وأخروي:

قال تعالى فيما لحق بالمكذبين من عذاب دنيوي:

٩- ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾

أي فترتب على هذا العقاب، أن ذاق أهل تلك القرى سوء عاقبة بغيهم وجحودهم لنعم الله تعالى وتجرعوا سوء عاقبة عُتوّهم وكفرهم، ومرارة جرمهم ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ أي وكان جزاء كفرها هلاكا وخسرانا لا خسران بعده، أما العذاب الأخروي فقد جاء ذكره في الآية التالية.

عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَحْذَرَ عَذَابَ الآخِرَةِ

١٠- ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى [1] ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(١) انفرد المدني الأول بعد ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ آية، وتركه جمهور أهل العدد.

وإلى جوار العقاب الذي لحق بمن خالف الله ورسوله في الدنيا، فإن أمامهم عذاب أخروي أشد وأفظع ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي أن لهؤلاء القوم، الذين طغوْا وخالفوا أمر الله ورسله ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالغ الشدة، فاحذروا - أيها الناس - عقاب الله وسخطه عليكم يا أصحاب العقول الراجحة من أمة محمد ﷺ، وهذا معنى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ واعلموا أنه لا فرق بينكم – أيها المخاطبون بهذه الآيات – وبيّن هذه الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيبهم لرسل الله، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وتُكذبوا خاتم النبيين حتى لا يصيبكم ما أصابهم، فقد أرسل الله محمداً بالقرآن ليخرج من صدّق به من الظلمات إلى النور.

ثم وصف الله سبحانه أهل العقول السليمة، بأنهم الذين يخافون الله تعالى، ويتجنبون غضبه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يا مَنْ صدّقوا الله تعالى واتبعوا رسله، وأيقنوا بهما حق اليقين، كونوا صادقين في إيمانكم، ولا تكونوا مثل مَنْ عتا وتجبّر من الأمم، فتحاسبون أشد الحساب وتعذبون من جنس عذابهم فإن فيكم كتاب الله وسنة رسوله.

والمعنى: فاتقوا الله يا أصحاب العقول السليمة، يا من آمنتم بالله حق الإيمان، فالله سبحانه هو الذي أنزل عليكم القرآن، فيه تذكير لكم عما غفلتم عنه من صحيح العقيدة والأخلاق الكريمة ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هو القرآن ينبهكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته.

وقد سمى الله تعالى القرآن ذكرا في كثير من آيات الكتاب العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦].

والمؤمنون هم المنتفعون بهذا الذكر، ولهذا خصهم الله تعالى بالذكر في الآية، وإن كان القرآن قد نزل إلى الناس كافة، وهذا القرآن فيه خيركم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، وقد حمله إليكم خاتم النبيين محمد ﷺ، فقد:

أَرسَلَ اللهُ مُحَمَّداً لِيُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

١١ - ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ(١) لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ(٢) جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

ذكّر الله عباده بكتابه الذي أنزله على محمد ﷺ ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور الإيمان والعلم والطاعة، وبيّن أن من يؤمن بالله ويعمل صالحاً فله جنات النعيم تجري من تحت قصورها الأنهار، وهو مخلد فيها دائماً وأبداً، وما أحسن هذا الرزق.

هذا: وبيْن القرآن والرسول، ملازمة وملابسة، فإن الرسالة تحققت للرسول عند نزول القرآن عليه، ولذا فُسر الذكر بأنه الرسول، على أنه بدل اشتمال، لأن الرسول هو الذي أنزل الله عليه الذكر، وهو الذي يتلوه على الناس(٣).

وهذا معنى ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي أن هذا الرسول يقرأ عليكم آيات الله موضحة لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام.

ويمكن أن يكون ﴿ رَّسُولًا ﴾ منصوب بفعل محذوف، تقديره: وأرسل رسولا(٤).

فيكون المعنى: فاتقوا الله - أيها المؤمنون- فقد أنزلنا إليكم قرآنا فيه ما يذكّركم بخيري الدنيا والآخرة، وفيه شرفكم وعزتكم وكرامتكم، وأرسلنا إليكم رسولاً هو محمد ﷺ كي يتلوا عليكم آياتنا، تبين لكم الكفر من الإيمان، والسعادة من الشقاء، وهذا معنى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ أي كي يخرج الله بهذا

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وشعبة وأبوجعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾ والباقون بالبناء للفاعل.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بالنون في (ندخله) والباقون بالياء.

(٣) وممن ذهب إلى هذا الطبري وأبوالسعود وابن عاشور.

(٤) وممن اختار هذا ابن عطية وأبوحيان والألوسي.

القرآن مَنْ صدّق الله واتبع رسوله من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهدى والإيمان، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ حق الإيمان ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ بفضله وإحسانه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها، أنهار الخمر والعسل واللبن والماء، وهم ماكثون في الجنة دائماً أبداً، لا يخرجون منها، ولا يتحولون عنها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مقيمين فيها بصفة دائمة، وهذا هو أفضل رزق للمؤمن، وأوسع نعمة يمنحها الله إياه، فيشرح بها صدره، ويدخل السرور على نفسه ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فما أحسنه من نعيم دائم لا ينقطع.

نُزُولُ الأَوَامِرِ الإِلهيَّةِ بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

١٢ - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[1] وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

ثم ختم الله السورة ببيان عظيم آثار قدرته، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي أن الله وحده هو الذي خلق بقدرته سبع سماوات طباقاً، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح:١٥] ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمس مئة عام، كما صح في حديث الإسراء، وخلَق من الأرض مثلهن في العدد قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بعضها دون بعض بدون فُتوق ولا صدوع، وخلق ما فيهن ومن فيهن من العوالم وغيرها.

وقد جاء لفظ السماء مجموعاً كما في الآية التي معنا، وجاء بلفظ المفرد أيضاً كما في سورة الذاريات قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]. وكما في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

---

(١) انفرد الحمصي بعد لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ آية، فيكون متروكاً لغيره.

ولم يأت لفظ الأرض في القرآن إلا مفرداً، ولكنه جاء في السنة بلفظ الجمع كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**من ظلم قيد شبر من أرض طُوِّقه من سبع أرضين**»[1].

وفي حديث أبي موسى ﷺ لما قال: (يا رب علمني شيئاً أدعوك به، فقال: قل لا إله إلا الله، فقال: يا رب كل الناس يقولون ذلك، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لمالت بهن لا إله إلا الله)[2].

وفي الأثر (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة)[3].

وفي حديث سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»[4].

فثبت في الأحاديث الصحيحة أن الأرضين سبع، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة. فثبت العدد ولم يثبت غيره قال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف:٥١] فهم عاجزون عن معرفة حقيقتهما.

وعلى هذا: فقد أجمع أهل العلم على أن السموات سبع، أما الأرض فهي سبع أرضين أيضا لظاهر الآية وللأحاديث الواردة في ذلك، ولا يعلم حقيقة الأمر إلا الله، وقد يكون تعدد الأرض باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية،

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٤٥٢،٢٤٥٣،٣١٩٥)، وصحيح مسلم برقم (١٦١٢).

(٢) سنن النسائي.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري، وفي إسناده محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعّفه أبوحاتم ووثقه ابن معين، وهو أثر موقوف على أبي ذر، وفي رفعه ضعف في السند، وهو في تفسير الطبري (١٢/ ٣٩)، والمستدرك (٢/ ٢٨٢)، ورفعه ابن ابي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨).

(٤) صحيح البخاري (٢٤٥٤،٣١٩٦).

ولا يعلم ذلك إلا الله.

وأجمع أهل العلم أيضاً على مماثلة الأرض للسماء في دلالة خلْقها على عظيم قدرة الله تعالى، فليست الأرض أضعف في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه من السموات، وكُلاً منهما كوكب من الكواكب السبعة يسير حول الشمس، مثل سائر الكواكب، فالأرض مماثلة للسماء في الكروية أيضاً ومماثلة لها في العدد، ومماثلة لها في الخلْق العظيم.

ثم بين سبحانه أن الوحي يتنزل إلى خلق الله تعالى من السماء العليا، إلى الأرض السفلى، فهو يتنزل بينهن، ويتنزل أيضاً ما يدبره الله لخلقه من إنزال المطر والرزق، والمرض والشفاء، والحياة والموت، وخروج النبات، والصيف والشتاء، وما إلى ذلك، وهذا معنى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾ أي ينزل الوحي وتدبير شؤون الخلق بين السماء والأرض، والأمر المنزل هو الشرائع والأحكام التي أوحاها الله إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر الله بها شؤون خلقه، وهي تتنزل ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ من السموات السبع إلى الأرضين السبع، ففي كل سماء وفي كل أرض: خلْق من خلْقه سبحانه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه، وما يدبر فيهن من عجائب الأمور، وذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء ولا يفوته أمر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج شيء عن علمه وقدرته في الأرض ولا في السماء، وأن العباد إذا علموا إحاطة قدرة الله تعالى بهذا الكون وما فيه، عبدوه حق العبادة، وهذا هو الغاية والقصد من خلق الثقلين.

تم تفسير (سورة الطلاق) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ (٦٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التحريم) هي السورة السادسة والستون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحجرات) وقبل (سورة الجمعة).

وهي سورة مدنية باتفاق.

وسميت سورة التحريم لورود لفظ {لِمَ تُحَرِّمُ} في أولها.

وتسمى (سورة النبي) وسماها ابن الزبير (سورة النساء).

وعدد آياتها اثنتا عشرة آية عند غير الحمصي، وهي عنده ثلاث عشرة آية.

وهي مئتان وسبع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً.

أغراض السورة:

هذه السورة تَعْرِض في أولها، صفحة من داخل بيوت النبي ﷺ وتذكُر الانفعالات الإنسانية بين بعض زوجاته، لمعالجة قضايا الأسرة، وتهيئة البيت الأمثل للأسرة المسلمة السعيدة.

تناولت السورة ما حرّمه الرسول ﷺ على نفسه مما أحله الله له، استرضاء لبعض زوجاته، فعاتبه الله تعالى على هذا، وبيّن له أن الحلال لا يكون حراماً بتحريم الإنسان له، ومَنْ فَعل ذلك فعليه كفارة يمين.

وعلّم الله تعالى الزوجات ألاّ يضايقْن أزواجهن حتى لا يؤدي ذلك إلى الفراق.

وتناولت السورة أمراً خطيراً يهدد كيان الأسرة، وهو إفشاء السر الذي يكون بين الزوجين.

وحملت السورة حملة عنيفة على من تُفشي أسرار الزوجية، وتوعدها الله تعالى باستبدالها بغيرها إن لم تتب.

وهكذا: فإن الآيات الخمس الأول من السورة تتناول جانباً خاصاً من حياة النبي ﷺ مع

زوجاته، وتُعطينا حُكْماً عامّاً، وهو أنه ليس لأحد أن يُحرّم على نفسه ما أحله الله له، وعندما يحدُث مثل هذه الحالة، كمن يحرم الطعام على نفسه مثلاً، فإن عليه كفارة يمين.

وفي الآيات الأربع التي تليها أربع نداءات: اثنين للمؤمنين، ونداء واحد للكفار، ونداء للنبي ﷺ خاصة.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة من السورة: ما ضربه الله تعالى مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، وللذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم.

وبالجملة فقد وجهت السورة **خمس نداءات**: نداءان للمؤمنين، ونداء للكافرين، ونداءان للنبي ﷺ :

١- أما نداء المؤمنين **الأول** فهو أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم من عذاب الله تعالى يوم لقائه، وذلك بالثبات على الإيمان، ومداومة العمل الصالح، والبعد عما حرمه الله تعالى.

٢- **والنداء الثاني** للمؤمنين أيضا: بالتوبة النصوح، الخالصة لله تعالى حتى يفوزوا بجنة النعيم.

٣- **والنداء الثالث**، هو النداء الوحيد للكفار في القرآن بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهو لبيان أن الله تعالى لا يقبل منهم عذر عندما يرون يوم القيامة النار بأعينهم لأنهم ماتوا على الكفر.

٤- **والنداء الرابع** للنبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويقاتلهم في كل زمان ومكان، وليشدذ وطأته عليهم، فإن مصيرهم جهنم وبئس المصير، وأمّته بعده مطالبة بهذا.

٥- أما **النداء الخامس** فهو في أول آية في السورة، وفيها عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ لأنه شدد على نفسه فمنعها مما هو مباح له.

وضربت السورة مثلين للزوجة الكافرة التي في عصمة الرجل المؤمن، ومثلين آخرين، أحدهما: للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الكافر، والآخر: للمرأة المؤمنة المفترى عليها، في إشارة إلى أنه في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، ولا ينفع حسب

ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً.

وختمت السورة بالثناء على مريم بنت عمران التي صانت نفسها وحفظت فرجها، فكافأها الله بأن حملت بكلمة الله تعالى وإرادته بعيسى عليه السلام، للدلالة على كمال قدرة الله تعالى في خلْقه للإنسان بدون حاجة إلى تلقيح الذكر للأنثى، وأثنى الله تعالى على مريم بصفتي الصلاح والقنوت، وهو ختام رائع يماثل جوّ السورة وهدفها.

أسباب النزول:

وسبب نزول السورة **حادثتان** حدثتا بين أزواج النبي ﷺ:

أحدهما: ما روتْه عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يشرب عسلاً عند أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ويمكث عندها، قالت: (فتواطأتُ أنا وحفصة على: أيّتُنا دخل عليها، فلتقل له: أكلْتَ مغافير؟ إني أجد منكَ ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلَفْتُ، فلا تخبري بذلك أحدا)[1].

والمغافير: صمغ حُلو، له رائحة كريهة، يخرج من شجر العُرفط أي الطلح، وكان النبي ﷺ يحب العسل والحلوى، ويكره أن يوجد منه رائحة كريهة.

وصح في الحديث أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر ﷺ (من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممتُ كلامي حتى قال: عائشة وحفصة)[2].

وهذا هو أصح الروايات في الباب، وأصل القصة ثابت، وإن اختلفت الرواية فيمن شرب النبي ﷺ عندها العسل، ومَن تظاهرتا عليه، ويشهد لهذا أن النبي ﷺ سئل عن

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٢،٥٢٦٧،٦٦٩١)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤)، وبنحوه في المسند (٢٥٨٥٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٣٧١٤)، والنسائي (٦٢٨)، وفي الكبرى (٤٧١٨،١١٥٤٤)، وابن حبان (٤١٨٣)، وابن سعد (١٠٧/٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٩،٤٩١٤)، وصحيح مسلم (١٤٧٩)، وسنن الدارقطني (٤٠١٤)، والمسند (٢٢٢،٣٣٩) مطولاً؛ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٢٦٨)، وأبوداود (٥٢٠١)، والترمذي (٢٦٩١)، وابن ماجة (٤١٥٣) مطولاً ومختصراً.

شيء حَرَّمَه على نفسه، فقال: «عكة من عسل»[١].

ثانيهما: ما جاء عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لحفصة رضي الله عنها: لا تحدثي أحداً، وإن أم إبراهيم حرام عليّ، فقالت: أتُحرِّم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يقرَبْها حتى أخبرتْ عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[٢].

وكانت حفصة رضي الله عنها قد وجدت النبي ﷺ مع مارية رضي الله عنها في حجرتها.

وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدتْه حفصة معها، فقالت حفصة: تُدخلها بيتي، ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال لها: (لا تذكُري هذا لعائشة، فهي عليّ حرام إن قرِبتُها) قيل: فقالت له حفصة: وكيف تَحرُمُ عليك وهي جاريتُك، فحلف لها أن لا يقْربها، فقال النبي ﷺ لحفصة: لا تذكريه لعائشة، فذكرتْه لعائشة، فآلى أن يدخل على نسائه شهرا، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[٣].

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[٤].

والأمة هي أم إبراهيم (مارية القبطية) التي أهداها له عظيم مصر.

---

(١) أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عتبة (١٧١/٨)، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر (٥٦٩/١٤).

(٢) المختارة للضياء المقدسي برقم (١٨٩) من مسند الهيثم بن كليب، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (٥٩/٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢٩٢/١١)، وأخرجه ابن سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٣) سنن الدارقطني (٧٦/٥) برقم (٤٠١٣)، وهو في أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٨)، والسيوطي (٣٠٧)، وفي إسناده: عبد الله بن شبيب، وهو ضعيف، وأخرجه الطبري في جامع البيان (١٥٥/٢٨) بسند صحيح.

(٤) السنن الكبرى للنسائي برقم (١١٦٠٧)، وفي السنن برقم (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٩٣/٢)، وإسناده صحيح ورجاله ثقات وصحيح سنن النسائي (٣٦٩٥).

قال الشوكاني: فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعا، وفي سبب كل منهما أنه ﷺ أَسَرَّ الحديث إلى بعض أزواجه[١].

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة، وأعلاهن طُهرا ومكانة وتَقْوى، وقد صحبْن النبي الكريم وعاونَّهُ على أداء رسالته، وارتفعْن إلى ما يُتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد آخذَهُن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفاقَهُنَّ على طلب النبي ﷺ بالمزيد من النفقة، وضِيقَهُنَّ بالمعيشة الناشفة التي التزمها، وقد رضين جميعا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه مابدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة.

أما الأمر الثاني: فإن النبي ﷺ كان لطيف العشرة، ليّن الجانب، دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجرأة عليه، وكانت الغيرة هي السبب، فزعمَتْ إحداهن أنها شمّت منه رائحة غير طبيعية، فقال: شربت عسلا عند زينب! فقالت: لعلّ نحله وقع على نبات سيّء فقال: لا أعود، ولا تخبري أحداً، ثم ظهر أن القصة مفتعلة وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة!! وغضب الرسول لِمَا وقع، وهجر نساءه جميعا، حتى شاع أنه طلقهن، ونزلت سورة التحريم تطفىء هذه الفتنة، وتؤدب مَنْ أحرج الرسول، وأساء المسلك[٢].

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/٢٥٠).

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٦٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ حَقُّ اللهِ وَحْدَهُ

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾

في هذه الآية عتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ حين حرم على نفسه أمَته (مارية) أو شُرب العسل، مراعاةً لخاطر بعض زوجاته.

لم يخاطب الله نبيه باسمه العلَم، كما خاطب سائر الرسل بقوله: يا إبراهيم، يا عيسى، يا موسى، وإنما خاطبه بلفظ النبوة والرسالة، تنويهاً بمقامه الرفيع، وإشعاراً له في هذه السورة خاصة، أنه نُبّيء بأسرار التحليل والتحريم، فكيف يمتنع مما أحله الله له؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الموحى إليه بواسطة جبريل الأمين ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾.

والخطاب للنبي ﷺ لأن سبب النزول يتعلق به، فيا أيها الرسول الكريم لماذا حرمت على نفسك ما أحله الله لك ومنعت نفسك من شراب العسل، أو مِنْ وطْء جاريتك، إنه لا يحل لك أن تفعل ذلك، لأن ما أباحه الله لك لا يصح أن تُحَرِّمه على نفسك، فتشق عليها من أجل إرضاء بعض زوجاتك، ولا يوجد ما يدعو إلى أن تُحرِّم على نفسك ما أحل الله لك، فأرح نفسك من هذا العناء، ولا تُضيّق عليها، ولا تُتْعِبُها في سبيل إرضائهن.

أ - ورد أن حفصة رضي الله عنها زارت أباها ذات يوم، وكان يومَها، فجاء النبي ﷺ فلم يجدها في المنزل، فأرسل إلى أمَتِه مارية، فأصاب منها في بيت حفصة، وجاءت حفصة على تلك الحال، فقالت: يا رسول الله، أتفعل هذا في بيتي وفي يومي، قال: «فإنها عليّ حرام، ولا تخبري بذلك أحداً» فانطلقتْ إلى عائشة فأخبرتْها بذلك، فأنزل الله الآية وأَمر نبيه أن يكفر عن يمينه، ويراجع أمته[1].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور برقم (١٧٠٧)، وأخرجه أيضاً ابن المنذر عن الضحاك.

ب – وورد أنه ﷺ كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنّا نجد منك ريحاً، فحرّم العسل على نفسه[1].

وسند هذه الرواية أقوى، فلعلّها هي المرادة بالآية.

ثم عذَر الله نبيّهُ بأنه أراد بذلك خيراً، وهو جلْب رضا الأزواج، لأنه أعون على حسن العشرة، فأخبر الله رسوله بأن هذا الاجتهاد غير صحيح، وقال له: ﴿تَبْتَغِى﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أي تطلب رضاء زوجاتك بامتناعك عن العسل كراهة رائحته، أو امتناعك من مارية تطييباً لخاطر حفصة.

وبعد هذا العتاب اللطيف سامح الله رسوله وعفا عنه ورفع عنه اللوم فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد كانت هذه الحادثة لحكمة عظيمة وهي تشريع حكم عام للأمة يتعلق بجميع الأَيْمان.

في تحريم الحلال كفارة يمين

٢ – ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

ثم بين سبحانه وتعالى الحكم الشرعي فيمن حرّم على نفسه شيئاً أحله الله تعالى له، فقد شرع الله له ما تنحل به يمينه قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي شرع الله لكم – أيها المؤمنون – تحليل أيمانكم التي هي من هذا القبيل، بأداء الكفارة عنها، وهي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، إذ ليس لأحد أن يحرّم على نفسه ما أحله الله له، فإن فعل، فإن يمينه لا ينعقد، ولا يلزم صاحبه الوفاء به، لأن التحليل والتحريم حق لله وحده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٨٧] فإن حرم الإنسان على نفسه ثوباً أو طعاماً أو شراباً أو شيئاً مباحاً ونحو ذلك فهو بمنزلة اليمين،

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٩١٢).

فإن فعل، انحلت يمينه وكفَّر عنها.

فتحليل اليمين التي عُقدت على هذا النحو يكون بالتكفير عنها، إذا كان العدول عنها إلى غيرها أفضل، كما في الحديث عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «**إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها، إلا كفرتُ عن يميني، وفعلتُ الذي هو خير**»[1].

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي أمر الله النبي والمؤمنين إذا حرموا شيئاً مما أحله الله لهم أن يكفّروا عن أيمانهم بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، ولا يدخل في ذلك طلاق.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] .

وهذه الكفارة على أساس أن التحريم يمين وليس ظهاراً، ويشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين قال: «**إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها**» وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

وفي رواية: «**إذا حرم امرأته ليس بشيء**» وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

وفي كفارة اليمين وفاء بتعظيم الحلف بالله تعالى، كما قال تعالى لأيوب عليه السلام ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤] .

وقد أمر الله نبيه أن يكفر عن قوله، لأن ما يحرمه الإنسان على نفسه يجري مجرى اليمين، أو لأنه ملحق باليمين، وكان ذلك تطيباً لخاطر زوجته، وجمعاً لشمل البيت النبوي.

---

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في البخاري (٣١٣٣،٧٥٥٥)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٠١/٢٨)، وصحيح البخاري برقم (٤٩١١)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٣).

(٣) للحميدي وانظر سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٠٩).

فإن حلف الرجل أن لا يأكل طعاما معيّناً، أو لا يلبس ملابس معينة، أو لا يدخل مكاناً معيناً، ونحو ذلك، بأن حلف على فعل شيء، أو تزك شيء، ثم حنث في يمينه أو أراد أن يحنث في يمينه، فله أن يأكل ويلبس ويفعل أو يترك ويكفر عن يمينه، لأن الحلال لا يكون حراماً بتحريمه له.

واختلف الفقهاء فيمن حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له على أقوال:

١ - منها: أنه لا يلزمه شيء، وهو قول الشعبي ومسروق وربيعة ..

٢ - ومنها: أنه تجب فيه كفارة يمين، وبه قال الجمهور.

٣ - ومنها: أنه لا يلزمه شيء في غير ما يتعلق بالزوجة ويلزمه في الزوجة.

٤ - ويرى أبوحنيفة أن تحريم الزوجة يكون ظهاراً أو طلاقاً حسب نية من حرمها على نفسه.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هو سبحانه وليكم وناصركم ومتولي أموركم في دينكم ودنياكم ولذلك شرع لكم كفارة اليمين لتبرأ ذممكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بشؤون خلقه وما يصلحها الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه وفي أقواله وأفعاله، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يناسب أحوالكم ويوافق مصالحكم.

قِصَّةُ مَا حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ

٣- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ[1] بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

شرعت السورة في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أي اذكر - أيها المخاطب - حين أسرّ النبي محمداً ﷺ إلى زوجته حفصة رضي الله عنها خبراً، وطلب منها أن تكتمه ولا تفشيه،

(١) قرأ الكسائي بتخفيف الراء من ﴿عَرَّفَ﴾ على معنى المجازاة لا على حقيقة العرفان لأنه كان عارفا بالجميع والباقون بتشديدها أي عرف الرسول حفصة بعض ما فعلت، والمفعول الأول محذوف.

فذكرته لعائشة رضي الله عنها، وأفشت سر رسول الله ﷺ.

وكما جاء في الحديث السابق أيضاً أن النبي ﷺ قال لها: «**بل شربتُ عسلا عند زينب ولن أعود، وقد حلفتُ فلا تخبري بذلك أحداً**».

والتي أسر إليها النبي ﷺ بهذا الحديث هي حفصة.

فقد جاء في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (مكثتُ سنة، وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله، هيْبة له، حتى خرج حاجّاً فخرجتُ معه، فلما رجع ببعض الطريق قلت: يا أمير المؤمنين، مَن اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة)[1].

وجاءت طائفة من الآثار تفيد أن ما أسر به النبي ﷺ إلى حفصة يتعلق بأمر الخلافة بعده، وهي أقوال لا ترقى إلى مرتبة الصحة، ومنها:

١- أخرج الطبراني وابن مردُويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلتْ حفصة على النبي ﷺ في بيتها، وهو يطأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: (لا تخبري عائشة حتى أُبشرك ببشارة، فإن أباك يلي الأمر بعد أبي بكر، إذا أنا مت)، فذهبتْ حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة للنبي ﷺ: «**من أنبأك هذا؟**» قال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فقالت عائشة: لا أنظر إليكَ حتى تُحَرّم مارية، فحرمها فأنزل الله الآية[2].

٢- وعن علي وابن عباس ﷺ قالا: والله، إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال لحفصة: «**أبوك وأبوعائشة، واليا الناس بعدي، فإياكِ**

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٣،٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، وأحمد (٢٢٢) بأطول من ذلك، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٢٤٦١)، والنسائي (٢١٣١)، وفي الكبرى (٢٤٤٢)، وابن حبان (٤٢٦٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٢٦٤٠)، وابن مردُويه كما في فتح الباري (٢٨٩/٩)، وقال الهيثمي: فيه إسماعيل بن عمرو البجَلي وهو ضعيف، وقد وثقه ابن حبان، والضحاك بن مزاحم لم يسمع من ابن عباس وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد (١٧٨/٥).

أن تخبري أحداً»[1].

٣- وعن ميمون بن مهران قال: أسرَّ النبي ﷺ إليها: «إن أبابكر خليفتي من بعدي»[2].

٤- وقال حبيب بن أبي ثابت: أخبر النبي ﷺ عائشة أن أباها الخليفة من بعده، وأن أباحفص الخليفة من بعد أبيها[3].

٥- وقال الضحاك: أسرَّ النبي ﷺ إلى حفصة بنت عمر أن الخليفة من بعده أبوبكر، ومن بعد أبي بكر عمر[4].

قال الفخر الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة، أراد أن يترضّاها، فأسرَّ إليها بشيئين: تحريم الأمَة (مارية) على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر[5].

فالحديث الذي أسرّهُ النبي ﷺ إلى حفصة وأمرها بكتمانه يتعلق بالعسل أو بالخلافة، أو بالجارية.

وقد كنّى القرآن عن حفصة ببعض أزواجه ولم يصرح باسمها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي لما أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالخبر ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله نبيه بواسطة جبريل على إفشاء حفصة لسرّه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ وهو تحريم مارية عليه ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ وهو أمر الخلافة، كراهة أن يتفشى ذلك في الناس، وذلك أنه عندما أراد النبي ﷺ أن يعاتب حفصة على ما كان منها، أخبرها ببعض الحديث الذي أفشته، ولم يخبرها بجميع ما حدث، حياء منه وتكرُّماً، فإن مِنْ عادة أهل الفضل التغافل عن الزلات والتقصير في اللوم والعتاب.

---

(١) أخرجه ابن عدي (١٢٧٢/٣)، وأبونعيم في فضائل الخلفاء الأربعة (١٧٨)، وابن عساكر (٢٢٢/٣٠).

(٢،٣) ابن عساكر (٢٢٢/٣٠).

(٤) أبونعيم في فضائل الصحابة (١٧٧) فضائل الخلفاء الأربعة.

(٥) قاله ابن عباس، ينظر: التفسير الكبير (٤٣/٣٠)، وتفسير الخازن (٢٨٤/٤)، وجاء ذلك عن أبي هريرة عند الطبراني في الأوسط (٢٣١٦)، وابن مردويه كما في فتح الباري (٦٥٧/٨)، وتخرج أحاديث الكشاف للزيلعي (٦٠/٤).

قال الخازن: والمعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمَة، وأعرض عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[1].

وقال النسفي: روى أنه قال لها: ألم أقل لك اكتمي عليّ، قالت: والذي بعثك بالحق، ما ملكتُ نفسي فرحا بالكرامة التي خص الله بها أباها[2].

ولعل حفصة قد فعلت ذلك ظنا منها أنه لا حرج في إخبار عائشة بذلك، أو أنها اجتهدت فأخطأت، ثم تابت وندمت.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي لما أخبر النبي ﷺ حفصة بالحديث الذي أفشتْه إلى عائشة ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي من أخبرك يا رسول الله بما قلتُه، وكانت حفصة قد استكتمتْها، فأرادت أن تتثبّت من أن عائشة لم تخبره بما دار بينهما من كلام، فهي تعلم أن عائشة لن تفشي سرها، وتعلم أنه لا قبل للرسول ﷺ بمعرفة ذلك إلا من طريق عائشة أو عن طريق الوحي، فأرادت التحقّق فأجابها النبي ﷺ بأن الذي أخبره بذلك هو علام الغيوب ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦،٢٧] .

هل طلق النبي ﷺ حفصة ؟

قيل: إن النبي ﷺ غضب من إفشاء حفصة لسره وطلّقها، فلما بلغ ذلك عمر قال: لو كان في آل الخطاب خير، ما طلّقكِ رسول الله ﷺ وأتاه جبريل فأمره بمراجعتها.

وقيل: إنه ﷺ لم يطلقها، وإنما هَمّ بطلاقها، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة[3].

---

(١) تفسير الخازن (٢٨٤/٤).

(٢) تفسير النسفي بحاشية الخازن (٢٨٤/٤).

(٣) تفسير الخازن (٢٨٤/٤)، ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً، كما في تفسيره (٨٥/٢٨)، واختلف أهل العلم هل طلّق النبي ﷺ حفصة أم لا؟ ولم يثبت طلاقها في حديث صحيح، ولكن حدثت قضية الإيلاء بسبب حفصة، ينظر: تفسير التحرير والتنوير للآية (٣٩٦/٢٨).

اعتزال النبي ﷺ لزوجاته:

وفي قصة اعتزال النبي ﷺ لزوجاته أن عمر ﷺ قال لابن عباس رضي الله عنهما: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فأخذ نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوماً وأنكرتُ عليها مراجعتها لي، فقالت: والله إن أزواج النبي ﷺ يراجعْنه، وتهجرُهُ إحداهن اليوم إلى الليل، قال عمر: وكان لي جار من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله ﷺ نأتي بخبر الوحي، قال: وكنا نخشى من غزْو غسّان لنا، فجاء الأنصاري يوما عِشاءً، فضرب الباب، فخرجتُ، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: أجاء غسّان؟ قال: أعظم من ذلك، طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت في نفسي: خابت حفصة وخَسِرَت، فلما أصبحتُ، انطلقتُ ودخلتُ على حفصة، فإذا هي تبكي، فقلت: أطَلقكُن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا معتزل في المشربة - أي الغرفة المرتفعة - قال عمر: فاستأذنت في الدخول عليه، فأذن لي في المرة الثالثة، قال: فدخلت، فإذا النبي ﷺ متكئاً على حصير قد رأيت أثره في جنبه.

ثم إن عمر قال لابنته حفصة: أتُراجعْن رسول الله؟ قالت: نعم، وتهْجُرْه إحدانا اليوم إلى الليل، فقلت: قد خابت من فَعَلَتْ ذلك منكنّ وخسرتْ، أَتأْمنُ إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ، قال عمر لحفصة: ولا تسأليه شيئا وسليني مابدا لك، ولا يغرّنّكِ أن صاحبتُك أوْسَمُ منك، وأحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى، فقلت: يا رسول الله، أستأنس؟ - يعني أتوسّع في الحديث؟- قال: (نعم)، فرفعت رأسي فما رأيتُ إلا ثلاث قطع من الجلد، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وُسّع على فارس والروم وهم لا يعبدونه، فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، فقال: «**أوَفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم قد عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**» وكان ﷺ قد أقسم ألاّ يدخل على نسائه شهراً،

فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة يمين[1].

إثابةُ التائبِ وعقوبةُ المُصرِّ على الذنبِ

٤ - ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا[2] عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ[3] وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى حفصة وعائشة فيأمرهما بالتوبة على ما صدر منهما ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وترجعا إليه وتندَما عما بدَر منكما ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت إلى الخير وحُسْن المعاشرة بعد الانحراف عن آدابها، وقد بدَر منكما ما يوجب التوبة.

قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام:١١٣] . أي يُميل سَمْعَه إلى مَنْ يُكلِّمه، وكان قلب عائشة وحفصة قد ما لا إلى محبة ما كرهه النبي ﷺ من إفشاء سره ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتعاونا على إيذاء النبي ﷺ وإساءته من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه ويستمر ذلك منكما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ هو وليه وناصره وليس بعد نصر الله له نصر.

وهنا يقف القارىء، ثم يبدأ بالمبتدأ بعد ذلك وهو جبريل ومن عُطف عليه.

والمعنى: ثم إن جبريل والمؤمنين الصالحين المخلصين نُصراء له أيضاً وأعواناً، وهذا معنى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الجميع أعوان الرسول، ومن كان هؤلاء عونه

---

(١) ينظر الحديث في البخاري (٢٤٦٨،٤٩١٣،٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن سعد (١٨٢/٨)، والترمذي (٣٣١٨،٢٤٦١)، والنسائي (٢١٣١)، وفي الكبرى (٢٤٤٢،٩١٥٧)، وابن حبان (٤٢٦٨).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الظاء من ﴿تَظَٰهَرَا﴾ على حذف إحدى التائين، والباقون بالتشديد على إدغام التاء في الظاء.

(٣) قرأ نافع وأبوعمرو وابن عامر وحفص وأبوجعفر ويعقوب ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ بكسر الجيم، وبدون همزة على لغة الحجازيين، وقرأ ابن كثير (وجَبريل) بفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه (وجَبْرَئيل) بفتح الجيم وهمزة بعد الراء، والوجه الثاني لشعبة (وجَبْرَئِل) بحذف الياء بعد الهمزة وكلها لغات، وفيه لحمزة وقفا التسهيل فقط.

فهو المنصور وغيره ممن يُناوئه هو المخذول.

ثم نبه جل شأنه على أنه يوجد نَصْر ثالث لرسول الله ﷺ غير ظاهر لنا، وهو تأييد الملائكة له بالنصر، وهذا أمر خفي بالنسبة لنا، كما نصر الله المؤمنين بالملائكة يوم بدر وهم لا يرونهم. قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي أن الملائكة أعوان للنبي ﷺ ينصرونه ويؤيدونه.

أي والملائكة نُصراء له أيضاً بعد نصر الله تعالى وكذا جبريل والصالحين من عباد الله.

ونُصْرة جبريل للنبي ﷺ لأن الوحي يأتي بواسطته، ونصرة المؤمنين الصالحين للنبي ﷺ بمعنى أن الله تعالى ينصره بواسطتهم.

فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصاره؟ وجبريل عليه السلام يدخل ضمن عموم الملائكة، وإفراده بالذكر تشريفاً له.

وتوسيط ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بين جبريل والملائكة، اعتناء بهم، وإشادة بفضل صلاحهم.

التَّحْذِيرُ مِنْ إِفْشَاءِ أَسْرَارِ الزَّوْجِيَّةِ

٥ - ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ[1] أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

ولما أفادت الآية السابقة التحذير لعائشة وحفصة رضي الله عنهما من العذاب الأخروي إن لم يتوبا إلى الله تعالى، أفادت هذه الآية التحذير لهما من عقوبة دنيوية، وهي عقوبة الطلاق لهن جميعا واستبدالهن بأزواج أُخْرَيات خيراً منهن.

في حديث عمر ﷺ أن النبي ﷺ اعتزل نساءه، وحلف ألا يدخل عليهن شهرا، قال: «فاستأذنتُ في الدخول على رسول الله، فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنتَ طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبوبكر،

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال مضارع أبدل، وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد الدال مضارع بدّل.

والمؤمنون معك، قال: فنزلت آيةالتخيير ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلّقتهن؟ قال: لا، فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله نساءه، ونزلتْ هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] فكنت أنا استبطنت ذلك الأمر»[(١)].

وعن عمر ﷺ قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى، فنزلَتْ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

وقلت: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

ويلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلتُ عليهن فقلت: إن انتهيتُنّ، أو ليُبدلَنّ الله رسوله خيراً منكن، فأنزل الله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[(٢)].

والمعنى: عسى رب محمد إن طلقكُن - أيتها الزوجات - أن يزوّجه بدلاً منكن، وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ لو طلقهن لأبدله الله خيراً منهن ديناً وجمالاً.

قال ابن سعدي: وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات الجامعات بين الإسلام والإيمان[(٣)].

والله تعالى عالم بأنه لن يطلقهن، ولكنه سبحانه خوّفهُن، وأخبر عن قدرته جل شأنه على ذلك.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهن بثماني صفات:

١- فهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ متصفات بالإسلام، عاملات به، قائمات بأركانه وحدوده،

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٤٧٩)، والبخاري (٨٩،٢٤٦٨،٥١٩١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٠٢)، وانظر (٤٤٨٣،٤٧٩٠،٤٩١٦)، ومسلم (٢٣٩٩).

(٣) من تفسير ابن سعدي للآية بتصرف.

خاضعات لله تعالى بالطاعة والاستجابة.

٢- وهن ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، تصديقاً بالقلب، ونطقاً باللسان، وعملاً بالجوارح.

٣- وهن ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات لله ورسوله، على وجه الدوام والاستمرار، قائمات بالطاعة أحسن قيام، كما وصفهن الله تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب:٣١] وقوله: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

٤- وهن ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عما يكرهه الله، قائمات بما يحبه الله، مقْلعات عن الذنب إذا وقعْن فيه، راجعات إلى طاعة الله تعالى، ومن ذلك ما وقعت فيه حفصة وعائشة من تآمرهما على رسول الله ﷺ.

٥- وهن ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ مقبلات على عبادة الله تعالى، كثيرات الطاعة له سبحانه.

٦- وهن ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: صائمات، واستدل بالأثر (سياحة هذه الأمة: الصيام) فهن ناسكات صائمات مجاهدات، مهاجرات ..

وقال زيد بن أسلم: مهاجرات، وتلا ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] أي المهاجرون.

ولعل المراد: الهجرة في طلب العلم ونحوه، وأنهن ذاهبات في طاعة الله تعالى كل مذهب.

٧- وهن ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ والثيب هي التي سبق لها الزواج، وسميت كذلك لأنها ثَابَتْ أي رجعت إلى بيت أبويها بعد زواجها، أو رجعتْ إلى زوج آخر بعد زواجها الأول.

أي بعضهن ثيبات وبعضهن أبكاراً

ثم عطف بالواو للتغاير بين الثيب والبكر فقال تعالى:

٨- ﴿وَأَبْكَارًا﴾ وهي الفتاة العذراء التي لم يسبق لها الزواج، وسميت بكراً: لأنها لا تزال على حالها التي خُلقتْ عليها من البكارة، وذِكْرُ البكر والثيب ليكون ذلك أشهى إلى النفس.

فلما سمعن هذا التخويف بادرْن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكُنَّ بهذا أفضل نساء المؤمنين، ولما اختار الرسول بقاءهن معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال: «**إن الله يُقرؤها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قَصَب، بعيد من اللهب، لا نصَب فيه ولا صخَب، من لؤلؤة جوفاء، بين بيت مريم بنت عمران، وبيت آسية بنت مزاحم**»[1].

التعريف بزوجات النبي ﷺ وهن:

١- خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وسنها أربعون سنة، وماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوج النبي ﷺ غيرها حتى ماتت، وقد تجاوز سنُّه الخمسين.

٢- سَوْدة بنت زمْعة رضي الله عنها، كان زوجها السكران بن عمرو بن عبد شمس، من السابقين إلى الإسلام، ومن مهاجري الحبشة، فلما تُوفي عنها، تزوجها النبي ﷺ.

٣- عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، لم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، وقد دخل عليها في المدينة بعد الهجرة، وكانت أحب نسائه إليه.

٤- حفصة بنت عمر رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ بعد الهجرة بسنتين وأشهر، بعد أن عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان، وكانت ثيباً.

٥- زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، قُتل زوجها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر، فتزوّجها النبي ﷺ وماتت في حياته.

٦- أم سلمة رضي الله عنها، تُوفي زوجها أبوسلمة على إثر جُرح أصابه يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ وضم إليه عيالها منه.

٧- زينب بنت جحش رضي الله عنها، ابنة عمة النبي ﷺ تزوجها النبي إبطالاً لقاعدة

---

(١) ينظر الحديث عن أبي هريرة، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وعائشة، وابن عمر في البخاري (١٧٩٢، ٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٩، ٣٨٢٠، ٧٤٩٧)، ومسلم (٢٤٣٢،٢٤٣٣،٢٤٣٤).

التبنّي بعد أن طلّقها متبنّاه زيد بن حارثة ﷺ.

٨- جُويْرية بنت الحارث رضي الله عنها، بنت سيد بني المصطلق، تزوجها النبي ﷺ سنة ست من الهجرة، كانت من سبايا غزوة بني المصطلق، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبَتْه على نفسها، فذهبت إلى النبي ﷺ تستعين به في قضاء ما عليها لشماس، فقضى عنها النبي ﷺ وتزوجها.

٩- أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، أسلمت وهاجرت إلى الحبشة، فارتدّ زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها، فخطبها النبي ﷺ وهي في الحبشة وأمهرها النجاشي وقدمت إلى المدينة.

١٠- صفية بنت حُييّ بن أخطب رضي الله عنها، بنت زعيم بني النضير، كانت زوجة لكنانة بن أبي الحقيق، وبينما كان بلال يمرّ بها على قتلى اليهود، ألقى النبي ﷺ عليها ثيابه، فعرف الناس أن رسول الله ﷺ اصطفاها لنفسه وكان ذلك بعد فتح خيبر.

١١- ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس ﷺ، وهي أرملة حويطب بن عبد العزى، وكانت آخر مَنْ تزوج النبي ﷺ.

الأَمْرُ بِوِقَايَةِ النَّفْسِ وَالأَهْلِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

٦- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد أن وعظ الله سبحانه أمهات المؤمنين موعظة خاصة، أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين جميعا، فيها تحذير لهم بالوقاية من النار، وترهيب شديد من عذاب الله، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يا معشر من صدق الله واتبع رسوله، ومنّ عليه بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ احفظوا أنفسكم وأهليكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، وأبعدوهما عن عذاب النار، بفعل الحسنات والطاعات، وترك السيئات والمعاصي، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وتوبوا مما يسخط الله، وأرْشدوا

أبناءكم وبناتكم وزوجاتكم إلى ذلك وعلِّموهم وأدِّبوهم، وأمُروهم بالخير، وانهُوهم عن الشر حتى تَقُوهم من النار، فلا يَسْلم العبد إلا إذا قام بما أمره الله به في نفسه، وفيمن يدخل تحت ولايته من الزوجية والأبناء وغيرهم، كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كلكم راع وكلكم مسؤول، فالإمام راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلم مسؤول**»[1].

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**»[2].

ولما نزلت هذه الآية، قال عمر: يا رسول الله، نقي أنفسنا، فكيف بأهلينا؟ فقال: «**تنهوْنهم عما نهاكم الله عنه، وتأمرونهم بما أمركم الله به**»[3].

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في معنى الآية قال: يقيهم: أي يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله، يأمرهم به، ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، رَدَعْتَهم عنها، وزجَرْتَهم عنها.

ثم بين سبحانه أن نار جهنم لا توقد بالحطب كما يوقد غيرها من نيران الدنيا، وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس - أهل النار- ممن مات على الكفر في الدنيا، وتتكون من الحجارة التي كانت تُعبد في الدنيا من دون الله، فهذه النار ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ .

وهذا أمر قد تقرر قبل نزول هذه الآية، بما جاء في سورة البقرة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

---

(١) صحيح البخاري (٥١٨٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه وهذا لفظه، وانظر (٨٩٣)، وصحيح مسلم (١٨٢٩).

(٢) المسند (٣/٤٠٤) رقم (٦٧٥٦) بإسناد حسن، وكذا (٦٦٨٩)، وأبوداود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، وابن أبي شيبة (١/٣٤٧)، وهو حديث حسن صحيح كما في صحيح سنن أبي داود (٤٦٥،٤٦٦).

(٣) تفسير الخازن (٤/٢٨٧)، والقرطبي (١٨/١٩٤).

وفي سورة الأنبياء ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [آية:٩٨].

اربع صفات لملائكة العذاب:

ثم وصف الله تعالى هذه النار بقوله ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي يقوم على تعذيب أهل النار ملائكة قساة، نزع الله الرحمة من قلوبهم، وقد وصفهم ربنا بأربع صفات:

فهم أولاً: ﴿غِلَاظٌ ﴾ في الأقوال والأفعال، جفاة، قساة، فيهم فظاظة على أهل النار، يفزع أهل النار من أصواتهم، ويخافون من مناظرهم.

وهم ثانياً: ﴿شِدَادٌ ﴾ أقوياء في معاملة أهل النار الذين وُكّلوا بهم وبعذابهم، قوتهم تُرهِب أهل النار وتُزعجهم.

وهم ثالثاً: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ أيْ لا يخالفون أمر الله تعالى بحال من الأحوال.

وهم رابعاً: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فينفّذون كل ما أمرهم الله تعالى به بلا إمهال.

إنهم يتقبلون أوامر الله تعالى ويلتزمون بها، ويُنفذونها ويؤدون ما أُمروا به، لا يتثاقلون عنه ولا يتوانَوْن فيه.

عن أبي عِمران الجَوْنيّ قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر، ما بين مَنكِب أحدهم مسيرة مئة خريف، ليس في قلوبهم رحمة، إنما خُلقوا للعذاب، يضرب المَلَك منهم الرجلَ من أهل النار الضّربة، فيتركُه طحيناً من لدن قَرْنه إلى قدَمِه[1].

عُذْرُ الْكَافِرِ لاَ يُقْبَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٧- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

وعندما يقف أهل النار على النار، فإنهم يعتذرون عما فعلوه في الدنيا، ويقدّمون الحجج التي تُبرّؤهم من تبعة الذنوب، عندئذ تقول لهم الخزنة تبكيتاً وتوبيخاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص ٣١٢).

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ﴾ يا مَن جحدتم وحدانية الله تعالى، ولم تتبعوا خاتم الرسل ﷺ لا تلتمسوا المعاذير في هذا اليوم عن كفركم وشرككم بأن تقولوا ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة:١٩] أو تقولوا ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] أو تقولوا: إنّ غيْرَنا أضلُّونا، فإنَّ هذه الأعذار لن تنفعكم، ولن تُغني عنكم شيئاً فقد ذهب وقت الاعتذار، فلم يبق إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآيات الله، ومحاربة رسل الله ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إنما تُعطَوْن جزاء الذي تعملونه في الدنيا من الكفر الذي متّم عليه.

طَرِيقُ الْوِقَايَةِ مِنَ النَّارِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ

٨- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا[1] عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[2] يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

ثم أرشد الله سبحانه إلى طريق الوقاية من النار، وذلك بالتوبة النصوح، فقد وعد الله عليها، بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، ولأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بهذه الوقاية، فقد وُجه الخطاب إليهم.

وبداية طريق النجاة من النار: هو التوبة النصوح، بالإقلاع الفوري عن جميع الذنوب، والعزم الأكيد على عدم العودة إليها، والندم الذي يتقطع له القلب حسرة على ما مضى من الذنوب، وأداء الفرائض، ورد المظالم والحقوق إلى ذويها، وإخلاص الأوْبة إلى الله عز وجل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا معشر من صدّق الله واتبع رسوله ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أي ارجعوا عن ذنوبكم إلى طاعة الله عز وجل، رُجُوعاً لا معصية بعده، وجنّبوا أنفسكم

(١) قرأ شعبة بضم النون من ﴿ نَّصُوحًا ﴾ مصدر نصح نصحا، والباقون بفتح النون صيغة مبالغة كضروب.

(٢) عد الحمصي وحده لفظ ﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ آية، فيكون متروكاً لغيره.

وأهليكم ما يَزِجُّ بهم في النار.

والتوبة النصوح هي التي تصنع ضميراً يأمر بالخير، ويزجر عن الشر، ويذكّر بالله تعالى:

عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سئل عن التوبة النصوح فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لا يعود إليه أبداً[١].

والتوبة النصوح تكفّر كل سيئة، كما صح عن ابن مسعود ﷺ[٢].

والمراد بها التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي أخلص فيها العبد لله واستمر عليها في جميع أحواله.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يستغفرون ثم لا يعودون.

وورد عن علي ﷺ أنه قال: يَجْمعُ التوبة ستة أشياء:

١- الندامة على الماضي من الذنوب. ٢- وإعادة الفرائض.

٣- ورد المظالم. ٤- واستحلال الخصوم.

٥- وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية.

٦- وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقْتها حلاوة المعاصي[٣].

وقال محمد بن كعب القرظي: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء:

الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان[٤].

---

(١) ورد هذا بإسناد صحيح موقوف على عمر ﷺ كما في ابن جرير (١٠٧/٢٨)، وصححه الحاكم (٤٩٥/٢) ووافقه الذهبي، وهو عند ابن حجر في المطالب العالية (٣٧٨٥)، والبيهقي في الشعب (٧٠٣٤)، وأخرجه عبد الرزاق (٣٠٣/٢)، وابن أبي شيبة (٢٧٩/١٣).

(٢) صححه الحاكم (٤٩٥/٢) وتعقبه الذهبي بقوله: (عباية) – أحد رواته –، لا ذكر له في الكتب الستة.

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٣٦٨/٢٨).

(٤) تفسير الخازن (٢٨٧/٤).

والله تعالى يقبل التوبة بدءاً من الكفر ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال:٣٨].

ويقبل توبة المشرك القائل عزير ابن الله، أو المسيح ابن الله، فقد قال تعالى عنهم ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ [المائدة:٧٤].

ويقبل سبحانه التوبة من جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣].

ومن الأحاديث الواردة في التوبة:

١- ما رواه مسلم عن الأغر بن يسار المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة**»[1].

٢- وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة ..**»[2].

٣- وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[3].

٤- وأخرج الترمذي بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[4].

٥- وفي الحديث القدسي عن أبي ذر «**يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم**»[5].

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٧)، وصحيح البخاري (٦٣٠٩).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٥٩).

(٤) أخرجه الترمذي في صحيح سننه (٢٨٠٢)، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٢٥٣).

(٥) من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ في صحيح مسلم (٥٥،٢٥٧٧).

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

ثم رغّب الله عباده في التوبة وأطمعهم في رحمته فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أي إنكم إن تبتم إلى الله تعالى توبة نصوحاً، فإن الله تعالى يمحو عنكم سيئات أعمالكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي يدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار.

ثم أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين وبيّن أنه سبحانه لا يخزيهم ولا يفضحهم، ولا يدخلهم النار في هذا اليوم العصيب، بل يكرمهم ويرفع من شأنهم ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ وهذا على عكس الذين لم يؤمنوا، فإن الله تعالى يخزيهم ويدخلهم النار.

والخزي هو عذاب النار، وقد دعا إبراهيم ربه أن يقيه هذا الخزي فقال:

﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء:٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وأهل الكفر والفسوق هم أهل الخزي بعذاب النار يوم القيامة، يتخبطون في الظلمات ولا يبصرون الطريق وهم يمرّون على الصراط.

أما أهل الإيمان والتقوى فإن ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ فهم يسيرون على الصراط في نور يُضيء لهم الطريق، ويسطع أمامهم وخلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل، فهم يمشون في نور إيمانهم.

وهو نور حقيقي يجعله الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة، وهم يقولون على سبيل الحمد والشكر: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ حتى نجتاز الصراط، ونهتدي إلى الجنة.

وتمام النور: دوامه والزيادة فيه، ولذا: فإنهم يُشفقون على أنفسهم عند ما يرون نور المنافقين يُطفأ، ويسألون ربهم أن يتم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصِّلهم بنورهم إلى جنات النعيم، وذلك بسبب التوبة النصوح.

كما يطلب المؤمنون من ربهم أن يستُر عليهم ذنوبهم ويتجاوز عنها، فيقولون ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ أي امح عنّا ما فرط من الذنوب، فأنت القادر على كل شيء، بيدك الرحمة والمغفرة والعذاب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

جهادُ الكُفّارِ والمُنافِقين

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ[1] ٱلۡمَصِيرُ﴾

ولما بين الله عز وجل فيما سبق، ما سيحل بالكفار من العذاب يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ وعرّض بهم في قوله ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ أمر رسوله ﷺ في هذه الآية، بتطهير الأمة من الخُبثاء، وجهاد الكفار والمنافقين جهاداً كبيراً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي جاهد الذين أظهروا الكفر وأعلنوه، وقاتِلْهم بكل ما أتيح لك من وسائل القتال إذا احتلّوا شبراً من أرض الإسلام، أو وَقَفوا حائلاً في وجه نشر الدعوة، والخطاب للنبي ﷺ وإلى قادة الأمة الإسلامية من بعده حكاماً وعلماء.

وكما أُمر النبي ﷺ بجهاد الكافرين، أُمر كذلك بجهاد المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي وجاهد أيضاً المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأخفوه، ولكن جهاد المنافقين يكون بالحجة والبرهان، والموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال وإقامة الحدود، وأداء شعائر الإسلام، ولا تقاتلوهم بالسيف لأنهم مسلمون في الظاهر، وقد أُمِرنا أن نأخذ بالظاهر، فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقد عصم ماله ودمه إلا بحق الإسلام: كالقصاص والحدود والتعزيرات، وحسابه على الله، فيما أضمر في نفسه من إظهار الإسلام وإبطان الكفر، فهو الذي يحاسبه ويجازيه لأنه وحده الذي يعلم دخائل النفوس.

---

(١) أبدل همزة ﴿وَبِئۡسَ﴾ ياء أبو عمرو بخلف عنه وأبوجعفر، وحمزة، وقفا، وحققها غيرهم.

وجهاد المنافقين أيضا يكون بإلقاء الرعب في قلوبهم، ليشعروا بأن النبي ﷺ والمؤمنون من بعده لهم بالمرصاد، فلو بدت من أحدهم بادرة، يُعلم منها نفاقه، فإنه يعامل معاملة الكفار في الجهاد بالقتل والأسر، فلْيحذروا ولْيكُفوا عن الكيد للمسلمين ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠].

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعمل الشدة والخشونة في جهاد الكفار والمنافقين في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي كن غليظا شديدا عليهم في إقامة ما أمر الله به، ولا تعاملهم بالرأفة والتسامح واللين إرعاباً وإذلالاً لتنكسِر صلابتهم، وتلين شوكتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجاهد الكفار بالسيف، ويُغْلِظ على المنافقين بالحدود.

فجهاد الكفار يكون بقتالهم ودعوتهم إلى الإسلام حتى يدخلوا فيه، فإن لم يستجيبوا ولم يتعرضوا للدعوة فإنهم يُتركون، وإن صدوا الناس عن الإسلام فإنهم يُقاتَلون.

وجهاد المنافقين يكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب في قلوبهم حتى يأمن المؤمنون من شرهم، ويعلمون أن للحق قوة تحميه، هذا في الدنيا، أما في الآخرة، فقد بيّن سبحانه وتعالى أن مسكن الكفار والمنافقين في الآخرة هو جهنم، فهي مصيرهم ومستقرهم، وبئس المرجع والمصير ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا هو النداء الثاني للنبي ﷺ في السورة.

الْكَافِرُ لاَ يَنْفَعُهُ إِيمَانُ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ

١٠- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ[1] لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

(١) رسمت ﴿ٱمْرَأَتَ﴾ بالتاء المفتوحة في هذه الآية والتي بعدها، ووقف عليها ابن كثير وأبوعمرو والكسائي ويعقوب بالهاء وأمالها الكسائي عند الوقف بخلفه ووقف عليها الباقون بالتاء تبعا للرسم.

عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ[1] ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وبعد أن وجَّه الله تعالى النداء لكل من الكفار والمؤمنين، ضرب مثلاً لكل منهما، وبدأ بالمثل المضروب للكفار، لبيان أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً يوم لقاء الله، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة، ولا ينفع إلا العمل الصالح، فالكافر لا يستفيد من صلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، إن كانوا مؤمنين، فإن إبراهيم ﷺ وهو خليل الله وأبو الأنبياء لم ينفع أباه الكافر، ونوح عليه السلام وهو شيخ الأنبياء، وأول الرسل ﷺ لم ينفع ابنه الكافر، لأن طاعة الله تعالى تتبع طاعة رسله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠].

ولما كانت أول السورة تتحدث عن زوجتي النبي ﷺ وكان عملهما فيه بارقة من مخالفة، جاء هذين المثلين في نهاية السورة توضيحاً للمقام، فإن ضرب الأمثال، فيه تقريب للبعيد، وتوضيح للغريب، وتشبيه للمعقول بالمحسوس، حتى يرسخ في الأذهان ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ أي مثَّل الله تعالى لحال الكفار، في عدم استفادتهم بقرابتهم للمؤمنين، أو مخالطتهم ومعاشرتهم لهم، بأن ذلك لن ينفعهم يوم لقاء ربهم لكفرهم بالله تعالى، وقد مثَّل الله حالهم بحال زوجة نبي الله نوح ونبي الله لوط عليهما السلام بأنهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ أي كانتا في عصمتهما وتحت رعايتهما وأشد الناس التصاقاً بهما.

خيانة امرأة نوح ولوط كانت في الدين:

﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في الدين، بأن كانتا كافرتين، لا خيانة النسب والفراش، ولم تخُنْ زوجة نبي قط بفاحشة الزنى.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (**ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين**).

---

(١) قرأ بالإشمام في ﴿وَقِيلَ﴾ هشام والكسائي ورويس والباقون بالكسرة الخالصة.

وجاء عن عطاء الخراساني يرفعه (ما بغت امرأة نبي قط)[١].

وقال الضحالك: إنما كانت خيانة امرأة نوح ولوط النميمة[٢].

وفي رواية لابن عباس أيضاً قال: (كانت خيانتهما أن امرأة نوح، كانت تفشي سره، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قومه.

وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعملون السوء)[٣].

فخانت امرأة نوح زوجها بالكفر وعدم الإيمان، وكانت تخبر أنه مجنون.

وخانت امرأة لوط زوجها بالكفر وعدم الإيمان، وكانت تدل قومها على الضيوف[٤].

قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي أن العلاقة الزوجية لا تنفع مع الكفر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء:٨٨].

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

وذلك ليعلم المسلم أن أحداً لا يملك نفع أحد يوم القيامة ولو كان أقرب قريب، إلا بواسطة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١].

ويقال لزوجتي نوح ولوط عليهما السلام يوم القيامة، بواسطة خزنة النار: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين من الكفرة المجرمين ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وبهذا يتبيّن أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً مهما كان، وفي هذا المثل دليل على أن القريب، ولو كان من الأنبياء والأولياء، فإنه مع العمل السيء لا يفيد شيئاً، فالمطيع لا يضره معصية غيره، والعاصي لا ينفعه طاعة غيره.

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٣١٨/٥).

(٢) أخرجه ابن عدي (٤٩٢/٢)، والبيهقي في الشعب (١١١٢٠)، وابن عساكر (٣١٩/٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١٧١/٨).

(٤) ينظر: عبد الرزاق (٣١٠/١)، والطبري (٤٣٠/١٢)، والحاكم (٤٩٦/٢).

المُؤْمِنُ لاَ يَضُرُّهُ كُفْرُ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْه

١١- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

ثم ضرب الله المثل الآخر للمؤمنين، مبيناً أن معصية العاصي لا تضر المطيع، وأن صلة القرابة بالكافر لا تضر المؤمن، فقد كانت آسية زوجة لأعدى أعداء الله (فرعون) ومع ذلك فهي في أعلى غرف الجنة ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي ومثَّل الله للمؤمنين الموحدين المتبعين لرسول الله، العاملين بشرعه، بأنهم لا تضرُّهم قرابتهم أو مخالطتهم للكفار.

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله، وأبعده من الله، فوالله ما ضرّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حكَم عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه.

وقد مثّل الله حالهم بحال زوجة فرعون التي كانت في عصمة أشد الناس كُفْراً، مع قوة إيمانها بالله تعالى، واسمها (آسية بنت مزاحم) زوجة منفتاح الثالث، آمنت بموسى عليه السلام، فلما بلغ ذلك فرعون أمر بقتلها، فنجاها الله من شره.

وهي ليست امرأة فرعون التي تبنّتْ موسى حين التقطه من اليمّ، لأن ذلك كان في زمن رمسيس الثاني.

أما فرعون الذي أرسل الله إليه موسى فهو منفتاح الثالث، وزوجته آسية، وكان بينهما ثمانون سنة، ولم يكن عندهم علم بدين، قبل أن يرسل الله إليهم موسى عليه السلام.

ولعل امرأة فرعون كانت من بنات بني إسرائيل، تزوجها فرعون.

وذكر بعض المفسرين أنها كانت عمة موسى ﷺ فهداها الله للإيمان به، كمؤمن آل فرعون[1].

وقد آمنت آسية بموسى عليه السلام لمّا غلب السحرة بمعجزته، وتبيَّن لها أنه على

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٨/٣٧٦).

الحق، ولم تضرها علاقة الزوجية بينهما، ولم ينفع فرعون إيمان زوجته، فكل امرىء بما كسب رهين.

وقد وصف الله آسية بنت مزاحم بالإيمان والتضرع إلى الله عز وجل أن يدخلها الجنة، وأن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، وينجيها من فتنة كل ظالم، فاستجاب الله دعاءها وثبّتها على الإيمان ونجاها من الفتن ووعدها جنته.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون**»[2].

لقد عذبها فرعون، فربطها بالأوتاد، وألقاها في الشمس، وأمر بالصخرة لِتُلقى عليها، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة، فلما أبصرت ذلك سألت ربها قائلة: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾.

قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام، فقد اختارت الجار قبل الدار، وقد قالت ذلك عندما صدّها فرعون وقومه عن الإيمان بالله تعالى، وذَكَرُوا لها أنها إن آمنت بموسى عليه السلام، فسوف تُضَيّع على نفسها مُلكاً عظيماً، وقصراً فخماً، هو مُلك فرعون وقصره، فطلبت من ربها أن يُبدلها بخير من ذلك في الجنة، وأن ينقذها من سلطان فرعون وظُلْمِه وجبروته، ويخلّصها من الشر الذي يصدر من أتباعه قائله ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي أنقذني من كفره وضلاله ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أتباع

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤١١، ٣٤٣٣)، وصحيح مسلم (٢٤٣١).

(٢) المسند (٢٦٦٨، ٢٩٠١) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، والطبراني (١١٩٢٨)، والحاكم (١٨٥/٣) وصححه، وأخرجه أبو يعلى (٢٧٢٢)، وعبد بن حميد (٥٩٧)، وابن حبان (٧٠١).

فرعون الطاغين التابعين له في الضلال.

وعن أبي هريرة ﷺ أن فرعون وتّدَ لامرأته أربعةَ أوتاد في يديْها ورجْليها، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلّتْها الملائكة فقالت ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة[1]. قال أبوالعالية: كان إيمان امرأة فرعون، قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوقع المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت لها ابنة فرعون: أو لك رباً غير أبي، قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شيء، الله، فلطمتْها ابنة فرعون وضربتها وأخبرت أباها، فأرسل إليها وعذّبها[2].

الثَّنَاءُ عَلَى مَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ بِثَلَاثَةِ مَحَامِدَ

١٢- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ[3] وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾

وضرب الله مثلاً آخر للذين آمنوا بمريم بنت عمران التي حفظت فرجها وصانتْهُ عن الزنى، فهي العفيفة الشريفة الطاهرة وليس كما يزعم اليهود فيما يتهمونها به ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ فحفظتْه عن الفاحشة لكمال دينها وعفّتها ونزاهتها.

والفرج في اللغة: كل فرجة بين شيئين[4].

قال القاضي عياض في الشفاء: لم يذكر الله امرأةً في القرآن باسمها،إلا مريم، للتنبيه على أنها أمة الله، إبطالاً لعقائد النصارى.

---

(١) أخرجه أبويعلى (٦٤٣١)، والبيهقي (١٦٣٨) بسند صحيح، قال ابن حجر في المطالب العالية (ص ٦٢/٩): صحيح موقوف، وبنحوه عند عبد بن حميد، وعن سلمان عند ابن أبي شيبة (٣٣١/١٣)، والطبري ١١٥/٢٣ وغيرهم.

(٢) ينظر بقية الخبر في تفسير الطبري (١٠/٢٨).

(٣) قرأ أبوعمرو وحفص ويعقوب بضم الكاف والتاء من ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ جمع كتاب والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الإفراد.

(٤) ينظر: تفسير الألوسي (١٦٤/٢٨).

وبعد أن أثنى الله تعالى على مريم في طهرها وصيانتها،بيّن جل شأنه أنه كافأها على ذلك بأن كوّن فيها نبياً بطريق خارق للعادة، فخلّد بذلك ذكرها في الصالحين وهذا معنى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت النفخة إلى مريم فحملت بعيسى.

قال قتادة: فنفخنا في جيبها من روحنا، أي أمر الله جبريل عليه السلام أن ينفخ في فتحة قميصها من فتحة العنق، فوصلت النفخة إلى رحمها بحول الله تعالى، فأودع الله الحياة في المخلوق الذي كوّنه في رحمها دون الأسباب المعتادة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧].

وهذه النفخة التي أحيا الله بها عيسى عليه السلام ليست خاصة به، بل هي ذات النفخة التي خلق الله بها آدم كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩] فنفخة الروح هي مصدر الحياة، وإضافة الروح إلى الله تعالى لأنه الخالق سبحانه.

وفتحة الصدر من فتحة القميص في أعلاه يقال لها: الجيب.

ثم أثنى الله تعالى على مريم ثناء ثانياً فقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي أيقنتْ بأنَّ ما أبلَغَها به الملَك، هو من إرادة الله تعالى بذلك الحمل على هذا النحو الفريد، كما أنها صدقت بالشرائع التي شرعها الله تعالى لعباده، وصدقت بكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله، وعملتْ بما فيها.

ومن هذه الكتب: الإنجيل الذي أنزله الله على ابنها عيسى عليه السلام، ولم يكن الإنجيل موجوداً في زمن عيسى ﷺ، ولكن الحواريين كتبوه من حفظهم بعد رفعه عليه السلام، وكان ذلك في حياة مريم وقد صدقت مريم بكلمات الله تعالى ﴿وَكُتُبِهِ﴾ التي نزلت قبل عيسى، كالتوراة والزبور ..

ثم أثنى الله تعالى على مريم ثناءً ثالثاً بأنها كانت من المطيعين لله تعالى المخبتين له. والقانت هو المنقطع للعبادة، المكثر منها، وكانت مريم كذلك، وكانت سليلة قوم صالحين، وهذا معنى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**»[1].

وقد وصف الله مريم بالعلم والمعرفة والتصديق، فهي من الصديقين، ومرتبتها تلي مرتبة النبيين وتعلو مرتبة الشهداء.

تم تفسير (**سورة التحريم**) ولله الحمد والمنة

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح وهو في صحيح سنن الترمذي برقم (٣٠٥٣)، وفي مشكاة المصابيح (٦١٨١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُلْكِ(٦٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الملك) هي السورة السابعة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة المؤمنون) وقبل (سورة الحاقة).

وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية في المصحف المكي، والمدني الأول، وثلاثون آية في غيرهما.

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثلاثون كلمة، وهي ألف وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أسماؤها:

١ - وسميت سورة الملك، لورود لفظ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ في أولها.

قال الألوسي: ٢ - وتسمى: (تبارك) ٣- و(المانعة).

٤ - و(المنجية) ٥ - و(المجادلة) أخذاً من الآثار التي وردت فيها، لأنها تُنجّي قارئها من النار وتمنعه من العذاب، وتجادل عنه يوم القيامة.

٦ - وتسمى سورة (تبارك الملك) للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان).

ففي حديث أبي هريرة ﷺ الآتي بعد قليل، أن النبي ﷺ سماها سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا نسميها على عهد النبي ﷺ (المانعة)[1].

٧ - وتسمى (سورة الواقية)، ٨ - و(المنّاعة) بصيغة المبالغة[2].

---

(١) الطبراني في الكبير (١٠٢٥٤)، وابن مردويه كما صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠)، وعن ابن عباس في الترمذي (٢٨٩٠)، والطبراني (١٢٨٠١)، والبيهقي (٤١/٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي في تفسيره لأول السورة

وفي تاريخ ابن عساكر عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ سماها (المنجية)[١].

وسماها ابن عباس (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها سؤال الملكين[٢].

فهذه ثمانية أسماء لها - بدون المكرر - وردت فيها.

وسورة الملك سورة مكية باتفاق.

وجميع سور جزء ﴿تَبَٰرَكَ﴾ سور مكية، كما أن جميع سور جزء ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ سور مدنية.

ومطلع سورتي المدثر والمزمل من أول ما نزل من القرآن، كما أن سورة القلم نزلت بعد البعثة بثلاث سنوات، أما سورة الجن فقد نزلت بعد عشر سنوات من البعثة، في عودة النبي ﷺ من الطائف بعد وفاة خديجة وأبي طالب.

ومما ورد في فضل سورة الملك، ما جاء:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة من القرآن، ثلاثين آية، شفعتْ لرجل حتى غُفر له ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[٣].

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «سورة في القرآن خاصمتْ عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[٤].

---

(١) الأثر عند ابن عساكر (٤٦/٦) وغيره من طرق متعددة.

(٢) جاء هذا في مسند عبد بن حميد (٦٠١)، والطبراني (١١٦١٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، وقد جاء هذا المعنى عند سعيد بن منصور عن عمرو بن مرة، وحسنه الألباني عن ابن مسعود عند الطبراني والحاكم.

(٣) المسند ٣٢١/٢ (٧٩٧٥،٨٢٧٦) حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عباس الجشمي، فمن رجال السنن وهو مقبول، وأبوداود برقم (١٤٠٠)، والترمذي برقم (٢٨٩١) وحسن متنه، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦١٢)، وابن ماجة برقم (٣٧٨٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، (٤٩٧/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٤٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٤)، وقال: حسن لغيره.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (١٧٦/١) والمعجم الكبير (٣٦٥٤)، والمختارة للضياء المقدسي برقم (١٧٣٨،١٧٣٩)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٣٠/٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٥٣٨).

٣- عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»[١].

٤- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [سورة السجدة]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[٢].

٥- قال ابن مسعود ﷺ: يُؤتى الرجل في قبره، فيؤتى من قِبَلَ رجليه، فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قِبلَي سبيل، قد كان يقوم علينا بسورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان وَعَى فيَّ سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقرأ بي سورة الملك، فهي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب[٣].

وفي النسائي مختصراً: من قرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ كل ليلة، منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر)، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها (المانعة) وأنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب[٤].

موضوعات السورة:

وشأن هذه السورة شأن السور المكية في معالجة قضايا العقيدة، والرسالة، واليوم الآخر.

وهي تقيم الأدلة والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته: فهو الذي خلق الموت والحياة، وخلق سبع سماوات طباقا، وهو الذي خلق الطير صافات، وهو الذي يرزق خلقه، ولا يُمسك رزقه عنهم، وهو الذي يجري هذا الماء، وإن شاء جعله غوْراً، فلا

---

(١) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٥٤٧)، وصححه الحاكم (٤٩٨/٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠).

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٢،٣٤٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧،١٢٠٩)، والمسند (١٤٦٥٩) وهو حديث صحيح (محققوه)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤٧٤-١٠٤٧٧)، والبيهقي في الشعب (٢٤٥٥)، وعبد بن حميد (١٠٤٠)، والبغوي (١٢٠٧، ١٢٠٨).

(٣) الأثر بسند حسن في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٥)، وأخرجه الطبراني (٨٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٠٩)، والحاكم (٤٩٨/٢) وقال: صحيح الإسناد وغيرهم.

(٤) صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٣) بإسناد حسن كما قال الألباني.

تستطيعون الحياة بدونه.

وفيما يتعلق باليوم الآخر: فإن الإيمان بالغيب جزء من عقيدة المسلم، وقد أعد الله للكفار عذاب نار السعير وهي تتقطع غيظاً وحنقاً على مَنْ كفر بالله ورسله، وعِلْمُ قيام الساعة عند رب العالمين، ويوم يرونها تسودّ وجوه الكفار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

وحذرت آيات السورة من سخط الله تعالى لئلا يخسف بهم الأرض، كما حذّرت المكذبين برسل الله أن يهلكهم الله بعذابه، فلا يجدون لهم مجيراً ولا منجّياً، والرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه.

وعقيدة التوحيد هي المحور الذي تدور حوله السورة، فتسوق ثلاثة عشر دليلا على وحدانية الله تعالى، سبعة منها بأسلوب الخبر، وهي:

١- خلْق الموت والحياة.
٢- وخلْق السموات السبع الطباق.
٣- وعِلْم السر والنجوى.
٤- وخلق الإنسان والإحاطة به.
٥- وتذليل الأرض له.
٦- وتحليق الطيران في الفضاء.
٧- ورزق الله تعالى للكائنات.

ويتخلل هذه البراهين مَشاهد من عذاب أهل النار وبيان نعيم أهل الجنة، وأن الكفر يحوّل النعم إلى نقم تتمثل في الخسف والزلازل والبراكين والريح الحاصبة.

وهكذا فسورة الملك، سورة زاخرة بالحديث عن وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ومظاهر فضله ورحمته بعباده، وبديع خلْقه في الكون، إلى جوار الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، ووجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض، بالإضافة إلى مجموعة من الحجج والبراهين التي لقّنها الله تعالى لنبيه ﷺ ليقذف بها في وجوه المبطلين، وهي تلْقينات تتعلق بخلق نعمة السمع والبصر والفؤاد، والاستدلال ببدء الخلْق على إعادته، وبيان أن علم قيام الساعة عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وأنه لا مفر من عذاب الكافر، وأن المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه، ثم

التهديد بالحرمان من نعمة الماء الذي هو سبب الحياة لكل كائن حي.

وفي نهاية السورة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلقن أمته ستة أدلة على وحدانية الله تعالى من فروع المخلوقات بلفظ ﴿قُلْ﴾ وهي:

١- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ ٢- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾.

٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ ٤- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾.

٥- ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾ ٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الكَوْنُ كُلُّهُ مُلْكٌ للهِ وَحْدَهُ

١- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

في مطلع السورة يمجّد الله تعالى نفسه، ويعلّمنا أنه سبحانه وتعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، فالخالق لا يشبه المخلوقين في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وقد تكاثر خير الله تعالى وبره وإحسانه، وثبت فَضْله على جميع خلقه، فهو الذي بيده وقدرته تدبير الأمور وتصريفها، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الذي خلق هذا الكون، وأجرى عليه أحكامه الشرعية وأحكامه المقدّرة عنده، وهو سبحانه كامل القدرة التي أوجد بها هذه المخلوقات العظيمة، ومنها السموات والأرض.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وبيده الفضل، وبيده الخير، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، مالك الدنيا والآخرة، وسلطانُهما بيده، وأمره نافذ فيهما وفي غيرهما، يتصرف في الكون كيف يشاء، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، يحيي ويميت، يغني ويُفقر، ويعطي ويمنع.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ له القدرة التامة، والتصرف الكامل بلا منازع ولا مدافع، فأحيا من شاء، وأمات من شاء، وأفقر من شاء وأغنى من شاء، وله الحمد في الأولى والآخرة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران:٢٦].

الاستدلال بأصول المخلوقات في سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى بأسلوب الخبر تتخللها عبر ومواقف، قال تعالى:

٢- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

وتقيم آيات السورة سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى، جاءت كلها بأسلوب الخبر،

ويتخلل هذه البراهين عبر ومشاهد ودلائل فإن من آثار قدرته تعالى ودلائل وحدانيته، ما تشتمل عليه هذه الأدلة من براهين ساطعة، وحجج قاطعة، وهي:

الدليل الأول: خلْق الحياة والموت: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

أي: أن الله تعالى قدّر لعباده أنه يحييهم ويميتهم، ليختبركم – أيها الناس - في حال الحياة، ويجازيكم بعد الموت، والموت والحياة أمران معروفان ومألوفان للبشر، ولكن السورة ترمي إلى ما وراء الموت والحياة من الحكمة في خلق الإنسان، وما يتبع ذلك من الحساب والجزاء في الدار الآخرة.

أي أن الله تعالى جعل الدنيا دار حياة وفناء، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو الواحد القهار.

وقدّم الموت على الحياة، لأن ذِكْر الموت أولاً أقرب إلى وعظ الإنسان وزجره وتخويفه من لقاء الله تعالى.

ولأن الموت قبل الحياة، فالناس كانوا في حكم العدم: تراب، أو نطفة، أو علَقة، ثم أحياهم الله تعالى، فأوجد الخلائق من العدم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

وقد جعل الله الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء في نعيم أو عذاب، والموت نعمة، لأنه يَفْصل بين دار التكليف ودار الجزاء.

والحياة نعمة، لأن الثواب والنعيم الأخروي لم يصل إلى الإنسان إلا عن طريق العمل في الدنيا.

وخلْق الحياة بمعنى خلْق كل كائن حي، وخلْق الموت معناه: إيجاد أسبابه.

فالأحياء يعملون الصالحات، والأموات يخلُصون ليوم الجزاء، فيُجزَوْن على أعمالهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خُلق الموت على صورة كبش أملح، لا يمرّ بشيء، ولا يجدُ ريحه شيء إلا مات، وخُلقت الحياة على صورة فرس بلْقاء، هي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها، لا تمرّ بشيء، ولا تجد ريح شيء إلا حيي، وهي التي أخذ

السامريّ قبضة من أثرها فألقاها في العجل فخار وحَيِيَ[1].

وقد ثبت في الصحيح أن الميت يسمع ويرى، ويَحُسّ وهو في قبره، كما قال ﷺ في حديث أنس ﷺ **«إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم»**[2].

وقال ﷺ عن أهل القليب فيما يرويه أنس ﷺ أيضاً **«والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»**[3].

والموت ليس فناء، ولا انقطاعاً عن الحياة بالكلية، ولكنه مجرد انفصال بين الروح والجسد، ومفارقة لها، وهي تتصل به بين الحين والآخر.

وفي الحديث عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح، فينادي مناد ..»** وفي نهاية الحديث **«فيُذبح – أي الموت - ثم يقول – أي المنادى -: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»**[4].

وهذا بعد انتهاء الدنيا، حيث تكون الآخرة، خلود بلا موت، فيرى الناس الموت الذي ذاقوه في الدنيا، في صورة كبش يُذبح، ليعلم الخلْقُ أن الموت قد انتهى.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة، ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء.

وهذه الدنيا لها ما بعدها، فليست هي النهاية، وليست غاية في حد ذاتها، ولكن خلَق الله الموت والحياة في الدنيا، ليقوم الناس فيها بالوظيفة التي خُلِقوا من أجلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] وهذا معنى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم، فيظهر المحسن منكم والمسيء، والمطيع والعاص، وليُظْهر أيكم أحسن عملاً، وأشد خوفاً من الله تعالى.

---

(١) تفسير الخازن (٢٨٩/٤).

(٢) من حديث أنس في صحيح مسلم (٢٨٦٩)، وفي صحيح البخاري (١٣٣٨،١٣٧٤).

(٣) من حديث أنس في صحيح مسلم (٢٨٧٤).

(٤) من حديث أبي سعيد في البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

وقد خلق الله الخلق، وأخرجهم إلى هذه الدار، وأخبرهم أنهم سينتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره ونهيه، فمن انقاد لله وأحسن العمل لله، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن أتبع نفسه هواها واتبع خطوات الشيطان فله ما يستحق من عقوبة يوم لقاء الله.

قال الفضيل بن عياض: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه.

وقال أيضاً: العمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً صواباً.

فالخالص: هو الذي لا يشوبه رياء ولا شرك ولا سمعة.

والصواب: أن يكون العمل على السنة، أي موافقا لهدي النبي ﷺ ليس فيه بدعة.

وجميع الأقوال والأعمال تحت قدرة الله تعالى وتصرّفه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه، الذي انقادت له جميع المخلوقات ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب من عباده ورجع إليه وأناب من إساءته وتقصيره، فإنه سبحانه غفار الذنوب ستار العيوب.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وفي الآية ترغيب في فعل الطاعات، وزجر عن اقتراف المعاصي والسيئات.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الطِّبَاقِ بِدِقَّةٍ وَإِحْكَامٍ

٣- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ[١] فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

ثم ذكر سبحانه أثراً ثانياً من آثار قدرته تعالى، فربَط الموت والحياة بصفحة الكون العلوية، ليرتب الجزاء الآخروي على الموت والحياة ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، بطريقة متقنة محكمة، كل سماء فوق الأخرى كالقبة عليها، وسماء الدنيا كالقبة على الأرض، وكلها متوافقة متماثلة على سُنّة واحدة، والسماء خلْق ثابت تراه

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بحذف الألف وتشديد الواو من ﴿تَفَاوُتٍ﴾ فتُقرأ هكذا (تَفَوُّت) والباقون بإثبات الألف وتخفيف الواو، وهما لغتان، كالتعهد والتعاهد.

الأعين، وتألف رؤيته صباح مساء، ولكن الآية تهدف إلى التأمل والتدبر في هذا الكون، للوصول إلى معرفة الخالق سبحانه، والتوجه له وحده بالعبادة دون سواه.

وهذه السماء محكمة الصنع: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي لا ترى أيها الناظر في شيء مما خلقه الرحمن، اختلاف ولا تباين ولا اعوجاج ولا اضطراب، ولا ترى فيه تناقض ولا عدم تناسب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧] فهي متناسبة في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من كواكب وأفلاك، ولما كان هذا التناسب كاملاً من كل وجه أمر سبحانه بإعادة النظر والتأمل فيها ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي كرر النظر ورده في هذا الكون المحكم، وفي السماء فوقك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ هل ترى في السموات من صدوع أو شقوق، أو نقص أو خلل، إنها مستوية مستقيمة، سليمة من الخلل والتفاوت، قال تعالى:

٤- ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا[1] وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾

أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلْقها، ثم أمر بإعادة النظر وتكراره إليها، وفي هذه الآية تعجيز بعد تعجيز، وتحدّ عقب تحدّ، على معاودة النظر مرة بعد مرة ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وانظر مرة أخرى بعين الاعتبار فيما يمتد إليه بصرك مما علاك ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي يرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً صاغراً، دون أن يرى نقصاً أو خللاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ متعب كليل من معاودة النظر، قد أعياه الطلب بعد طول نظر وتأمل.

وأمر بإعادة النظر مرتين، لأن الإنسان يعاود النظر فيما لم يتحقق من رؤياه، وليس المراد مرتين بالتحديد، بل المراد كثرة معاودة النظر، ثم صرح سبحانه وتعالى بحسن السماء في الآية التالية.

النُّجُومُ زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ وَرُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ

٥- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

---

(١) قرأ الأصبهاني وأبوجعفر بإبدال الهمزة ياء من (خاسئا) وصلاً ووقفاً، وكذا حمزة عند الوقف.

في هذه الآية بيان أن الله تعالى خلق النجوم زينة للسماء الأولى، ورجوماً للشياطين، وذلك أنه بعد أن ذَكَر سبحانه كمال خلْق السموات وإتقان صنعها وانتفاء الخلل فيها، بيّن جل شأنه جمال السماء القريبة منا، فقال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي والله لقد جمّلنا السماء التي ترونها بنجوم عظيمة مضيئة ساطعة، تضيء إضاءة السُرُج، كمشهد النجوم في سماء الصحراء ليلاً، إنه جميل جمالاً يأخذ بالألباب، على ما في هذه النجوم من اختلاف في النور والضياء، ولولا ما في السماء من النجوم لكانت سقفاً مظلماً، لا حُسن فيه ولا جمال، ولكن الله تعالى جعل هذه النجوم نوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وهو جمال يختلف من الصباح إلى المساء، ومن الشروق إلى الغروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، وكله جمال يأخذ بالعقول:

هذه نجمة منفردة، وهاتان نجمتان منفردتان، وهذه مجموعة متناثرة أو متضامة هنا وهناك تجتمع وتفترق.

والقرآن يوجه الإنسان إلى جمال السماء، ليدرك جمال الوجود، فيصل إلى جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك يرتفع بالإنسان إلى أعلى الآفاق[1].

والزينة التي تحصل للسماء الدنيا تأتي منها ومن السموات السبع، فإنها شفافة، وأنوارها تصل إلى السماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها.

ثم ذكر سبحانه فائدة أخرى للسماء الدنيا فقال ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي جعلنا من نجوم السماء الأولى شُهُباً مُحرِقة تنفصل عنها، تُرجَمُ بها الشياطين التي تسترق السمع.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٦،٧].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠].

(١) مقتبس من كتاب (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب في تفسيره للآية.

والرجم يكون بالشهب لا بالكواكب.

وقد جعل الله هذه النجوم حراسة للسماء من تلقُّف الشياطين أخبار أهل الأرض.

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر. كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وقد كانت الشياطين تسترق السمع قبل الإسلام، فلما بعث النبي ﷺ مُنعوا من ذلك، كما قال تعالى على لسانهم ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن:٨، ٩].

ثم بينت الآية أن الله تعالى قد أعد للشياطين عذاب جهنم في الآخرة، بعد الإحراق بالشهب في الدنيا فقال ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي النار الموقدة يَصْلَوْنها ويقاسُون حرها.

والنار التي يعذب بها الشياطين أشد من النار التي خلقوا منها، لأن السعير أشد أنواع النار التهاباً واشتعالاً وإحراقاً، وهي أشد طبقات النار حرارة وتوقُّداً، فإن جهنم طبقات، فإذا أصابتهم نار السعير كانت عذاباً لهم، لأنهم تمرّدوا على الله وأضلوا عباده.

ومثل ذلك قوله تعالى عن الشياطين ﴿وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ:١٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

والآية تشير إلى أن الحياة ليست نهاية المطاف، وهي تكشف الستار عما وراءها من عالم آخر، يثاب فيه المؤمن، ويعاقب فيه الكافر:

جَوْلَةٌ مَعَ عَذابِ مُنْكِرِي دَلائِلِ التَّوْحِيدِ

٦- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦﴾

تضمنت هذه الآية، أن عذاب نار جهنم قد أعدت للكافرين، يخلَّدون فيها، بعد أن مرَّ على جهنم زمن تخفق فيه أبوابها.

وجهنم اسم للطبقات العليا من النار، وقد تسمى الطبقات كلها جهنم باسم بعضها.

وليس العذاب الأخروي مختص بالشياطين وحدهم، بل يعذب بالنار كل كافر بالله

تعالى، من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ أي وكما هيأنا للشياطين عذاب السعير، فقد هيأنا لكل من كفر بخالقه من الثقلين عذاب جهنم، وبئست مصيرا للذين كفروا بربهم.

مَشْهَدُ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَسْتَقْبِلُ أَهْلَهَا فِي غَيْظٍ وَحِنْقٍ

٧- ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

وهذا مشهد من مشاهد جهنم، وهي تستقبل أهلها في غيظ وحنق، لأنهم كفروا بربهم ولم يستجيبوا له.

والشهيق: هو تردّد النفَس في الصدْر بصعوبة وعناء، ويكون ذلك بصوت عالٍ فظيع بالنسبة لجهنم وهي تستقبل أهلها ـ والعياذ بالله ـ ، والفور: هو شدة الغلَيان.

والمعنى: أن الكفار إذا طُرحوا في النار، فإنهم يسمعون لها صوتاً منكراً شديداً، وهي تغلي غلياناً قوياً، كما يغلي الماء في القدْر.

خَزَنَةُ النَّارِ يَسْأَلُونَ أَهْلَهَا عَنْ مَجِيءِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا

٨- ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن وصف الله تعالى جهنم بوصفين هما: الشهيق والغليان، وصفَها بوصف ثالث، وهو أنها تكاد تتمزق وتتقطع من شدة غضبها وغيظها على الكفار ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾أي تكاد جهنم ينفصل بعضها عن بعض حنقاً وغيظاً على أعداء الله.

وكلما طُرح فيها جماعة من الناس، سألهم الخزنة الموكلون بها على سبيل التوبيخ والتقريع كأنهم لم يُخبروا بها، ولم تحذرهم الرسل منها، فيقولون لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ في الدنيا رسول ينذركم ويحذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ وذلك لأن الله تعالى لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].

وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١].

وأهل الفترة لا يدخلون النار، لأنهم لم يأتهم نذير، وأطفال المؤمنين في الجنة، أما أطفال المشركين فقيل هم في الجنة، لأنهم لم يبلُغوا سن التكليف، وقيل غير ذلك.

أَهْلُ النَّارِ يُجِيبُونَ الْخَزَنَةَ بِالاعْتِرَافِ وَالإِقْرَارِ

٩ - ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ[1] فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾

ويأتي جواب الكفار على سؤال خزنة جهنم عن إرسال الرسل إليهم في ذلة وانكسار واعتراف، بعد الإنكار والتبجح، وتكذيب الرسل في الدنيا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أي جاءنا رسول من عند الله وحذّرنا مما نحن فيه ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ أي كذبنا الرسول الذي أُرسل إلينا، فأنكرنا رسالته، وقلنا عما جاء به من عند ربه: ما أنزل الله على أحد من البشر شيئا، وقلنا لهم أيضاً ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي ما أنتم إلا في بُعد عن الحق.

وهكذا يقول أهل الكفر والضلال ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٩١].

وكانوا قد جمعوا في الدنيا بين التكذيب بالرسل، والتكذيب بكل ما أنزل الله، وفضلاً عن ذلك فإنهم قد وصَمُوا الرسل بالضلال البيّن، أو أن هذا خطاب من الله لهم بأنهم في ضلال وعناد وتكبّر.

وقد وُصف ضلالهم بأنه ضلال كبير، يبلغ الغاية في القبح.

أَهْلُ النَّارِ يَنْدَمُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ

١٠ - ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) عد المكي وشيبة ونافع بن أبي نعيم ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ آية، فيكون متروكاً عند بقية علماء العدد.

ثم إن الكفار عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ﴿وَقَالُوا﴾ معترفين متحسرين عما كانوا فيه من ضلال ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ إلى ما جاءت به الرسل سماع من يطلب الحق ويتلمس الهدى ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ ونفكر فيما يوجَّه إلينا من هدايات وإرشادات، لو كنا كذلك ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي في جملة المعذبين بالنار الموقدة.

والآية تشير إلى أن السمع والعقل هما مدار التكليف في الإنسان، وتشير إلى أن أهل النار نَفُوا عن أنفسهم طرق الهداية، ومنها أنهم لا يستمعون بفهم لما أنزل الله، ولا يعقلون ما ينفعهم، ولا يوفقون إلى حقائق الأمور، ولا يؤثرون الخير، ولا ينزجرون عن الشر، فكأنهم لا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل الإيمان واليقين، فإنهم ينتفعون بما أنزل الله على رسوله ويميزون بين الهدى والضلال والحسن والقبيح، والخير والشر.

وإعراض الكفار عن تلقي دعوة الرسل جاء في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

ولَمَّا أعرضوا عن تعقُّل حُجج الله تعالى وآياته ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧].

وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف:٥٧].

وقد نهانا الله تعالى أن نكون كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وتوعَّد الله المعرض عن آياته بالويل والثبور، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية:٧،٨].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] ولاشك أن أقل الناس عقلاً هو مَنْ ترك سبب نجاته لغير معارض يعارضه في دينه ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور:٣٢].

عن الحكيم الترمذي أن رجلا قال: يا رسول الله، ما أعقل فلان النصراني؟ فقال ﷺ: «مَهْ، إن الكافر لا عقل له، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فزجره النبي ﷺ وقال: **«مَهْ، إن العاقل من يعمل بطاعة الله»**.

ومن أسباب إعراض العقل عن الهدى: الانغماس في الشهوات والملذات والعكوف عليها، والاستماع إلى ما يؤدي إلى الهزائم الروحية والمادية، كَمَنْ يقول:

عِشْ يومك - يعني في الهزل واللهو- فإن هذا اليوم لن يعود، على حد زعمه.

ومَنْ يقول: الدنيا ضِحْك ولِعْب وجَدّ وحُبّ، عِشْ أيامك، عِشْ لياليك، فإن مثل هذه الكلمات أصابت الأمة في مقتل، وأخرجت لنا جيلاً شهوانياً، لا ينفع نفسه ولا مجتمعه، فضلاً عن أن يجاهد عدواً، أو يرفع لواءَ الإسلام!

ونتيجة لذلك، فإن العقل المسلم أصبح جهولاً بالكون، ضعيف القدرة على استغلال ثروات الأرض.

ومن المفروض أن عقل المؤمن أكثر خبرة بالحياة من العقل الملحد.

فالإسلام كله دعوة إلى التأمل والنظر وإعمال الفكر والسير في الأرض، واستخراج كنوزها والانتفاع بثرواتها ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١] **قال تعالى:**

١١- ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا[1] لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

والذي يسمع ويعقل لا يورد نفسه المهالك، ولا يجحد في يومه ما يعترف به غداً، وهذا حال أهل السعير حين يعترفون يوم القيامة بما كانوا فيه في الدنيا من ضلال ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: أقروا بتكذيبهم لرسل الله، وكُفْرهم بآيات الله، وأن هذا كان السبب في تعذيبهم يوم الحسرة والندامة ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بُعداً لأهل النار عن رحمة الله، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثواب الله، ولازَمُوا عذاب السعير، وهي تستعر في

---

(١) قرأ ابن جماز والكسائي وابن وردان بخلفهما بضم الحاء من ﴿فَسُحْقًا﴾ والباقون بإسكانها وهو الوجه الثاني للكسائي وابن وردان.

أبدانهم وتطلع على أفئدتهم، فلا رجاء لهم في مغفرة، ولا خروج لهم من العذاب في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور، لأن هذه الأنفس كفرت بربها بعد أن أودع الله في فطرتها حقيقة الإيمان ودلائله، فهي أنفس فُرّغتْ من كل خير، وانتكست وارتكست، وانحطت إلى أسفل الدركات، والآية دعاء عليهم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ «لا يدخل أحد النار إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة، ولا يدخل أحد الجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً»[1].

وَقْفَةٌ مَعَ السُّعَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٢ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه حال الأشقياء، أتبعه بذكر حال السعداء، وقد وصفتْهم الآية، بأبرز صفات المؤمن، في الحالة التي لا يطلع عليها إلا الله، وهي الإيمان بالغيب، وذلك لمناسبة ذكر العقل في الآية السابقة، حيث إن الإيمان بالغيب، يكون عن طريق العقل، والمسلم يضحّي بروحه استجابة لهذا الغيب فلا يقدم على معصية الله ولا يقصّر فيما أمر الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم فيعبدونه ولا يعصونه، وهم غائبون عن أعين الناس، فهم يطيعون الله ويتركون معاصيه في السر والعلن، خوفاً من عذابه، دون أن يروْه سبحانه، لأنهم آمنوا بوعده ووعيده، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وهؤلاء المؤمنون ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ومحو لذنوبهم وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم شرها ووقاهم عذاب الجحيم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم ثواب كبير وعظيم هو الجنة، ورضوان من الله أكبر.

ومن الأمثلة على ذلك ما راوه أبوهريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقَا عليه، ورجل طلبته امرأة

(١) المسند (٢/٥٤١) برقم (١٠٩٨٠) وهو حديث صحيح، أخرجه البخاري (٦٥٦٩)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٤٤).

ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

والذين يخشون ربهم بالغيب: هم الذين يعرفون حق الله تعالى عليهم، فيراقبوه في السر والعلن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢،٣٣].

وقد وصف الله تعالى أنبياءه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

كما وصف الله المنافقين بأنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨].

والمؤمن بالغيب، يعبد الله تعالى كأنه يراه، فإن لم يرَ العبدُ ربه، فإن ربه يراه.

ولذا كان أول صفة من صفات المتقين أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣].

ولفظ (الْغَيْبِ) يحتمل معنيان:

المعنى الأول: أن المراد بالغيب: ما أخبر الله به من البعث، والحشر، والصراط، والميزان، والجنة والنار، والعرش والكرسي والملائكة، فآمنوا بذلك وخافوا ربهم، كما أخبرهم دون أن يروا ذلك بأعينهم.

والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس في خلَواتهم وجلَواتهم.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى: عِلْمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى

١٣ - ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

ومن الغيب: علْمُ الله تعالى بالسر والعلن، فهو الذي خلق الخلق، ويعلم دخائلها

---

(١) حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله عن أبي هريرة في صحيح مسلم (١٠٣١)، وصحيح البخاري (٦٦٠،١٤٢٣).

وكوامنها وما أودعه فيها ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أخفوا كلامكم - أيها الناس - أو أظهِروه، فسواء أخفيتموه أو أعلنتموه فإن الله تعالى يعلمه، والكل يستوي في علم الله، والكل مكشوف أمام الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو الذي خلقها ويعلم ما أودعه فيها، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، يعلم النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال؟ قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

ومن الإيمان بالغيب: أن يعلم المؤمن أن الله تعالى يعلم سره ونجواه:

أخرج البزار وابن مردويه عن أنس ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله، نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كُنَّا على غيره، فنخاف أن يكون ذلك النفاق، قال: (كيف أنتم وربكم؟) قالوا: الله ربنا في السر والعلانية، قال: (كيف أنتم ونبيكم؟) قالوا: أنت نبينا في السر والعلن قال: (ليس ذلكم النفاق)[1].

أما الكافر فهو لا يؤمن بأن الله تعالى يعلم سره ونجواه، ومن ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية، أن المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ - أي يؤذونه بالقول في غيبته - وكان جبريل يخبره بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم حتى لا يسمعكم إله محمد، فأخبره الله تعالى أنه لا تخفى عليه خافية[2].

والمعنى: أن الأمر سواء عند الله تعالى، لأنه يعلم ما هجس في الصدور، دون أن يُنطق به، فكيف إذا نُطق به سراً أو جهراً.

---

(١) الدر المنثور (٨/٤١٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/٣٤٠)، وتفسير الخازن والنسفي (٤/٢٩١)، والألوسي (٢٩/١٣)، والقرطبي (١٨/٢١٤).

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: خَلْقُ الإِنْسَانِ وَالإِحَاطَةُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ

١٤ - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

وكيف لا يستوي في علمه سبحانه سرّ خلْقه ونجواهم، وعلمه شامل ومحيط بهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ألا يعلم ما في صدور خلقه، وهو الذي أتقن خلقهم وأحسنه ويعلم خباياهم ونواياهم ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ يعلم دقائق الأمور وغوامضها، ومن لطفه تعالى أنه يسوق البر والإحسان إلى عبده من حيث لا يشعر، وهو ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا وعنده خبرها.

١ - قال تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].

٢ - وقال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:١٦].

٣ - وقال سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ [الأنبياء:٤٧].

٤ - وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٧].

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: خَلْقُ الأَرْضِ وَتَذْلِيلُهَا لِمَنْفَعَةِ الإِنْسَانِ

١٥ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

في هذه الآية دعوة حارة للمسلمين كي ينتفعوا بما في الأرض من كنوز حتى يستغنوا عن غيرهم في حربهم وسلمهم وأمور معاشهم ومعادهم.

ولما ذكر سبحانه خلْق الإنسان في قوله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أعقبه بذكر خلق الأرض وتذليلها للإنسان، فهي التي خُلق منها، وإليها يعود، ومنها يبعث، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ من حيث جاذبيتها، ومن حيث سطحها، ومن حيث تكوينها، ومن حيث إحاطة الهواء بها، ومن حيث حجمها، فالله وحده هو الذي خلق لكم

الأرض وجعلها سهلة ممهدة للاستقرار عليها، والمشي في جنَباتها، والانتفاع بما فيها، وهو الذي ذللها وسخرها لكم لتنتفعوا بها في الحرث والغرس والزرع والبناء وغيرها وتنتفعوا بها في شق الطرق التي تصل بين البلاد النائية والشاسعة.

﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ سافروا حيث شئتم، وتردّدوا في أقطارها، واسْعَوْا في نواحيها وجوانبها، وأطرافها وفجاجها، ملتمسين رزق الله فيها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ الذي يخرجه لكم منها، واستغلوا ما فيها من نِعَم وكنوز، كما جاء في الأثر (التمسوا الرزق في خبايا الأرض).

والعبد يبذل السبب لتحصيل الرزق ويتوكل على الله، وهذا التوكل لا يتنافى مع بذل الأسباب.

والآية تحث على الكسب المشروع، واتخاذ الأسباب اللازمة لذلك:

وقد مرّ عمر ﷺ بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل، رجل ألقى حبة في بطن الأرض، وتوكل على ربه عز وجل[1].

ومن تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كِفاتاً للإنسان في حياته، بتسهيل معيشته فيها، وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له كِفاتاً أيضاً بدفنه فيها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات:٢٥،٢٦].

ولو شاء الله لجعلها حديداً ونحاساً فلا يستطيع الإنسان أن يحرثها أو يزرعها ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

فهو يسعى فيها وهو حي، ويدفن فيها بعد موته.

وقد أمر الله المسلم إذا فرغ من عبادته أن يسعى لتحصيل رزقه فقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠] فقد ذلل الله الأرض للإنسان والحيوان، بما تحتويه من هواء وماء وتُربة تصلح للزرع والإنبات والجَنْي والحصاد.

---

(١) تفسير الألوسي (١٥/٢٩)، والأثر أخرجه الحكيم الترمذي (٤٠٥/١).

وجعل هذه الأرض ثابتة مستقرة ساكنة لا تُلْقِي بمن عليها عن ظهرها، مع أنها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة خمسة وستين ألف ميل في الساعة، وقد جعل الله للأرض جاذبية تشدّ مَنْ فوقَها إليها في أثناء حركتها الكبرى، وجعل لها ضغطاً جوِّياً يسمح بسهولة الحركة فوقها، وجعل الله الهواء المحيط بالأرض محتوياً للعناصر التي تحتاج إليها الحياة، والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق(١).

وفي الآية إشارة إلى ضرورة طلب الرزق والمكاسب، وفيها دلالة على وحدانية الله تعالى، وقدرته، والتذكير بنعمه، والتحذير من الركون إلى الدنيا.

وهكذا أمر الإسلام أبناءه بالاستثمار والانتاج، وطلب الثراء، والاستغناء عن الناس ولم ينقص شيء مِنْ دخْل الأمة وانتاجها إلا بمقدار تقصيرها وإضاعة حقها في الوجود، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة في العالم اليوم، وهي ذات السيادة، وقد أعطى الإسلام أهله الأوْلويّة في هذا ليكونوا سادة وقادة وأحراراً.

ولما كانت الأرض هي مثوى الناس بعد الموت، ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي وإليه وحده البعث من قبوركم للحساب والجزاء، وقد جعل الله الدنيا دار ابتلاء وامتحان ومعبراً يوصل إلى الآخرة حيث تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله فيحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم من الحسنات والسيئات، وهذا البعث يكون من الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

الْكُفْرُ يُحَوِّلُ النِّعَمَ إِلَى نِقَمٍ تَنْزِلُ بِالإِنْسَانِ مِنْ تَحْتِهِ أَوْ مِنْ فَوْقِهِ

١٦- ﴿ءَأَمِنتُم(٢) مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٦/٣٦٣٩).

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في (ءأمنتم) وقرأ الأصبهاني والبزي ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وللأزرق وجهان هما: التسهيل مع عدم الإدخال، وإبدال الهمزة ألفا مع القصر، ولهشام ثلاثة أوجه هي: التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال.

ولما قرر الله سبحانه أنه خلق الأرض وذلّلها للإنسان، بيّن جل شأنه أن الكفر يُحَوّل النعم إلى نقم، وأن هذه الأرض الذلول الحلوب، قد تتحول إلى أرض غير ذلول ولا حلوب، بأن تضطرب قليلاً، فيرتج كل شيء فوقها ويتحطم، فيكون الناس وهم في هول الزلازل والبراكين والخسف، كالفئران الصغيرة المحصورة في قفص الرعب، فتتحول هذه الأرض إلى جند من جنود الله، يعاقب بها من لم يؤمن به، فاستحق غضبه سبحانه.

والله تعالى يوبخ من كفر به وأساء معاملته، فهو يعصي ربه وكأنه في مأمَن مِن أن يأمر الله ملائكته أن يخسفوا الأرض بكل من كفر به وأشرك معه غيره.

والآية فيها تهديد ووعيد لمن طغى وتكبر وعصى الله تعالى فاستحق عقوبته ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله سبحانه كما جاء في حديث الجارية التي سئلت: أين الله؟ فأشارت، في السماء، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»[1].

قال القرطبي: إن ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى فوق السماء، كقوله ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة:٢] أي فوقها، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

فهل أمنتم ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ الله ﴿بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أيها الجاحدون المكذبون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب بكم وتتزلزل، فينقلب ظاهرها باطنها، وباطنها ظاهرها، وتعلو فوقكم، وهي تهتز بكم هزاً شديداً، فتتحرك وترتجّ بكم ارتجاجاً قوياً، تزول معه حياتكم فتُهلككم وتُتلفكم، كما خسف الله بقارون وبداره الأرض. قال تعالى:

---

(١) ينظر المسند (١٧٩٤٥،١٩٤٥٥) عن الشريد بن سويد، و(٢٣٧٦٢،٢٣٧٦٧) عن معاوية بن الحكم السلمي، وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، وابن حبان (١٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤١) وغيرهم

١٧ - ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ [(١)] أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [(٢)] ﴿١٧﴾ ﴾

فإذا كنتم يا معشر الكفار آمنين من أن يأتيكم العذاب من تحتكم، فهل أنتم آمنون مِن أن يأتيكم العذاب مِنْ فوقكم، بأن يرسل الله عليكم ريحاً ترجمكم بالحجارة الصغيرة ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عند معاينة العذاب ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي كيف كان تحذيري وعقابي للمكذبين، وتهديدي ووعيدي لهم بنزول العذاب؟ وستعلمون حقيقة ما أخبَرْتكم به الرسل والكتب، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل:٦١ ونظيرها في سورة فاطر:٤٥] .

وفي الآية تحذير لهم من أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم حاصباً إن لم يؤمنوا، فإن آمنوا وأقلعوا عن كفرهم فإنهم يَسلَمون من ذلك.

الْعِقَابُ الدُّنْيَوِيُّ لِلأُمَمِ الْمُكَذِّبَة لِرُسُلِ اللهِ تَعَالَى

١٨ - ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

ثم أخبر سبحانه أن كل من كذب الرسل من الأمم السابقة، أصابهم من عذاب الاستئصال ما قد علموا أخباره، كقوم نوح، وقوم لوط، وأصحاب الرس، وقوم ثمود .. وغيرهم ممن كذب رسل الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي كيف أنكرنا عليهم كفرهم وتكذيبهم بما نزل بهم من عقاب، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية ياء مفتوحة من ﴿ٱلسَّمَآءِ أَن ﴾ معا، والباقون بتحقيقها.

(٢) قرأ ورش بإثبات الياء وصلا من ﴿نَذِيرِ ﴾ وأثبتها يعقوب في الحالين وحذفها الباقون، ومثلها ﴿نَكِيرِ ﴾ في الآية التالية.

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠] فانظروا كيف كان إنكار الله عليهم، لقد عاجلهم بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

لقد كان عقابي لهم في غاية الهول والفظاعة! وشأن المؤمن أن يكون ذا إحساس يقظ، دائم الاتصال بالله تعالى حتى ينجو من عذاب الله تعالى.

في الحديث أن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قَطُّ مُستجْمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لَهَواته، إنما كان يبتسم، وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رَأَوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفتْ في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، وما يؤمّني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا: هذا عارض ممطرنا»**[1].

الدَّليلُ السَّادِسُ: الطُّيُورُ وَأَحْوَالُهَا فِي الْفَضَاءِ

١٩ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

وتمضي آيات الدعوة إلى التأمل في مظاهر قدرة الله تعالى، فتنتقل من أحوال البشر إلى أحوال الطير، للاستدلال بخلْقها ونظام حركاتها وطيرانها على عظيم قدرة الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فهل غفَل هؤلاء الجاحدون لوحدانية الله تعالى، المكذبون لخاتم الرسل عن التأمل في عالم الطير، وهو يطير فوق رؤوسهم بقدرة الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ أَغَفِلَ الكفار، فلم ينظروا نظر تأمل وتدبر إلى عالم الطيور، ففي الآية حث على النظر في حالة الطير وهي تصف أجنحتها في الهواء للطير، وتقبضها للوقوع، فتظل طائرة في الجو تتردد فيه إلى حيث تريد وهي ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند عن عائشة برقم (٢٤٣٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري (٤٨٢٨،٦٠٩٢) مختصراً، ومسلم (٨٩٩)، وأبوداود (٥٠٩٨)، والطبراني في الأوسط (٢١٧)، والحاكم (٢/ ٤٥٦)، والبغوي في شرح السنة (١١٥٠).

هذه ثلاثة أوصاف للطير:

الوصف الأول: قوله تعالى ﴿فَوْقَهُمْ﴾ أي أن جميع الدواب تمشي، بما فيها الطير، ولكنها تخالف بقية المخلوقات، وتنفرد عنه بحالة عجيبة، وهي الطيران فوق رؤوسهم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

الوصف الثاني: قوله تعالى ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي أن هذه الطيور تطير وهي صافة أجنحتها، أي باسطات لها عند طيرانها وتحليقها في الهواء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور:٤١] والأصل في الطيران هو صف الأجنحة، فبسْط الجناح يمكّن الطير من الطيران، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء.

الوصف الثالث: قوله تعالى ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي يضمُمن أجنحتهن إلى جنوبهن أحياناً، والطير يقبض أجنحته ليجدد القدرة على زيادة التحرك، ويتغلب على جاذبية الأرض.

ثم قال تعالى ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي في حال القبض والبسط، ويحفظهن من الوقوع على الأرض ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقدرته وحكمته، حيث أودع فيها من الخصائص ما جعلها تطير في الهواء، وفي هذا دلالة على قدرة الخالق سبحانه ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ لا يُرى في خلْقه نقص ولا تفاوت، ومنه الطيور في دقة صُنْعها، وخفة أجسامها، وكسوتها بالريش، ونَشْره بطريقة تساعده على الطير في الهواء والارتفاع في الجو، وهو المدبر لعباده ما تقتضيه حكمته بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩].

ومن آيات القدرة فيما هو أكبر من ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

وقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

عَذَابُ اللهِ لاَ يَدْفَعُهُ دَافِعٌ

٢٠- ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم[1] مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

ثم إنكم يا معشر الكفار، مفتقرون إلى الله تعالى في جميع أحوالكم، ومن ذلك أنه لا يوجد أحد يدفع عنكم العذاب الذي توعَّدكم الله به، فأخبروني أيها المشركون والمنكرون المكذبون: من هذا الذي ينصركم عند احتياجكم إلى من يدفع عنكم العذاب، غير الله سبحانه، إنْ أراد بكم سوءًا فيدفعه عنكم؟ فالله تعالى هو الناصر، وهو المعز المذل.

ومن شأن الجند أن يكون على استعداد للدفاع عمن يحميه بصفة دائمة عندما يُطلب منه ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: من ينصركم مني إن أردت عذابكم وقد خوَّفكم الخسف والقذف بالحجارة[2]؟

والجواب: إنه لا ناصر لكم غير الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

ولو اجتمع الخلْق على أن ينفعوكم مثقال ذرة لم ينفعوكم إلا بإرادة الله تعالى.

وكما قال أيضاً ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر:٢].

ثم بين سبحانه أن الكافرين في زعمهم وجود من يدفع عنهم عذاب الله تعالى، لفي خداع وضلال من الشيطان ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ما الكافرون ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشيطان، أي في وهم وجهل فاضح، فاستمرارهم على الكفر مع علمهم أنهم لا ينصرهم من دون الله أحد، غرور وسفه.

---

(١) قرأ السوسي بإسكان الراء واختلاس ضمتها من ﴿يَنصُرُكُم﴾ وقرأ الدوري بالإسكان والاختلاس والضمة الكاملة، وقرأ الباقون بالضمة الخالصة.

(٢) تفسير الخازن (٢٩٣/٤).

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: رِزْقُ اللهِ لِلْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ

٢١- ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

ثم انتقلت الآيات إلى دليل سابع من أدلة الوحدانية والقدرة في السورة، لإلزام الجاحدين المكذبين الحجة، لبيان أنه لا مدخل لمخلوق في رزق الخلق.

فالرزق: كالخلق والإحياء والإماتة، من خصائص الإلهية، فهل بمقدور أحد أن يرزق أحدا من خلق الله، إن حبس الله عنهم رزقه من المطر والطعام ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ من هذا الذي يرزقكم غير الله، إن منع الله عنكم رزقه؟ لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق، وينصر ويخذل، غير الله سبحانه، إن الإنسان لا يستطيع أن يرزق نفسه، فكيف يرزق غيره؟ والخالق الرازق هو الذي يستحق العبادة دون غيره.

ثم بين تعالى أن السبب في هذا الزعم الفاسد، هو استمرار الكفار في طغيانهم وضلالهم فقال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي عناد واستكبار ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي شرود عن سماع الحق واتباعه.

مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ

٢٢- ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر كمن يمشي منكباً على وجهه، منحنيا، لا يدري أين يذهب، ولا إلى أين يتجه، فهو تائه حائر ضال، والمؤمن كمن يمشي معتدل القامة، يعرف طريقه واتجاهه، هذا في الدنيا.

فإذا كان يوم القيامة، فالمؤمن يُحشر مستوياً مهتدياً، يعرف طريقه إلى الجنة، والكافر يُحشر على وجهه إلى نار جهنم.

وهذا لأن الكافر لمّا انكبّ على المعاصي في الدنيا وعمل بها، حشره الله على وجهه يوم القيامة، فإن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يحشره يوم القيامة على وجهه، وأن يكبه في النار على وجهه، كما في الحديث عن معاذ ﷺ «وهل يكب الناس

في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم»[١] وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢،٢٣].

وبعد أن ذكر سبحانه سبعة أدلة على وحدانيته تعالى وقدرته وهي:

١- الموت والحياة ٢- السماوات السبع الطباق.

٣- علم السر والنجوى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ٤- خلق الإنسان.

٥- تذليل الأرض ٦- تحليق الطير في الهواء ٧- رزق الله للكائنات الحية.

وهي أدلة من شأن الكافر أن يُسلم إذا تأمل فيها، ولذا: فقد ضرب الله سبحانه بعد هذه الأدلة مثلاً للكافر الذي يجحد وحدانية الله تعالى، ولا يصدّق خاتم الرسل ﷺ ومثلاً آخر للمؤمن بالله ورسوله.

وقد شبهت الآية: الكافر بمن يمشي منكّس الرأس، لا يُبصر طريقه، كالأعمى الذي يتعثّر في مشيته فيخرّ على وجهه، أما المؤمن، فهو يمشي منتصب القامة مهتديا إلى الطريق السوي.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا﴾ أي منكباً ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، هل هذا أشد استقامة على الطريق و﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ معتدلاً، سالماً على ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق واضح لا اعوجاج فيه، أيّ الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر، قد انقلبت عنده الحقائق، فصار الباطل حقاً والحق باطلاً؟ هل يستوي هذا بمن كان عالماً بالحق عاملاً به، يمشي على طريق الاستقامة في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، الفرق بينهما واضح، فلا يستوي الضال بالمهتدى ولا الكافر بالمؤمن.

وكما هو حال المؤمن والكافر في الدنيا، فإنه يكون كذلك في الآخرة، فالمؤمن

---

(١) من حديث معاذ في الترمذي (٢٦١٦) بإسناد صحيح، وابن ماجة (٣٩٧٣)، والمسند برقم (٢٢٠١٦، ٢٢٠٦٨)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، لأن أبا وائل لم يسمع من معاذ (محققوه)، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٠٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠) وغيرهم.

يُحشر وهو يمشي على صراط مستقيم، مُفْضياً به إلى الجنة كما قال تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد:٥،٦].

أما الكافر فإنه يحشر على وجهه إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه:١٠٢].

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «**إن الذي أمشاه على رجليه، قادر على أن يُمشِيَه على وجهه في النار**»[1].

والحالة الأولى هي حالة المؤمن السعيد، والحالة الثانية هي حالة الكافر الشقي.

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى بِأُسْلُوبِ التَّلْقِينِ مِنْ فُرُوعِ الْمَخْلُوقَاتِ

٢٣- ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾

السبب في شقاء الكافر، أنه لم ينتفع بوسائل الهُدَى وأدوات الإدراك، ومنها السمع والبصر والفؤاد، وهذا انتقال من الاستدلال بأصول المخلوقات إلى الاستدلال بفروعها، فمن الاستدلال بخلق السموات والأرض، والحياة والموت، إلى الاستدلال بخلق الإنسان ومداركه.

وفي الآيات التالية، ست آيات بدأت بلفظ: ﴿ قُلْ ﴾ وكلها أدلة على وحدانية الله تعالى بطريق التلقين وهي:

١- ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ ﴾ ٢- ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ ﴾.

---

(١) المسند (١٦٧/٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري برقم (٤٧٦٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٦)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٣٦٧)، وابن حبان (٧٣٢٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٣١٥).

٣- ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ٤- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ ﴾.

٥- ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ ٦- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾.

التلقين الأول: خلْق الإنسان وتزويده بالسمع والبصر والفؤاد:

وتبدأ الآية الأولى: ﴿ قُلْ ﴾ يا رسولنا لكل جاحد مكذب بآيات الله، داعياً له إلى توحيد الله وشكره وإخلاص العبادة له: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ الله الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، وأنشأكم في كل طَوْرٍ من أطوار حياتكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: ولما أنشأكم جعل لكم السمع لتسمعوا به ما ينفعكم ويفيدكم في دنياكم وأخراكم، وخَلَق لكم الأبصار لتُبصِروا بها الكائنات، وخلق لكم الأفئدة، وهي القلوب، لتعقِلوا وتدركوا بها الأمور، ولكنكم مع هذه النعم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ربكم الذي أنعم عليكم بها.

وقد أفرد الله السمع، وجمع الأبصار والأفئدة: لأن الأُذن تسمع حجة واحدة، ودليلاً واحدا، لا يتعدد، أما العقول، فإنها تتفاوت وتتعدد في المفاهيم، وتختلف باختلاف قدُرات الناس، وكذا الأبصار ترى الشيء ضحلا أو تراه فخما، وأنظار الناس تختلف وتتعدد، وهكذا، قال تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ﴾ [البقرة:٧].

وإطلاق القلب على العقل شائع في لغة العرب، وخُصّت هذه الجوارح الثلاث بالذكر، لأنها أداة العلم والفهم، ومِنْ شُكْر الله تعالى على الجوارح ما علّمنا إياه النبي ﷺ أن نَقُوله في السجود، وكان ﷺ يكثر أن يقول: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره**»[١] ومن ذلك هذا الدعاء الجميل «**ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبدا ما أبقيتنا، واجعله الوراث منا**»[٢].

---

(١) من حديث عائشة في أبي داود (١٤١٤)، والترمذي (٥٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والمسند (٢٤٠٢٢) وهو حديث صحيح (محققوه)، والنسائي في الكبرى (٧١٤)، والحاكم (١/ ٢٢٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٠)، وجاء مثله عن عليّ وجابر ومحمد بن مسلمة وغيرهم.

(٢) من حديث ابن عمر في الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم (١/٥٢٨)، و هو في صحيح سنن الترمذي (٢٧٨٣) بإسناد حسن.

التلقين الثاني: القادر على البدء قادر على الإعادة

٢٤ - ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

ثم إن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولا جُزافاً لغير قصد ولا غاية، وإنما خلقهم في هذه الحياة، للابتلاء، ثم للحساب والجزاء يوم الحشر والنشور فلقد بثكم الله – أيها الناس – في أقطار الأرض وأسكنكم أرجاءها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم النعم، ثم تحشرون يوم القيامة، ويتحقق وعد الله لكم بالحساب والجزاء.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسولنا للخلق أجمعين، من أمة الدعوة وأمة الإجابة ﴿ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ ﴾ خلقكم وبثّكم ونشركم وكثّركم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾.

وبعد انتهاء حياتكم في الدنيا تموتون، ثم يكون البعث والحشر ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فالحشر لا يكون إلا بعد البعث، والبعث لا يكون إلا بعد الموت، ثم يأتي الحساب والجزاء، فإما جنة وإما نار، على وفق ما كان العمل في الدنيا.

والآية تبين مصير العباد بعد انتهاء آجالهم في الدنيا، وجمع ما تفرق وتشتت من أجسادهم.

ومعنى الآية أن القادر على البدء قادر على الأعادة.

الكافر يستبعد وقوع البعث والحساب

٢٥ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أن بعض الناس أنكروا البعث وجحدوه، وتعجبوا من إنذار القرآن به، وقالوا للنبي ﷺ على سبيل السخرية والاستهزاء: متى يكون هذا الحشر والحساب والجزاء الذي تعدنا به؟ فأت به إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي يقول الكفار ﴿ مَتَىٰ ﴾ يتحقق ﴿ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ بالحشر والحساب والثواب والعقاب، أخبرونا عن زمان وقوعه ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تدّعون، فأين هو؟ إننا لا نراه! وهكذا:

فقد جعلوا علامة صدق الرسول ﷺ، أن يخبرهم بوقت مجيء العذاب الذي وعدهم به.

وقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يحتمل أنهم يسألون عن يوم القيامة، ويحتمل أنهم يسألون عن موعد نزول العذاب الذي يتوعدهم به الإسلام، والوعد بالبعث، يتضمن بالضرورة الوعيد بالعذاب، بالنسبة لمن كفر بالبعث والجزاء.

وكان بعض الكفار يقول لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧].

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى عن المنكرين للبعث والنشور في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥١].

وقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد:٥].

التَّلْقِينُ الثَّالِثُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجيب منكري البعث والحساب والجزاء في كل زمان ومكان، بأن عِلْم قيام الساعة عند الله تعالى، لا يعلمها إلا هو، فهي من الغيب الذي اختص به ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أنَّ عِلْمَ وقت القيامة، ووقت نزول العذاب بالجاحدين والمكذبين، لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ أي عليم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فمعرفة قيام الساعة مما استأثر الله تعالى به، ومهمة النبي ﷺ تنحصر في البلاغ والبشارة والإنذار، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أخوفكم

عذاب الله إن لم تؤمنوا، وأوضّح لكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني الله به غاية البيان.

حَالُ الكَافِرِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

٢٧- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ[1] وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ[2] ﴿٢٧﴾﴾

أي وسيظل الجاحدون للبعث والحساب في شكهم وإنكارهم أمر قائم وهم في الدنيا، وتظل الإجابة اليقينية بحتْميّة وقوعه أمر قائم أيضاً إلى قيام الساعة، حتى يرونه رأى العين، وعندما يرونه قريباً منهم، فإن وجوههم تعلوها الكآبة والحزن، والآية تصور هذا المشهد كأنه يحدث اليوم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي لما رأى الكفار عذاب الله تعالى قريباً منهم، وعاينوا ما كانوا يستعجلونه، ورأوْهُ قد حلّ ونزل بهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما رأت من عذاب الله وهوانه، وقد علتْها الكآبة والغم والندم، وظهر على وجوههم الذل والانكسار والقتَرة والسواد، خوفاً من العذاب الذي أنكروه وهم في الدنيا، وصاروا كمن يُساق إلى القتل وهو ينظر ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً على تكذيبهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي هذا هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا إمعاناً منكم في التكذيب، وتقولون كما قال قوم نوح لنبيهم عليه السلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود:٣٢]. وقد كنتم في الدنيا تتمنون وقوعه وتدّعون أنه باطل.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبوجعفر ورويس بالإشمام في سين ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي بإتمام حركة الكسر في السين بحركة الضم، فيتولّد منهما حرف فرعي، تختلط فيه حركة الكسر بحركة الضم، والباقون بالكسرة الخالصة ولحمزة وقفا النقل والإدغام.

(٢) قرأ يعقوب بإسكان الدال من ﴿تَدَّعُونَ﴾ من الدعاء بمعنى تطلبون، وقرأ الباقون بالتشديد من الدعوى، أي تدعون أنه لا جنة ولا نار.

التلقين الرابع: لا مفر للكافر من العذاب سواء رفعت راية الإسلام أم لا

٢٨- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ[(١)] ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ[(٢)] أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

وكان من بذاءة المشركين أنهم يجهرون بتمنِّي هلاك النبي ﷺ وهلاك من معه من المسلمين، فأمر الله نبيه أن يبين لهم: أن موت النبي ﷺ أو حياته لن يدفع عنهم عذاب الله تعالى، فهم كافرون، ولا مفر لهم من العقاب، وهكذا فإن من شأن المكذبين أنهم ينتظرون وقوع الهلاك بالمؤمنين، ويتربصون بالنبي ﷺ ريب المنون.

وقد بينت الآية أن أمانيهم لو تحققت، فأهلك الله النبي ومن معه - كما يريدون - فإن ذلك لن ينفعهم في شيء، لأنهم كفروا بالله ورسوله، واستحقوا عقاب الله، ولا يوجد من يمنعهم من عذاب الله، فحرصهم على إيقاع الضرر بالنبي ﷺ، ومن معه لا يفيدهم في شيء.

﴿ قُلْ ﴾ لمن يتمنى القضاء على الإسلام وأهله، ولمن كان يتمنى موت النبي ﷺ في حياته، أو يتمنى القضاء على دعوته بعد مماته ﴿أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي أماتني ﴿وَمَن مَّعِيَ ﴾ من المسلمين، وكلُّ من وافقني في العقيدة والدين كما تتمنَّون.

﴿أَوْ رَحِمَنَا ﴾ فلم يمتنا الآن، بل أخَّر آجالنا، فمن يجير الكافرين من عذاب الله؟

وقد يكون المعنى: أخبروني أيها الجاحدون المكذبون، إن عذبني الله أنا ومن معي من المؤمنين بذنوبنا، أو غفر لنا ذنوبنا وشملنا برحمته، فلو تمّ فينا شيء من ذلك، فهل ينفعكم هذا في رفع العذاب عنكم؟ وهل أنتم ناجون من العذاب إن هلكتُ وهلك من معي؟ فهلاكنا لا يدفع عنكم العذاب، كما أن نجاتنا لن تجيركم من النار.

وهذا معنى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي من يحميهم ويمنعهم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ موجع؟

فهل تظنون - أيها الجاحدون المنكرون- أن الأصنام ونحوها تُخلِّصكم أو تُنقِذَكم من العذاب الأليم، إنه لا منقذ لكم من عذاب الله سبحانه إلا التوبة والإنابة والرجوع

---

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء الإضافة من ﴿أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ والباقون بفتحها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وابن عامر وحفص وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿مَّعِيَ أَوْ﴾ والباقون بإسكانها.

إليه تعالى. فخلِّصوا أنفسكم مما أنتم فيه، فإنه لا مُنْقذ لكم من الله تعالى إلا بالعودة إليه سبحانه، فسواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مفرّ لكم من عذابه.

قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف:٤١،٤٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦].

وفي الحديث (حياتي خير لكم، وموتي خير لكم).

التلقين الخامس: المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه

٢٩- ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ [1] مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ ﴾

ثم إن هؤلاء المسلمين الذين تتمنوا هلاكهم، على النقيض منكم أيها المشركون المكذبون، فهم لم يشركوا مع الله غيره، بل أخلصوا عبادتهم للرحمن، وآمنوا به حق الإيمان، واعتمدوا عليه، وفوضوا أمورهم له، فهم جديرون برحمته تعالى ورضوانه.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسولنا لكل من كفر بالله وأشرك معه غيره: الله هو الرحمن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ صدّقنا به وأطعناه، والتصديق يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.

ولما كانت الأعمال تتوقف على التوكل، خصه الله بالذكر، لأنه داخل في الإيمان، فقال: ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي عليه وحده اعتمدنا في جميع أحوالنا، كما قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] وقال سبحانه: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وأنتم قد كفرتم بالله وأشركتم به.

وعند معاينة العذاب يوم القيامة، سوف يتبين لكم من منا على باطل، نحن أم أنتم؟ وهذا معنى ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ أي وقت قيام الساعة، وعند رؤية العذاب ﴿ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أيّ الفريقين منا ومنكم في ذهاب بعيد عن الحق؟ والذين في ضلال مبين هم الذين

(١) قرأ الكسائي بياء الغيبة في ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ لمناسبة ﴿ فَمَن يُجِيرُ ﴾ وقرأ الباقون بتاء الخطاب لمناسبة ﴿ تَدَّعُونَ ﴾.

جحدوا وحدانية الله تعالى، وتوكلوا على أنفسهم وعلى قوتهم المادية، وعلى حلفائهم المعاونين لهم من أهل الكفر والإلحاد.

التلقين السادس: التهديد بالحرمان من سبب الحياة الأول وهو نعمة الماء

٣٠- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

وتختم السورة فتذكِّر الناس بنعمة من أجل نعم الله تعالى عليهم، وتُلمّح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، بأن يحرمهم الله من سبب الحياة الأول وهو الماء عقوبة لهم.

﴿ قُلْ ﴾ - يا رسولنا - لعبيد المادة، الذين ينكرون أن الله تعالى قد سخر لهم نعمة الماء ﴿أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أي إن صار ماؤكم الذي تشربون منه ذاهباً في الأرض غائرا فيها، لا تصلون إليه بوسيلة من الوسائل ﴿فَمَن﴾ غير الله ﴿يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ يجري على وجه الأرض ظاهراً للعيون؟ فتشربون منه وتسقون أنعامكم وزروعكم وأشجاركم، وهذا استفهام بمعنى النفي، والجواب: لا يقدر على ذلك إلا الله.

وإذا كان الأمر كذلك، فلِمَ تجعلون مع الله شريكاً له في العبودية؟

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١٨].

والماء المعين هو الماء الجاري الظاهر.

ذُكر أن بعض الملاحدة سمع هذه الآية فقال: تأتي به الفؤوس والمعاول، أي أن تعميق الحفر في الأرض سيخرج الماء حتما، وشاء الله أن يغيض ماء عينه فعمى! فهل استطاع أحد أن يرد عليه بصره! نعوذ بالله من الخذلان، ومن الجرأة على الله!

وانحباس المطر، يتبعه غور مياه الآبار، لأن استمدادها من الماء النازل على الأرض.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ [البقرة:٧٤].

تم تفسير (**سورة الملك**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَمِ (٦٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القلم) هي السورة الثامنة والستون في ترتيب المصحف، والرابعة في ترتيب النزول على الأصح، فقد سبقتها سور: العلق، والمدثر، والمزمل.

وعدد آياتها: اثنتان وخمسون آية باتفاق.

وهي ثلاث مئة كلمة، وألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً.

وهي سورة مكية، من أوائل ما نزل بمكة على رسول الله ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ بمكة[1].

وقيل: إن قصة أصحاب الجنة مدنية، وكذا الآيات: من ٤٨-٥٠ التي فيها ذِكْر صاحب الحوت عليه السلام، والأرجح أن السورة كلها مكية.

قال ابن عباس: (كانت إذا نزلت فاتحةُ سورة بمكة، كُتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿نٓ﴾ ثم ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ثم ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾)[2].

وتسمى سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ واقتصر بعضهم على تسميتها سورة ﴿نٓ﴾ وبعضهم يسميها سورة ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها.

مقاصد السورة:

المحور الأساس الذي تدور حوله السورة هو إثبات نبوة محمد ﷺ وردّ الشُّبه التي يُثيرها أهل الباطل حول الرسالة الخاتمة، ومن أجل ذلك تبدأ السورة بالقسم على رفع قدْر النبي ﷺ وعلُوّ شأنه، وبراءته مما يُلْصقه به أعداء الإسلام.

وتبين السورة أن أعداء الحق يقفون دائماً في وجه الدعوة في كل زمان ومكان، ثم

(١) أخرجه النحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي (١٤٢/٧)، وأخرجه ابن مردويه عن عائشة.

(٢) تفسير الشوكاني (٢٦٥/٥) عن ابن الضريس (١٧).

يندمون على عداوتهم للإسلام، بعد أن تكْشف لهم الأيام عن زيف باطلهم، وصِدْق الإسلام، وهذا ما تَحَمَلُه قصة أصحاب الجنة، فقد نَدِموا على شُحّهم وبُخْلهم بعد أن أهلك الله ثمرهم، نتيجة الكفر بنعمة الله عليهم، وهكذا فقد أعز الله قريشاً بالإسلام بعد أن أهانهم بالكفر.

أما المصرُّون على باطلهم، فإنهم يتعلّقون بأوهام ومادّيات ذاهبة، لا مستند لهم فيها من عقل ولا نقل، وأمامهم حساب شاق دقيق، يندمون فيه ولات ساعة مندم، ولا عذر للكافرين في هذا الموقف، فقد أعذرهم القرآن وأنذرهم، وأعطاهم فرصاً شتى فأضاعوها وعاندوا وأصرُّوا على باطلهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالبلاغ والصبر على متاعب الدعوة وتحمّل الأذى، فهو رسول أرسله الله للعالم أجمع، كما جاء ذلك في باكورة الرسالة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الآية: ٥٢.

وقد أشارت السورة إلى اليوم الآخر في عدم التسوية بين المسلمين والمجرمين.

وتناولت موقف المكذبين للدعوة واتهامهم لصاحبها بالجنون، وذكرتْ عَرْضَهم على النبي ﷺ أن يَلِينَ لهم ليلينُوا له، كما يطلب أعداء الإسلام من أهل الدعوة في كل عصر ومصر: التخلي عن آيات الجهاد، وعن آيات الولاء والبراء، للتعايش السلمي وتطبيع العلاقات مع غير المسلمين، فالتاريخ يعيد نفسه!

ولو أن غير المسلمين قديماً وحديثاً فهموا تعاليم الإسلام الهادية للبشر، لَمَا وقفُوا منه موقف العداء، فالفجوة بين الإسلام وبين الإلحاد والشرك والعلمانية .. فجوة كبيرة لا يفقهها من حُرموا نور الإسلام، ومن هذه الفروق الجاهلية في القديم والحديث ما يلي:

أولاً: الفجوة كبيرة بين التوحيد الذي جاء به الإسلام، وبين الشرك وتعدّد الأرباب والآلهة بين كثير من أبناء الشعوب، ومنهم من نفي الألوهية والرسالات، وقال: بأن الدين أفيون الشعوب.

ثانياً: والفجوة كبيرة أيضاً بين أخلاق الإسلام، في حفظ الدين والمال والعقل والنسب وما إلى ذلك، وبين أخلاق الجاهلية في القديم والحديث، كالخمر والجنس، والشذوذ، وسيطرة القويّ على الضعيف.

ثالثاً: والفجوة كبيرة كذلك بين المساواة بين الناس جميعاً إلا بالتقوى، وبين الاعتبارات الاجتماعية، التي تُصنّف الناس إلى طبقات فيها سيّد ومسُود، وشريف ووضيع ..

هذه بعض أسباب التصادم بين هذي الإسلام وضلال أهل الجاهلية، وهذه الأسباب هي التي جعلت كفار قريش لم ينقادوا للدعوة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] لأن النبي ﷺ لم تكن له رئاسة قبل البعثة، مع شرف نسبه وعلوّ مكانته، واشتهاره بالصدق والأمانة، وكانوا في قرارة أنفسهم يسلّمون بصدْقه وأمانته وعفافه، ولكنهم يرفضون ذلك لأنه من بني عبد مناف.

كما جاء في قصة أبي جهل، والأخنس، وأبي سفيان، حين خرجوا ثلاث ليال متتابعة، يستمعون إلى القرآن خِفْية، كل واحد منهم من وراء الآخر، فيلْتقُون صُدْفة ويتّفقون على عدم العودة، ثم يعودون، فسأل الأخنس أباجهل، عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعَموا فأطعَمْنا، وحَمَلوا فحَملْنا، أي قاتلوا فقاتلنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركَب، وكُنّا كفرسيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه!

وهذه الأسباب نفسها هي التي جعلَت بني إسرائيل يقفون من الدعوة موقف الرفض والعناد، حسداً منهم للنبي ﷺ بعد أن انتقلت الرسالة منهم إلى العرب، ومن بيت المقدس إلى مكة، لأنهم لم يعودوا أهلاً لها.

وسورة القلم تشير إلى هذا كله في عروض المشركين على النبي ﷺ للالتقاء في منتصف الطريق والتهادن فيما بينهم ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ الآية:٩.

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ الآية:٥١.

والسورة تردّ على المكذبين للنبي ﷺ بمثل هذه الآيات: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ الآيتان:٣،٤ وترد على السبّ الموجه للنبي ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ الآيتان:١٠،١١.

وتُبين السورة أنه لا يوجد لدى المكذبين بالرسالة دليل من عقل ولا نقل ولا عهود ولا مشاركة يستندون إليها في تكذيبهم للنبي ﷺ ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ الآيات:٣٧-٤٠.

وبعد نزول هذه السورة، تمضي الدعوة عشرين عاما، ثم تعم الأرجاء وتقود البشرية، ومن خرج من البشر عن هذا الإطار، فهو في ضلال مبين.

ويمكن تقسيم موضوعات السورة إلى تسعة أقسام:

١- الآيات التسع الأُوَل، فيها القسم على تبرئة النبي ﷺ مما ألصقه به المكذبون من السفه والجنون، وبيان أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، وفيها بيان ما أعده الله تعالى للمجرمين من العذاب والنكال ..

٢- ومن الآية العاشرة إلى الآية السادسة عشرة، الحديث عن الوليد بن المغيرة وأمثاله إلى قيام الساعة.

٣- ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين عن قصة أصحاب الجنة ذات الأشجار والزروع المثمرة، فقد أحرقها الله تعالى لَمَّا منع أهلها حق الله منها، وجعلها عبرة للمعتبرين.

٤- ومن الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين في الرد على شبه المكذبين بالوحي المنزل وتفنيد أباطيلهم.

٥- وبقية السورة لتسلية النبي ﷺ وأمْرِه بالصبر على أذى المعارضين، وعدم التبرم والتضجر مما يلقاه في سبيل تبليغ الدعوة، كما حدث من نبي الله يونس ﷺ حين ترك

قومه وسارع إلى ركوب البحر.

٦- وأشارت السورة في نهايتها إلى عالمية الإسلام، وأن هذه العالمية قد بدأت بأوائل آيات الوحي نزولاً بمكة المكرمة، ثم مرّت على النبي ﷺ ليالي كالِحَة، عانَى فيها مِنَ الحرج والألم ما يهز الجبال الرواسي، ولكنه ﷺ ثبت حتى أدى الأمانة وترك الرسالة تحملها أجيال الدعوة بعده فنشرها رب العالمين على أيديهم.

الحروف المقطعة في أوائل السور:

وسورة القلم هي آخر سورة في ترتيب المصحف افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء، وهي أول سورة في ترتيب النزول افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء.

وقد وردت هذه الحروف تارة مفردة، وتارة مركبة من حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة:

١- والسور التي بُدئت بحرف واحد هي ثلاث سور: ص، ق، ن.

٢- والسور التي بدئت بحرفين، تسع سور هي: طه، يس، طس، حم في ست سور: هي (غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف).

٣- والسور التي بُدئت بثلاثة أحرف، ثلاث عشرة سورة هي: (الم) في ست سور هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).

و(الر) في خمس سور هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).

و(طسم) في سورتين هما (الشعراء والقصص).

٤- وسورتان ابتدأتا بأربعة أحرف وهما: الرعد (المر) والأعراف (المص).

٥- وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).

فيكون مجموع السور المفتتحة بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة.

وهذه الحروف ومنها حرف (ن) من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

فقد سئل الشعبي عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن في

فواتح السور.

وفي رواية أخرى قال: سر الله فلا تطلبوه.

وقد اجتهد أهل العلم في تأويلها، فمنهم من قال: إنها أسماء للسور، كما في الأثر (من قرأ حم السجدة حُفِظ إلى أن يُصْبح) وقيل غير ذلك.

١ - ولعل الأقرب إلى الصواب: أن هذه الحروف هي أصل الكلام المركب الذي يتألف منه الكلام العربي، وقد تحدى الله به المشركين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، فدل هذا على صدق القرآن الكريم.

٢ - ثم إن تصدير السور بهذه الحروف يجذب أنظار المعارضين للقرآن إلى الإنصات له والتدبر فيه، لأنها ألفاظ غير مألوفة لديهم، فإذا لُفتت أنظارهم إليها وتأملوها، ربما كان هذا سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

٣ – وهذه الحروف تجعل المسلم ينقاد لأمر ربه، فيتمثل أمره ويجتنب نهيه دون سؤال عن السبب والعلة، بل يقول: سمعنا وأطعنا، فإذا كان لا يفهم لهذه الحروف معنى واضحاً، فهو كذلك لا يفهم لبعض العبادات معنى أو سبب وعلة، فيعبد الله تعالى كما أمره، وينتهي عما نهاه، وإن لم يفهم للأمر ولا للنهي علة.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ بِحُرُوفِ الْهِجَاءِ وَبِالْقَلَمِ وَبِالْكِتَابَةِ فِيهِ تَنْوِيهٌ بِشَأْنِ الْعِلْمِ

١ - ﴿نٓ [1] وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بحرف الهجاء ﴿نٓ﴾ وهو اسم للحرف، وليس ذات الحرف، وهذا القسم للتنبيه على إعجاز القرآن.

وأقسم الله تعالى بأداة الكتابة وهي القلم.

كما أقسم سبحانه بالكتابة نفسها، في قوله ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وهي الأسطر المكتوبة.

وجواب القسم عن هذه الثلاثة: نفي الجنون عن النبي ﷺ، وإثبات الأجر له، وبيان أنه على خلق عظيم، وكل ذلك لدفع التهم الباطلة عن رسول الله ﷺ وإثبات أنه رسول من عند الله.

كما جاء التنويه بالقراءة والكتابة والقلم، في الآيات الأولى التي نزلت من هذا الكتاب العزيز، في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥] وذلك لبيان أن الإسلام دين يدعو إلى العلم، وإلى محو الأمية في أول آياته نزولاً، وفيه إشارة إلى منزلة العلم والقراءة والكتابة في الإسلام، لم يسبق لها مثيل في التعاليم السماوية الأخرى، ولا في التعاليم الأرضية.

١ - **والقلم الأول**: هو الذي كُتب به علم الله تعالى في اللوح المحفوظ بالموجودات الكائنة، والتي ستكون، والمخاطبون بالقرآن لا يعرفون إلا القلم الذي هو آلة الكتابة، عند أهل الكتاب، وعند من يعرفون الكتابة من العرب وقت نزول القرآن العظيم.

---

(١) سكت أبوجعفر على نون من ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ سكتة خفيفة بدون تنفس، وأدغم النون في الواو هشام والكسائي ويعقوب وخلف قولاً واحداً، وأدغمها بخلاف عنهم ورش والبزي وابن ذكوان وعاصم، وأظهرها الباقون، وهم قالون وقنبل وأبوعمرو وحمزة وأبوجعفر.

٢ - **والقلم الثاني بعد أن نزل القرآن على النبي ﷺ هو الأقلام التي كُتب بها الوحي**، فكان القلم أداة المعرفة العامة، وكان القرآن أول كتاب ظهر في الدنيا مع بقائه إلى قيام الساعة، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد اختار الله لتبليغه للناس: الإنسان الأول في الفضل والتميُّز في هذا الوجود، وهو محمد ﷺ الذي اصطفاه الله لهذه المهمة.

٣ - **والمراد بالقلم في الآية: أنه اسم جنس**، يشمل جميع الأقلام التي تكتب بها العلوم، ويُسطّر بها المنثور والمنظوم، فهو جنس القلم الذي يُكتب به، لتنبيه الخلْق على أن القلم أخو اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف، وهو نعمة من الله تعالى لتعليم الكتابة التي تُنال بها العلوم، والقلم على هذا آية من آيات الله، أقسم به على براءة محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون.

أما القلم الأول الذي كتبت به المقادير، فقد قال الترمذي عنه: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا أبوداود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم، قال: قدمتُ مكة فلقيتُ عطاء بن أبي رباح، فقلت له: يا أبامحمد، إن أُناساً عندنا يقولون في القدر، فقال عطاء: لقيتُ الوليد بن عبادة بن الصامت قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد**»[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدَر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طُوِيَ الكتاب ورُفع القلم، وكان عرشه على الماء، ففُتقت منه

---

(١) الترمذي برقم (٢١٥٥، ٣٣١٩)، والمسند (٣١٧/٥) (٢٢٧٠٥، ٢٢٧٠٧) عن عبادة بن الصامت، وهو حديث صحيح (محققوه)، وانظر: ابن أبي شيبة (١١٤/١٤)، وأبا داود برقم (٤٧٠٠)، والطبري في التفسير (١٦/٢٩)، وعند هؤلاء الثلاثة زيادة ليست عند الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٧٤٩، ٢٦٤٥)، وصححه أيضا في صحيح أبي داود برقم (٣٩٣٣)، وصححه ابن حجر في كشف الخفا (٢٦٣/١).

السموات، ثم خلَق النون، فبُسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فمادت الأرض، فأُثبتت بالجبال، فإن الجبال لَتفْخَرُ على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1].

وأخرج الرافعي في تاريخ قزوين من طريق جُوَيْر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: أن النون هو اللوح المحفوظ، والقلم من نور ساطع[2].

وورد أيضا أن النون هو الحوت[3].

جَوَابُ الْقَسَمِ فِيْهِ ثَلَاثَةُ مَحَامِدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

٢ - ٤ - ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

وجواب الأقسام الثلاثة، وهي حروف الهجاء، وأدوات الكتابة، والخير، أو العلم النافع الذي يسطره القلم، جواب ذلك يتكون من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

والنعمة التي أنعمها الله تعالى على نبيه هي نعمة النبوة والرسالة، أي لست يا محمد ضعيف العقل، ولا سفيه الرأي، كما يقول الجهال، لأن الجنون لا يتصف به عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وقرَّبه واصطفاه لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة.

فالمقسم عليه: نفْيُ الجنون عن النبي ﷺ كما قالوا فيما حكاه القرآن عنهم ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم:٥١] ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦].

وقد نفى الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ صراحة في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣٠٧)، والطبري (٢٣/١٤٠)، وأبوالشيخ في العظمة (٩٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٤)، والخطيب في تاريخه (٩/٥٩)، والضياء في المختارة (١٠/١٨) (٨).

(٢) الرافعي (٢/٤١٤).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس أيضاً.

وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور:٢٩].

ومن عجب أن يقولوا ذلك وقد كانوا يأتمنونه ﷺ على ودائعهم، ويحكّمونه فيما بينهم، ويشهدون له بالصدق والأمانة.

الأمر الثاني: ثبوت الأجر العظيم له ﷺ:

ولَمَّا ثبّت الله نبيه، ودفع عنه بُهتان أعدائه، أعقب ذلك ببيان إكرام الله له بسبب ما يلْقاه من أذى المشركين، أي وإن لك يا أيها الرسول على ما تلْقاه من شدائد على تبليغ الرسالة، لثواباً عظيماً غير منقوص ولا مقطوع، ولا ممتنّاً به عليك من أحد، أي أنه ثواب ليس فيه أذى ولا منّ، وهو عطاء دائم مستمر موصول وغير مقطوع، كما قال تعالى عن نعيم أهل الجنة ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨].

الأمر الثالث: تخلّقه ﷺ بخلُق القرآن:

ثم أثنى سبحانه وتعالى على نبيه بأطيب ثناء، ينفي تسفيه الأعداء له ﷺ مؤكّداً ذلك بثلاثة مؤكدات هي: إنّ ولام الابتداء، والجملة الاسمية، كما في الآية السابقة، فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا رسولنا ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ والخلُق هو طبع النفس وسجيتها في حب الخير، والعظيم هو عالي الشأن، رفيع القدر، البالغ نهاية الكمال، المحمود في طبع الإنسان.

والخلُق العظيم أرفع من الخلُق الحسن، والخلُق العظيم يبدأ من التوحيد والاستقامة، ويَمُرُّ بالحلْم والحياء، والعدل والصبر، والسخاء والتواضع، والزهد والشكر، والعفة والشجاعة، والوقار والعطف، والرأفة والرحمة، والشفقة، وحسن المعاملة والمعاشرة، وما إلى ذلك.

وجماع ذلك ما اشتمل عليه القرآن من مكارم الأخلاق، فقد كان امتثال القرآن عند النبي ﷺ سجية له يأتمر بأمره، وينتهي عما ينهى عنه.

والمعنى: إنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلُق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات.

وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذه طائفة من الأحاديث تفسر خُلُق النبي ﷺ بالإضافة إلى الآيات السابقة وأمثالها:

١- ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلُق النبي ﷺ قالت للسائل، وهو (سعد بن هشام): ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلُق رسول الله ﷺ كان القرآن[1].

٢- وقال أنس ﷺ: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي (أف) قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته؟ وكان أحسن الناس خلُقاً، قال: ولا مسستُ خزّاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كفّ رسول الله ﷺ ولا شممتُ مِسْكاً ولا عِطْراً، كان أطيب من عرَق رسول الله ﷺ[2].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما ضَرَب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما، حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه، إلا أن تُنتهك حُرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل**»[3].

٤- وعن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية،

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٢٤٥)، وصحيح مسلم برقم (٧٤٦)، وانظر: المسند (٦/٢١٦) (٢٥٣٠٣، ٢٥٨١٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وجاء مطولاً برقم (٢٥٣٤٧، ٢٤٢٦٩) والحاكم (٢/٤٩٩)، وابن أبي شيبة (١٤/٢١٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (١٩٧٣، ٢٧٦٨، ٣٥٦١، ٦٠٣٨)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٠)، وأخرجه أحمد برقم (١٣٤١٨، ١٣٤١٩) بنحوه وهو حديث صحيح، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٠٧٠)، والضياء في المختارة (١٨٣٤).

(٣) ينظر: المسند (٦/٢٣٢) برقم (٢٤٠٣٤) قال محققوه: حديث صحيح وأخرجه مسلم (٢٣٢٧)، والنسائي في الكبرى (٩١٦٥)، والترمذي في الشمائل (٣٤١)، والطبراني في الأوسط (٢٩٣٩)، وابن أبي شيبة (٩/٦٠).

فأدركه أعرابي، فجبذه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ وقد أثّرتْ بها حاشية البُرْد من شدة جبْذته، ثم قال: «**يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه النبي ﷺ وضحك، وأمر له بعطاء**»[1].

٥- وعن الأسود قال: سألتْ عائشة رضي الله عنها ما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيته؟ قالت: «**كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج يتوضأ ويخرج إلى الصلاة**»[2].

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخّاباً في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**»[3].

٧- وبلغ من خلُق النبي ﷺ أن زيد بن حارثة لما أُخذ أسيراً، وأهدتْه خديجة لخدمة رسول الله ﷺ وجاء أهله بالفداء يدفعونه للنبي ﷺ ويأخذونه، فقال ﷺ ادعوه واسألوه، فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، فقال زيد: والله لا أختار على صُحْبتك أحداً أبداً، فقال له أهله: ويحك، أتختار الرق على الحرية؟ قال: نعم، والله لقد صحبته ﷺ فلم يقل لي لشيء فعلتُه لم فعلتَه قط، ولا لشيء لم أفعله لِمَ لمْ تفعله قط، فرجع قومه، وبقي هو عند رسول الله ﷺ فأخذ بيده وأعلن تبنّيه له على ما كان معهوداً قبل البعثة، ثم أبطل الإسلام هذا التبني فيما بعد.

٨- وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «**البر: حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[4].

٩- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن**

---

(١) البخاري برقم (٣١٤٩،٥٨٠٩،٦٠٨٨)، ومسلم برقم (١٠٥٧).

(٢) صحيح مسلم (٧٢٤)، والمسند (٢٤٢٢٦،٢٠٤٩٤٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والبخاري (٦٧٦)، والطيالسي (١٥٨١)، والبغوي في شرح السنة (٣٦٧٨).

(٣) ابن أبي شيبة (٨/٣٣٠)، والترمذي (٢٠١٦)، وصحيح الترمذي (١٦٤٠)، ومسند أحمد (٢٥٤١٧) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه)، والطيالسي (١٥٢٠)، وله شاهد من حديث ابن عمرو في البخاري (٦٠٢٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٣).

ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[1].

١٠- وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى يُبغض الفاحش البذيء»[2].

١١- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً»[3].

١٢- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: خياركم أحاسنكم أخلاقاً»[4].

١٣- وفي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[5].

١٤- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[6].

١٥- وقال ﷺ: فيما يرويه أبومسعود الأنصاري ﷺ «إن مما أدرك الناس من كلام

---

(١) سنن أبي داوود (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠)، والحاكم (١/٦٠)، والمسند (٢٤٣٥٥،٢٥٥٣٧)، قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه الحاكم (١/ ٦٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧٩٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٢٠٠٢)، وصحيح سنن الترمذي (١٦٢٨)، وأبوداود (٤٧٩٩)، والبزار (١٩٧٥)، كشف، وابن حبان (٤٨١)، وابن أبي شيبة (٨/٣٢٣).

(٣) سنن الترمذي (٢٠١٨) وهو حديث صحيح كما في صحيح سنن الترمذي (١٦٤٢).

(٤) البخاري برقم (٣٥٥٩،٦٠٣٥)، ومسلم برقم (٢٣٢١)، والترمذي (١٩٧٥)، وابن أبي شيبة (٨/٣٢٦).

(٥) المسند (٢١٣٥٤،٢١٤٠٣)، والترمذي (١٩٨٨) وقال: حديث حسن، والحاكم (١/٥٤) قال محققو المسند: حسن لغيره.

(٦) المسند (٢/٣٨١) برقم (٨٩٥٢) قال محققوه: صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوى الحديث، وأخرجه المستدرك (٢/٦١٣) صححه الحاكم وافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥)، وقال ابن عبد البر: حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1].

والمؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار، وما من شيء أثقل في ميزان العبد من خلق حسن.

وهكذا: فقد كان النبي ﷺ هيّناً ليّناً سهلاً، قريباً من الناس، يجيب دعوة من دعاه، ويقضي حاجة من سأله، لا يرد سائلاً، يشاور أصحابه، ويعفو عن مسيئهم، ولا يعبس في وجه أحد، ولا يسيء إلى أحد، ولا يغلظ له في القول، ولهذا وصفه ربنا بأنه كان مستعلياً بخلقه.

الْمُسْتَقْبَلُ لِلإِسْلَامِ

٥-٧- ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِيِّكُمُ[2] الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

وبعد هذا الثناء الحسن من الله تعالى على رسوله ﷺ فإن الله تبارك وتعالى يُطمْئنُه على مستقبل الدعوة بانكشاف الباطل وثبات الحق، فبين سبحانه أنه عما قريب سترى أيها الرسول، ويرى مكذّبوك عند نزول العذاب، أنَّ أيّا منكما هو المفتون المجنون ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي سترى وتعلم، ويرى المكذبون والمشركون ويعلمون من المفتون الضال أنت أم هم ﴿بِأَيِيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أيُّ فريق منكم مصابٌ بالجنون، حتى يتميز الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] وكما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] والمفتون هو المجنون، وقد تبيّن أن النبي ﷺ هو أهدى الناس وأكملهم وأحسنهم خُلقاً، وأن أعداءه هم أضل الناس، وهم الذين فتنوا الناس وأضلوهم عن سبيله.

وممن وصف النبي ﷺ بالجنون: (الوليد بن المغيرة) و(أبوجهل) ومعظم السور قد

(١) البخاري (٣٤٨٣،٣٤٨٤،٦١٢٠)، والمسند (١٧٠٨٩، ١٧٠٩٠)، وعن حذيفة (٢٣٢٥٤).

(٢) قرأ الأصبهاني بتحقيق همزة ﴿بِأَيِيِّكُمُ﴾ وإبدالها ياء وصلا ووقفا، ومثله حمزة عند الوقف.

نزل في الرد عليهما، وكان المشركون يقولون: إن محمدا قد اختلط عقله من جرّاء مس الشيطان له بالجنون، فأخبر تعالى أنهم سيعلمون غداً من هو المصاب بالجنون؟ وفي هذا تعريض بأبي جهل والوليد، وكل من كان على شاكلتهما.

والذي أنبأك - يا رسولنا - بأن الحق سيتضح، ويظهر لكل ذي عيْن، هو رب العالمين، فهو الذي يعلم مَن هو على هدى، ومن هو على ضلال، فالمتصفون بالجنون هم الضالون ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ هو أعلم بالشقي المنحرف عن دين الله، وعن طريق الهُدَى وهو أعلم بالتقي المهتدي إلى دين الحق، وهذا تعليل لما قبله، لأن المجنون هو الذي له عقل لا ينتفع به، ولا يستعمله فيما ينجّيه ويُسْعده، ومادام الأمر كذلك فامض في طريقك - يا رسولنا - فإن العاقبة لك، وذَرْهم في طغيانهم يعمهون.

وفي الآية تهديد ووعيد لمن ضل عن سبيل الله، ووعد لمن اهتدى وسلك طريق الحق والاستقامة.

النَّهْيُ عَنْ قَبُولِ مُسَاوَمَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمُورِ الدِّينِ

٨، ٩ - ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والضلال الذي عليه المكذبون، يجعلهم لا يلينون للحق، بل يريدون أن يستميلوا الحق لجانبهم، وقد حذّر الله نبيه من الاستجابة لمقترحات المكذبين، وهو مثال يُحتذى في عدم طاعة غير المسلمين للتخلي عن شيء من مبادئهم وأخلاقهم في كل زمان ومكان.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بل اثبُت أيها الرسول، وأيها الداعية إلى الله على ما أنت عليه من مخالفة المكذبين لدعوتك، فإن هؤلاء ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا، فهم لا يريدون إلا الباطل، والمطيع لهم يضر نفسه.

فإنهم تَمنّوا وأحَبُّوا لو تُلاينهم وتُصانعهم بعض الشيء، فتترك بعض ما لا يرضوْنه مداراة لهم، فيفعلون هم مثل ذلك ﴿ وَدُّوا۟ ﴾ تمنوا ﴿ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ تجاملهم وتوافق أهواءهم بترك بعض دينك، وترْك ما أنت عليه من الحق، وتوافقهم على ما هم عليه بالقول أو

الفعل أو السكوت عما يتعين الكلام عنه ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فيميلون لك ويمالئونك، ويتركون بعض ما لا ترضى به، ولكن أصدع بأمر ربك ولا تخش في الله لومة لائم، وافعل ما أمرك به دينك.

والآية تشير إلى بعض المساومات التي عرضها ويعرضها غير المسلمين على بعض الناس وعلى دعاة الإسلام، وهم يريدون التدرج في الملاينة والمداهنة حتى يصلوا إلى تعطيل الدعوة، وقد قرر الله ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة:١٠٩].

وقال جل شأنه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون:١-٣] **وهذه أمثلة من طلب المخالفين في الدين بعض المداهنات:**

١- ومن تلك المساومات ما ذكره ابن إسحاق وابن هشام في السيرة، أن زعماء قريش قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، هلُمّ، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما تعبد خيراً مما نعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فنزلت سورة الكافرون.

٢- ومن ذلك أن زعماء قريش ذهبوا إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تَكُفّه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه، فردّهم رداً جميلاً، ثم جاؤوا إليه مرة أخرى وقالوا له: يا أباطالب: إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة، وإنا والله لا نصبر على شتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين، فبعث أبو طالب للنبي ﷺ وذكرَ له ما حدث، ثم قال له: فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أطيق، فقال ﷺ: «**والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته**» فلما ولّى، ناداه أبو طالب وقال

له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسْلِمك لشيء أبداً.

٣- ومن ذلك أن زعماء قريش فوّضوا سيدهم (عتبة بن ربيعة) أن يَعْرِض على النبي ﷺ أمورا لعله يَقْبل بعضها، ويكُفّ عن دعوته، وكان ذلك بعد إسلام حمزة وتكاثُر المسلمين، فجاء عتبة إلى النبي ﷺ وقال له: اسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل بعضها.

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد، فقال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك.

وإن كنت تريد مُلْكاً، ملكّناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا - أي مساً من الجن - لا تستطيع رده، طلبنا لك الطب، وبذلنا لك من أموالنا حتى تبرأ.

فلما فرغ عتبة قرأ عليه النبي ﷺ صدْر سورة فصلت، فلما سمعها أنصت، وألقى بيده خلْف ظهره، فلما انتهى النبي ﷺ إلى السجدة سجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فلما رجع عتبة إلى أصحابه قالوا: لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به، ثم قال لهم: لقد سمعتُ قولا، والله ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكوننّ له شأن عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب فمُلْكه ملككم، وعزّه عزكم، فقالوا: سَحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي، فاصنعوا مابدا لكم.

وفي رواية أن النبي ﷺ لما بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:١٣] من سورة فصلت، قام عتبة مذعوراً، فوضع يده على فم النبي ﷺ وهو يقول: أنشدك الله والرحم يا محمد، مخافة أن يقع النذير.

والنبي ﷺ لم يساوم على دينه، حتى في أحرج المواقف العصيبة، في مكة وهو

محاصر هو وقومه في شعب أبي طالب، ولم يسكت ﷺ عن كلمة الحق لحظة واحدة.

سِتُّ آيَاتٍ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِيهَا تِسْعُ صِفَاتٍ لَهُ وَلأَمْثَالِه

١٠-١٢- ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

نزلت هذه الآيات الست في شأن كل من اتصف بشيء من الصفات التسع الموجودة فيها: من كل مكذب للقرآن ورسول الإسلام، فنهت الآية الأولى عن طاعة كل أحد كذب بالرسالة، وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: نزلت في الأخنس بن شريق، وقال آخرون: في الأسود بن عبد يغوث.

والآيات قد أفادت العموم والشمول بلفظ ﴿كُلَّ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾. ويدخل هؤلاء الثلاثة وكذا أبوجهل وأمثاله في الآيات دخولاً أولياً.

وقد نهى الله تعالى رسوله ﷺ ونهى كل مسلم عن طاعة الذين يكيدون للإسلام وأهله، ممن وُصِفوا بشيء من هذه الصفات التسع:

وأولها ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي كثير الحلف بالله تعالى كذباً، فاليمين على لسانه في الحق والباطل، وهو لا يبالي بالأيمان الفاجرة، وتعمُّد الكذب في وعوده وأخباره، مستهينا بعظمة الله تعالى، فيُكثِر من الحلف، ليداري كذبه، ويستجلب ثقة الناس به.

ثانيها: أنه ﴿مَّهِينٍ﴾ أي حقير ذليل، خسيس النفس، ناقص الهمة، لا يهمه إلا شهوات نفسه، ولا يحترم نفسه، وكثرة الحلف علامة مهانته، وعدم ثقته بنفسه، وعدم ثقة الناس فيه، ولو كان من أصحاب المال والجاه، فالمهانة صفة لصيقة به، ولو كان سلطانا أو طاغية جباراً.

ثالثها: أنه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ كثير العيب والطعن في أعراض الناس، بالغيبة والسخرية، فهو يهمز الناس ويستهزيء بهم ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم وفي غيبتهم بأكل لحومهم.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَٰبِ ﴾ [الحجرات:١١].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠].

رابعها: أنه ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ينقل الكلام بين بعض الناس على وجه الإفساد بينهم، بما يفسد القلوب، ويقطع الصلات، ويذهب بالمودّات، ويُلقى بينهم العداوة والبغضاء.

١ - قال حذيفة بن اليمان ﷺ: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قتات**»[1].

وفي لفظ آخر عن حذيفة أيضاً «**لا يدخل الجنة نمام**»[2].

٢ - وفي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخياركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله عز وجل**» ثم قال: «**ألا أخبركم بشراركم؟: المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت**»[3].

والذين يفتحون آذانهم للسماع، مشاركون للقائلين في الوزر، كما في الأثر (**المغتاب والمستمع شريكان في الإثم**).

٣ - وكان النبي ﷺ ينهي أصحابه أن ينقل إليه أحد من الناس ما يُغِيرُ صدره على غيره، وكان ﷺ يقول كما في حديث ابن مسعود ﷺ «**لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[4].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٠٥٦)، وفي الأدب المفرد، له (٣٢٢)، ومسلم (١٠٥، ١٧٠)، وأبوداود (٤٨٧١)، والترمذي (٢٠٢٦)، والمسند (٢٣٢٤٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٥٧٦٥).

(٢) المسند (٣٩١/٥) برقم (٢٣٣٢٥، ٢٣٤٥١) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٠٥)، والبزار في مسنده (٢٨٩٨)، والبيهقي في الشعب (١١١٠١) وغيرهم.

(٣) المسند (٤٥٩/٦) برقم (٢٧٥٩٩) وهو حديث حسن بشواهده، وفيه شهر بن حوشب ضعيف (محققوه)، وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨٠)، والبيهقي في الشعب (١١١٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وابن ماجة برقم (٤١١٩)، وقال البوصيري في الزوائد ٢٧٣/٣ هذا إسناد حسن.

(٤) من حديث طويل عن ابن مسعود في المسند (٣٧٥٩)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٧١)، وأبي داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٣، ٣٨٩٦)، وفي سنده مجهولان فهو ضعيف بهذا السياق (محققو المسند).

٤ - وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بعسيب - جريدة من النخل- فشقَّه باثنين، فغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[1].

فالنميمة خلق ذميم، يفسد بين الأفراد والجماعات، ويُقوِّض سلامة المجتمع.

خامسها: أنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي شديد المنع لكل ما هو خير، بخيل بالمال، ضنين به في وجوه البر، ويمنعه عمن تلزمه نفقته، ويمنعه في النفقات الواجبة والمستحبة والكفارات والزكوات ونحو ذلك، فهو يمنع الخير عن نفسه وعن غيره، وأهم الخير الذي يمنعه الكافر عن نفسه، هو الإيمان، فهو جماع الخير، كما يشمل من يمنع أهله وأبناءه وعشيرته من التوجه الديني.

سادسها: أنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ يتجاوز الحد في المحرمات والعدوان على الناس، فهو يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويصدهم عن الهدى، ويمنعهم من الإسلام وتعاليمه، فهو ظالم لنفسه ولغيره.

سابعها: أنه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام، والذنوب المتعلقة بحق الله تعالى، شديد في فُحشه وكفره، يُكثر من ارتكاب المعاصي، حتى لكأنها طَبع وخلُق فيه، قال تعالى في تتمة الأوصاف:

١٣-١٥- ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن[2] كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ

---

(١) البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢)، وأبوداود (٢٠)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٢٨/١)، وفي الكبرى (١١٥٤٩،٢٧)، وابن ماجة (٣٤٧)، والمسند (١٩٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن خزيمة (٥٦)، وابن حبان (٣١٢٨).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وحفص والكسائي وخلف بهمزة واحدة على الخبر في ﴿أَن كَانَ﴾ وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام، وهم ابن عامر وشعبة وحمزة وأبوجعفر ويعقوب وحقق الهمزتين شعبة وحمزة وروح، وسهل الثانية مع الإدخال: أبوجعفر وابن عامر بخلف عنه، وسهلها بدون إدخال رويس وهو الوجه الآخر لابن عامر.

أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

ثامنها: أنه ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ العتل هو الغليظ الجافي، شديد القسوة، شرس فظ الأخلاق، لا ينقاد للحق، وغالباً ما يكون كثير اللحم، أكولا شروباً، لا يميز بين الحلال والحرام، وهو لئيم في نفسه، سيء المعاملة لغيره.

قال أبو الدرداء ﷺ: العتُل: كل رحيب الجوف، وثيق الخلْق، أكول شروب، جموع للمال، منوع له.

ومعنى ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي أنه علاوة على ما عُدّد له من الأوصاف، فهو سيء الخِلقة، سيء المعاملة، شديد الخصومة.

عن حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جوّاظ مستكبر**»[1].

تاسعها: أنه ﴿زَنِيمٍ ﴾ أي ليس له أصل، قبيح الأخلاق، لا يُرجى منه خير ولا فلاح، وهو منسوب لغير أبيه، لصيق في قومه، لا نسب له فيهم، فقد تبناه الوليد ونسبه إليه بعد ثماني عشرة سنة من عمره، وكان لا يُعرف له أب.

وهو بينهم كأنه (زنمة) وهو الجلد المتدلي في حلْق الماعز أو الشاة، فهي علامة على الشر يُعرف بها الوليد.

وهذه خاتمة الصفات وأقبحها، قال نافع بن الأزرق: الزنيم: ولد الزنى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى الآية: هو رجل من قريش كانت له زَنَمة مثل زَنَمة الشاة يعرف بها[2].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٨،٦٠٧١،٦٦٥٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٣) والنسائي في الكبرى (١١٥٥١)، وأحمد في المسند (١٨٧٢٨،١٨٧٣٠،١٨٧٣٢) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والطيالسي (١٣٣٤)، وابن ماجة (٤١١٦)، وابن حبان (٥٦٧٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٧٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩١٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٥٢)، وأبونعيم في مستخرجه كما في فتح الباري (٦٦٣/٨) واللفظ له

وقال: هو الرجل يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها[١].

والزنمة شيء يُقطع من أُذن الشاة، ويترك معلَّقاً بها[٢].

قال المفسرون: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان دعيّاً في قريش وليس منهم، تبنّاه المغيرة بعد أن كان لا يُعرف له أب.

وقال ابن عباس: لا نعلم أحدا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فأُلحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذُم بذلك: لأن النطفة إذا خبُثتْ خبُث الولد.

ورد أن الآية لما نزلتْ جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيّ، أعْرفها، غير التاسع فيها، فإن لم تَصْدُقيني ضرَبْتُ عُنقكِ بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عِنّينا، فخفتُ على المال، فمكّنتُ راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنى، حتى نزلت هذه الآية[٣].

وكان الوليد بن المغيرة كثير المال، كثير الأبناء، وهو المعنيُّ في قوله تعالى:

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر:١١-١٣].

فهل لأن الوليد من أرباب الأموال والأولاد، كان إذا قرأ عليه أحد آيات القرآن، كذّب بها، وقال: ما هذه إلا خرافات وأباطيل السابقين؟ هذا معنى: ﴿ أَن كَانَ ﴾ أي من أجل أنه كان ﴿ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ تهكّم بالقرآن ونسبه إلى الخرافات والأساطير، وكان ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وما أشأم هذه النعمة إذا كانت استدراجاً لمن كذب بآيات الله، وسَخِر برسوله ﷺ.

والمعنى: لا تطع كل من اتصف بهذه الصفات أو بعضها، فطغى وتكبر عن الحق، ووصف القرآن بما لا يليق به، ولو كان ذا مال وبنين، فإن ماله وولده لن يغني عنه من الله شيئاً، لا تطعه، فإنه فضلاً عما اتصف به من صفات قبيحة، تراه إذا تتلى عليه آياتنا

---

(١) أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق (٢٢٩)، والحاكم (٢/٤٩٩).

(٢) النهاية لابن الأثير (٢/٣١٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري وابن كثير والنسفي وغيرهم للآية.

الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، والدالة على صدقك – أيها الرسول - فيما تبلِّغه عنَّا، كفر بها وكذَّبها ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل:٢٤] لا تطع كل كذاب كثير الحلف، خسيس النفس، معجباً بنفسه، معرضاً عن الحق، متكبراً على خلق الله، محتقراً للناس، كثير المعاصي، يطعن في الناس، فهو يغتابهم ويسعى بينهم بالفساد.

والآيات عامة في كل من اتصف بهذه الصفات.

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِكُلِّ مَنِ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِ الأَوْصَافُ سَالِفَةَ الذِّكْرِ

١٦ - ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

قال تعالى متوعدا للوليد ولأمثاله بالعذاب الشديد، والتشهير بين الناس في الدنيا والآخرة، بأن يجعل الله له علامة على أنفه بالخَطْم عليها، يُعرف بها بين الناس إلى موته، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر، وهذا في غاية الإذلال والإهانة، فإن العلامة الظاهرة في الوجه أشق شيء على النفس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: سنخطم أنفه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خُطم الوليد بالسيف يوم بدر[١].

والخطْمُ على الأنف غاية الذل والإهانة، لأن الأنف أعلى شيء في الوجه، والوجه أكرم موضع في الجسد.

وهذا وعيد أيضا بتشويه أنفه يوم القيامة، تشهيرًا له في الموقف، فضلاً عما ابتلاه الله به في نفسه وماله وأهله، من سوء وذل وصغار في يوم بدر.

وهذه الآيات قاصمة الظهر بالنسبة للوليد بن المغيرة وأمثاله إلى يوم القيامة، بتمزيق كيانهم، وهدم ما كانوا يفتخرون به من أمجاد زائفة.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/٢٩).

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ

١٧، ١٨ - ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولما بين سبحانه وتعالى أن سعة الرزق قد يكون سبباً للفتنة والغرور، فيُفْضِي إلى الاستخفاف بالدعوة، أو إهمال النظر في كُنهها ودلائلها، لَمَّا كان الأمر كذلك، بيّن سبحانه أن الثراء قد أوقع الناس من قديم في بطَر النعمة وإهمال الشكر، فجرّ ذلك عليهم شر العواقب .. ولذلك فقد ضرب الله مثلاً بحال أصحاب الجنة، لكل مكذب بالرسالة، كما ضرب جل شأنه المثل بقصة قارون، وبالقرية الآمنة التي كفرتْ بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف.

ولمَّا بعث الله محمداً ﷺ إلى هذه الأمة، فقابل بعضهم رسالته بالتكذيب والصدّ والمحاربة، ضرب الله لهم مثلاً بقوم أنعم عليهم بالخيرات والأرزاق، ولكنهم منعوا حق الله منها، فحرَمهم الله هذا الرزق بسبب معاصيهم، وهي قصة كانت معروفة لديهم.

وقد وقعت أحداث هذه القصة بعد رسالة عيسى عليه السلام بقليل، أي قبل أن تنتشر النصرانية في اليمن، لأن النصرانية لم تدخل اليمن إلا بعد دخول الأحباش إليها، وكان ذلك عام الفيل، وكانوا إخوة ثلاثة.

١ - قال قتادة: كانت الجنة لشيخ من بني إسرائيل، وكان يمسك قوت سنة، ويتصدق بالفضل، وكان بَنُوه يَنْهَونه عن الصدقة، فلما مات أبوهم غدَوْا عليها فقالوا: لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين[1].

٢ - وقال سعيد بن جبير: كانوا في قرية يقال لها: (ضَرَوانُ) على بعد ستة أميال من صنعاء باليمن.

وقد سميت باسم وادٍ يقع على طرف صنعاء، وهي من أحسن بقاع الله في الأرض

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣٠٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر (١٥/٦٣٧).

وأكثرها نخلاً وفاكهة، تقع شمال غرب صنعاء على بُعد ٢٦ كيلو من صنعاء[1].

وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم رجلاً صالحاً من أهل الكتاب، قد ترك لهم هذه الجنة، وكان قبل موته يدّخر لعياله قوت سنة، ويتصدق بما بقي على المساكين، فلما مات قال أبناؤه الثلاثة: إن أبانا كان رجلاً أحمقاً يترك للفقراء من ماله، ولو أنا منعناهم، لتوفر ذلك علينا.

وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة، فلمّا عزموا على ذلك، عاقبهم الله تعالى بنقيض قصْدهم، فأذهب رأس المال وربحه.

وذلك أن الأبناء الثلاثة كان بعضهم أشح من بعض، فاتفقوا على حرمان اليتامى والمساكين والأرامل، الذين كانوا يدخلون الحديقة مع أبيهم ليأخذوا ما تساقط من ثمارها، فذهبوا إلى الحديقة ليلاً، قبل ظهور الصبح ليقْطعُوا ثمارها قبل أن يراهم أحد، وأقسموا على ذلك ليلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تحالفوا عليه، لأن بعضهم كان مترددا في ذلك! ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ فذكّرهم بتقوى الله تعالى، وإعطاء حق المساكين، وحذّرهم من مغبة ذلك، ومَضَوْا في طريقهم إلى الحديقة، فلما وصلوا إليها وجدوها مسودة، قد احترقت، فعلموا أن ما أصابهم كان عقوبة لهم، فأنابوا إلى الله تعالى رجاء أن يعطيهم خيراً منها ..

وهذه القصة استغرقت من الآية السابعة عشرة في السورة إلى الآية الثانية والثلاثين منها.

ونمضي مع أول الآيات فيها:

لقد أمد الله أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، ويسّر لهم سبيل التجارة، برحلة الشتاء والصيف، فكان الرزق يأتيهم من كل جهة، فلما أكمل الله عليهم النعمة، بإرسال محمد ﷺ لِيُصِلح لهم أحوالهم ويهديهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، أعرضوا عنه ولم يلتفتوا لدعوته، فابتلاهم الله كما ابتلى أصحاب الجنة.

---

(١) ينظر: معجم البلدان (٣/ ٤٥٦)، وأطلس القرآن (١٥٢).

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي إنا بلونا المكذبين بك – أيها الرسول – بالخير والنعم وأمهلناهم، وأمددناهم بالمال والولد، لا لكرامتهم على الله، ولكنه استدراج لهم، فاغتروا بذلك، كما اغتر أصحاب الحديقة المثمرة قبلهم، حين أينعت وآتت أُكلها، ولما جاء وقت حصادها منعوا حق الله فيها، فعاقبهم الله بأن جعلها حصيداً كان لم تكن بالأمس.

وهكذا: فقد اختبرنا المشركين في مكة – وقت التنزيل - بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف، وهكذا نبتلي أمثالهم في كل عصر ومصر، بسبب كفرهم بنعمتنا، وتكذيبهم لرسولنا.

ولقد ابتلينا من قبل أصحاب الحديقة التي دمّرناها تدميراً بسبب بُخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها.

وقصة أهل الجنة كانت معروفة لأهل مكة، وكان هذا الابتلاء وقت أن حلف الأبناء الثلاثة، أن يقطعوا ثمار حديقتهم في الصباح الباكر قبل أن يراهم أحد، حتى لا يُطْعِمُوا منها أحداً، وهذا معنى ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أي يقطعون ثمارها ﴿مُصْبِحِينَ ﴾ أي في الصباح الباكر، قبل أن يشعر بهم المساكين وفق ما اعتادوه أيام أبيهم.

لقد عزموا على أن يمنعوا زكاة الثمار، ولا يعطوا أحداً من المساكين، وحين عقدوا النية لم يقولوا إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف:٢٣،٢٤] قال تعالى:

١٩، ٢٠ – ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم بين الله تعالى ما ترتب على عزمهم من حرمان المساكين حق الله تعالى في ثمارهم، فقال: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي أنزل الله عليها ناراً أحرقتها ليلاً فأبادتها وأتلفتها ولم يبق منها شيء ينفع، وكان ذلك ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أي قبل أن يصلوا إليها في الموعد المتفق عليه فيما بينهم، والطائف يكون ليلاً، ويكون في الشر.

قال الكلبي: أرسل الله عليهم ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون.

وأصبحت الحديقة محترقة سوداء كالليل المظلم، والزرع المحصود، ليس فيها شيء ينفع، فقد ذهبت ثمارها وأشجارها وهم لا يشعرون، وقد تم ذلك ليلاً قبل أن يخرج

أهل الحديقة لقطع ثمارها. قال تعالى:

٢١، ٢٢ - ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ[1] اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وفي الصباح الباكر نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى البستان وفق خطتهم، وحرّض كل منهم الآخر على الغُدُوّ إلى حديقتهم مبكرين، قائلين لهم: اذهبوا مبكّرين إلى زرعكم إن كنتم مصرين على قطع الثمار، قبل أن يشعر بكم فقراء الحي. قال تعالى:

٢٣، ٢٤ - ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي فخرجوا من بيوتهم واندفعوا مسرعين متوجهين نحو الحديقة، وهم يتحدثون سراً يتكلمون بصوت خافت حتى لا يسمعهم المساكين، أما الكلام الذي كانوا يتسارّون به فهو قولهم: لا تمكِّنوا أحداً من المساكين اليوم من دخول حديقتكم، فتواصَوْا فيما بينهم بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة بخلهم وحرصهم أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة أن يسمعهم أحد. قال تعالى:

٢٥ - ٢٧ - ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي وساروا إلى حديقتهم في الصباح الباكر، مضمرين قصدهم السيء في منع المساكين من أخذ شيء من ثمار الحديقة، وظنوا أنهم متمكنين غاية التمكن من تنفيذ زعمهم ﴿وَغَدَوْا﴾ أي خرجوا من بيوتهم في أول النهار بسرعة ونشاط ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي على جدّ من أمرهم، قاصدين منع المحتاجين حق الله منها، وهم يزعمون أنهم ﴿قَادِرِينَ﴾ على جنْي ثمارها، لا يحول بينهم وبينها أحد.

والحرد في الأصل هو الغضب والحِنْق، وكأن المعنى يقول: إنهم غَدْوا لا قدرة لهم إلا على الحِنْق والغضب على المساكين ومنعهم أن لا يقتحموا عليهم بساتينهم، فاحتالوا على ذلك بكتم سرهم، والتبكير إلى تنفيذ قصدهم.

فلما وصلوا إلى حديقتهم وجدوها محترقة فأنكروها، وقال بعضهم لبعض: لقد

---

(١) قرأ أبوعمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر نون ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ وصلا والباقون بضمها.

أخطأنا الطريق، فهذه ليست حديقتنا، لقد فقدنا مكان الحديقة وغاب عنا، ثم اتضح لهم أنها هي، وأنه قد أصابها من عقاب الله تعالى ما أذهب خيرها فضاعت معالمها.

ثم رجعوا إلى أنفسهم فندموا، وألقى بعضهم باللائمة على بعض، فأدركوا أن ما أصاب الحديقة كان بسبب عدم شكرهم للنعمة، وعزْمهم على منع حق الفقير منها، فقال بعضهم لبعض: لقد حُرمنا خير الحديقة، لأننا أردنا حرمان الفقير من ثمارها.

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

ومن لم يشكر نعم الله تعالى فقد عرّضها للزوال، ومَنْ شكَرها فقد قيّدها بعقالها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بعدم شكر النعمة ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

وتمضي الأحداث في سرد أحداث القصة، فيقول تعالى:

٢٨-٢٩- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهنا انبرى أحد الأخوة الثلاثة للحق، وهو أفضلهم وأقربهم إلى الخير ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدلهم وأعقلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلاً كنتم تنزهون الله عما لا يليق به، ولا تعتقدون أن لكم قدرة مستقلة على جنى ثمار الحديقة، فهلاّ كنتم تستثنون وتقولون ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عند عزمكم على جنْي الثمار، وهلاّ تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خُبث نيتكم.

وكان أوسطهم هذا قد قال لهم حين عزموا على قطع ثمار الحديقة: اتقوا الله وخافوا عقابه وارجعوا عن عزمكم، فعصوه، فذكّرهم في هذا الموقف بما قال لهم بالأمس.

قال أبوحيان: نبّههم ووبخهم على تركهم ما حضّهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله تعالى، وذكروا إحسانه إليهم، لا امتثلوا ما أُمروا به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله، وعزموا على منع المساكين، ابتلاهم[1].

---

(١) البحر المحيط (٨/٣١٣).

ثم إنهم اشتغلوا بالتوبة، ولكن بعد خراب البصرة، وبعد أن اعترفوا بظلمهم وجرمهم ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ أي قالوا بعد أن عادوا إلى رشدهم: تنزَّه ربنا عن الظلم فيما أصابنا، نحن كنا الظالمين لأنفسنا بترك تقديم المشيئة، وبالعزم على حرمان المساكين.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ لأنفسنا وظالمين لغيرنا بمنعهم حق الله تعالى.

وعندئذ أخذ بعضهم يُلقي باللوم على الآخر:

٣٠، ٣١- ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ ﴾

أي أخذ بعضهم يلوم بعضاً على حرمانهم حق المسكين، وعلى تَرْكِهم تفويض الأمر إلى الله تعالى، وعلى سوء نيتهم وعزمهم، فيقول أحدهم: أنت أَشَرْتَ بهذا.

ويقول آخر: أنت خوفتنا الفقر ورغّبتنا في جمع المال وهكذا.

ثم اعترفوا جميعا بعد أن لام كل منهم الآخر، ف ﴿ قَالُوا۟ ﴾ جميعاً ﴿يَٰوَيْلَنَآ ﴾ يا حسرتنا ويا هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ متجاوزين الحد، خارجين عن أمر ربنا، عندما تركْنا سُنة أبينا، ولم نعتمد على ربنا.

٣٢- ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا[1] خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ ﴾

ثم إنهم تابوا ورجعوا إلى أنفسهم مرة أخرى، فقالوا بعد أن اعترفوا أنهم قد تجاوزوا الحد، وخرجوا عن طاعة ربهم: لعل الله أن يعطينا أفضل من حديقتنا بسبب توبتنا واعترافنا بخطئنا.

قال ابن مسعود ﷺ: بلغني أن القوم أخلصوا، وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم بها جنة أخرى يقال لها: (الحيوان) فيها عنب، يحمل البغل منه عنقوداً[2].

وعن أبي خالد اليماني قال: دخلت تلك الجنة، فرأيت كل عنقود منها كالرجل

---

(١) قرأ نافع وأبوعمرو وأبوجعفر بفتح الباء وتشديد الدال من ﴿يُبَدِّلَنَا ﴾ مضارع بدل، والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال، مضارع أبدل.

(٢) تفسير الخازن (٢٩٧/٤) والنسفي بحاشيته.

الأسود القائم[١].

وكان من تتمة كلامهم ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي طالبون منه الخير، راجون منه العفو والغفران، فهم رجوا ربهم أن يُبدلهم خيراً منها، وأَعدُّوا أنفسهم بأنهم سيرغبون إلى ربهم، ويُلحّون عليه وهم في الدنيا، قيل: إنهم وَفّوا بما وَعدُوا، وأن الله تعالى أبدلهم في الدنيا خيراً منها. وكل من دعا الله صادقاً ورغب فيما عنده ورجاه، أعطاه الله سؤله.

وفي هذه القصة بيان أن مصير مال البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضنّ ببعض ماله، فيهلك كله، مصحوباً بغضب الله تعالى، وفيها أن الله تعالى يؤاخذ الإنسان بما يعزم عليه، لأن هؤلاء القوم عزموا على أن يفعلوا وعاقبهم الله قبل فعلهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

وفي الحديث عن أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**»[٢].

وقد عوقب المقتول بالنار لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه.

العِبْرَةُ المُسْتَفَادَةُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الجَنَّةِ

٣٣- ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أي وبمثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهلَ الحديقة، يكون عقابنا في الدنيا لكل من خالف أمر الله تعالى، وبخل بما آتاه الله تعالى من النعم، وهذا معنى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي ومثْل ذلك العذاب الدنيوي يحصل لكل من كان كأصحاب الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

فكل من أتى بأسباب العذاب، فإن الله تعالى يسلبه هذه النعمة التي كانت سبباً في طغيانه وبغيه وإيثار الدنيا على الآخرة.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩/٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٨)، وصحيح البخاري (٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣).

أما عذاب الآخرة فهو أشد وأعظم من عذاب الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

ولما كان المكذبون ينكرون عذاب الآخرة هدّدهم الله تعالى بعذاب الدنيا.

ثم بين سبحانه أن عذاب الآخرة أكبر ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يؤمنون.

وهؤلاء المكذبون هم الذين ضرب الله لهم المثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ وبلَوْنا مِثْلَهم؛ مِنْ كل مَنْ جحد وحدانية الله تعالى، وكذّب خاتم رسل الله، ولو أنهم كانوا يعلمون أن عذاب الآخرة حق، لانزجروا عن كل سبب يوجب عقاب الله سبحانه.

أما أصحاب الجنة فكانوا يؤمنون بأن عذاب الآخرة حق، فهم قد قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ولاموا أنفسهم، ورجعوا إلى الله تائبين وسألوه أن يبدلهم خيراً من جنتهم.

كَرَامَةُ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

٣٤- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

ولما فرغ سبحانه من تشبيه حال الكفار بحال أصحاب الجنة في الابتلاء، وبيّن سوءَ عاقبتهم، ذكر حال المتقين المقابلة لهم في العاقبة، من باب تقابل النقيضين فقال تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي إن الذين اتقوا عقاب الله، فتركوا الكفر والمعاصي، وخافوا لقاءه، بفعل ما أمرهم به، وترْك ما نهاهم عنه، لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الدار الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ليس فيها كدّ ولا نَصَب، بل هي نعيم خالص بدون تكاليف ولا متاعب، كالشوك الذي يكون في الورد، أو الحَرّ الذي يكون في بعض الأوقات، فالنعيم ملازم للجنة لا يفارقها، وليست كبساتين الدنيا، تارة تثمر أشجارها وتارة لا تثمر، وتارة تكون الثمرة سليمة، وتارة تكون معطوبة ..

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ عَلَى نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُجْرِمِ

٣٥، ٣٦- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ولما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن الله فضّلنا عليكم في الدنيا، فلابد أن يفضّلنا

عليكم في الآخرة، فسعيد الدنيا سعيد الآخرة - على حد زعمهم - فإن لم نُفضَّل عليكم، فلا أقل من المساواة، فنزل قوله تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي أفنجعل الخاضعين لله بالطاعة، المخلصين له، كالمجرمين؟ فحكمة الله تعالى تقضي ألا يجعل القانتين لربهم، المنقادين له المتبعين لمرضاته، كالمجرمين العاصين لله، الكافرين بآياته، المعاندين لرسله، المحاربين لأوليائه، فمن ظن التسوية بينهما في الثواب والعقاب فقد حكم حُكماً جائراً فيه فساد وبُطلان.

وقد نفى سبحانه التسوية بين المؤمن والمجرم، لأن التسوية بينهم ظلم.

ثم نفى سبحانه أن تحدُث هذه التسوية **بأربعة أدلة** وهي:

أن يكون لديهم دليل عقلي، أو نقلي، أو عهد، أو وعد بذلك، أو يكون لهم شركاء في الرأي، وبمعنى آخر: ألهم آلهة غير الله تعالى تكفلَّتْ لهم بهذه التسوية، **وهذه الأدلة هي:**

أولاً: الدليل العقلي: أنَّ المسلم والكافر لا يستويان، وكيف يحدث هذا، إنه أمر مستبعد، إذ كيف تكون المساواة بين الأخيار والأشرار، والأطهار والفجار، ومن أخلصوا لله عبادتهم وكفروا به ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كيف حكمتم هذا الحكم الجائر، فساويتم بينهم في الثواب والجزاء؟ هذا جهل فاضح.

ثانياً: الدَّليلُ النَّقْليُّ

٣٧، ٣٨- ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ[(١)] ﴿٣٨﴾﴾

وبعد أن وبخهم الله تعالى على جَهلهم في الآية السابقة، وبّخهم في هذه الآية على كذبهم، فقرَّرهم: ألكم كتاب منزل من عند الله تعالى، تجدون فيه أن المطيع يستوي مع العاصي، فأنتم تقرؤون فيه ذلك، وتأخذون منه ما اخترتم من أحكام:

إنه لا يوجد كتاب سماوي ولا غير سماوي، لهم فيه مستند يوافقهم على التسوية بين

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلا من ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ مع إشباع المد للساكنين، والباقون بالتخفيف مع القصر وهو الوجه الآخر للبزي.

المتقين والمجرمين، وليس عندهم كتاب يدرسون فيه أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وما تخيروا، فأنتم تُصْدرون أحكاماً كاذبة ما أنزل الله بها من سلطان.

ثالثاً: نَفْيُ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ

٣٩، ٤٠ - ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) ﴾

وبعد أن أبطل سبحانه وتعالى أن يكون للمشركين حجة سماوية، تقول بالتسوية بين المسلمين والمجرمين، وبّخهم مرة أخرى أن يكون لهم عهود أو مواثيق أخذوها على الله تعالى، ومقتضاها: أنهم يحصُلُون على كل ما يطلبون وما يشتهون ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ ﴾ أي عهود ومواثيق مؤكدة، وأيمان بالغة إلى يوم القيامة، أي: وهذه العهود والأيمان بلغت أقصى مداها في التوكيد، وهي سارية المفعول ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بأننا قد سوّينا بين المسلمين والمجرمين في أحكامنا، إن كان لكم علينا شيء من هذه العهود والمواثيق فأظهروها، ومن حقكم أن تحكموا بها لأنفسكم ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به.

والمعنى: هل عندكم عهد موثق أخذتموه على الله تعالى لأنفسكم أن يعاملكم يوم القيامة بما تحكمون به لأنفسكم، وحيث لا يوجد شيء من هذا القبيل، فلا عهود لهم ولا مواثيق، فعلى أي شيء تستندون، وعن أي شيء تتكلمون؟ وهذا توبيخ وتقريع لهم لأنهم يتمنون الأماني الكاذبة.

ومن المعلوم أنهم ليست لهم عهود عند الله بما زعموه من أحكام، وإنما المقصود بيان كذبهم في أقوالهم وأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بجواب يثبتون به دعواهم.

فلما أنكر تعالى أن يكون لهم عهود، طلب منهم أن يُبيّنوا الكفيل الذي تكفّل لهم بأن للمجرمين في الآخرة مثل ما للمسلمين فقال تعالى: ﴿ سَلْهُمْ ﴾ أي سل يا أيها الرسول هؤلاء المكابرين على سبيل السخرية والتهكم ﴿ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أيٌّ منهم كفيل وضامن لِمَا يزعمونه؟

والزعيم: هو المتكلم عن القوم، الناطق بلسانهم، المتحمل للمسؤولية، الضامن بأن المجرم سيكون مثل المسلم في المصير عند الله يوم لقائه.

رابعاً: نَفْيُ الشُّرَكَاء

٤١ - ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ثم ألزمهم الله الحجة عن طريق آخر، فقال ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي ألهم آلهة وأعوان يساعدونهم على تحقيق ما طلبوا، ويكفلون لهم ما يقولون، أو لهم أُناس يوافقونهم على هذا الحكم الباطل ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ ليعينوهم على إدراك ما طلبوا ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم، وفي كل هذا تعجيز للكفار، فإن كان لهم أعوان وشركاء فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

والمتأمل في هذه الآيات يرى أن الله تعالى قد وبخهم باستفهامات سبعة وهي:

١ - ﴿ أَفَنَجْعَلُ ﴾ ٢ - ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ ٣ - ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ٤ - ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾.

٥ - ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ ٦ - ﴿ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ٧ - ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾.

قال الألوسي: وقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نَفْي جميع ما يمكن أن يتعلَّقوا به في تحقيق دعواهم، حيث نبه سبحانه على نفي الدليل العقلي بقوله ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وعلى نفي الدليل النقلي بقوله ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ وعلى نفي العهد والوعد بقوله ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ وعلى نفي التقليد بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾[1].

ومن المعلوم أن جميع ما ذُكر في الآية منتفٍ، فليس لهم كتاب، وليس لهم عند الله عهد بالنجاة، وليس لهم شركاء يساعدونهم، فعُلم أن دعوا هم باطلة فاسدة.

مِنْ عُقُوبَةِ تَارِكِ الصَّلَاةِ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

٤٢ - ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

(١) تفسير الألوسي (٢٩/٣٤).

ولما أبطل سبحانه مزاعم المكذبين المكابرين، أتبع ذلك ببيان أهوال القيامة وشدائدها، وبلوغ أحوالها منتهى الروْع والكرْب وشدة الحال، وصعوبة الخطْب والهول، فقال تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي أن يوم القيامة، يوم يشتد فيه الأمر، ويصعُب فيه الهول، وذلك حين يأتي الله تعالى لفصل القضاء بين الخلائق، فيكشف ربنا عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء[1].

وليس في هذا تجسيم وإنما هو إثبات لما أثبته الله لنفسه، مع نفى المماثلة والمشابهة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويكون في هذا اليوم من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يحيط به الوصف، ويكون فيه فصل القضاء بين العباد ومجازاتهم على أقوالهم وأعمالهم، ويرى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه.

وعندئذ يُطلب ممن كانوا لا يسجدون في الدنيا أن يسجدوا لله تعالى، فيسلُب منهم القدرة على السجود، حيث تيبس ظهورهم، وتكون طبَقاً واحداً فلا تطاوعهم ظهورهم في الانحناء ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ امتحاناً وابتلاءً، وليس على سبيل العبادة، لأن التكليف بالطاعات قد انتهى في الدنيا، وهذه الدعوة في ساحة الحشر والنشر، ليتميّز المؤمنون من غيرهم في الموقف، حيث يسجد كل مؤمن ومؤمنة، أما المنافق والكافر فيكون ظهره كصياصي البقر - أي قرونها - لا يقبل الانحناء، فتيبس أصلابهم ولا تلين للسجود، عقوبة وفضيحة لهم في عرصات القيامة، حيث لم يكونوا قد آمنوا في الدنيا، ولا سجدوا لله تعالى، وهذا الجزاء من جنس العمل، لامتناعهم من السجود في الدنيا، قال تعالى:

٤٣ - ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ثم وصف الله تعالى من استعصى عليه السجود يوم القيامة بقوله ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي

---

(١) التفسير الميسر نخبة من العلماء (ص ١٦٥) بتصرف.

أن أبصارهم تكون منكسرة ذليلة، لا يستطيعون رفعها من شدة الرهبة والذعر، والحال أنهم كانوا وهم في الدنيا - أصحاء الأجسام - يُطلب منهم أداء الصلاة فيمتنعون، فكافأهم الله بمثل ذلك في الموقف العظيم بعدم استطاعة الانحناء وأن ظهورهم تكون كصياصي البقر ﴿وَقَدْ كَانُواْ﴾ وهم في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي إلى الصلاة لله تعالى وعبادته، بالأذان والإقامة ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أصحاء قادرون، فلا يسجدون تعاظُماً واستكباراً، ولهذا فإنه يُحال بينهم وبين السجود في الآخرة، ليزدادوا حسرة وندامة على ما فرَّطُوا في جنب الله تعالى، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله تعالى قد سخط عليهم وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.

جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ: «**فمن كان يعبد الله مخلصاً يخر ساجداً له، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد**»[1].

والذين يَدْعونهم إلى السجود، هم الملائكة الموكّلون بالمحشر، يدعونهم بأمر الله تعالى.

فالآية تبين حال الكفار والمنافقين حين كانوا يُدْعَوْنَ وهم في الدنيا إلى السجود وهم آمنون، فلا يُجيبون، وحينئذٍ يُدْعَوْن إليه في الآخرة وهم خائفون فلا يستطيعون، وأبصارهم خاشعة ذليلة، في مقابل حالهم في الدنيا ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

أما المؤمنون فإنهم يسجدون دون إعاقة، كما كانوا يسجدون في الدنيا طواعية واختياراً.

هذا: وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن لفظ (الساق) صفة من صفات الله تعالى، لأن اللفظ جاء منكرا للتفخيم والتعظيم، ولم يُضَف لله تعالى، كاليدين والوجه، وقد صح ذلك في حديث الشفاعة وفيه «**فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً**» وهذا الحديث يفسر الآية، فلا معدل عنه إلى تأويل السابق بالجدِّ والشدة ونحو ذلك.

ولذا: فقد وجب الإيمان بظاهر ما نطقتْ به الآية، وهو أن الله تعالى يكشف عن ساقه

---

(١) من تفسير القرطبي للآية عن قيس بن السكن.

يوم القيامة، كما وردت، ويوضع أمام لفظ الساق: القاعدة العامة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فنؤمن بها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه.

أما تأويلها بأنه تمثيل لشدة الحال وكشف الأهوال، فإنه يوجد فرق بين المكشوف والمكشوف عنه، فالساق مكشوف عنها، أما العذاب والأهوال فهي مكشوفة كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف:٥٠].

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [المؤمنون:٧٥].

وفي غزوة أحد قال أنس بن مالك ﷺ: انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمّرتان، أرى خدَم سوقهما، تنقلان القِرب على متونهما ثم تُفْرِغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها).

وكشْفُ الساق في مثل هذه الحالة يكون من شدة الهول والكرب.

والناس يوم القيامة تكون في هول وكرب، ما بعده هول ولا كرب.

وقد جاء كشف الساق في عدد من الأحاديث الصحيحة الصريحة منها:

١- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى مَنْ كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبَقاً واحداً**»[1].

٢- ومنها: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه خروج الدجال، ونزول عيسى، والريح الباردة التي لا تُبقي مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من خير إلا قبضتْه، وأن الساعة تقوم على شرار الناس، وأن أول من يسمع النفخ في الصور، رجل يلوط حوض إبله فيُصْعَق، ويُصعق الناس.

ثم يرسل الله مطراً فتنبت معه أجساد الناس، فينفخ في الصور مرة أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، ثم يُحشر الناس للحساب، قال: (فذاك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٩).

يُكشف عن ساق)[١].

٣- ومنها: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وهو حديث طويل وفيه: أن قوما سألوا النبي ﷺ: هل يرون ربهم يوم القيامة؟ فأخبرهم ﷺ بأنهم يرون ربهم رؤية الشمس وقت الظهيرة، ورؤية القمر ليلة البدر، كلاهما في وقتٍ صحوٍ ليس فيه سحاب، وإذا كان يوم القيامة، يؤذّن مؤذن أن تتْبع كل أمة ما كانت تَعبُد في الدنيا، فكل من عَبد غير الله تعالى يتساقط في النار، ولا يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بَر أو فاجر، وأهل الكتاب:

أما اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله فإنهم يحشرون إلى النار فيتساقطون فيها.

وأما النصارى فلهم نفس المصير، بعد أن يقال لكل منهما: ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد.

أما المؤمنون: فيأتيهم ربهم في صورة أدنى من الصورة التي رَأَوْهُ فيها، فيقول: أنا ربكم، فيُنْكِرُون، لاختلاف صورته تعالى عن الصورة التي رأوْها من قبل، فيقول سبحانه: هل بينكم وبين ربكم آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، **فيكشف عن ساق**، فلا يبقى مَنْ كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا منْ أذن له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظَهْرَه طبقةً واحدةً، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول سبحانه في صورته التي رأوْه فيها أول مرة.

ثم يُضرب الجسر على متْن جهنم، وتحل الشفاعة، وفي الجسر خطاطيف وكلاليب فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناجٍ مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم.

ثم يشفع المؤمنون لقوم في النار من إخوانهم في الدين، منهم من أخذتْه النار إلى نصف ساقَيْه، ومنهم من أخذتْه إلى ركبتيه، ثم يخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال دينار من خير، ثم من كان في قلبه مثقال نصف دينار من خير، ثم من كان في قلبه

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مثقال ذرة من خير، فيخرج خلق كثير.

وكان أبوسعيد يقول: إن لم تصدقوني فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠] فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط، فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة بها فيقولون: (هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يحل عليهم رضوانه فلا يسخط أبداً)[1].

١ - ويعبَّر في لغة العرب عن كشف الساق بشدة الكرب وعظيم الهول، ويُعبَّر به عن شدة الأمر وجدّه، وأشد ساعة يوم القيامة، وقد جاء ذلك عن ابن عباس[2].

٢ - كما أن العرب تقول إذا اشتد القتال وعظُم الأمر: كشفت الحرب عن ساق[3].

وقال الشاعر: قد قامت الحرب بنا على ساق.

٣ - وقال سعيد بن جبير: إن أقواما يزعمون أن الله يكشف عن ساقه، وإنما يكشف عن الأمر الشديد[4] قلت: وبهذا أخذ من فسّر الساق بشدة الكرب وعظيم الهول، ولكن حديث الشفاعة وغيره من الأحاديث السابقة فيها نص صريح صحيح.

إِمْهَالُ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ

٤٤، ٤٥ - ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

وبعد استيفاء الغرض من وعظ المكذبين بالله ورسوله، أعقبه بتسلية النبي ﷺ وطمأنته

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (١٨٣) من كتاب الإيمان وهو في البخاري بمعناه برقم (٧٤٣٧).

(٢) كما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٤٨،٧٤٩)، والحاكم (٢/٤٩٩).

(٣) البيهقي (٧٥١) الأسماء والصفات.

(٤) الدر المنثور (١٥/٦٤٧) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

بأن الله تعالى قد تكفل بالانتصاف له من المكذبين ونصْره عليهم، كأن الله تعالى يقول له: حسبك - يا محمد- أن تكل أمرهم إليّ، فأنا أعلم كيف أنتصف منهم، فلا تشغل نفسك بهم وتوكل على الله، وامض في طريق الدعوة ولا تعباً بِمُعارضِيك، فأنا أكفيك أمرهم، فإذا كان أحوال المكذبين المعاندين كما ذكرت: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾.

أي اتركني ومن يكذب بهذا القرآن الذي جئت به، ولا تشغل نفسك بهم، فإن عليّ حسابهم وجزاءهم، ونحن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نمدهم بالأموال والأولاد والنعم استدراجاً لهم، ثم نأخذهم بالعذاب على غفلة، فلا تستبطىء وقوع الانتقام منهم، فإنه أمر محقق لا محالة، وسوف يفاجئهم هذا الهلاك ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وسوف نمهلهم، ونطيل أعمارهم، ونمتّعهم بالحياة الرغيدة، ليزدادوا إثماً، ثم نأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ بأهل الكفر ﴿مَتِينٌ﴾ قوي وشديد، يبلغ بهم من الضرر والعذاب فوق كل مبلغ، وهذا الاستدراج من كيد الله لأعدائه ومكره بهم، جزاءً وفاقاً لسوء أعمالهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥،٥٦].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٧].

وفي حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»[1] [هود:١٠٢].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

قال الحسن البصري: كم من مستدرَج بالإحسان، وكم من مفتون بالثناء، وكم من مغرور بالستر عليه.

إِبْطَالُ مَعَاذِيرِ الْمُكَذِّبِينَ بِخَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ

٤٦، ٤٧ - ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم أبطل القرآن معاذير المكذبين وإعراضهم عن الاستجابة لدعوة النبي ﷺ بعد أن نفى وجود أيِّ حجة أو عهد لهم، أو أولياء ينصرونهم.

فهل عدم استجابتهم للإيمان، بسبب أن النبي ﷺ سألهم أجراً مادياً على تبليغ الرسالة، فهم بسبب هذا الغُرم المالي قد تحمَّلُوا حملاً ثقيلاً جعلهم يُعرضون عن دعوتك، فعجزوا عن أداء هذا الدين، وثبّطهم عن الإيمان بك وبرسالتك؟ بل إنك تعلّمهم وتدعوهم إلى الله لمصلحتهم وسعادتهم من غير أن تطلب من أموالهم مغرماً يثقل كاهلهم.

أم إنهم يستندون إلى شيء مِنْ علم الغيب الذي استأثر الله به، فقرؤوا فيه ونقلوا منه أن السعادة في ترك الإسلام، وأن ما هم فيه خير من الإيمان، وأنهم على حق، وأن لهم الأجر والمثوبة عند الله، فأصروا على الكفر والطغيان؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: أهم يطّلعون على ما سطّرناه في اللوح المحفوظ، فيكتبون عنه ما يحكُمون به لأنفسهم، وأنهم أفضل منزلة عند الله تعالى من أهل الإيمان بك؟

فليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب ذلك، وإنما حالهم حال الظالم المعاند، فلم يبق أمامك إلا الصبر.

الأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُعَارِضِينَ وَالنَّهْيُ عَنِ الْغَضَبِ مِنْهُمْ

٤٨ - ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ[1] مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

---

(١) سكن الهاء من ﴿وَهُوَ﴾ قالون وأبوعمرو والكسائي وأبوجعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

أي ومادام الأمر كذلك، وأنك لم تطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة، وهم لم يطَّلعوا على علم الله تعالى، فيحكموا لأنفسهم أنهم على حق، فامض - أيها الرسول- في تبليغ رسالة ربك، واصبر على أذاهم ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر - يا رسولنا - لِمَا حكَم به ربك وقضاه، وتحمَّل أذاهم، فإن الله تعالى سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، اصبر على أحكام الله القدرية وأحكامه الشرعية، فإن الأحكام القدرية تتطلب الصبر على أذاهم والرضا وعدم السخط، والأحكام الشرعية يجب تلقيها بالقبول والتسليم والانقياد.

ومن الصبر: إمهالهم، وتأخير نُصْرتك عليهم، واستمر في تبليغ الدعوة، فإن في ذلك رفع لدرجاتك، ولا يكن حالك كحال صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام وقت أن ناداه ربه وهو ممتلىء غضباً وغيظاً، لِمَا حدث من قومه وهو يتعجل نزول العذاب بهم.

وهذا معنى ﴿وَلَا تَكُن﴾ أي في السرعة والعجلة ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ﴾ أي وقت أن نادى ربه طالباً نزول العذاب بهم، لأنهم لم يؤمنوا ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ ممتلىء غمّاً وكرباً، وكان انحباسه في بطن الحوت، لأنه ذهب من قومه غاضباً وركب البحر، فثقلت السفينة على من فيها، فاقترعوا لتخفيف بعض ما فيها من الركاب، فخرج السهم على يونس، فالتقمه الحوت وهو ملام على فعله.

وكانت مؤاخذة يونس عليه السلام على ضجَرِه من تكذيب قومه له، وهم أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧،٨٨].

وقد خرج هذا الدعاء من يونس عليه السلام وهو في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، فخرجتْ هذه الدعوات تحفّ حول العرش، قالت الملائكة: يارب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال تعالى: أما تعرفون هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا يونس، قالوا: يارب، عبدك الذي لا يزال يُرفع له عمل صالح ودعوة

مجابة؟ قال: نعم، قالوا: أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتُنجّيه من البلاء؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء[1] قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣،١٤٤].

مِحْنَةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٤٩، ٥٠ - ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وكان يونس عليه السلام قد وقع في كرب لا يدري متى ينفرج، فتداركه لطف الله ورحمته، وأجاب الله دعاءه، وقذفه الحوت من بطنه بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولولا ذلك لطُرِح على ساحل البحر في الفضاء الواسع، الخالي من الأشجار والجبال من غير أن تظله شجرة اليقطين بظلها البارد، و﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فوفّقه للتوبة وقَبِلها منه ﴿ لَنُبِذَ ﴾ أي لقذفه الحوت من بطنه ميتاً أو حياً منبوذاً ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ في الأرض الفضاء المهلكة ولا يجد من يُسْعفه ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي مُلام ومؤاخذ على ما حدث منه، ولكن الله تعالى أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة من يقطين تُظِله وتُقيته وتَحْميه.

لقد اصطفى الله يونس عليه السلام مرة أخرى لرسالته، وجعله من عباده الصالحين الذين خلصت نياتهم وأقوالهم وأعمالهم لله تعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (رد الله إليه الوحي وشفّعه في قومه)[2].

فقبل الله توبته وأجاب دعاءه، وأعاد إليه الوحي، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون، ورفع العذاب عن قومه بعد أن رأوْهُ بأعينهم لَمّا آمنوا ورجعوا إلى الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس:٩٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٠١/٨).

(٢) التفسير الكبير (٩٩/٣٠) وفتح القدير في تفسير الآية.

وقد ختم الله الآية ببيان أن الله تعالى قد اجتبى يونس واصطفاه ونقّاه من كل كدر، وجعله ممن صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فاصبر – يا خاتم النبيين – لحكم ربك صبراً لا يدركه أحد من العالمين، فإن العاقبة للمتقين الصابرين.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: «إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه»[1].

نَفَاذُ الصَّبْرِ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ

٥١ – ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ[2] بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

وتُختم السورة ببيان ما تنطوي عليه نفوس المشركين والمكذبين نحو النبي ﷺ من الحقد والغيظ وإضمار الشر، عندما يسمعون القرآن، وذلك أنهم لمّا لم يجدوا في القرآن الذي يسمعونه مدخلا للطعن في الرسالة، توجّهوا بالطعن في النبي ﷺ فقالوا: إنه مجنون، ليصرفوا الناس عن الاستماع إليه، ويُفقدونهم الثقة فيما يقول: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي يصيبوك بأعينهم من حسدهم وغيظهم وحنقهم عليك ليُسقِطونك عن مكانك بنظرهم إليك عداوة وبُغضاً ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي حين سمعوا القرآن، حسداً منهم لك، وهذا هو منتهى ما قدروا عليه من الإيذاء الفعلي، والله حافظك وناصرك منهم، أما الإيذاء القولي منهم فقد وصفوا النبي ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو مجنون ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ ليصرفوا الناس عنه.

والزّلَق: هو الزلل وعدم التوازن الذي يحدُث للإنسان عندما تُلامس رجْلَه الأرض الملساء المبتلة، أو يكون بها طين أو زيت ونحو ذلك، وهذا يُفضي إلى السقوط.

والعيْن تُصيب الإنسان فتكون بمثابة السهم النافذ فيه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٤١٣، ٤٦٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣٧٦)، وفي المسند (١/ ٣٩٠) برقم (٢٢٩٨، ٢٦٥٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٦٢٤١)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٤١).

(٢) قرأ نافع وأبوجعفر بفتح الياء من ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ مضارع زلق، والباقون بضم الياء، مضارع أزلق.

وكان الكفار من شدة عداوتهم للنبي ﷺ يكادون يصْرَعُونه ويُهلكونه بأعينهم.

ومن هنا فقد فسره بعضهم بالحسد عن طريق النظر بالعين، ولولا وقاية الله تعالى وحمايته لنبيه لناله منهم شر، ومن الأحاديث المتعلقة بالحسد والعين وعلاجهما، ما رواه:

١- بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا رقية إلا من عين أو حُمَة**»[1].

وفي هذا مشروعية الرقية بالأدعية المشروعة من العين والحمة.

علاج الحسد:

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ولو كان شيء سابق القدر، سبقت العين، وإذا اغتسلتم فاغتسلوا**»[2].

فالقدر لا يسبقه شيء، والاغتسال يكون من الحاسد للمحسود، إن كان الحاسد معروفاً، فيكون في هذا شفاء المحسود بإذن الله تعالى.

٣- وجاء عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف، أن سهلاً كان رجلاً أبيضاً، حَسَن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة وهو يغتسل، فحسده، فذكروه للنبي ﷺ، وهو لا يرفع رأسه ولا يفيق، فأدركه النبي ﷺ صريعاً، فقال: «**من تتهمون به؟**» قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدْعُ له بالبركة**».

ثم دعا بماء، فأمر عامرًا أن يتوضأ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يَصُبّ عليه، وعن الزهري: وأُمر أن يُكفأ الإناء من خلفه[3].

٤- وأخرج النسائي وغيره عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: (خرجت أنا

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (٣٥١٣) وسنن الترمذي (٣٤٥/٤) برقم (٢٤٤٦)، والمسند (٢٤٤٨) من حديث طويل بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققوه)، وأخرجه البخاري عن أسيد بن زيد (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)، والبيهقي في الشعب (١١٦٣) وغيرهم.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨).

(٣) ينظر: سنن ابن ماجة برقم (٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٧٤٦٩،٧٥٧٠،٩٩٦٥) والمسند (٤٤٧/٣،٤٨٦) برقم (١٥٩٨٠) وهو حديث صحيح، وابن حبان (٦١٠٥)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٣٩).

وسهلُ بنُ حُنَيف، فوجدنا غديراً، وكان أحدنا يستحي أن يراه أحد، فاستتر مني، حتى إذا رأى أنه قد فعل، نزع جُبّة عليه، فدخل الماء، فنظرتُ إليه نظرة فأعجبني خَلْقُه، فأصبتُه بعين، فأخذته قعقعة، فدعَوْتُه، فلم يُجبْني، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرتُه الخبر، قال: (قُمْ بنا) فأتاه فرفع عن ساقه، كأني أنظر إلى بياضِ وَضَحِ ساقِه وهو يخوض الماء، فأتاه فقال: (اللهم أَذهِبْ حَرَّها ووصَبَها) ثم قال: (قُم) فقام، فقال رسول الله ﷺ: «**إذا رأى أحدكم من نفسه، أو ماله، أو أخيه، ما يُعجبُه، فلْيَدْعُ بالبركة**»[(١)].

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يؤمر العائن فيتوضأ، ويغسل منه المَعِين)[(٢)].

٦- وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزل المعوذتان أخذهما وترك ما سواهما[(٣)].

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين يقول: أُعيذُكُما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامّة، ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوذ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام[(٤)].

٨- وعن أبي سعيد ﷺ أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: (اشتكيتَ يا محمد؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أرقيك)[(٥)].

٩- وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ اشتكى، فأتاه جبريل وهو يُزعِذ فقال:

---

(١) سنن النسائي الكبرى (٧٤٦٩،٩٩٦٨)، والمسند (١٥٧٠٠) صحيح لغيره، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٧)، وابن ماجه (٣٥٠٦)، وأبو يعلى (٧١٩٥) وغيرهم.

(٢) أبوداود (٣٨٨٠).

(٣) ابن ماجة (٣٥١١)، والترمذي (٢٠٥٨)، وسنن النسائي (٢٧١/٨) عن أبي سعيد، والكبرى برقم (٧٨٠٤)، ومشكل الآثار للطحاوي (٢٩٠٢).

(٤) البخاري (٣٣٧١)، وأبوداود (٤٧٣٧)، والترمذي (٢٠٦٠)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠٨٤٤)، وابن ماجة (٣٥٢٥).

(٥) المسند (٥٦،٢٨/٣) برقم (١١٢٢٥،١١٥٣٤) إسناده صحيح على شرط مسلم، ومسلم (٢١٨٦)، والترمذي (٩٧٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٨٤٣)، وابن ماجة (٣٥٢٣)، وأبو يعلى (١٠٦٦).

(بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حسَد حاسد وعين، واسمُ الله يشفيك)[١].

١٠- وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن العين حق»[٢].

١١- وقالت أسماء بنت عميس للنبي ﷺ: إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»[٣].

١٢- وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «العين تُدخِل الرجل القبر، والجملَ القِدْرَ»[٤].

هذا: وقد يشتهر شخص أو أشخاص بالعين، ويعرف عنهم ذلك، وللوقاية منهم: فإن على المرء أن يُكبّر الله تعالى إذا رآهم، فإنهم لا يضرونه بمشيئة الله تعالى.

وممن اشتهر بالعين في وقت النبي ﷺ بنو أسد، فكانت الناقة أو البقرة تمر عليهم فلا تسْلَمُ منهم.

وكان رجلاً من العرب معروفاً بالعين، فسأله الكفار أن يصيب النبي ﷺ بالعين، فعصم الله نبيه منه وأنزل تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يُنْفِذُونك. وقيل يُصِيبُونك بعيونهم، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وقيل يَصْرعُونك، أو يصرفونك عما أنت عليه، والمعاني متقاربة.

قال الحس: دواء من أصابته العين أن تُقرأ عليه هذه الآية[٥].

---

(١) المسند (٢٢٧٦٠) قال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، وأخرجه الحاكم (٤/٤١٢) من طريق عبد الله بن أحمد عن أبيه بهذا الإسناد، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٤٧)، وابن حبان (٩٥٣)، وعبد بن حميد (١٨٧)، وابن ماجه (٣٥٢٧)، والبزار (٢٦٨٤) من طرق متعددة.

(٢) المسند (٢/٣١٨) برقم (١٥٧٠٠) عن عامر بن ربيعة، وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وهو عن عائشة في البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) وغيرهما، وأخرجه البخاري أيضاً في تاريخه (٣/٢٥١).

(٣) المسند (٦/٤٣٨)، والترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجة (٣٥١٠)، وسنن النسائي الكبرى (٧٥٣٧).

(٤) أبونعيم في الحلية (٧/٩٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٢٥٠).

(٥) ينظر: تفسير الخازن (٤/٣٠١).

هداية القرآن للعالم أجمع

٥٢- ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾

ثم أبطل الله تعالى قول من وصف النبي ﷺ بالجنون ليكذّب القرآن ويصل بهذا إلى أنه كلام مجنون، فبين تعالى أن هذا القرآن كتاب هداية وتذْكرة، ليس للعرب وحدهم، بل للعالم أجمع ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي شرف وموعظة وهداية وتذكير بالخير للبشرية أجمع، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن إلى الجنون؟

وكما بُدئت السورة بالثناء على القرآن، ختمت بالثناء على النبي ﷺ ليتناسق البدء والختام.

تم تفسير (**سورة القلم**) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ (٦٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحاقة) هي السورة التاسعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة والسبعون في ترتيب النزول.

وعدد آياتها إحدى وخمسون آية في المصحف البصري والدمشقي، واثنتان وخمسون آية في بقية المصاحف العثمانية.

وهي مئتان وست وخسون كلمة، وألف وأربعة وثلاثون حرفا، نزلت بعد (سورة الملك) وقبل (سورة المعارج)، وهي سورة مكية باتفاق، نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة.

وهذه السورة سميت (سورة الحاقة) من العهد النبوي، باسم أول كلمة فيها، وسماها الجعبري (الواعية) أخذا من قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الآية:١٢] وتسمى (سورة السلسلة) لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ [الآية:٣٢] فهذه ثلاثة أسماء لها.

وعن أبي برزة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ونحوها[١].

ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: خرجتُ يوماً بمكة، أَتعرَّضُ لرسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدتُه قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفْتُ خلْفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلْتُ أَعْجبُ من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، فقرأ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الآية:٤١] قلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآيتان:٤٢،٤٣] إلخ السور، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[٢].

---

(١) الطبراني كما في فتح الباري (٢/٢٥٢).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٢/١ (١٠٧) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعة، شريح ابن عبيد، لم يدْرك عمر. وأوره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٦٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

وقد أسلم عمر بعد الهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة سنة خمس، قبل الهجرة إلى المدينة[(١)].

مقاصد السورة:

١- وشأن (سورة الحاقة)، شأن السور المكية، في تثبيت العقيدة والإيمان من خلال الحديث عن اليوم الآخر وذكر مصارع الأمم المكذبة، وعقاب الله تعالى لها في الدنيا، قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، وجاء ذلك من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

٢- ثم تحدثت آيات السورة عن القيامة، وما يسبقها من خراب العالم، مع بيان حال السعداء والأشقياء، أو الناجين والهالكين، وذلك من الآية الثالثة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين.

٣- ثم تحدثت آيات السورة عن إثبات صدق الرسول الخاتم، وصدق كتابه المنزل عليه، وأنه ليس بِشعر ولا سحر ولا كهانة، وذلك من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة.

وهذه العناصر الثلاثة: التوحيد، والبعث، والوحي، هي مهمة السور المكية.

ولكن المحور الأساس الذي تهتم به السورة هو اليوم الآخر، وقد بدأت السورة بذكر أحد أسمائه وهو ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ثلاث مرات، وأتبعت ذلك بالإشارة إلى العقوبة الدنيوية التي لحقت بمن كذب بالبعث والنشور ليكون لنا فيهم عبرة وعظة فنؤمن باليوم الآخر ونتزود له بالإيمان والعمل.

فهي سورة رهيبة تهز الأعماق هزاً، وتُلْقي في النفس قوة إحساس بأن هذا الدين حازم وجازم، لا مجال للهزل فيه، وأن عقاب الله تعالى صارم لا يفلتُ منه مستحق له، حتى ولو كان سيد الخلق ﷺ فيما يخص أمانة التبليغ وصدق الوحي والرسالة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الآيات:٤٤-٤٧] وتُصور آيات السورة نهاية الكون المروِّعة، بالنفخ في الصور، فتعم

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي (٢٩/٢٨)، وتفسير التحرير والتنوير (٢٩/١١٠).

العالم العلوي والسفلي خراب ودمار، يتمثل في دكّ الأرض والجبال، وانشقاق السماء، وحفوف الملائكة بها.

ثم تُصور السورة مشهد الحساب، فالأبرار يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم ويطلبون من غيرهم قراءتها، والدنيا لا تسع فرحتهم وسعادتهم، والفجار يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، والحسرة تملأ قلوبهم، فلا المال نفعهم، ولا السلطة أو الجاه شفع لهم، وتتسابق الخزنة إلى تنفيذ القضاء الرهيب فيهم، وهو مشهد تنخلع له النفوس، ويرتعش له الحس والوجدان ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الآيات:٣٠-٣٣].

إنها مشاهد مروعة ومتعددة، فيها مشهد الناجي، ومشهد الهالك، مشهد الملائكة وحملة العرش، ومشهد الأرض وهي تدك، والسماء وهي تنشق، ومشهد العرض والحساب، فداوم - أيها الرسول ويا أيها المؤمن - على تسبيحك لله وحده واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

* * *

تَفسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ السَّاعَةِ حَدَثٌ هَائِلٌ

١-٣- ﴿ٱلۡحَآقَّةُ[1] ① مَا ٱلۡحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾.

الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة، سميت كذلك، لأنه اليوم الحق الذي يتحقق فيه وقوع البعث والحساب والجزاء، وتظهر فيه الحقائق، وما تخبئه الصدور، وهو يوم ثابت محقق الوقوع، يكون الناس فيه فريقان:

كما قال تعالى ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [غافر:٥٩].

ويوم القيامة يوصف بالوعد الحق، قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء:٩٧] فهو اليوم الذي يتحقق فيه الوعد والوعيد، والجزاء على الأعمال، كأن الله تعالى يقول: القيامة التي يخوض في شأنها الخائضون، هي التي يتحقق فيها الجزاء على الأعمال والأقوال كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٧٧] وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧،٨].

ومن أسماء القيامة: الغاشية والقارعة والواقعة والطامة والصاخة، والآزفة، والساعة.

ثم يتبع هذا اللفظ المفرد، وهو لفظ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: استفهام حافل بالتفخيم والتهويل والتعظيم، لهذا الحدث العظيم ﴿ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ ما القيامة الواقعة حقاً؟ ما صفتها؟ وما حالتها؟ إنها شيء مريع، وخطب فظيع.

---

(١) انفرد الكوفي بعد (الحاقة) آية، فيكون متروكاً لغيره.

لقد حصد الموت جميع الخلق، ولم يبق على ظهر الأرض أحد ممن عمّر هذه الحياة، كل الذين جاؤوا ذهبوا، وأغلبهم باغته الموت دون أن يستعدّ له، وأمام الجميع يوم واحد يلتقي فيه الأولون والآخرون، ويعرف كل منهم حقه فيما قدم وأخر.

ثم يزيد الله تعالى من شأن هذا التهويل، ببيان أن الناس يجهلون حال يوم القيامة، وأنها فوق حدود العلم والإدراك، وأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين، فيقول تعالى ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ إن لها شأناً عظيماً، وهولاً جسيماً، وقدراً كبيراً.

والمعني: أي شيء أعلمك - أيها المخاطب - وعرّفك حقيقة القيامة، وصوّر لك أهوالها وشدائدها؟ إنك لم تعاينها، ولم تر ما يحدث فيها، فإن أمرها لا يدركه أحد، وهي أعظم من أن يحيط بها مخلوق.

وكل موضع جاء فيه لفظ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ طُوِيَ عنّا علمه، وأعقبه بيان له كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ثم فسرها وبيّنها فقال ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ ثم وضحه وبينه في قوله ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢، ٣].

والآيات الثلاث ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ يعقبها سكوت، دون إجابة على السؤال، ليذهب القارىء والمستمع كل مذهب في أن القيامة أعظم من أن يحيط بها علم ولا إدراك، وهذا من الأساليب العربية التي تشوّق المخاطب للبحث عن الإجابة، وله نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣].

وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩].

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

عِقَابُ سِتَّةٍ مِنَ الأُمَمِ الغَابِرَةِ كَذَّبُوا بِقِيَامِ السَّاعَةِ

٤، ٥ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

وبعد أن عظّم القرآن أمر القيامة، وفخّم من شأنها، ذكر سبحانه بعض من كذّب بها،

وبيّن ما حل بهم بسبب هذا التكذيب، تذكيرا لمن هم على شاكلتهم إلى يوم الساعة، فذكر تعالى ستة أقوام هم: قوم عاد، وقوم ثمود، وفرعون، والأمم التي سبقته، وقوم لوط، وأصحاب المؤتفكة، ثم قوم نوح.

وجاء ذكْرهم في السورة على خلاف الترتيب التاريخي.

واكتفت السورة بذكر نوع العذاب الذي لحق بكل قوم من هذه الأقوام الستة، بصورة مجملة سريعة، مناسبة لسياق السورة، وآياتها وموضوعها.

وابتدأت الآيات بالتذكير بما حل بقوم ثمود وعاد، بسبب تكذيبهم للبعث والنشور ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ والقارعة مرادفة للفظ الحاقة، فهي من أسماء القيامة، وسميت كذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وتُصيب الناس بأهوالها، وتصيب الموجودات بالقرع، فهي تقرع الجبال وتخسف الأرض، وتطمس النجوم، وتكسف الشمس، وهكذا.

وكان الابتداء بقوم ثمود وعاد، من بين الأقوام المكذبين للبعث والحساب، لأنهما أشهر الأمم العربية المكذبة لرسل الله، وديارهما تُجاور مكة من الشمال والجنوب.

وثمود هم قوم صالح عليه السلام، سُمّوا باسم جدهم ثمود، والثَّمد هو الماء القليل، وكانت مساكنهم قليلة المياه، وديارهم تسمى الآن: مدائن صالح، في شمال المدينة المنورة، بالحجر، بين الحجاز والشام، وقد ذُكرت قصتهم في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، والقمر وغيرها.

وعاد هم قوم هود عليه السلام، سُمُّوا باسم جدّهم، ومساكنهم بالأحقاف، في جنوب الجزيرة، شمال حضرموت وشرق عمان. قال ابن عباس: إن هوداً أول من نطق العربية.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود، وكذبت قبيلة عاد، بالقارعة وهي القيامة التي تقرع القلوب وتزلزل النفوس.

أولاً: الاعتبار بما أصاب قوم ثمود:

أرسل الله نبيه صالحاً إلى قوم ثمود يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك، فقد كانوا يعبدون الأصنام، فردُّوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به عن يوم القيامة: وطلبوا منه

معجزة تدل على صدقه، فأيده الله بالمعجزة التي طلبوها وهي الناقة، ومع ذلك لم يصدقوه وعقروا الناقة، فأهلكم الله تعالى بعذاب استأصل شأفتهم، وقد ذكر سبحانه ما أصاب قوم ثمود من الهلاك فقال ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة، أو الصاعقة، أو الرجفة، وسُميت الطاغية: لأنها جاوزت الحد في شدتها فانصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجُثثهم:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧] .

٢ـ وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت:١٧] .

٣ ـ وقال جل شأنه عنهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] .

٤ ـ وقال سبحانه عنهم أيضا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر:٣١] .

وهكذا: فقد رجفت الأرض بهم، وصاح الملَك من فوقهم، فصُعقوا، كما قال تعالى:

٥ ـ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ [الذاريات:٤٣-٤٥] .

وفي فراغ الأرض منهم بعد هلاكهم، قال تعالى:

٦ ـ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل:٥٢] ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكذبوا رسولكم، فيصيبكم مثل ما أصابهم، واعتبروا بما حدث لغير كم تفوزوا وتفلحوا.

ثانياً: الاعتبارُ بمصارعِ قومِ عادٍ

٦- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.

أرسل الله إلى قوم عاد نبيّهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فقد كانوا يعبدون صنماً يقال له: (الهتار) فكذبوا نبيهم هوداً ولم يؤمنوا به، وكذبوا ما أخبرهم به من البعث والنشور، فأهلكم الله بالعقاب العاجل في الدنيا.

وسورة الحاقة تُبين ما لحق بقوم عاد من العذاب الدنْيوي، فقد أهلكهم الله بالريح

الباردة، شديدة الهبوب، فهي تحرق من شدة بزدها، وهي ريح الدّبور، كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نُصِرت بالصَّبا وأُهلكَتْ عاد بالدَّبور»(١).

والمعنى: ﴿وَأَمَّا﴾ قبيلة ﴿عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ لها صوت شديد قوى الهبوب أبلغ من صوت الرعد القاصف، وفيها برد شديد وهي ريح ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي قاسية شديدة العصف، تجاوزت كل حد في قوتها، وهي التي قال الله عنها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦].

وقال عنها أيضا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩-٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢].

ورد عن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم قالا: (إنه لم ينزل من السماء قطر ماء إلا بمكيال على يد ملَك، ولا هبت ريح إلا كذلك، إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخُزّان)(٢).

وسميت الريح عاتية لأنها عتت على الخزان، فاندفق منها شيء، لا يعلمون قدره، وكانت هذه الريح شديدة متتابعة وهو معنى حسوما، وكانت عقيم، لأنها لا تأتي بخير.

٧- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا(٣) فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾

وهذه الريح العقيم سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة مستمرة لا تنقطع ولا تهدأ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي قهرها وسلطها وذللها على قوم عاد ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ

---

(١) البخاري برقم (١٠٣٥، ٣٢٠٥، ٣٣٤٣)، ومسلم برقم (٩٠٠)، والمسند (٤٦١/٣ (٢٠١٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٤١)، وعبد بن حميد (٦٣٧) وغيرهم.

(٢) تفسير ابن عطية (٣٥٧/٥)، وتفسير الطبري (٣٢/٢٩)، وأبوالشيخ في العظمة (٨٦٠، ٨٧٢).

(٣) انفرد الحمصي بعد لفظ ﴿حُسُومًا﴾ آية، فيكون متروكاً عند غيره.

أَيَّامٍ﴾ غلّب الأيام على الليالي، لأنها أكثر عدداً، فالمدة ثمانية أيام ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة ليس بينها فصل، لا تفتُر ولا تنقطع، حتى أتتْ عليهم فاستأصلتْهم وقَطَعتْ دابرهم، فأفنتهم وأذهبتهم، وهي أيام نحس وشر وشؤم عليهم، لقد أهلكهم الله عن آخرهم.

فأنت ترى قوم عاد في تلك الليالي والأيام موتى في ديارهم ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ هلكى لا يتحركون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ شبههم بأصول النخل المتآكلة الجوفاء التي سقطت رؤوسها، فقد كانت الريح تَقْطع رؤوسهم، كما تُقْطع رؤوس النخل، فتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كجذع النخل الخاوي، التي قطعت رؤوسها.

٨- ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

إنه مشهد حاضر شاخص، لقد أصبحوا موتى في اليوم الثامن، ولم يبق منهم أحد ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ هل ترى أحداً من بقاياهم، أو تجد لهم أثراً؟ لقد أُهلكوا عن آخرهم، وهو استفهام بمعنى النفي.

ويصور الله تعالى هذا الهلاك في قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الريح ﴿عَارِضًا﴾ في الأفق ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

رود أن الريح بدأت صبح يوم الأربعاء لثمان بقين من شهر شوال وتمادت بهم إلى آخر الأربعاء التالي، تكملة الشهر.

ثالثاً ورابعاً: هلاك فرعون وقوم لوط

٩، ١٠ - ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ[1] وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ[2] بِٱلْخَاطِئَةِ[3] ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء من ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾ أي من عنده وهم أجناده وأهل طاعته، وقرأ الباقون بفتح القاف وسكون الباء، أي: من تقدمه من الأمم.

(٢) قرأ روش وأبو جعفر وقالون وأبو عمرو بخلْف عنهما، بإبدال همزة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ واو في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ياء في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف وأمال هاءها الكسائي عند الوقف، وكذا حمزة بخلف عنه.

أي: وكما جاءت هاتين القبيلتين (عاد وثمود) الطاغية والريح الصرصر، فأهلكوا بهما، لأنهم كذبوا رُسل الله، وهما من الأمم الطاغية العاتية، فقد جاء فرعون مصر، الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام، وأراه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ولكنه جحد وكفر ظلما وعلوا، فغشيه من اليم ما غشيه.

وجاء مِنْ قَبْلِ فرعون أمم مكذبة لرسل الله وهم كثيرون. وجاء أهل المؤتفكة وهم قوم لوط بفاحشة اللواط، فقلب الله قُراهم رأساً على عقب، وأتبعوا بحجارة من سجيل.

وقد بين الله سبحانه وتعالى النهاية السيئة لأقوام آخرين على وجه الإجمال، وهم أمم تقدمتْ على بعثة موسى عليه السلام، وأمم جاءت بعده، وأمة أرسل هو إليهم، وخُصّ اثنان بالتصريح من بين هؤلاء جميعاً وهما: قوم فرعون، والمؤتفكات.

والمراد بفرعون: فرعون الذي أرسل إليه موسى، وهو منفتاح الثاني، الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

وقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ الطاغية ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ من الأمم الكافرة التي سبقتْه، جاء هو وجنوده وحاشية وأهل طاعته، جاؤوا بالفعلة الخاطئة، فكذبوا موسى وأنكروا رسالته، وكان هذا سبب هلاكم وغرقهم. وكما كفر فرعون بموسى عليه السلام، فقد كفر أهل سَدُوم بنبيّ الله لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي قرى قوم لوط الخمس التي انقلبت ديارها، جاؤوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي جاؤوا بالفعلة الفاحشة المنكرة، فكان هلاكهم كما قال تعالى ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود:٨٢،٨٣] وكان ذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى، وتكذيبهم لنبي الله لوط عليه السلام، وإتيانهم فاحشة اللواط المنكرة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وهي الفعلة الخاطئة.

وقد عصى فرعون وقومه نبي الله موسى عليه السلام، كما عصى أهل المؤتفكة نبي الله لوطاً عليه السلام، وعصى قوم ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام، كما عصى قوم عاد

نبيهم هودا عليه السلام ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي عصت كل أمة منهم الرسول الذي أرسله الله إليهم ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[ق:١٤] فكان نتيجة هذا العصيان هو الهلاك والاستئصال ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي أخذهم الله أخذة بالغة الشدة، زائدة على عذاب غيرهم، لزيادة قبح خطيئتهم وفُحشها، وتكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، كما قال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] وهكذا كل رسول من رسل الله.

خامسًا: الاعتبارُ بمَشهَدِ الطُّوفَانِ

١١، ١٢- ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ[1] وَاعِيَةٌ﴾

ومن الأمم التي عصتْ رسلها، قوم نوح عليه السلام، فقد كذبوا رسولهم نوحاً فأهلكهم الله بالغرق.

وفي سورة الحاقة، يذكر القرآن مشهد الطوفان، ومصرع قوم نوح، وهم أول أمة كذبت رسولها، وأول أمة عبدت الأوثان من دون الله.

ومن خلال هذا المشهد، يمتنّ الله تعالى على جميع خلقه الذين تناسلوا من الفئة التي نجاها الله من الغرق، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي لما كثُر وعلا وارتفع فوق كل شيء في زمن الطوفان، أيام نوح عليه السلام، نجيناكم من الغرق حين حُمِلْتم في سفينة النجاة وأنتم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم، فاحمدوا الله على ذلك واشكروه، واعتبروا بآيات الله الدالة على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١، ١٢] .

وهكذا يمتن الله على الله مَنْ نجّاهم مع نبي الله نوح عليه السلام في السفينة الجارية.

وهذا معنى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا أصولكم، وهم آباؤكم وأنتم في أصلابهم، في السفينة التي تجري في الماء بأمر الله، وطغيان الماء كثرته، ونزوله بغير كيل ولا وزن.

---

(١) قرأ نافع بإسكان الذال من ﴿أُذُنٌ﴾ والباقون بضمها.

وقد فعلنا بكم ذلك لتعتبروا وتتعظوا بما جرى للكافرين، فإنهم لما كفروا أهلكهم الله بالطوفان، ولتذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من الغرق وأنتم في أصلاب آبائكم، فتشكروا فضل الله عليكم وتُفْردوه وحده بالعبادة، وهذا معنى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي لنجعل الواقعة التي كان فيها نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبرة وعظة ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي تحفظها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ تحفظ وتعقل عن الله ما سمعت، وتنتفع بما تسمع، فالضمير يعود على جنس السفينة لدلالة المعنى عليه، أي اذكروا قصة أول سفينة صنعت، كيف نجّى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم في أصلاب مَنْ هُلِكُوا، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢،١٣] .

وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] .

سادساً: الاعتبار بإهلاك الأقوام السابقين:

وفي هذا الذي سبق ذكره توبيخ لمن لم ينتفع بما يستمع من الموعظة والهدى، ولم يعتبر بما حدث للأمم المكذبة من أهل الإعراض والغفلة والأذن الواعية.

اذكروا أن فرعون هو الذي قال ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١].

فلما تطاول على الله تعالى، جعل هلاكه في الماء الذي ادّعى ملكه!

وقد دعا نوح قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولما أخبره ربه بأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفارا كآبائهم، لزم تطهير الأرض منهم بالطوفان.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي**» فقال علي: ما سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيتُه[1].

---

(١) أخرجه أبونعيم في المعرفة (١/١٠٥،٣٤٥)، وسعيد بن منصور كما في فتح الباري (١٣/٥٢٦)، والطبري (٢٣/٢٢٢)، وابن مردُويه كما في الدر المنثور (١٤/٦٦٨)، وهو حديث مرسل من طريق مكحول.

وأما قوم ثمود: فأُهلكوا بالصيحة الطاغية، لأنهم عقروا الناقة، وعَتَوْا عن أمر ربهم، وأما قوم عاد فهم الذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] واغتروا بحضارتهم ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٨].

ولما قلب قوم لوط الأوضاع، بإتيان الذكور دون الإناث، كان الجزاء من جنس العمل، بأن قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأتبعوا بحجارة من سجيل.

وهكذا لما جاء أبرهة بجيشه وعدده وعُدته، ومنها الفِيَلة، أقوى الحيوانات، سلّط الله عليهم أضعف المخلوقات، وهي الطيور الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

وفي كل هذا عبرة وعظة، لكل من جحد وحدانية الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ بأنه لن يفلت من عقاب الله تعالى له في الدنيا والآخرة.

خَرَابُ الْعَالَمِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٣، ١٥ - ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى العذاب العاجل في الدنيا لمن كذّب بيوم القيامة، أتبعه بذكر عقوبتهم في الآخرة، ولما بدأت السورة بذكر اليوم الذي يحق فيه وعد الله تعالى بالبعث والجزاء، وهو ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وذكرت ستة من الأقوام الذين كذبوا بالبعث والحساب، وما لحق بهم من العذاب الدنيوي، فرّع القرآن على ذلك ما ينتظرهم من العذاب الذي يحل بهم في الآخرة، ويبدأ هذا العذاب، بعد خراب الدنيا، وقيام الساعة، عندما ينفُخ إسرافيل في الصور، النفخة الأولى التي يكون عندها هلاك العالم ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، حين تعود الأرواح إلى الأجساد فإذا الناس قيام لرب العالمين.

والصور هو البوق أو القرن، الذي ينفخ فيه الملَك الموكل بالنفخ، عند أمر الله تعالى له كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

والنفخة المرادة هنا هي النفخة الثانية التي تكون للبعث والفزع من القبور.

وهذه النفخة الواحدة، تتأثر بها السموات والأرض والجبال، فتزول عن أماكنها، وتخرج بأمر الله عن مَداراتها المعتادة، فترتطم بالأجرام الأخرى في الفضاء، فتُحمل الأرض والجبال، كما تحمل الكرة بين اللاعبين، وتختلّ جاذبية الأرض التي جعلها الله لحفظ نظام العالم إلى أمَدٍ معلوم، ولله تعالى ملائكة كرام موكّلون باختلال نظام العالم عند قيام الساعة، ومن ذلك إذا رُفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فكُسّرتا ودُقّتا دقّة واحدة، وصارتا كثيبا مهيلا، وهباء منثورا .

وفي ذلك الحين تقوم القيامة، وتقع الواقعة، فتزول الأرض والجبال عن أماكنهما وتتفتت أجزاؤهما، وتنسف الجبال فتصير مع الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وعندئذ تقوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة:١، ٢] .

١٦ - ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾

وكما تُدك الأرض والجبال، فإن السماء تتصدع وتتشقق وتضطرب وتمور، ويتغير لونها ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انصدعت وانفتحت أبوابها بنزول من فيها من الملائكة ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية، لا تماسك فيها ولا صلابة، لقد كانت قبل ذلك صلْبة متماسكة، لا ترى فيها من فطور ولا صدوع ولا شقوق، فإذا هي أوْهَى من بيوت العنكبوت، بسبب الرتْق الذي لَحِق بها، لتكون مطروقة مسلوكة، وهذا كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٥، ٢٦] وعندئذ تكون السماوات مَسارات للملائكة، فتفتح أبوابها للصعود والنزول، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ:١٩] .

فتقوم الملائكة بإنزال أهل الجنة في الجنة، وسَوْق أهل النار إلى النار.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ: تَقِفُ الْمَلائِكَةُ عَلَى أَطْرَافِ الأَرْضِ وَتَحْمِلُ عَرْشَ الرَّحْمنِ

١٧ - ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾

وعندما تتشقق السماء، تقف الملائكة، على أركانها وأطرفها، خاضعة لربها، مستكينة لعظمنه لتحيط بها من كل جانب.

قال الضحاك: إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الله تعالى، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بها ومن عليها[١].

ذلكم قول الله تعالى ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي على أطرافها وجوانبها.

ورد أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا، فيقفون صفًّا واحدًا متراصًا على حافات الأرض، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيصُفّون خلْفهم، ثم يأمر ملائكة كل سماء كذلك، فكلما فرّ أحد من الجن والإنس، وجد الأرض قد أُحيط بها، فهذا تفسير الآية.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

وهو أيضاً تفسير لقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر:٣٢،٣٣].

وتفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣].

قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ثمانية صفوف من الملائكة العظام، في غاية القوة، ذلك عند الفصل بين العباد، والقضاء بعدل الله وقسطه وفضله.

قال ابن عباس: رضي الله عنهما هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله.

وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك[٢]. قيل ثمانية من الملائكة، وقيل ثمانية صفوف منهم.

ورد أن العرش يحمله اليوم أربعة من الملائكة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين[٣].

---

(١) زاد المسير (٣٥٠/٨)، وفتح القدير (٢٨٠/٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٣٥٩/٥) بتصرف يسير، وتفسير الطبري (٢٢٨/٢٣).

(٣) رواه الطبري من طريق ابن اسحاق عن ابن زيد الطبري (٢٢٩/٢٣).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُذن لي أن أحدث عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش، أنّ ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام»[1].

النَّاسُ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ[2] مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

وفي يوم القيامة يُعرض الناس على رب العالمين للسؤال والحساب والجزاء، دون أن يخفي منهم أحد، فالكل: مكشوف الجسد والنفس والضمير، مكشوف العمل والمصير، كل شيء في الكون بارز، فالجبال تُنسف، والأرض مستوية، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، والله تعالى لا تخفى عليه خافية في الدنيا والآخرة معاً.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الناس للحساب والجزاء ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أجسادكم ولا من أعمالكم ولا من أسراركم وأحوالكم، وكل ما كان خافياً على الخلائق في الدنيا، فإنه يظهر يوم القيامة، ومن ذلك من كان يُرائي بعمله وقوله، فإن الله تعالى يكشفه للجميع، ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وعندئذ يكون الحساب ثم الجزاء.

أَهْلُ الْيَمِينِ وَنَعِيمِهِمْ

١٩، ٢٠ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ[3] اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ[4] ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ[5]﴾

(١) أبوداود برقم: (٤٧٢٧) ورجال إسناده ثقات.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه، لأن الفاعل مؤنث مجازى ومفصول من الفعل.

(٣) وقف حمزة بالتسهيل في ﴿هَاؤُمُ﴾ مع المد والقصر، وهي مد متصل، وكل حسب مذهبه فيه.

(٤) قرأ ورش بنقل حركة همزة ﴿إِنِّي﴾ إلى الهاء قبلها في ﴿كِتَابِيَهْ﴾ بخلف عنه، حال وصل الآيتين ببعضهما، وحذف يعقوب هاءها وصلاً، وجميع القراء بإثباتها وقفاً.

(٥) قرأ يعقوب بحذف هاء ﴿حِسَابِيَهْ﴾ وصلاً، وإثباتها وقفاً، والباقون بإثباتها في الحالين.

وبعد العرض والحساب، يأتي مشهد الناجين والمعذبين، كأنه حاضر تراه العيون: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ﴾ أي أعطي ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ أي صحيفة عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وهو من السعداء الناجين، يعطون كتابهم بأيمانهم تمييزاً وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم ﴿فَيَقُولُ﴾ ابتهاجاً وسروراً ورغبة في أن يَظْهَرَ هذا لغيره، ليفرحوا له، ويقول لهم ﴿هَآؤُمُ﴾ أي خذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ الذي فيه نتيجة امتحاني، وفيه البشرى بالجنة ومغفرة الذنوب وستر العيوب، ويخص بذلك أقاربه وأصدقاءه وعشيرته، كالطالب الذي نجح في الامتحان، وأي امتحان؟! إنه الامتحان الأخير.

ثم علل الذي أخذ كتابه بيمينه، لفَرحه وبهجته، بأنه كان قد أيقن وهو في الدنيا بالبعث والحساب فقال: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أي علمت علماً يقينيًا قبل الموت ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي سألقَى هذا اليوم، وأُعطَى كتاب أعمالي وأُجازَى على ما قدمتْ يداي، ولذلك فقد أعددتُ العدة بالإيمان والعمل الصالح، وقد من الله عليّ بحسن العاقبة.

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك[1].

وقال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل[2].

وأصل الظن: علم لم يتحقق، أو علم مخلوط بشك، فهو علم غير متيقن، ويستعمل بمعنى اليقين مَجازاً.

وهذا الذي أخذ كتابه بيمينه، لا يناقَش الحساب يوم القيامة، لأن مناقشة الحساب تعني العذاب، وكان يتوقع أنه سيُناقش الحساب، فلما أخذ صحيفة عمله بيمينه، ملأت الفرحة جوانحه، فأخذ يهتف بلسانه ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب يوم القيامة فقد عذب» فقلت: أليس يقول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

(١، ٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢١٠).

﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق:٧-٩] فقال: «إن ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»[1].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما حين سئل عن النجوى: فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدني الله المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك، قال الله تعالى : إني سترتُها عليك في الدنيا، واليوم أغفرها لك، ثم يعطَى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»[2] [هود:١٨] .

وَصَاحِبُ الْيَمِينِ فِي نَعِيمٍ لاَ يَزُولُ وَلاَ يَحُولُ

٢١-٢٣- ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى: ما أعده في الدار الآخرة لمن نجا وفاز بالنعيم المقيم، وبين أنه يكون في حالة مُرضية من العيش، جامعة لما تشهيه الأنفس وتلذ الأعين ويكون في مأمنٍ مِن العقاب، فالحياة التي يحياها المؤمن في الجنة تكون في أكمل درجات الحبور والسرور، وهو من الفائزين برضى الله تعالى، والرضى عن معيشتهم.

وهذا الذي قد أخذ كتابه بيمينه يكون يوم القيامة ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المكان والقصور والمنازل والدرجات، لأن العلو، وجمال المناظر، مما يسرُّ النفس.

وأهل الجنة يعيشون فيها فلا يموتون أبداً، ويَصِحُّون فلا يَمْرَضُون أبداً، ويَنْعَمون فلا يرون بؤسا أبداً.

وهذه الجنة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أي أن ثمارها قريبة يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

وَيُقَالُ لِهَؤُلاَءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ

٢٤- ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾

---

(١) الحديث في البخاري (٤٩٣٩، ٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)، وعند الترمذي وأبي داود وغيرهما.

(٢) ينظر صحيح البخاري برقم (٤٤١، ٤٨٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٨).

بعيداً عن الأذى، سالمين من كل مكروه، بسبب ما قدمتم لأنفسكم من صالح الأعمال فيما مضى من أيام الدنيا، كلوا مما لذ وطاب، واشربوا شراباً شهياً خالياً من المكدِّرات والمنغِّصات.

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحداً الجنة عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**»[1].

وهذه النعيم والجزاء قد حصل للمؤمنين بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي قدَّموها لأنفسهم في الدنيا: كالصلاة والزكاة والصدقة والحج والذكر والإنابة، والإحسان إلى خلق الله، فهي سبب دخول الجنة، ومادة نعيمها وأصل سعادتها.

قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية، هي أيام فانية، تؤدي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا فيها خيرا إن استطعتم.

أَهْلُ الشِّمَالِ وَعَذَابِهِمْ

٢٥، ٢٦ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ[2] فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ[3] ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾

وبعد أن أخبر جل شأنه عن حال السعداء، ذكَر حال الأشقياء فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أي أُعطي صحيفة عمله بشماله من وراء ظهره، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:١٠-١٢] وذلك بأن تُلوى يده اليسرى خلف ظهره، وهذا دليل على عذابه وهلاكه، يؤتى كتاب أعماله بشماله تمييزاً له وخزياً وعاراً وفضيحة في الموقف العظيم ﴿فَيَقُولُ﴾ وهو في هَمٍّ وغَمٍ على نهايته الأليمة، نادماً متحسراً متفجعاً على مصيره ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي ياليتني لم أُعط هذا الكتاب بما

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٦٧) وهذا لفظه، وانظر (٦٤٦٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨١٨،٧٨٢).

(٢) عد المدني الأول والأخير والمكي لفظ (بشماله) آية، وتركه الشامي والبصري والكوفي.

(٣) قرأ يعقوب بحذف هاء ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ وصلاً وإثباتها وقفاً، والباقون بإثباتها في الحالين.

اشتمل عليه من قبائح أعمالي، وسوء مصيري، وفضيحتي على رؤوس الأشهاد.

وياليتني لم أعلم ما جزائي، ولم أعرف حسابي، فإني لم أحسن الاستعداد له، حتى كانت هذه النتيجة المؤلمة، ياليتني كنت نسيًا منسيًا، لم أبعث وأحاسب:

٢٧-٢٩- ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ[١] ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ[٢]﴾

أي يقول الكافر حين يأخذ كتاب عمله بشماله يوم القيامة ويرى مصيره المشؤوم: ياليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، ولم أُبعث بعدها، تمنى دوام الموت وعدم البعث لِمَا شاهده من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب.

قال قتادة: تمني الموت، ولم يكن عنده شيء في الدنيا أكره منه، وشر من الموت ما يُطلب منه الموت[٣].

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فوجدهما وبالاً عليه، لم يقدم منهما ما ينفعه في هذا الموقف العصيب، ولا يمكنه أن يفتدي بهما نفسه من عذاب الله، لذا أخذ يتحسر على ما فرّط فيه من الخير وهو في الدنيا، فلا شيء اليوم ينفعه، لا المال الذي جمعه، ولا السلطان، ولا الجاه الذي وصل إليه، ولا فصاحته وبلاغته التي كانت في الدنيا، كل ذلك ذهب سدى، فشهدتْ عليه الجوارح، ونطقت الأعضاء، وتحدّثت الأرض بما جرى فوق ترابها.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ أي لم تغن عني هذه الأموال التي كنت أملكها في الدنيا شيئا، ولم تنفعني في قليل ولا كثير.

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بحذف هاء ﴿مَالِيَهْ﴾ وصلاً، والباقون بإثباتها.

وكل من أثبت الهاء وصلا له وجهان: الأول: إدغام الهاء في الهاء والثاني: الإظهار، وهو لا يتأتى إلا مع السكت على الهاء سكتة خفيفة بدون تنفس. وإذا قرأ ورش بالنقل في ﴿كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى﴾ تعين الإدغام في ﴿مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ﴾ وإذا قرأ بعدم النقل تعين الإظهار فيها. وجميع القراء يثبت ها ﴿مَالِيَهْ﴾ وقفاً.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بحذف الهاء وصلاً وإثباتها وقفا من ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ والباقون بإثباتها في الحالين.

(٣) تفسير الطبري (٣٩/٢٩)، والخازن (٣٠٥/٤).

ـ به من سلطة وجاه، وحجج أدافع بها عن نفسي، وأخاصم بها المؤمنين لم يحضرني شيء منها اليوم، فقد ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي غاب عني كل هذا، فالمال الكثير قد ذهب، ويا ليتنى أنجو من تبعاته، والجاه العريض قد ذهب فلم أنتفع بشيء من مُلْكي ولا نَسبي ولا حسبي، وليس لي مُجير ولا معين إلا الله، وحينئذ يقال لزبانية جهنم الغلاظ الشدائد:

٣٠-٣٢- ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾

أي يقول الله تعالى لزبانية جهنم الغلاظ : خذوا هذا المجرم الأثيم، فشدّوه في الأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه، واجعلوا في عنقه غُلًّا يخنقُه ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ إنه أمر يصدر من أحكم الحاكمين على من أخذ كتابه بشماله، فسرعان ما تتسابق إليه الملائكة لجعْل الغُلّ في عنقه، وكل ما في الكون غضبان عليه.

ثم يقال للملائكة بعد تقييده بالأغلال: ألقوه في جهنم، وأدخلوه فيها، ليقاسي حرها، ويُشْوى بنارها ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ اقذفوه في النار، وقلّبوه على جمرها ولهبها كما تُشوى الشاة على النار! نعوذ بالله من النار، ومن عذاب النار.

وبعد أن يقيّد الكافر بالأغلال، ويُقذف به في الجحيم، تقول الخزنة: أدخلوه في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعاً.

قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

وتقول زبانية جهنم: خذوا هذا الكافر فقيدوه، ثم أعدّوه للنار المحرقة، ثم اجعلوه مغلولاً في سلسلة طولها سبعون ذراعاً، بحيث تُحيط به إحاطة تامة، وهو مكبّل في أغلاله، فلا يزال في هذا العذاب الفظيع بلا انقطاع ولا إمهال ولا فتور.

والسلسلة: مجموعة حِلَق من حديد بعضها داخل بعض، يقيد فيها المجرم حتى لا يتحرك من مكانه، كما قال تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر:٧١] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضاضة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجُمْجُمة - أُرسلتْ من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمس

مئة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلت من رأس السلسلة أربعين خريفاً، الليل والنهار، قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»[1].

والرُّضاضة هي الحصوة الصغيرة. ولفظ أحمد: (لو أنّ رصاصة).

السَّبَبُ فِي عَذَابِ أَهْلِ الشِّمَالِ

٣٣، ٣٤- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

ثم بين سبحانه السبب في هذا العذاب الشديد لأهل الشمال، فذكر سببان لهذا العقاب:

السبب الأول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

أي إنه كان لا يوحد الله تعالى، ولا يعمل بهديه، بل كفر بربه، وعاند رسله، ورد ماجاؤوا به من الحق، لقد حل بهذا الشقيّ ما حل به من عذاب، لأنه كان في الدنيا مصرًّا على الكفر، وعدم الإيمان بالله تعالى، والإيمان رأس الأمر، فلا يقبل عمل صالح بدون إيمان، وقد بدأ سبحانه بأقوى أسباب العذاب، وهو عدم الإيمان بالله تعالى، ثم أتبعه بما هو دونه:

والسبب الثاني: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾:

أي أنه كان وهو في الدنيا لا يحث الناس على إطعام المحتاجين من المساكين وغيرهم، فليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا هو يطعمهم ولا يحث غيره على إطعامهم، لعدم وجود الوازع الديني في قلبه.

أي: فهذا المعذب في النار، كان لا يصدق بوحدانية الله تعالى، ولا يحث الآخرين على البذل والعطاء لكل محتاج، وعدم الحث على إطعام المسكين، يقتضي بطريق الفحوى، أنه في حد ذاته لا يُطعم المسكين من ماله، فهو لا يطعم المسكين، ولا يأمر الناس بإطعامه، وهذا كناية عن شدة البخل.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٥٨٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والمسند (١٩٧/٢) بإسناد صحيح، والمستدرك (٤٣٢/٢) بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي، وحسنه محققو المسند برقم (٦٨٥) بإشراف د/ التركي.

 ، عن منع المساكين حقهم في أموال الأغنياء، وبيان أن السعادة تقوم على أصلين، هما: الإيمان يالله والإحسان إلى خلق الله، ومن أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بما يسد كفايتهم.

ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى عن المجرمين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر:٤٢-٤٤] .

والإيمان قرين الصلاة، وتخصيص إطعام المسكين بالذكر يدل على أهمية إطعام المسكين، وسدّ حاجة الفقير في الإسلام.

والكفر بالله تعالى أكبر الذنوب، والبخل وقسوة القلب، أقبح شيء في طباع البشر، وهذا المجرم المعذّب في النار، لم يقم بحق الله تعالى عليه، ولم ينفع خلقه، ويؤدي حقهم.

فإن لله تعالى حق التوحيد والعبادة، وللعباد حق الإحسان والمعاونة.

ولذا: فقد قُبض النبي ﷺ وهو يقول: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» كما جاء في حديث أنس ﷺ[1].

عِقَابُ الْكَافِرِ الْبَخِيلِ

٣٥-٣٧- ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾

ثم إن من يُعطى صحيفة عمله بشماله، لا يجد له يوم القيامة شفيعاً ولا ناصراً، ولا مدافعاً يدفع عنه ما يجده من العذاب الشديد، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي ليس لهذا الكافر يوم القيامة قريب يدفع عنه العذاب، لأن كل قريب وصديق يفر منه.

---

(١) المسند برقم (١٢١٦٩) بإسنا صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح، وأبوداود برقم (٥١٥٤) عن أنس، وفي الكبرى للنسائي (٧٠٥٧)، وابن ماجة (٢٦٩٧)، وابن حبان (٦٦٠٥)، وأبو يعلى (٢٩٣٣)، والبيهقي الشعب (٨٥٥٢)، وفي الدلائل (٧/ ٢٠٥) .

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٧] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة الحاقة: ٣٥-٣٧

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال أيضاً: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

وليس لهذا المجرم في جهنم من طعام سوى صديد أهل النار، يغسل بطونهم، ويخرج من أحشائهم.

وفي الحديث عن أبي سعيد ﷺ (لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا)[1].

وفي سورة الغاشية: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [آية:٦،٧] .

وفي سورة الدخان: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [آية:٤٣-٤٦] .

وفي سورة الصافات: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٦٢-٦٨] .

هذا هو طعام أهل النار: الغسلين، والضريع، والزقوم.

وهذا الطعام في جهنم ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا سَبيل المجرمين، فاستحقوا العذاب الأليم، وهم المذنبون المصرون على الكفر بالله تعالى: والخاطىء هو الذي يرتكب الذنب عن عمد وإصرار، والمخطىء هو الذي يرتكب الذنب من غير عمد ولا إصرار.

---

(١) صححه الحاكم (٥٠١/٢) ووافقه الذهبي، وفي المسند (١١٢٣٠، ١١٧٨٦)، ولفظه «من غساق» وهو حديث حسن لغيره، وأخرجه أبو يعلى (١٣٨١)، والبيهقي في البعث (٥٦٦).

وهذا العرض للآيات قد بلغ الذروة في قوة التأثير لأهوال يوم القيامة بالنسبة للكافرين، ولبيان حسن العاقبة بالنسبة للمتقين.

سورة الحاقة: ٣٨ـ٤٠

الْبُرْهَانُ الْقَاطِعُ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَأَمَانَةِ الرَّسُولِ ﷺ

٣٨-٤٠ - ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

ثم أقسم الله تبارك وتعالى على أن القرآن منزل من عند الله، لِنفْي تكذيب الملحدين بالبعث، وتكذيبهم للرسول ﷺ وهو قَسَم عام يشمل كل ما يُرى في هذا الكون، كالأرض، والجبال، والبحار، والإنسان، والسماوات، والكواكب، وغير ذلك.

ويشمل أيضاً كل ما لا يُرى في الكون، كالأرواح، والملائكة، والجن، وأمور الآخرة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من كل ما هو مرئي ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ مما غاب عنكم ولم تروه، واللام لتأكيد القسم على الأرجح، والمقسم عليه هو: صدق الرسول ﷺ بما جاء به من عند الله.

قال الفخر الرازي: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمين: مُبْصَر وغير مُبْصَر، فشملت الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة[1].

وقد أقسم الله تعالى بجميع الأشياء، المرئية وغير المرئية، على أن القرآن كلام الله تعالى، يبلّغه للناس، ويتلوه عليهم رسول عظيم الشرف والفضل، فالقرآن كلام الله، والناطق به المبلِّغُه عن ربه، هو رسول الله ﷺ، وهو منزّه عما وصفه به المكذبون من أنه سحر أو شعر أو كهانة.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ نُسب القول إلى الرسول محمد ﷺ لأنه يتلوه ويبلغه عن ربه، ولينفي عنه كونه سحرا أو شعرا أو كهانة، كما يزعم المبطلون الذين يقولون عنه أساطير الأولين.

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/١١٦).

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان:٥٨] أي يسرناه بواسطتك - يا رسولنا - وجعلناه بِلغَتِك عن طريق الوحي إليك، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ وقد وصف الله تعالى موسى عليه السلام، بأنه رسول الحاقة: ٤١ـ٤٣ قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان:١٧] .

روى مقاتل أن أباجهل قال: إن محمدا شاعر، وأن عقبة بن أبي معيط قال: هو كاهن، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾، ثم نفى سبحانه قولهم هذا، فقال:

٤١-٤٣- ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ[1] ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

نفى سبحانه أن يكون هذا القرآن قول شاعر كما يزعمون فقال ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ لأنه مغاير لأوزان الشعر، وليس بإمكان الشعراء الإتيان بمثله، فليس شعرا ولا نثرا، ولكنكم لا تؤمنون أصلاً، ولا تؤمنون إيماناً يسيراً فأنتم ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ولو آمنتم لعلمتم ما يضركم وما ينفعكم، ولأدركتم أن محمداً ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وليس القرآن أيضاً بسجع الكهان الذين يدّعون معرفة الغيب ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ ولكنكم لا تعتبرون ولا تتعظون، فأنتم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فليس عندكم أدنى تأمل للفرق بين هذا القرآن، وبين الشعر والكهانة، وقد أقر أعداء الإسلام بنفي هذه الافتراءات على القرآن وعلى رسول الإسلام منذ فجر الرسالة.

فهذا النضر بن الحارث، طلب منه زعماء قريش أن يُدلي برأيه في شأن محمد ﷺ فقال: يا معشر قريش، والله قد نزل بكم أمر، ما أتيتم له بحيلة بعد، وقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في

---

(١) قرأ ابن كثير وهشام ويعقوب وابن ذكوان بخلف عنه بياء الغيب في ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ و﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ والباقون بتاء الخطاب فيهما، وهو الوجه الآخر لابن ذكوان، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ وشددها الباقون.

صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحَرة ونَفْثَهم وعُقدهم.

وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتَخَالُجَهُم، وسمعنا سجْعهم.

سورة الحاقة: ٤٣_٤٧ ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجْه وزجْره.

وقلتم: مجنون! لقد رأينا الجنون، فما هو بخنْقه ولا وشوسته ولا تخْليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم[1].

ومع ذلك فلا يزال في العالم جماهير غفيرة، تتوارث الزعم أن محمداً ﷺ ليس برسول، أو أنه رسول إلى العرب خاصة.

وقد جاء القسم من رب العالمين بما هو مرئي في العالم وما هو غير مرئي، على صدق رسالة محمد ﷺ إلى العالم أجمع، وأنه لو افتعل الوحي وكذَب على الله، لكان العقاب صارماً.

ولَمَّا ذكر سبحانه أن هذا القرآن قول رسول كريم، أتبعه ببيان أنه منزل من عند الله فقال ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنزله على رسوله محمد ﷺ كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦] .

ورب العالمين: هو رب الشعراء والكهان، والكفار، ورب المخاطبين بالقرآن، ورب محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان:٨] .

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يَتَقَوَّلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى

٤٤-٤٧- ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾

(١) ابن إسحاق في السيرة.

ولو لم يكن القرآن منزل من عند الله تعالى، وادّعى محمد أنه منزل من عندنا، لما أقررناه على ذلك، ولعجّلنا بإهلاكه، ولو نَسب محمد إلينا شيئاً لم نقلْه وافترى علينا بعض الأكاذيب، لانتقمنا منه وعجّلنا بعقوبته، وأخذناه أخذ عزيز مقتدر، وقتلْناه صبراً، بأن يؤخذ من يده اليمنى بالقوة وتُقْطع رقبتُه، وهذا معنى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ سورة الحاقة: ٤٧ـ٥٠ منه باليد اليمنى من يديه، وهو كناية عن الإذلال والإهانة، وسلْب القوة وانتزاعها منه، وأخذناه أخذاً عاجلاً دون إمهال، فقطعنا منه نياط القلب، وهو العِرق المعلّق به القلب، يَسْقي الجسد بالدم، فإذا قُطع مات صاحبه و﴿ٱلْوَتِينَ﴾ هو هذا العرق المسمى بالأبهر، كما في الحديث «**مازالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري**».

وهذا التهديد والوعيد يشمل كل من يتلاعب في هذا الدين بالتغيير والتبديل كائناً من كان.

وإذا عاقبنا محمداً مثل هذه العقوبة، فإنه ليس في مقدور أحد أن يحول بيننا وبين عقابه، ومعنى هذه الآية يحوم حول قوله تعالى ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥] .

القُرآنُ الكَرِيمُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ وَحَسْرَةٌ عَلَى المُكَذِّبِينَ

٤٨-٥٠ - ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ثم إن الله تعالى أنزل هذا القرآن عظة لمن يتقي الله ويخشى عقابه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن العظيم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يُذكِّر الناس بما يغفلُون عنه من العلم بالله تعالى، وما يليق بجلاله، يذكرهم بما يُصلحهم في الدين والدنيا، يذكرهم بالعقائد والأحكام الشرعية والأخلاق الحميدة، حتى يكونوا العلماء العاملين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

والذي ينتفع بهذه التذكرة، هم المتقون الذين يؤمنون بالبعث والجزاء، فالقرآن هادياً للمتقين ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] فهم المنتفعون به المهتدون بهديه.

أما غير المؤمنين فقلوبهم مغلقة دونه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]، وهداية القرآن عامة للخلق أجمعين، فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإن كان لا

سورة الحاقة: ٤٨ ـ ٥٢

وقد بعث الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بهذا القرآن، وهو جل شأنه يعلم أنه سيكون من البشر مكذبين به، ومع علم الله تعالى بوجود المكذبين، فإن هذا لا يمنع من توجيه التذكير به لخلقه أجمعين مع وضوح آياته وحججه، وكان هذا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

فقد أرسل الله تعالى رسوله بهذا الدين ليبلغه للناس كافة ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] وسيُجازى كلاً بما يستحق من ثواب أو عقاب.

وإن هذا القرآن سيكون يوم القيامة سبب حسرة وندامة على كل من كفر بالله تعالى، وجحَد نبوة خاتم النبيين، وذلك عندما يرون أنفسهم في عذاب أليم، ويرون المؤمنين في نعيم مقيم.

وهذه الحسرة تكون في الدنيا، لأنه تعالى فضحهم، وكشف خفاياهم، وبين عجز آلهتهم.

وهو حسرة عليهم أيضاً في الآخرة، لأن مخالفته كانت سبباً لعذابهم في نار جهنم.

وهذه الحسرة تكون في نفوس الكفار بسبب عدم إيمانهم به كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠٠،٢٠١].

فإنهم لمّا رأوا في الآخرة ما كفروا به الدنيا، وثبت لديهم صدق ما أخبرهم به النبي ﷺ تحسروا على عدم هدايتهم، وعلى ما فاتهم من نعيم، وما استبدلوه من الجحيم، وقد حكم الله بين العباد وتقطعت بهم الأسباب.

ختام السورة

٥١، ٥٢ - ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

وهذا القرآن هو الحق الثابت الذي لاشك في أنه من عند الله تعالى، وأن محمداً ﷺ قد بلّغه للناس دون زيادة حرف ولا نقص حرف ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا مرية فيه ولا ريب، فحق اليقين أعلى مراتب العلم الذي لا يتزلزل ولا يزول، وفي هذا نفي لقولهم: سحر وشعر وكهانة. **سورة الحاقة: ٥١، ٥٢**

وقد قالوا: إن العلم ثلاثة: حق اليقين، ويليه عين اليقين، ويليه علم اليقين:

١. فحق اليقين: كعلم الإنسان بالموت عند نزوله به، وبلوغ الروح الحلقوم.

٢. وعين اليقين: كالعلم بقرب حلول علامات الموت وأماراته.

٣. وعلم اليقين: كالعلم بأن الموت سيأتي لا محالة مهما طال الأجل.

وحق اليقين جاء في هذه السورة، وفي آخر سورة الواقعة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ وعين اليقين وقع في سورة التكاثر، ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

وما دام القرآن في أعلى درجات اليقين، وماجاء به حق، فنزّهِ الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، واذكُره باسمه العظيم ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا رسولنا، وسبح أيها المخاطب ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقدس ربك بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله، واشكر ربك على ما أعطاك من النعم العظيمة، وهذا القرآن من أجلّها.

وفي هذا تنزيه للقرآن عن مطاعن المكذبين وافتراءات المفترين.

جاء في الأثر أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»[1].

وهذا مؤذن بانقضاء السورة.

تم تفسير (**سورة الحاقة**) ولله الحمد والمنة

---

(١) من حديث عقبة بن عامر الجهني في المسند (١٧٤١٤)، قال محققوه: إسناده محتمل للتحسين، وأبي داود (٨٦٩)، وفي سنده ضعف كما في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨٦)، وأخرجه الدارمي (١٣٠٥)، وأبويعلى (١٧٣٧)، وابن خزيمة (٦٠٠)، وغيرهم.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَعَارِجِ (٧٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المعارج) هي السورة السبعون في ترتيب المصحف، والثامنة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحاقة) وقبل (سورة النبأ).

وعدد آياتها أربع وأربعون آية، ماعدا المصحف الدمشقي. فهي ثلاث وأربعون آية عنده.

وعدد كلماتها مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً.

وسميت سورة المعارج في المصاحف، وفي كتب السنة والتفسير، وتسمى أيضاً سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ وذكر السيوطي في الإتقان، أنها تسمى سورة (الواقع) وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في الآيتين من أوّل السورة، وهي سورة مكية باتفاق، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الرد على منكري البعث والنشور، بما في ذلك ذكر أهوال القيامة ومافيها من راحة ونصب، وسعادة وشقاء، وذكر أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، سيما حال المجرمين في ذلك اليوم الذي تتفطَّر فيه السماء، وتتطاير فيه الجبال في الهواء، وذلك بسبب استهزاء المكذبين بالدعوة والرسالة.

وقد جاء هذا من أول السورة إلى الآية الثامنة عشرة.

والقسم الثاني: يتحدث عن طبيعة الإنسان، وجزَعه عند الشر، ومنْعه للخير، وبَطَرِه للنعمة، ثم تَسْتثني السورة من ذلك المؤمنين، وتصفهم بتسع صفات، هي:

١- المداومة على الصلاة.
٢- وإخراج الزكاة.
٣- والإيمان بالبعث والنشور.
٤- والخوف من الجليل.
٥- وحفظ الفرج.
٦- وأداء الأمانة.
٧- والوفاء بالعهد.
٨- وعدم كتمان الشهادة.
٩- والمحافظة على الصلاة.

وتُعقَّب السورة بذكر الكافرين بعد المؤمنين، لبيان حرمانهم من نعيم أهل الجنة. وهذا من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الحادية والأربعين.

والقسم الثالث: فيه تسلية للنبي ﷺ للمضيّ في طريق الدعوة، وشحذ همته لمواجهة مَصاعِبها وعنَتِ المكذبين لها، وتَرْكِهم في باطلهم حتى يَلْقَوْا ربهم فيجازيهم بأعمالهم.

وختمت السورة بالقَسم على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وأن الله تعالى قادر على أن يخلق خلقاً آخر، هم أطوع لله تعالى وأكثر استجابة ممن كذب بالبعث والنشور.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

إِنْكَارُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ كُفْرٌ

١ -٣- ﴿سَأَلَ[1] سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

السؤال هنا معناه الدعاء على النفس، بمعنى: دعا داع على نفسه وقومه بعذاب يقع عليه وينزل به، وهو عذاب سيقع به لا محاله.

أو أن المراد بالسؤال معناه الحقيقي، بمعنى: سأل أحد الناس النبي ﷺ عن موعد وقوع العذاب بالكافرين المكذبين إذا استمروا على كفرهم وعنادهم، وهو سؤال على وجه التهكم والاستبعاد، والسائل هو النضر بن الحارث، أو الحارث بن عَلْقمة[2] أو أبو جهل.

وقد ورد فيما سبق أن أول هذه السورة نزل في النضر بن الحارث، وذلك حين قال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[3] [الأنفال:٣٢] فأهلكه الله يوم بدر، وتحقق فيه وعد الله تعالى. وقد نزلت الآية تَذُمّه وتَذُمُّ أمثاله.

وشأن النضر بن الحارث، كشأن منكري البعث في كل زمان ومكان، ممن يسخرون ويستهزئون من الحديث عن اليوم الآخر ولا يؤمنون بالغيبيات.

وهكذا كانوا يقولون للنبي ﷺ (متى هذا الوعد) أي بالبعث والعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول، ثم أعلمهم الله تعالى أن العذاب الذي استعجلوه واستهزؤوا

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بإبدال همزة ﴿سَأَلَ﴾ ألفاً، فتكون مثل (قال) وهي لغة قريش، من السؤال أو من السيلان، والباقون بالهمز من السؤال، ويقف عليها حمزة بالتسهيل.

(٢) كما أخرجه عبد بن حميد عن عطاء، ينظر الدر المنثور (١٤/٦٨٧).

(٣) المستدرك (٢/٥٠٢) عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: على شرط البخاري فقط، كما أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٠) وابن أبي حاتم (٥/١٦٩٠).

به واقع بهم لا محالة، وليس هناك ما يدفعه عنهم أو يحول بينهم وبينه.

وكانوا يستعجلون نزول العذاب بهم على وجه الاستبعاد، لجهلهم وعنادهم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣].

ومن المفروض أن يسأل العبد ربه أن يرفع عنه نزول العذاب، ويسأله أن يهديه ويخرجه من ضلاله ويتوب عليه، ولكن أصحاب القلوب القاسية يطلبون من الله تعالى إن كان ما يقوله محمداً حقاً وصدقاً فليُبادر بهلاكهم، وبإنزال العذاب بهم، وهذا ما قاله النضر بن الخارث وأبوجهل وأمثالهما.

والآية جاءت بصيغة العموم، لتشمل كل سائل، وكل منكِر ليوم القيامة، أو منكر للعذاب المتوعّد به، إلى قيام الساعة، وتشمل الآية كل من دعا على نفسه وعلى قومه بنزول العذاب، كحال النضر بن الحارث.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع من المشركين على نفسه وعلى قومه أن ينزل بهم عذاب الله إن كان هناك عذاب ـ على حد زعمهم ـ!

أو أن المعني: سأل سائل عن موعد وقوع العذاب المتوعد به ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي وهو عذاب واقع بهم لا محالة، إما أن يعجل لهم به في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الدار الآخرة.

والسؤال في الآية على أحد المعنيين السابقين بمعنى الدعاء باستعجال نزول العذاب، كما يفسره ما صح في سبب النزول، وهو سؤال تهكم وإنكار منهم، والنضر ابن الحارث وهو الذي طلب نزول العذاب، قُتل يوم بدر، ومات شرّ ميتة.

ثم بين سبحانه أن هذا العذاب واقع بالكفار ولابد، سواء أطلبوه أم لا، وليس هناك ما يمنع نزوله بهم أو يدفعه عنهم في الدنيا ولا في الآخرة.

فمعنى: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي أن هذا العذاب خاص بالكافرين الذين استعجلوا وقوعه وهو نازل بهم ولابد، واللام في ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ لشبه الملك، كأن عذاب النار من خصائصهم، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وهو عذاب: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، فإذا أراد الله وقوعه بأحد فلا راد له، وإذا

نزل بهم فلن يرفع، ولن يدفع، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧،٨].

ولو أن هؤلاء الكفار عرفوا الله حق معرفته، وعظّموه حق عظمته، لما استعجلوا نزول العذاب بهم، ولتأدبوا مع الله تعالى: وانقادوا له سبحانه، فبؤساً لقوم جهلوا عظمة الله تعالى ولم يقدروه حق قدره،فاستعجلوا نزول العذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم!!

قال جبير بن مطعم: قدمتُ المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فسمعتُه يقرأ ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمتُ خوفا من نزول العذاب، وماكنتُ أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع العذاب(١).

وعن هشام بن حسان قال: انطلقتُ أنا ومالك بن دينار إلى الحسن، وعنده رجل يقرأ والطور حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غُشي عليه(٢).

وهذا العذاب النازل بالكفار هو ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي صاحب العظمة والعلوّ والجلال، وتدبير أمور خلقه.

والمعارج أيضا هي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة وتنزل بأمر الله تعالى ووحيه.

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه صاحب المعارج، كما وصف نفسه بأنه صاحب العرش في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥].

والمراد: أن الذي دعا ربه بعذاب واقع، لم يدْعُ بشيء صعب، إن إهلاكه ليس بأصعب من إهلاك بعوضة، وهو أحمق كافر، لا يصدّق بعذاب قريب ولا بعيد، وإن العذاب سيأتيه حتماً، ولا يمكنه دفعه أو منعه، لأنه أمر إلهي نافذ، لا مردَّ له. ثم فصَّل

---

(١) ينظر: البخاري (٤٠٢٣،٤٨٥٤)، ومسلم (٥٧٨)، وأبوداود (٨١١)، وابن ماجة (٨٣٢)، والنسائي في الكبرى (١١٤٦٥)، والمسند (١٦٧٣٥)، وابن حبان (١٨٣٣).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي للآية.

سبحانه هذا العروج في الآية التالية:

عُرُوجُ الْمَلَائِكَةِ وَعُرُوجُ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى

٤، ٥- ﴿تَعْرُجُ[1] ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ[2] ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾

وبعد هذا الافتتاح للسورة، يأتي وصف اليوم الذي سيقع فيه العذاب، فبين تعالى أن هذا اليوم، هو يوم القيامة، حين تصعد الملائكة وتنزل، ومعهم جبريل، للقيام بالمهام المكلفين بها في هذا اليوم.

﴿تَعْرُجُ﴾ أي تصعد إليه ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾لتنفيذ أوامر الله تعالى في تدبير شؤون خلقه.

لعروج الروح معنيان:

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل يصعد إلى الله عز وجل لتنفيذ أوامره، وخص جبريل وهو الروح بالذكر، لمزيد فضله ومزيته على غيره.

وقد سماه الله روحاً في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣] وهذا أحد تفسيرين لمعنى الروح.

كما تطلق الروح على ما به حياة الإنسان، وهذا هو المعنى الآخر.

فربما شملت الآية، عروج أرواح أهل الجنة، على اختلاف درجاتها في المعارج.

ويكون المراد بالروح على هذا اسم جنس يشمل جميع الأرواح، فأرواح الأبرار تعرج عند وفاتها إلى السماء وتحظى بالقرب من رب العالمين، وأرواح الفجار لا يؤذن لها في الوصول إلى السماء فتعاد إلى الأرض. وعلى هذا فإن العروج يكون في الدنيا.

ويحتمل أن يكون هذا العروج في يوم القيامة، وأن العباد يشاهدون الملائكة وهي صاعدة ونازلة لتدبير الأوامر الإلهية.

---

(١) قرأ الكسائي بياء التذكير في ﴿تَعْرُجُ﴾ والباقون بتاء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره لأن الفاعل جمع تكسير.

(٢) عدّ لفظ (سنة) آية جميع علماء العدد ما عدا الدمشقي، فيكون متروكاً له.

يوم العروج:

١ - ثم ذكر سبحانه في هذه الآية: المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله تعالى فيكون المراد أن مسافة العروج قدرها خمسون ألف سنة.

أو أن المراد باليوم: هو يوم القيامة نفسه الذي يحاسب فيه العباد.

وهذا العروج كائن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ أي مقدار هذا اليوم، وهو مدة موقف العباد للحساب في هذا المقدار ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا، بالسير المعتاد، من بدء العروج إلى ما تنتهي إليه في الملأ الأعلى، وهو يوم الموقف العظيم، ثم يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

وقيل: إن مقدار يوم القيامة على الكافر خمسون ألف سنة، وهو على المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، أي أن عروج الملائكة إلى أماكنهم في السموات يوم القيامة يكون في وقت يقدر بخمسين ألف سنة من أيام الدنيا، بالنسبة للإنسان، والملَك يقطع ذلك في لحظات، فالملكوت الإلهي من الفرش إلى العرش، أو من أسفل الأرض إلى سدرة المنتهى، قد يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة، أما الروح الأمين وجمهور الملائكة، فإنهم يقطعونه في زمن يسير جداً.

وقد رأينا كيف انتقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في لمح البصر!

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»** فقلت: ما أطول هذا؟ فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده إنه ليخف عن المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»**[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما قدْرُ طول يوم القيامة على المؤمنين،**

---

(١) وهو حديث ضعيف لضعف دراج عن أبي الهيثم وابن لهيعة، وهو في المسند (٣/٧٥ (١١٧١٧)، والطبري (٢٩/٤٥)، وأبويعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤)، والبيهقي في الشعب معلقاً (١/٣٢٤)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٧): إسناده حسن على ضعفٍ في راوية، وحسّن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٤٤٨).

إلا كقدْر ما بين الظهر والعصر»[1]. والمراد بهذا اليوم هو يوم القيامة.

٢ - أما اليوم الذي في سورة السجدة المقدر بألف سنة، وفيه يقول تعالى ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [آية:٥] .

فالمراد به: مقدار سير الأمر الإلهي في نزوله وعروجه إليه تعالى، في يوم يقدر بألف سنة، ولكنه يعرج إليه ويصله في لحظة.

٣ - واليوم الذي في سورة الحج بألف سنة أيضا، وفيه يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[آية:٤٧] فالمراد به أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض.

فهي أيام مختلفة، إذ أن يوم عروج الملائكة، يختلف عن يوم عروج الأمر إليه تعالى، ويختلف عن الأيام التي خلق الله فيها الكون، فالأول بخمسين آلف سنة، والثاني والثالث بألف سنة.

٤ - وصح في الحديث وصْفُ يوم القيامة بخمسين ألف سنة، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جُعل له صفائح يُحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[2].

وقد عُلِم بهذا أن يوم القيامة فيه مواطن ومواقف، وبينت سورة السجدة أن في القيامة خمسين موطناً كل موطن يقدر بألف سنة.

فالجمع بين الآيات الواردة في هذا المقام، أن يكون المراد بها أحد أمور ثلاثة:

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤/١)، والبيهقي في الشعب معلقاً (١٨٤/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٥٦).

(٢) ينظر: المسند (٢٦٢/٢) برقم (٧٥٦٣) من حديث طويل، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وهو في صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

الاحتمال الأول: أن اليوم المقدر بألف سنة الذي في سورة الحج يراد به أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض وهو قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

واليوم المقدر بألف سنة الذي في سورة السجدة من قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥].

يراد به مقدار سير الأمر وعروجه إليه سبحانه وتعالى.

ويوم الخمسين ألف سنة الذي في آية سورة المعارج، وهو قوله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] يراد به يوم القيامة، حيث تعرج الملائكة إليه سبحانه بما فيهم جبريل عليه السلام.

قال ابن عباس: لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. يعني يوم القيامة[1]

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالآيات الثلاث: يوم القيامة، وأن الاختلاف فيه باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩،١٠] والأحاديث السابق ذكرها.

والاحتمال الثالث: أن يكون المراد بآية سورة المعارج، خمسين ألف سنة: هو يوم القيامة، وأن في هذا اليوم خمسين موطنا، كل موطن تقديره ألف سنة، كما يفسره آية سورة السجدة وآية سورة الحج.

وما دامت القيامة آتية لا محالة ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها الرسول على تكذيب قومك لك وكفرهم بما جئت به، واصبر على استعجالهم نزول العذاب، وعلى استبعادهم وقوعه، واصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً لا تضجُر فيه ولا ملل، ولا يمنعْك من دعوتهم عدم انقيادهم لك وعدم رغبتهم في اتباعك، فإن الله ناصرك عليهم، ورافع شأنك، ومُظْهِر دينك على جميع الأديان، اصبر يا رسولنا على إنكارهم واستهزائهم، واصبر على

---

(١) البيهقي في البعث وابن أبي حاتم، قال ابن كثير (٨/٢٤٩): إسناده صحيح.

جهلهم وغرورهم وجحودهم صبراً لا جزع فيه، ولا شكوى منه لغير الله تعالى، وهو الصبر الجميل، ولا تتبرم بقضاء الله وقدره.

في أحوال الكون والناس يوم القيامة

٦ ـ ١٠ ـ ﴿إِنَّهُمْ[1] يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾

إن الكفار يستبعدون وقوع العذاب بهم، ويرونه غير واقع، ويرون أن مجيء يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مستحيلاً ومستبعداً. وأن عذاب الله غير واقع بهم، ولذا فإنهم كذبوا به وأنكروه، والضمير في (يرونه) يعود على يوم البعث.

ونحن نراه قريباً واقعاً لا محالة، يأتي في الوقت الذي تقتضيه حكمة الله تعالى ومشيئته، وهو قريب بالنسبة لما مضى من الزمن، وكل آت قريب، والله تعالى رفيق حليم لا يعجل بالعقوبة.

ثم أخبر سبحانه عن بعض أهوال القيامة، فوصف السماء أوّلاً بأنها تكون يوم القيامة سائلة غير متماسكة، فتُحلّل أجزاؤها وتكون مثل حُثالة الزيت، أو الرصاص المذاب، فالمهل هو ما أذيب من النحاس أو الفضة ونحوهما، أو هو دُرْدِيّ الزيت.

أما الجبال فإنها تكون يوم القيامة كالصوف المصبوغ المنفوش، الذي ذرّته الريح، متناثراً متطايراً في الهواء، والعهن هو الصوف المنفوش، كما في سورة القارعة ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [آية:٥].

وجاء في سورة المزمل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [آية:١٤].

قال القرطبي: العهن: الصوف الأحمر، أو ذو الألوان، شبّه الجبال به في تلوُّنها

---

(١) قرأ أبوجعفر والبزي بخلف عنه بالبناء للمفعول في ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ و﴿حَمِيمٌ﴾ نائب فاعل، و﴿حَمِيمٌ﴾ بعدها منصوب بنزع الخافض أي عن حميم. والباقون بالبناء للفاعل، و﴿حَمِيمٌ﴾ فاعل، و﴿حَمِيمًا﴾ مفعول به، وهو الوجه الثاني للبزي.

ألواناً، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً، ثم عِهْنًا منفوشاً، ثم هباءً منثوراً.

فهذه ثلاثة أحوال للجبال يوم القيامة، كل حالة تمثل مرحلة من مراحل تغيرها، وإذا كان هذا حال الأجرام الكبيرة يوم لقاء الله تعالى، فما بالُك بالإنسان الضعيف المثْقل بالذنوب والأوزار، أليس حقيقاً بأن ينخلع قلبه، ويذهب لبه، ويذهل عن أقرب الناس إليه؟

وبعد أن ذكر سبحانه حال السماء والأرض في يوم القيامة، ذكر حال الخلائق، فبين تعالى أن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه، فلا يوجد أحد يسأل أحداً مساعدة أو معونة أو نُصرة ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه عن شأنه، فعدم السؤال ناشىء عن شدة الهول، لأن كل واحد مشغول بنفسه، فلا يسأل غيره عن حاله ولا يكلمه، ولا يسأله أن يشفع له أو يأخذ بيده.

لاَ بَدِيلَ لِعَذَابِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ لِقَائِهِ

١١، ١٢ - ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ[1] بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾

ومع أن كل واحد يرى الآخر يوم القيامة ويعرفه، ولكنه لا يكلمه، ولا يسأله، لأنه لا يملك له شيئا، ولا يستطيع أن ينفعه، وهذا معنى ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي أن كل حميم يرى حميمه، ولكنه مشغول عنه لا يتمكن من سؤاله شيئاً، فهو يشاهد ولده وزوجه ووالده ووالدته، ولكنه لا يجد متّسعاً في قلبه لسؤاله عن حاله، فلا يهتم إلا بنفسه، كحال الطوفان حين يعم البشر، فيُشْغَل كل إنسان بنجاة نفسه.

والمجرم هو الذي فعل الجُرْم، وهو الذنب العظيم، وهذا المجرم يتمنى في هذا اليوم، أن يفدي نفسه من عذاب الله تعالى ولو بأقرب الناس إليه وأعزهم عليه ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يتمنى الكافر والمشرك بالله ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بِبَنِيهِ﴾ وهذا أغلى ما يكون على الإنسان، ومع ذلك فهو يتمنى لو كان ابنه تحت يده ليدفعه فداء

---

(١) قرأ نافع والكسائي وأبوجعفر بفتح الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ على أنها حركة بناء، لإضافتها لغير متمكن، والباقون بكسرها، إجراء لها مجرى الأسماء.

لنفسه من العذاب لفعل.

أو يفدي نفسه بزوجته وإخوانه ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ فهو يتمنى لو افتدى نفسه بأحب الناس إليه، وأقربهم له، من أهله وعشيرته لشدة هول ذلك اليوم، ولذا قال تعالى:

١٣، ١٤ - ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ[1] ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

أي يتمنى الإنسان لو يفدي نفسه بقبيلته وعشيرته التي ينتمي إليها في القرابة، وتضمه في النسب، كي تحميه وتنصره، كما كان يأوي إليها وهو في الدنيا عند الشدائد.

بل ويتمنى الكافر لو كان يملك الدنيا كلها ليفدي بها نفسه من عذاب الله يوم القيامة لفعل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من البشر والمال والمتاع وغير ذلك ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي ثم ينجو هو من عذاب الله، لو ملك ذلك لفعل، وعندئذ ﴿يَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] ويتمنى لو يُسوَّى بالتراب قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ النبأ: ٤٠].

وقد قرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها.

١ ـ قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

٢ ـ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

٣ ـ وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

ويومئذ لا يُقبل من الكافر فداء ولو جاء بأهل الأرض جميعاً، ولو افتدى بملىء الأرض ذهبا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

---

(١) قرأ أبوجعفر بإبدال همزة ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ واوا ساكنة بلا إدغام، ولحمزة وقفا الإبدال واوا مع الإظهار والإدغام.

وَصفُ النَّارِ وأَهْلِهَا

١٥-١٨ - ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ[1] ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً[2] لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾

ثم يجيب الله تعالى الكافر على ما يتمناه، بما يبطل كلامه ويمنع عنه إجابة ما يتمنى ويطلب، فيقول ﴿كَلَّآ﴾ ليس الأمر كما تتمنى أيها الكافر، من أنك تفدى نفسك من عذاب الله بالمال والولد، فلا حيلة ولا مناص من حلول العذاب بك نتيجة عدم إيمانك، وإنما الذي في انتظارك هو النار شديدة اللهب ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ إن نار جهنم تتلظى وتلتهب، وتنزع بشدة حرها جلدة الرأس وأطراف البدن، فهي ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ وهو فروة الرأس، أو جوارح الإنسان وأطرافه، فهذه النار تُقلِع جلدة الرأس وأطراف اليدين والرجلين، وكذا الأعضاء الظاهرة والباطنة ولا تترك منها شيئاً، فهي تطلع على الأفئدة ثم تعود كما كانت.

وهذه النار الملتهبة تنادي من أعرض عن الحق في الدنيا، وترك طاعة الله ورسوله، فهي ﴿تَدْعُوا۟﴾ الكافر لدخولها وتُنادي من كذب بالرحمن وأعرض عن دعوة خاتم المرسلين، تدعو من ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن دين الإسلام ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن الإيمان بالله ورسوله وما في اليوم الآخر من سؤال وثواب وعقاب.

قال ابن عباس رضي الله عنها: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، تقول بلسان فصيح: إليّ يا كافر، إليّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب[3].

وهذا جزاء من أعرض عن ذكر الرحمن، ممن قال: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] وممن إذا تلِيتْ عليهم آيات الرحمن قالوا أساطير الأولين.

---

(١) أمال رؤوس الآي اليائية من الآيات المتفق على عدها أبوعمرو وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، وأمال أبوعمرو ما بعد راء، وقلل ما عداه بالخلاف.

(٢) قرأ حفص بنصب ﴿نَزَّاعَةً﴾ على الحال من الضمير المستكن في ﴿لَظَىٰ﴾ لأنها جارية مجرى المشتقات، بمعنى المتلظى، والباقون بالرفع خبر ثان لإن، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي نزاعة.

(٣) تفسير الطبري (٢٩/٤٦).

وتنادي النار أيضاً للدخول فيها: مَنْ كَنَزَ الأموال وجمَعَها ولم يؤد حق الله وحق الناس فيها ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤] ، وهذا معنى ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جمع المال فوعاه ووضعه في خزائن البنوك ونحوها، ولم يخرج منه الزكاة المفروضة، والنفقة الواجبة والمستحبة في وجوه الخير. وفي ذلك وعيد شديد لمن يبخل بالمال، فيمتنع عن إخراج حق المساكين منه. وكان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم، سمعتَ وعيد الله، ثم جمعتَ الدنيا من حلال وحرام!

مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ مِنْ الهَلَعِ

١٩-٢١- ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾

ثم كشف الله سبحانه عن طبيعة الإنسان، فبيّن سبحانه تعالى أنه مجبول على الهلع، والهلع: طبيعة كامنة في النفس، تظهر عندما يصاب الإنسان بالنفع أو الضر، فلا يملك أن يكف عن الهلع، عندما يحل به ما يحزنه أو يسره، بل تبدو آثاره عليه، ولا يتأمل عواقب الأمور، والجزع من آثار الهلع، وقد فسر الله تعالى المراد بالهلع في الآيتين التاليتين.

والمعنى المراد: أنه لا يصبر على الشر، ولا يشكر على الخير، فهاتان

صفتان للإنسان الهلوع:

الصفة الأولى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾:

أي أن الإنسان جُبل على شدة الحرص وجمع الحطام، إذا أصابه عُسر ومكروه كان كثير الأسى والشكوى والجزع، ويستولي عليه اليأس والقنوط، فهو لا يصبر على البلاء والضراء، ولا يشكر على النعماء والسراء، يجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب مال أو ولد أو محبوب ونحو ذلك، فلا يصبر ولا يرضى ولا يسلم لقضاء الله وقدره.

والمراد بالشر: ما يشمل الفقر والمرض والهزيمة،وكل ما يسوء الإنسان.

سئل ابن عباس رضي الله عنها عن الهَلُوع؟ فقال: هو كما قال الله: إذا مسه الشر كان

جزوعاً، وإذا مسه الخير كان منوعاً، فهو الهلوع[١].

والصفة الثانية: أنه لا يشكر على النعماء ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾:

أي أنه إذا أصابه اليسر والنعمة أمسك ومنع، وتظاهر بالفقر والمرض، خوفاً من طمع الناس أو حسدهم، ولم ينفق فيما أوجبه الله عليه ولا يشكر فضل الله ونعمته عليه.

والمراد بالخير ما يشمل الصحة والغنى والنصر وغير ذلك من كل ما يحبه الإنسان.

ومن صفات المؤمن الصادق: أن يكون شكوراً عند الرخاء، صبوراً عند الضراء.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع**»[٢].

وفي حديث صهيب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**»[٣].

وعن عليّ ﷺ أن أنين المريض يكتب، فإن كان صابرا كان أنينه حسنات، وإن كان جزوعا كتب هَلُوعاً لا أجر له[٤].

وليس معنى أن الهلع صفة كامنة في الإنسان، أنه لا يستطيع دفعها والتغلب عليها ومقاومتها؟ كلا، بل إن الله تعالى جعل للإنسان عقلا وحكمة، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لتهذيبه وهدايته، فإن هو أحسن التّلقِّي والاتباع، واستعمال عقله وجوارحه فيما خلقت من أجله، حَسُنَتْ أخلاقه، وتهذّبت صفاته، ولانت قناته، وصار من المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة في الآيات التالية:

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/٢٦٦).

(٢) المسند (٢/٣٢٠)، برقم (٨٠١٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات، وابن أبي شيبة (٩/ ٩٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٨)، وأبوداود (٢٥١١).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

(٤) أخرجه الديلمي (٩٠١٤).

علاجُ الهلَعِ في تسعةِ أوصافٍ للمؤمنِ

٢٢، ٢٣- ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

ثم استثنى الله سبحانه من جنس الإنسان الموصوف بالهلع، من كان مؤمناً مؤدياً للصلاة، فإن صلاته تحمله على قلة الاكتراث بالدنيا، فقال ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي فإنهم لا يجزعون عند الشر، ولا يبخلون بالخير، إنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧] فالمداومون على الصلاة ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وإنما هم على صفات محمودة، لأن إيمانهم يدفعهم إلى الفضائل ويمنعهم من الراذائل.

ثم وصف الله سبحانه مَنِ استثناهم من الهلع بتسع صفات،

الصفة الأولى والأخيرة: تتعلق بالصلاة، لِمَا للصلاة من أهمية في الإسلام، ولأنها أصل لكل خير، ومن شأنها أن تَنْهَى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وهي الفارق العملي بين الإيمان والكفر.

وهذه الأوصاف التسعة جمعت أصول الإيمان وحقائقه، فقد اشتملت على:

١- إقامة الصلاة. ٢- وأداء الزكاة.

٣- والإيمان باليوم الآخر. ٤- وتقوى الله تعالى والخوف منه.

٥- وترك الكبائر كالزنا واللواط وغيرها. ٦- وأداء الأمانة.

٧- والوفاء بالعهود. ٨- وأداء الشهادة.

٩- والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها.

الوصف الأول: أداء الصلاة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي أنهم يقيمون الصلاة، ويداومون على أدائها في جميع الأوقات، لا يشغلهم عنها شاغل، فهم يحسنون وضوءها، ويؤدونها مع الجماعة في أول وقتها، وهم من الخاشعين فيها، متمين ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، فهم مداومون عليها في أول وقتها بؤدونها بشروطها وأركانها

وواجباتها وسننها، وليسوا كمن يتهاون فيها فيفعلها أحياناً ويتركها أحياناً، ولا ممن يصليها في البيت كالنساء، ولا فيمن لا يخشع فيها، فيؤديها ناقصة غير كاملة.

١ ـ في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الأعمال إلى الله، أدومها وإن قل**»[١].

٢ ـ وفي الحديث أيضاً أن النبي ﷺ دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة، قال: «**من هذه؟**» قالت: فلانة، تُذْكر من صلاتها، قال: «**مه، عليكم بما تطيقون، فوالله، لا يملُّ الله حتى تملّوا**»[٢].

٣ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان وكان يصوم شعبان كله، وكان يقول ﷺ: «**خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملّوا، وأحب الصلاة إلى الله ، ما دُووم عليه وإن قلّت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها**»[٣].

وأول سبب يُسأل عنه أهل النار يوم القيامة هو ترك الصلاة، كما قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٣٨-٤٣] .

وغير المصلين يُطلب منهم السجود يوم القيامة فلا يستطعون لأن ظهورهم تيبس فلا تطاوعهم، عقوبة لهم على تركهم السجود في الدنيا، فقد كانوا يدعون إلى السجودوهم سالمون فيمتنعون.

الْوَصْفُ الثَّانِي: إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ

٢٥،٢٤- ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

أي أن المؤمنين في أموالهم نصيب معيّن، فرضه الله عليهم، وهو إخراج الزكاة ﴿لِلسَّائِلِ﴾ أي لمن يسألهم المعونة ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أي ولمن يتعفف عن السؤال، وسُمِّيَ

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٥)، وصحيح مسلم (٧٨٢).

(٢) صحيح البخاري (١١٥١،٤٣)، وصحيح مسلم (٧٨٥).

(٣) البخاري برقم (٦٤٦٥،١٩٧٠،٧٣٠)، ومسلم برقم (٧٨٢)، وابن حبان (١٥٧٨،٣٥٣).

محروماً لأنه يتعفف عن السؤال فيحرم كما قال تعالى في شأن أصحاب الصفة: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] .

والحق المعلوم هو الزكاة التي فرضها الله تعالى على عباده بمقدار معين في نصاب معين، والحق المعلوم أيضاً ما أوجبه الإنسان على نفسه بأن يدفع جُزْءاً من ماله للمحتاجين، أو في وجه من وجوه الخير، أو كفارات أو نذر ونحو ذلك.

ومعلوم أن الزكاة قد فُرضت مطلقة بمكة، وحُدّدت مقاديرها وأنصبتها بالمدينة.

أما آية سورة الذاريات ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾ [الذاريات آية:١٩] فليس فيها ذكر لكون هذا الحق معلوما ومحددا، وهذا يعني أن المراد بها الصدقة بشكل عام.

وهذه الآية في وصف المؤمن المخرج للزكاة، مقابل وصف الكافر المانع لها المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

وأصول الأموال التي تجب فيها الزكاة أربعة وهي:

١- النقود، والذهب والفضة،٢ - وما يخرج من الأرض من حبوب وركاز ونفط ومعادن.

٣- وعروض التجارة. ٤- والإبل والبقر والغنم والخيل.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الإِيْمَانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ

٢٦- ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

أي والمؤمنون المصلون هم الذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، وبالجنة والنار، فيستعدون له بالعمل الصالح قبل الممات، وهذا الوصف يقابل وصف الكافر المتقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾، والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب، وما أخبروا به من البعث والنشور.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

٢٧، ٢٨- ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾

أي: أن من صفات المؤمنين أنهم يخافون من عذاب الله تعالى ويرجون ثوابه، فهم مع قوة إيمانهم وكثرة عملهم الصالح، لا يجزمون بأنهم ناجون من النار، وإنما يكونون بين الرجاء والخوف، لأن العاقل لا يأمن مكر الله تعالى مهما كان قَوِيّ الإيمان كثير الطاعة، ولا يقنط من رحمة الله تعالى مهما أسرف على نفسه بالمعاصي.

فلا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، بل حق عليه أن يخافه ويرجوه ولا ييأس من رحمة الله قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: حِفْظُ الْفَرْجِ

٢٩، ٣٠ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

إن المؤمنين يصونون أنفسهم عن الحرام، ويحفظون فروجهم عن الزنى، ويتعففون عما حرم الله، ولا يُلوّثون أنفسهم بالفواحش، ويحفظون أنفسهم من دواعى الزنى ومقدماته: كالنظرة والقبلة والخلوة واللمس والكلمة والهمسة والغمزة ونحو ذلك.

ثم استثنى الله تعالى من ذلك: الزوجة وملك اليمين، فقد أحلّهما الله تعالى للمؤمن، وهو غير مؤاخذ في قضاء شهوته معهما.

وملك اليمين هي: الأمة التي اشتراها الإنسان بماله، أو أُسِرَتْ في حرب مشروعة بين المسلمين وغيرهم، ويخطىء من يعتبر الخادمة ونحوها من هذا القبيل، فالحرة لا تكون أمَة بحال، ويدخل في ذلك نكاح المتعة فإنه قد أبيح لظروف معينة في وقت معين، ثم حرمه الإسلام. قال تعالى:

٣١ - ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾

وما وراء الزوجة وملك اليمين، هو الزنى، أو الاستمناء باليد، أو اللواط، أو السحاق، أو إتيان المحارم، أو إتيان البهائم، أو أي لون من ألوان الشذوذ الجنسي، كالوطئ في الدبر أو أثناء الحيض ونحو ذلك فكل ذلك مما حرمه الله تعالى.

قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي من طلب لقضاء شهوته طريقا غير الزوجات وملك اليمين ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي المتجاوزون الحلال إلى الحرام، لأنه تعدّى حدود الله تعالى، وعرّض نفسه لعذاب الله سبحانه.

قال الطبري: من التمس لفرجه مَنكَحاً سوى زوجته أو مِلْك يمينه، ففاعلوا ذلك هم العادون، الذين تعدّوا حدود ما أحل الله إلى ما حرمه عليهم، فهم المذمومون[1].

الْوَصْفُ السَّادِسُ: أَدَاءُ الأَمَانَةِ

٣٢- ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ[2] وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

الأمانات هي التي تكون بين العبد وبين الله تعالى، كأداء الفرائض وترك المحرمات، والتي تكون بينه وبين الناس: كالعقود والودائع والأسرار، والمؤمنون يؤدون الأمانات التي ائتُمِنوا عليها، سواء أكانت هذه الأمانات بينهم وبين الله تعالى: أو بينهم وبين الناس، أو بينهم وبين أنفسهم، ولا يخُونون شيئاً منها، كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧] وإذا ائتمنوا لم يخونوا.

الوصف السابع: الوفاء بالعهود: إنهم يحفظون العهود التي بينهم وبين الله تعالى، ويحفظون العهود التي بينهم وبين الناس، فهم إذا عاهدوا لم يغدروا، ويحافظون على العهود والمواثيق ولا ينقضوها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤].

وقد ذم الله اليهود لأن نقض العهود والمواثيق من شأنهم قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ [المائدة:١٣] وقال سبحانه: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة:١٠٠].

---

(١) تفسير الطبري (٥٣/٢٩).

(٢) قرأ ابن كثير بالإفراد في ﴿ لِأَمَٰنَتِهِمْ ﴾ على إرادة الجنس، والباقون بالجمع على إرادة أنواع الأمانات المختلفة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**». وفي رواية: «**وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: الْقِيَامُ بِالشَّهَادَةِ

٣٣- ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ(٢) قَائِمُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم يؤدون الشهادة بالحق دون تغيير ولا كتمان، فهم لا يشهدون إلا بما يعلمون، من غير زيادة ولا نقص ولا محاباة ولا مجاملة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣] وقال سبحانه ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة:٢٨٢] وقال جل شأ من ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ وقال أيضاً: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] إنهم يشهدون بالحق على القريب والبعيد والرفيع والوضيع، ولا يغدلون عن الحق لهوىً أو بُغض في النفس كما قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:٨].

وأداء الشهادة من الأمانات، ولكنها تتعلق بحقوق العباد، وفي تركها تضييع للحقوق فهم يقومون بالشهادة على نحو ما قال ﷺ: «**على مثل الشمس فاشهد**».

وجاء في الحديث (عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها**»(٣).

وذلك في حالة عدم وجود شهود عدول آخرين، وفي حالة توقّف حق شرعي على هذه الشهادة، كالطلاق أو الرضاع، أو النفقة ونحو ذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣)، وانظر (٢٦٨٢،٢٧٤٩،٦٠٩٥)، وصحيح مسلم (٥٩).

(٢) قرأ حفص ويعقوب بالجمع في ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ على تعدد أنواع الشهادة، والباقون بالإفراد لإرادة الجنس.

(٣) ينظر: المسند (٢١٦٨٣،١٧٠٤٠) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه مسلم (١٧١٩)، وأبوداود (٣٥٩٦)، والترمذي (٢٢٩٦).

وفي الحديث الآخر عن عمران بن الحصين ﷺ عن النبي ﷺ وفيه ذمٌّ لمن يبادر بالشهادة من تلقاء نفسه دون أن تُطلب منه «**سيأتي قوم يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون قبل أن يستشهدوا**»[١].

وهذا في حالة وجود شهود آخرين، أو كانوا شهودا غير عدول، أو كانوا شهود الزور، وفي ذلك جمع بين هذا الحديث والحديث الذي قبله وفيه أن (خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يسألها).

وقيل: المراد بالآية: القيام بشهادة التوحيد، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠].

الْوَصْفُ التَّاسِعُ وَالأَخِيرُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلاَةِ، وَثَوَابُ أَهْلِ الإِيمَانِ

٣٤، ٣٥- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ[٢] يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين، المحافظة على الصلاة، فهم يؤدونها في أوقاتها، ولا يُخِلّون بشيء من واجباتها، ويحافظون على أركانها وشروطها والقراءة فيها، وسننها وآدابها، والخشوع والطمأنينة فيها، ومراقبة الله عز وجل.

فالمداومة على الصلاة التي هي أول صفة من صفات المؤمنين في هذه الآيات، ليست هي المحافظة عليها، الواردة في هذه الآية.

قال القرطبي: والدوام غير المحافظة، فدوامهم عليها: أن يحافظوا على أدائها، ولا يُخِلّون بها، ولا يشغلهم عنها شاغل.

ومحافظتهم عليها: أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من اقتراف الآثام، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة

---

(١) ينظر: نص الحديث في البخاري (٢٦٥١، ٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) اتفق القراء على قراءة ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد.

ترجع إلى أحوالها[١].

وقد بُدئت هذه الصفات بالصلاة وختمت بالصلاة.

ثم بين الله سبحانه أن المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة، مستقرون في جنات النعيم، مكرّمون فيها بكل أنواع التكريم والملاذ والمشتهيات، تستقبلهم الملائكة بالحفاوة والتكريم وتقول لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

وهكذا ختم الله صفات المؤمنين في سورة (المؤمنون) بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [١٠،١١].

وختم صفات المتقين في سورة البقرة بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥].

وهكذا: فقد وصف الله المؤمنين بأداء العبادات البدنية كالصلاة والمحافظة ـ عليها ووصفهم بأداء العبادات المالية كالزكاة والنفقة، ووصفهم بالأعمال القلبية كالخشية والخوف، ووصفهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وحسن التعامل مع الله ومع الناس، وحفظ العهود وأداء الأمانة وحفظ الفروج ونحو ذلك.

لاَ مَطْمَعَ لِكَافِرٍ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ

٣٦، ٣٧ - ﴿فَمَالِ[٢] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾

أما الكفار فلا مطمع لهم في دخول الجنة، فمال هؤلاء الكفرة مسرعين نحوك - يا رسول الله - مادّين أعناقهم إليك، مجتمعين حولك حِلَقاً حِلَقاً، يسمعون كلامك، ويستهزؤون بك وبأصحابك، فهم يسرعون إلى تكذيبك والاستهزاء بك، ويديمون النظر إليك ويمدّون أعناقهم نحوك، فأيُّ دافع يدفع الكفار إلى أن يسيروا نحوك مسرعين، مقبلين بأبصارهم عليك.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٩٢/١٨).

(٢) كلمة ﴿فَمَالِ﴾ مفصولة رسما، ويجوز الوقف عند الحاجة على ﴿فَمَا﴾ ويبدأ بها.

جاء في سبب نزول الآية: أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون إليه، ثم يكذبونه ويستهزؤون به وبالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ فلندخُلَنّها قبلهم، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم[١].

فكان الجواب عليهم: ما لهم ينظرون إليك، ويجلسون عندك، وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك[٢].

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥٠].

وكان المشركون أيضاً يتجمّعُون عن يمين النبي ﷺ وعن شماله حِلَقاً متعددة، وجماعات متفرقة، يتحدثون ويتعجبون؟ وهم جالسون حوله ﴿عِزِينَ﴾ أي: جماعات ومتفرقين. كما في الحديث عن جابر بن سمرة ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه يوماً، فرآهم حِلَقاً فقال: «**ما لي أراكم عزين؟ ألا تَصُفّون كما تصُفّ الملائكة عند ربها، قالوا: وكيف تَصُفّ الملائكة عند ربها؟ قال: يُتمُّون الصفوف الأول، ويتراصّون في الصف**»[٣].

قال تعالى:

٣٨، ٣٩- ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾

أي: فبأى سبب يطمع الكفار في دخول الجنة، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين؟ وكيف يطمع كل واحد من هؤلاء الكفار، أن يدخله الله جنات النعيم مع أنه قد كذب خاتم المرسلين؟ إنهم يطمعون في ذلك جهلاً منهم وغروراً، ولكن جنة الله تعالى لا يدخلها أحد بدون إيمان صادق، ولا عمل صالح.

قال تعالى ردا لمزاعمهم ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، فإنهم لن يدخلوها أبداً، ثم بين السبب، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ كما خلقنا بني آدم كلهم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من

---

(١) تفسير الألوسي (٢٩/٦٤) وزاد المسير (٨/٣٥٧) والمستدرك (٢/٥٠٢).

(٢) تفسير الخازن (٤/٣١٠).

(٣) ينظر المسند: (٥/٩٣) برقم (٢٠٨٧٤) بلفظ: «مالى أراكم عزين وهم قعود»، وصحيح مسلم برقم (٤٣٠)، وأبوداود (٤٨٢٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٢)، والطبراني (١٨٢٣)، والبغوى (٢٢٢٧).

نطفة قذرة، من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فهم متساوون مع غيرهم في أصل الخلقة، فكيف يطمعون في دخول الجنة بلا إيمان ولا عمل.

قال قتادة: إنما خُلِقْتَ من قذر يا ابن آدم فاتق الله.

وكان أبوبكر إذا خطب، يذْكُر منيّ ابن آدم، ومُرُورِه من مجرى البول مرتين، وكونه نطفة في الرحم، ثم علَقَة، ثم مضغة، إلى أن يخرج فيتلوث في نجساته طفلاً، فلا يقلع أبوبكر حتى يستقذر أحدنا نفسه[1].

وقال علي ﷺ: مال ابن آدم والكبر، أوله نطفة قذرة، وآخره جيفة مذرة، وبين الإثنين حامل العذرة. وهو البطن الذي يحمل الغائط.

وكيف يتطلع الكفار إلى التميز على غيرهم، ويدّعُون أنهم سيدخلون الجنة قبل المؤمنين؟ بل سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير.

عن بشر بن جِحَاش القرشي ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية .. ثم بزق في كفه ووضع عليها إصبعه ثم قال: يقول الله: (**يا ابن آدم أَنىّ تعجزني، وقد خلقتُك من مثل هذه، حتى إذا سوّيتُك وعدّلتك، مشيتَ بين بُردين، وللأرض منك وئيد - يعني شكوى- فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغتَ التراقي قلت: أتصدّق، وأَنىّ أوان الصدقة**)[2].

وفي معنى الآية قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠] .

وقوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧] .

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٧٠).

(٢) قال الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وأخرجه ابن ماجة برقم (٢٧٠٧)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقال الألباني في الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٩٩) إسناده حسن، وهو في المسند (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٥) بإسناد حسن، صححه البوصيرى في مصباح الزجاجة ورقة (١٧٣)، وعند ابن ماجة (٢٧٠٧)، وابن سعد (٤٢٧١٧).

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٧-٧٩] .

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ كَذَّبَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ

٤٠، ٤١ - ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾

ثم أقسم سبحانه وتعالى: على إمكانية إعادة الخلق، وعلى استبدال الكافرين بآخرين هم أطوع منهم لله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ اللام مؤكدة للقسم ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ أي رب العالم كله، لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها، وهذا شامل للشمس والقمر والكواكب وما فيها من الآيات الباهرة، وهذا القسم على البعث وعلى قدرته تعالى على تبديل أمثال المنكرين له، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وذكر المشارق والمغارب بالجمع، باعتبار تعدّد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة، ويمكن أن يكون الجمع باعتبار مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها.

وجاء في سورة الرحمن ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [آية:١٧] باعتبار الشتاء والصيف.

وفي سورة المزمل ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [آية:٩] أي جهة الشروق وجهة الغروب.

والمقسم عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي قادرون على إهلاكهم واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله، وذلك بتبديل ذواتهم خلْقا آخر، أو بخلق خير منهم، كما قال تعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٦،١٧] .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨] .

وقال عز وجل: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣٣] .

وقال أيضاً: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وإذا أراد الله تعالى هلاك الكافرين واستبدالهم بأفضل منهم، فإنه لا يوجد ما يمنع

ذلك، وهو أمر يسير لا يعجز الله تعالى إذا أراد ذلك، وهذا معنى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي لا يوجد من يسبقنا ويفوتنا أو يعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

والمسبوق هو المغلوب على أمره، والله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يَسبِقُه شيء إلى إرادته، فإذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، فلا يفوته شيء ولا يعجزه أمر، سبحانه وتعالى.

قال تعالى متوعداً ومهدداً:

٤٢ - ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا[1] يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

وبعد أن رد القرآن على قول المشركين: إنا سندخل الجنة قبل المؤمنين، أمر الله رسوله أن يتركهم في طغيانهم يعمهون، فإنهم مصرّون على العناد، ولن يدخل الهدى قلوبهم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي اتركهم ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسد ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، فياكلوا ويتمتعوا ويلعبوا بدينهم واشتغِل أنت بتبليغ الدعوة، فإنه لا فائدة تُرجى منهم، فليستمرّوا على ما هم فيه من باطل ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيه بالعذاب، فإن الله قد أعدلهم من العقاب ما يكافئ خوضهم ولعبهم. وفي هذا تهديد ووعيد لهم بما يحدث لهم يوم القيامة من سوء المصير.

وفي سورة الطور ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [آية:٤٥].

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨].

وَصفُ الكَافِرِ حِينَ يَخرُجُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَى المَحشَرِ

٤٣ - ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ[2] يُوفِضُونَ ﴾

وهذا اليوم الذي يلْقوا فيه العذاب الموعود به، هو يوم القيامة حين تخرج أجسادهم من قبورهم ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿ سِرَاعًا ﴾ أي مسرعين مجيبين لدعوة

---

(١) قرأ أبوجعفر (يَلْقَوْا) مضارع لقى، والباقون ﴿يُلَاقُوا﴾ من الملاقاة.

(٢) قرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد من ﴿نُصُبٍ﴾ جمع نَصْبٍ أو نِصاب، والباقون (نَصْبٍ) اسم مفرد، بمعنى منصوب للعبادة.

الداعي، كما كانوا وهم في الدنيا يذهبون إلى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وهذا معنى قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يُهَرْوِلُون ويسرعون متسابقين إلى أماكن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧].

قال تعالى يصف حالهم عند الخروج من القبور:

٤٤ - ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾

أي: ثم إن الكفار يخرجون من قبورهم، وأبصارهم منكسرة على الأرض، تغشاهم شدة المهانة والقلق والحقارة ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي ذليلة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ﴾ أي تغشاهم وتعلوهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ لا يمكن دفعها، وهذا هو اليوم الذي وُعدوا فيه بالعذاب على ألسنة الرسل وهم في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي سأل عنه سائل في أول السورة، وهذا هو العذاب الواقع، وهذا هو اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة، وهذا هو اليوم الذي أنكروه وهم في الدنيا، فاستهزؤوا به، واستبعدوه، فاليوم يرون جزاءهم وعقابهم.

وقد ختمت السورة بالإجابة عما جاء في بدايتها.

تم تفسير (سورة المعارج) ولله الحمد والمنة

تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ (٧١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة نوح) هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النحل) وقبل (سورة الطور)، أو إبراهيم.

وعدد آياتها في العدد الكوفي ثمان وعشرون آية[١].

وهي مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

وسميت سورة نوح: لعدم اشتمالها على موضوع آخر سوى قصة نوح عليه السلام.

وهي سورة مكية باتفاق.

وقد وردت قصة نوح مع قومه في سور: الأعراف ويوسف وهود والشعراء والعنكبوت والقمر.

وجاء ذكر اسم نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً.

وقد تكلمتُ بالتفصيل عن قصة نوح في سورتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته.

ومن المشتهر أن نوحاً عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة بالعراق، وهناك أرسل، واسم نوح غير عربي، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليهم السلام. وهو من كبار الرسل وأولي العزم منهم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موضوع السورة:

وسورة نوح كسورة يوسف في وحدة الموضوع، ففيها تفصيل لقصة نوح عليه السلام منذ بدء دعوته إلى حادثة الطوفان وإغراق المكذبين، فذكَرتْ جهاده وصبره

---

(١) وفي العدد المكي والمدني والحمصى ثلاثون آية، وفي العدد البصري والشامي تسع وعشرون آية.

وتضحيته في سبيل تبليغ الرسالة، ودعوته لقومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، في أطول مدة للرسالة، بلغتْ تسعة قرون ونصف، وهو زمن طويل، يتّسع لازْدهار دُوَل وانهيارها، ويتّسع لظهور مبادىء وزوالها، ومع ذلك فإن قوم نوح ﷺ ظلوا على ضلالهم، لا يتوبون، ولا يفكّرون في توبة، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده، ويذهب به إلى نوح ﷺ ويقول لابنه: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرني منه.

وبعد هذه القرون الطويلة التي أمضاها نوح ﷺ في البلاغ والتذكير، أعلمه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم نوح بالهلاك، فأغرقهم الله بالطوفان.

وفي أثناء دعوة نوح لقومه، ظهرت عبادة الأصنام، وبدأ منشؤها في العالم،

وكان من وسائل الإيضاح التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوة قومه، أنْ عرض عليهم بعض دلائل التوحيد وآثار قدرة الله تعالى في هذا الكون، وهي موجبة لتوحيده جل شأنه ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وقد أرست سورة نوح أصول العقيدة وتثبيت قواعد الإيمان، وأشارت إلى عذاب القبر واليوم الآخر، وقد بيّن نوح ﷺ لقومه أن توحيد الله تعالى هو الأصل والأساس في دعوة الرسل، فذكر لهم خمسة من آثار قدرته تعالى وهي:

١- مغفرة الذنوب. ٢- وتهيئة أسباب الرزق.

٣- وكثرة الأموال والأولاد. ٤- وكثرة المزارع والبساتين.

٥- وتفجير المياه العذبة من الأنهار والعيون.

ثم أقام نوح لقومه سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى وهي:

١- تدرّج خلقهم. ٢- وخلْق السبع الطباق.

٣- وجعل القمر نوراً. ٤- والشمس ضياء.

٥- وإخراجهم من الأرض. ٦- وعودتهم إليها.

٧- وتمهيد الأرض للسعي في مناكبها.

وقد تلوّنت حكاية أقوال نوح، وأقوال قومه، وأقوال الله تعالى في السورة، وبلغ مجملها ثماني مقالات وهي:

١- ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ [الآية: ١].

٢- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية: ٢].

٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [الآية:٥].

٤- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الآية:١٠].

٥- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [الآية:٢١].

٦- ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [الآية:٢٤].

٧- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الآية:٢٦].

٨- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [الآية:٢٨].

هذا: وإن وحدانية الله تعالى أمر مركوز في فِطَرِ البشر، بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في عالم الذر، ولكن هذا الإيمان يحتاج إلى جُهد بَشَرِي لإقراره في النفوس، وقد اختار الله تعالى لهذه المهمة صفوةً من البشر، أرسلهم إلى خلقه، عندما انحرف الناس عن هذه الفطرة.

وقوم نوح عليه السلام هم أول من عبد الأصنام، وكان الناس قبل ذلك أمة واحدة على دين واحد، هو التوحيد، ثم بدأ الاختلاف في التوحيد من عهد نوح عليه السلام، وكانت المدة بين آدم ونوح عليهما السلام نحو ست مئة عام، وكان عدد الناس وقتئذ لا يتجاوز بضعة آلاف.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

دَعْوَةُ شَيْخِ الْمُرْسَلِينَ قَوْمَهُ إِلَى إِخْلَاصِ التَّوحِيدِ وَالْخَوفِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

١ - ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يخبر الله تبارك وتعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه، رحمة بهم وإنذراً لهم من عذاب مؤلم، وخوفاً عليهم من استمرار هم على الكفر، فيُهلكهم الله ويستأصل شأفتهم. وقال له: حذّر قومك وخوفهم عذاب الله كي يتركوا عبادة الأصنام ويتوجّهوا إلى عبادة الله وحده قبل أن ينزل بهم عذاب لا طاقة لهم بدفعه، هو عذاب الطوفان في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، فالمراد بالعذاب في الآية: عذاب الدنيا والآخرة معاً.

وقد أمر الله نوحاً أن ينذر قومه قبل حلول العذاب بهم، حال بقائهم على الشرك، وبشّرهم نوح عليه السلام، إنْ هم آمنوا واتقوا الله وتركوا عبادة الأوثان، فإن الله تعالى سيغفر لهم ما فرط من ذنوبهم، ويطيل في أعمارهم على طاعة الله تعالى، ويمتّعهم بما سخر لهم من خيرات في هذه الحياة إلى الوقت المضروب لموتهم.

امْتَثَلَ نُوحٌ أَمْرَ رَبِّهِ فَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ

٢، ٣ - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ[1] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ[2]﴾

بين سبحانه وتعالى في هذه الآيات جانباً من دعوة نوح ﷺ إلى قومه، وما ترتب على عدم إجابتهم له، فقد أمرهم بعبادة الله وحده، والخوف من عقابه لهم عند مخالفة أمره ونهيه، وعدم طاعته تعالى فيما أمر ونهى.

وقد رتب سبحانه على هذه الأمور الثلاثة، التي هي: عبادة الله تعالى، وتقواه، وطاعته مغفرة الذنوب، ورفع العذاب عنهم إلى أجل محدد.

---

(١) كسر النون وصلا من ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ أبوعمرو وعاصم وحمزة ويعقوب، والباقون بضمها.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء بعد النون في ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ وصلا ووقفا، والباقون بحذفها في الحالين.

قال نوح لقومه: أنا أبلغكم رسالة ربي، وأخوفكم عذابه المؤلم، إن عصيتموه فلم تُوحّدوه ولم تطيعوه، وأبين لكم مافيه نجاتكم إن أديتم حق الله عليكم، فامتثلتم أمره واجتنبتم نهيه، وإنذار نوح لقومه امتثالاً لقول الله تعالى له ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ بما فيهم أبناؤه وقرابته وأحبته،وهو إنذار واضح لما أنذر به وأنذر عنه، وبامتثال هذا الإنذار تحصل النجاة من النار والفوز بالجنة.

وكان نوح شديد الحرص على نجاتهم من العذاب، وكان الكفر قد شاع في زمانه، واشتهر قومه بعبادة الأصنام، وأكثروا من الظلم والبغي.

ثم أمر نوح قومه بالعبادة والتقوى والطاعة لله تعالى فقال:

١- ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه، وأدوا حقه عليكم، ولا تشركوا به شيئا، وأخلصوا له العبادة، وحده بعيداً عن الشرك ووسائله وطرقه.

٢- ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتركوا ما حرم الله تعالى، واجتنبوا ما يوقعكم في عذابه، وخافوه في كل أقوالكم وأفعالكم، فإنكم إن فعلتم ذلك غفر الله لكم ذنوبكم، وحصل لكم النجاة من الفار والفوز بالجنة وطاعتى طاعة لله تبارك وتعالى.

٣- ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه، فإني رسول الله إليكم.

وفي الآية أمر بطاعة النبي ﷺ بعد الأمر بعبادة الله تعالى وتقواه، لأن طاعتهم للنبي ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال سبحانه ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] .

وقال هنا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ وقد نسب الطاعة إلى نفسه؛ لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى، بخلاف العبادة فإنها لا تكون إلا لله وحده.

وقد أرسل الله المرسلين كي يُعبد الله وحده، وتُتقى محارمه، ويطاع أمره ويجتنب نهيه.

مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ

٤- ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ[1] ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) قرأ ورش وأبوجعفر بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وحمزة وقفاً فقط في ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ و﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾.

ثم بشر نوح قومه بأنهم إن فعلوا ذلك فعبدوا الله تعالى واتقوه وأطاعوه، فإن ذنوبهم التي اقترفوها قبل أن يؤمنوا، يصفح الله تعالى عنها فيما يتعلق بحقوقه تعالى، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يكفر عنكم سيئاتكم التي سلفت قبل طاعة الله والرسول وإجابة دعوته، ولفظ ﴿مِّن﴾ في الآية للتبعيض، لأن الإسلام يجبّ ما قبله من الذنوب دون ما بعده، هذا أمر.

والأمر الآخر: أن الله تعالى يؤخِّر عقابكم إلى وقت معين، عِلْمُه عند الله سبحانه، ويبارك لكم في أعماركم ويزيد فيها، وهذا معنى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي يطيل أعماركم ويمتعكم في هذه الدار ويدفع عنكم العذاب ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو منتهى أعماركم في الدنيا، ويكون ذلك بقضاء الله وقدره، ولا يكون هذا المتاع أبدا الدهر فإن الموت آت لا محالة، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿إِذَا جَاءَ﴾ وأنتم باقون على الكفر أو غير باقين عليه، فإنه ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ أبداً بل يقع لا محالة، و ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لما كفرتم بالله ولما عاندتم الحق، ولأجبتم داعى الله، وانقدتم لأمره، ولسارعتُم وبادرتم إلى الإيمان والطاعة واستجبتم لنصائحي وامتثلتم أمري.

والمعنى: آمنوا - أيها الناس- قبل الموت تَسْلَمُوا من العذاب، فإن الموت إذا جاء فلا سبيل لإمهاله، فبادروا بالطاعة في وقت المهلة، فإنكم إن آمنتم يتبين لكم أنكم ممن قُضِي لهم بالإيمان والتأخير، وإن لم تؤمنوا يتبين لكم أنكم ممن قضي لهم بالكفر والتعجيل.

والأجل المذكور في الآية هو الأجل المسمى، الذي هو أجل كل نفس عند الله تعالى.

وقد أنذر نوح قومه باستئصال الله لهم إن ظلوا على كفرهم، وعندما جاءهم الطوفان كانوا على علم بذلك، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣] .

وقد حدد الله تعالى لهلاك قوم نوح وقتاً معيناً هو وقت أمر الله بالطوفان الذي عمّ المعمورة، وهذا الوقت لم يتقدم ولم يتأخر، وتقدير الآجال في علم الله تعالى لا يتغير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١] .

قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] .

أما ربط الأسباب بالمسببات، كترتيب زيادة العمر أو البركة فيه، على صلة الرحم، كما في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[1]. وفي الأثر (صدقة المرء المسلم تزيد في العمر).

فإن هذا ونحوه من باب المحو والإثبات الذي جاء في قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩] .

هذا: وقد تمنى نوح ﷺ أن لو كان قومه يعلمون هذه السنن من عقوبة الأمم والشعوب عندما تَخْرَج عن دين الله وتعصى أمره ونهيه، لآمنوا بنبيّ الله نوح واتبعوه ووعدهم أن يرسل الله عليهم السماء مدرارا فينتفعون بالمياه في الشرب والزرع وحياة الحيوان، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة الجارية، وغير ذلك من النعم، إن هم آمنوا وأطاعوه، ولكن القوم لم يتعظوا ولم يعتبروا، وتمادوا في كفرهم:

عَدَمُ جَدْوَى دَعْوَةِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ

٥، ٦- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ[2] إِلَّا فِرَارًا[3]﴾

هذه المقالة قالها نوح ﷺ بعد أن طال عمره، وتحقق اليأس من قومه، فقد عرض نوح عليه السلام على ربه عز وجل حصيلة دعوته لقومه بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، قضاها مع قومه في جهد مُضْني، وعَنَاء مرهِق، فذكر أنه دعا قومه إلى توحيد الله تعالى ليلا ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلا كفراً وطغياناً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وقد بذلتُ غاية الجهد، واستنفذتُ جميع الحيل، من غير فتور ولا توان، وتحينتُ جميع الفرص المناسبة

(١) البخاري (٥٩٨٥)، وجاء عن أنس برقم (٥٩٨٦)، وفي مسلم (٢٥٥٧).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وابن عامر وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿دُعَآءِيٓ إِلَّا﴾ وصلا والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق الراء من ﴿فِرَارًا﴾ وكذا ﴿إِسْرَارًا﴾ و﴿مِّدْرَارًا﴾ بعد ذلك، وتفخم لسائر القراء حتى لا تكور.

في وقت النشاط والراحة، والإسرار تارة، والإعلان أخرى، فدعوْتُهم إلى ما أمرتني أن أدعوهم إليه من الإيمان والتوحيد، دعاء دائما في الليل والنهار من غير تقصير.

وقد رأى نوح قوماً، تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا، فقال: هلُمُّوا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ ﴾ لهم بأن يعبدوا الله تعالى ويطيعوه ﴿إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي هرباً وإعراضا عن الدعوة، وبُعْداً عن الإيمان والهدى مع وضوح الأدلة وقيام الحجج.

وهذا تمهيد من نوح عليه السلام لطلب النّصرة عليهم من الله تعالى.

قال قتادة: بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يَغُرّنّك، فإن أَبِي قد ذهب بي، وأنا مثلُك، فحذّرني كما حذّرتُك[1].

نُوحٌ يَصِفُ إِعْرَاضَ قَوْمِهِ عَنْهُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ فَيَقُولُ

٧-﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾

واسترسل نوح عليه السلام في بيان خلاصة تجربته في الدعوة لمدة تسعة قرون ونصف فقال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بالله تعالى، وإخلاص العبادة له دون سواه، وطاعتي فيما أمرتُهم به ليكون ذلك سبباً في محو ذنوبهم لم يزدهم ذلك إلا نفورا أو إعراضاً، عن الحق وتمادياً في الباطل.

ثم صور نوح عليه السلام عناد قومه وجحودهم للحق تصويرا بالغ الغاية في استحبابهم العمى على الهدى. **فوصفهم بأربعة أوصاف:**

الوصف الأول: أنهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي وضعوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا قولي، إعراضا عن الحق، وقد جرت عادة بعض الناس إذا أراد أن يظهر كراهيته لكلام من يتكلم: أن يجعل أصبعيه في أُذُنيه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣١٩).

وهكذا يقول المعرضون عن القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦].

وقد وصف الله المنافقين بقوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة:١٩].

الوصف الثاني: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي غطُّوا وجوههم بثيابهم وجعلوها أَغْشِية على رؤوسهم كي لا يروْا مَنْ يتلو القرآن عليهم، كراهية النظر إليه، بعداً عن الحق وبغضاً له، وهذا من عادة بعض الناس، يستُر عينيْه بمنديل أو بطرف ثوبه، حتى لا يرى من ينصحه أو يتلو عليهم كتاب الله تعالى، وهذا يدل على شدة العداوة ومنتهى الإعراض.

الوصف الثالث: أنهم ﴿وَأَصَرُّواْ ﴾ على الكفر والشرك، والاستمرار عليه، فأقاموا على ما هم فيه من الشرك وعبادة الأوثان، والإصرار هو العزم وعقد النية على الشيء.

الوصف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي استكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً، فازداد شرُّهم، وبَعُدَ خيرهم، ومِنْ مُبالغتهم في التكبر أنهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧].

وجملة ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ تدل على أنّ هذا الذي حدث لنوح عليه السلام يشمل كل دعوة، ويتكرر في كل وقت، على أيدي الدعاة إلى الله تعالى.

نُوحٌ يُنَوِّعُ أَسَالِيبَ الدَّعْوَةِ: فَيُحَذِّرُ وَيُنْذِرُ، وَيُرَغِّبُ وَيُرَهِّبُ فَيَقُولُ:

٨، ٩- ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ[1] أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

أي أن نوحا عليه السلام نوّع دعوته لقومه، وتوخّى ما يظنه أقرب إلى قلوبهم، فجهر بالدعوة في المجامع العامة حين يكون الجهر أجْدى، وأسرَّ بالدعوة لمن كان الإسرار مناسباً لحاله، لقد دعاهم إلى الإيمان والتوحيد علنا في غير خفاء، فظهرت دعوته للجميع، ثم قال ما معناه:

---

(١) فتح نافع وأبوعمرو وأبوجعفر ياء الإضافة وصلا من ﴿إِنِّىٓ أَعْلَنتُ﴾ وسكنها الباقون.

ثم إني كررتُ دعوتي لهم بالتوحيد مُعْلناً ذلك بأعلى صوتي تارة، وفي حالة أخرى أسررتُ لهم بالدعوة، بصوت خفي عندما توقَّعْتُ أن ذلك أجدى.

لقد سلك نوح مع قومه طريقة السر المحضة، ثم طريقة الجهر المحضة، ثم اتخذ طريقا ثالثا فصار يجهر بالدعوة مرة ويسرها مرة حيث يرى الأنفع، فسلك معهم كل طريق، كما يفعل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فيبدأ بالأهون، ثم الأقوى فالأقوى، دعاهم سراً، ثم جهراً، ثم جمع بين السر والعلن، فنوَّع الدعوة إلى قومه، وفاوت بين الأساليب، فمرة يخوف، وأخرى يُبشر ومرة يشتد، وأخرى يلين، ومرة يُذكرهم بالنعم، وأخرى يذكرهم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، فلم تنفعهم الموعظة، ولم تُفِدهم الذكرى، فمكروا بدعوته، وأصروا على عصيانه ومخالفته، وأوصى بعضهم بعضًا بالتمسك بالباطل وعبادة الأصنام.

كَثْرَةُ الاسْتِغْفَارِ سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزْقِ وَهَنَاءِ الْعَيْشِ

١٠، ١١- ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

ثم وضّح نوح عليه السلام ما وعظ به قومه وأرشدهم إليه سرا وعلانية: حيث طلب منهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه من شركهم، فإنهم إن فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم، ورزقهم من حيث لا يحتسبوا، وغمرتْهم الخيرات من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وبعد ذلك وبخهم وعنّفهم على عدم خوفهم من عظمة الله سبحانه، وهكذا فقد ذكّرهم نوح عليه السلام بكثرة الاستغفار وبين لهم ما يترتب عليه من كثرة الأرزاق وهناء العيش:

الاستغفار من الشرك:

والمراد بالاستغفار: التوبة والرجوع عن الكفر إلى الإيمان، فإنهم إن أقلعوا عن كفرهم، وآمنوا بربهم، يغفر الله لهم ما سلف مِنْ كفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾[الأنفال:٣٨] وكما دعا سبحانه وتعالى

المشركين القائلين: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، إلى التوبة من شركهم، فإنْ هم فعلوا ذلك قَبِل الله توبتهم وغفر لهم ذنوبهم، فقال تعالى عنهم ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٤] ، وهكذا يغفر الله للكافر والمشرك إذا هو تاب من شركه وكفره قبل الموت.

جاء عن سلمان: أكثروا من الاستغفار، فإن الله لم يعلِّمكم الاستغفار، إلا وهو يريد أن يغفر لكم[1]، ومن ذلك: الاستغفار من سائر الذنوب والمعاصي، والاستغفار تعبدًا لله تعالى، وقد رتّب الله تعالى على كثرة الاستغفار أربعة أمور:

أولها: تهيئة أسباب الرزق: وبعد قبول التوبة ومغفرة الذنوب فإن الله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أي مطراً متتابعاً، يَروي الشعاب والوهاد، ويسقي العباد والبلاد، وهكذا: يهيء لكم أسباب الرزق، وأهمها نزول الماء، والماء عنصر لابدّ منه لإخراج الزروع والثمار والنبات من الأرض، ولحياة الإنسان والطير والحيوان.

والمعنى: يرسل الله المطر عليكم غزيراً متتابعاً لتنتفعوا به في مختلف شؤون حياتكم، ويراد بالسماء في قوله تعالى ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي المطر.

كما جاء ذلك في حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه قال: (**صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إِثْر سماءٍ كانت من الليلة**)[2] أي على إثر مطر نازل من السماء.

وذلك أن قوم نوح لما كذبوا رسولهم زمناً طويلاً، حبس الله عنهم المطر مدة طويلة، حتى هلكت أموالهم ومواشيهم، فقال لهم: استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد، حتى يفتح الله عليكم أبواب الخير والنعمة.

روى الشعبي أن عمر بن الخطاب ﷺ، خرج يستسقي بالناس، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع[3].

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٧٠٦/١٤).

(٢) الحديث في البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٢٣٢/٨)، وابن عطية (٣٧٤/٥).

وعن بكر بن عبد الله أن أكثر الناس ذنوباً، أقلهم استغفاراً، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً[(١)].

وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر وقلة النسل، واشتكى آخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا هذه الآيات.

ففي الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب حصول الرزق، ويؤخذ منها أن الاشتغال بالاستغفار، سبب لانفتاح أبواب الخير، وأن الكفر سبب لخراب العالم.

قال جل شأنه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

وإذا كان واقع الحياة يشهد بأن الدول غير المسلمة أكثر أمناً وسعادة ورفاهية، فإن ذلك من باب الامتحان والابتلاء، وتعليمنا ضرورة الأخذ بالأسباب، وهذا لا يتعارض مع كون العاقبة الطيبة لعباد الله المؤمنين، وأنهم في الدنيا أكثر اطمئناناً وسعادة من أهل القلق النفسي، والشقاء القلبي، والاكتئاب والاضطراب الذي يعيشه غيرهم.

وَثَانِيهَا: كَثْرَةُ الأَمْوَالِ وَالذُّرِّيَّةِ

١٢ - ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

أي: وفضلاً عن مغفرة الذنوب، وتيسير أسباب الرزق، فإن الله تعالى يرزقكم بالأموال والبنين التي تدركون بهما من الدنيا ما تطلبون.

وثالثها: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين من أشجار مظلة، وحدائق ذات نخيل وأعناب تتمتعون بثمارها وجمالها.

ورابعها: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ تجري من خلال البساتين، تشربون منها، وتسقون منها زَرْعكم ومواشيكم، وهذا أبلغ ما يكون من لذائذ الدنيا ومطالبها.

---

(١) تفسير الخازن (٤/٣١٢).

في رحاب دعوة نوح لقومه:

ونوح عليه السلام يُحرّك دواعي الإيمان في نفوس قومه بما جُبل عليه الإنسان من محبة الأموال والبنين والحدائق والمياه. بعد أن وضّح لهم خلاصة الدعوة إلى الله تعالى في جميع الأجيال، وهي عبادة الله تعالى، وتقواه، وطاعة رسوله.

لقد أطمع نوح قومه بنزول المطر الغزير المتتابع، وكثرة الأموال والأولاد وكثرة الحدائق والبساتين الواسعة الفسيحة، ذات الأشجار المظلة المثمرة والأنهار العذبة التي تتخللها، أطمعهم في بركات الأرض والسماء إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح خزائن الأرض والسماء.

وأتاهم نوح عليه السلام من طريق إثارة القلب والمشاعر لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من قلة الأمطار، وما حُرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله تعالى صاحب النعم، مغدق الرزق، فلا ينبغي لأحد أن يكفر بالإله القادر، ويعبد آلهة لا تضر ولا تنفع ولا تملك موتاً ولا حياة ولانشوراً.

ثم بين نوح عليه السلام لقومه الجزاء المترتب على ذلك، وهو التخلّص من الذنوب التي سلفت، وتأخير عذاب الاستئصال في الدنيا إلى الأجل المضروب في علم الله تعالى، وهو اليوم الآخر.

وبهذا فإن نوحاً عليه السلام قد بذل غاية جهده بجميع الوسائل المتاحة في دعوة قومه دون كلل ولا ملل، ولم يجد لدعوته جدوى، بعد أن رغّبهم في مغفرة الله تعالى، وسعة الأرزاق، وكثرة الرخاء، إن هم رجعوا عن كفرهم وشركهم، وهذه سنة من سنن الله تعالى قررها القرآن في كثير من آياته:

١ ـ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥،٦٦] .

٢ ـ وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

٣ ـ وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود:٣] .

٤ ـ وقوله أيضا: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود:٥٢] .

وما من أمة من الأمم أقامت شرع الله تعالى، وتوجهت توجُّهاً حقيقياً إلى ربها، إلا حقق الله لها العدل والأمن والرخاء كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦] .

وما يخالف هذه القاعدة في الواقع، فهو لسبب وحكمة يعلمها الله سبحانه.

نُوحٌ يَتَعَجَّبُ مِنْ إِعْرَاضِ قَوْمِهِ وَيُلْفِتُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى ثَمَانِيَةٍ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٣، ١٤ - ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

هذا أسلوب آخر من أساليب دعوة نوح لقومه يهز بها نفوسهم هزاً، ويعطفها نحو الإيمان والتوحيد حيث يتعجب نوح ﷺ من عدم إجابة قومه، ويُنكر عليهم سوء أدبهم مع الله تعالى، فيُلْفت أنظارهم إلى آيات الله تعالى في أنفسهم وفي الكون من حولهم، فقال لهم: أي شيء يمنعكم من تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره، فتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً؟

عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ رأى أناساً يغتسلون عُراة، ليس عليهم أُزُر، فوقف فنادى بأعلى صوته: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[1].

ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، أليس لله عندكم قدراً؟

ما لكم ـ أيها القوم ـ لا تستحيون من الله، ولا تعرفون له قدراً ولا عظمة، ولا تبالون باطِّلاعه عليكم.

(١) مصنف عبد الرزاق (١١٠٢).

ما لكم لا ترجون ثواباً من الله تعالى، ولا تخافون عقابه، فلا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة، والواجب عليكم أن تعبدوه رجاء ثوابه بعبادتكم له، وتوقيركم إياه، إنه لا عذر لكم يضرفكم عن تعظيم الله تعالى، وفي الوقت ذاته، فأنتم تعظمون أوثانكم وتلتمسون منها النفع والضر، والأولى بكم أن تخافوا عظمة الله تعالى وقدرته على معاقبتكم.

ثم دعاهم نوح عليه السلام إلى التأمل في ثمانية من آثار قدرة الله تعالى، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويرجعون عن كفرهم، وأخذ نوح يرغّب قومه في طاعة الله تعالى وتوحيده والوقوف عند حدوده بمجموعة أخرى من آيات الله تعالى في سمائه وأرضه وما جعل فيهما من نور القمر وضوء الشمس، وكيف أنبتهم الله من الأرض، ثم يعيدهم فيها ويخرجهم يوم البعث والنشور، وكيف مهد الله لهم الأرض وسلك فيها السبل لاستخراج المعادن والزروع، **وأول دليل في هذه الأدلة، يتعلق بالإنسان:**

الدليل الأول: النظر في خلق الإنسان:﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾:

لقد خلقكم الله طوراً بعد طور: خلقاً من بعد خلق في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم الطفولة، ثم في سن التمييز، ثم سن الشباب ثم في سن الشيخوخة: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم كسوة هذا العظم باللحم، ثم يصير العظم المختلط باللحم بشرا سويا مكونا من جسد وروح في أحسن تقويم، حيث تكونون صبيانا ثم شبابا ثم شيوخا، فتبارك الله أحسن الخالقين:

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] وقوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧-٩] .

ومن هذه الأطوار قوله تعالى﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ ﴾ [الروم:٥٤] .

فكيف تقصّرون في توقير مَنْ خلَقكم على هذه الأطوار البديعة، وبعدها يأتي طور الموت، ثم طور البلى على الأجساد، ثم البعث بعد الموت، وكلها تحتاج إلى إعمال فكر ونظر، فالذي انفرد بالخلق والرزق والتدبير، يتعين إفراده بالتوحيد والعبادة، وفي بدء الخلق علامة على إعادته، فالذي أنشأهم من العدم قادر على بعثهم بعد موتهم.

الدَّلِيلُ الثَّانِي مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ: النَّظَرُ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ

١٥- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾

وبعد أن نبههم نوح عليه السلام إلى النظر في أنفسهم، وجّههم في الدليل الثاني إلى النظر في العالم العُلوي ومافيه من عجيب قدرة الله تعالى حيث خلق سبع سموات، فوق بعض، بين كل أرض وسماء خلْق وأمر، ألستم ترون بأعينكم كيف أن الله تعالى خلق سبع سماوات متطابقة بعضها فوق بعض، فكل سماء جُعِلَت طبقاً للأخرى، وهي في غاية الإتقان والإبداع، فكيف لا تنظرون وتفكرون وتعتبرون، وخلق السموات أكبر من خلق الناس، والخالق لهذا العالم هو الجدير بالعبادة دون سواه.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ: التَّدَبُّرُ فِي تَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

١٦- ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ[(١)] نُورًا[(٢)] وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾

ومن قدرة الله تعالى أنه جعل القمر نوراً في هذه السماوات، منوّراً لوجه الأرض دون حرارة فيه، وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً فيها حرارة وضياء، يستضيء به أهل الأرض في السماء الأولى، وهي محاطة بسائر السموات، ولذا قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أي: جعل نور القمر في مجموع السموات، ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومَغيبها، ويعرف بهما الصيف والشتاء كذلك، وعبّر عن الشمس بالسراج، لأنه

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه، وكسر الهاء باقي القراء، ووقفوا عليها بنون مشددة فيها عنه.

(٢) عدّ الحمصى وحده ﴿ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ آية، وأسقطها غيره من العدد.

أقوى وأكمل من نور القمر.

ونور الشمس يضيء بنفسه، أما نور القمر فإنه يستمد نوره من الشمس، حيث تنعكس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجه القمر، كُلاً أو بعضاً، وهذا سبب ظهوره هلالاً ثم بَدْراً ثم يعود كالعرجون القديم، فنور الشمس ذاتي، ونور القمر عرَضي، وجعل الله القمر منازل وبروجاً، وفاوت بين نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستتر، ليدل على مضيّ الشهور والأعوام.

قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥] .

قال الفخر الرازي: القمر في السماء الدنيا، وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق، فليس المراد أن ذات السلطان حاصلة في كل أنحاء العراق، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق، فكذلك القمر(١).

وقال أبوحيان: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفاً للقمر، لأنه لا يلزم الظرف أن يملأ المظروف، تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها(٢) .

وفي الآية دليل على كثرة منافع الشمس والقمر، وعلى عظيم قدرة الله تعالى، التي يستحق أن يُشكر عليها، ويُعبد ويُخاف ويُرجى.

وإذا كان الله تعالى قد زيّن السماء الأولى بالكواكب، وأن القمر منير فيها، فإن وصول الإنسان إلى القمر أمر ممكن، ويقال مثل ذلك في الكواكب الأخرى.

وهذا هو الدليل الثالث والرابع من دلائل قدرة الله تعالى في هذا السياق.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ وَالسَّادِسُ: نَشْأَةُ الإِنْسَانِ مِنَ الأَرْضِ وَعَوْدَتِهِ إِلَيْهَا وَخُرُوجِهِ مِنْهَا

١٧، ١٨ - ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

(١) التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) بتصرف .

(٢) البحر المحيط (٣٤٠/٨).

ثم لفت نوح عليه السلام أنظار قومه إلى التأمل في نشأتهم، وعودتهم إلى الأرض عند الموت، ليستدلوا بذلك على وحدانية الخالق سبحانه.

أي والله أنشأ أصلكم آدم من الأرض وأنبتكم منها إنباتاً عجيباً، حيث أخرجكم من الأرض كما يخرج النبات.

فنشأة الإنسان تشبه نشأة النبات في الكبر بعد الصغر، والطول بعد القصر، فكُلاً منهما ينمو بتناول الغذاء الحيواني والنباتي المستمد من الأرض، ولذا سمى الله تعالى هذا الخلق إنشاء، كما أن آدم عليه السلام خُلق من تراب، والنبات خرج من التراب، وحين خلق الله آدم كنتم في صلبه أيها الناس.

وفي الآية إشارة إلى خلق آدم عليه السلام، فصح نسبة نشأة الإنسان إلى الأرض.

وكما أن الله تعالى خلقكم من الأرض، بخلق أبيكم آدم منها، فإنكم تعُودُون إليها لتُدفَنُوا فيها بعد موتكم، فتتحلّل أجزاؤكم حتى تعود تراباً وتختلط بالأرض وتندمج فيها.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ وبعد إعادتكم إلى الأرض - أيها الناس - ودفنكم فيها، تخرُجون منها للبعث والنشور، فالله تعالى هو الذي بملك الحياة والممات والنشأة الأخرى.

وهذا معنى: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي بالبعث والنشور، دفعة واحدة، وليس على سبيل التدرج كالمرة الأولى، قال تعالى ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] .

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥] .

وهذا والذي قبله هو الدليل الخامس والسادس من دلائل آثار قدرة الله تعالى في السورة.

الدَّليلُ السَّابِعُ وَالثَّامِنُ مِنْ دَلائِلِ القُدْرَةِ: بَسْطُ الأَرْضِ وَتَمْهِيدُهَا لِلسَّعْيِ وَالمعَاشِ

١٩، ٢٠ - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾

ثم لفت نوح عليه السلام أنظار قومه إلى الأرض التي يعيشون فوقها، وكيف أن الله تعالى مهّدها للسير فيها، وجعلها واسعة فسيحة للسعي في مناكبها والأكل من رزق الله، فقد جعل الله الأرض مبسوطة ممتدة في عين الرائي، مستوية كالبساط، وهو ما يُفرش للنوم والجلوس عليه، فهي لا توجِع أرجل الماشين فوقها، ولا تقضُّ مضاجع النائمين عليها، وقد شُبّهت الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها.

وليس في الآية دليل على عدم كروية الأرض، لأن الكرة الكبيرة يُرى كل ما عليها مسطّحا، والناس تتعلق عليها كالبساط، فلفظ بساطا يقتضي أن الأرض بسيطة كروية.

وقد خص الله تعالى بالذكر من منافع الأرض: اتخاذ الطرق الضيقة والواسعة للأسفار والسعي في أرجائها، كي تتخذوا منها ـ أيها الناس ـ طرقاً واسعة، والفج هو المسلك بين جبلين، أي: لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في تقلباتكم وتنقلاتكم في أرجاءها.

وكل هذه الأدلة حقائق مشاهدة وثابتة على وجه القطع ولا يمكن إنكارها.

ولو لا أن الله تعالى بسط الأرض ومهّدها لما أمكن حرثها وزرعها والبناء عليها والسكون على ظهر ها، واستغلال خيراتها والعيش فوقها.

إن دلائل وحدانية الله تعالى تنبيهات للعقل النائم حتى يصحو، إننا نأكل نبات الأرض فيتحول في أجسامنا إلى عضلات ودماء، فمن الذي يقوم بتحويلها، أهو الله سبحانه، أم وَدًّا وسواعاً؟

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى رَبِّهِ

٢١، ٢٢ - ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ(١) إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الواو الثانية من ﴿وَوَلَدُهُ﴾ وإسكان اللام، وقرأ الباقون بفتح الواو واللام، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل، وقيل: المضموم جمع المفتوح.

وبعد أن سلك نوح جميع الطرق التي تحمل قومه على الإيمان والاستجابة لدعوته، لم يجد منهم إلا عنادا وإصرارا على الكفر، ولم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، فالتمس من ربه أن يقطع دابرهم، بعد أن قطع الله رجاءه في إيمانهم حين قال له ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦] فاستنصر نوح ربه قائلاً ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ إن قومي قد كذبوني فيما أمرتهم به، ولم يستجيبوا لدعوتي وخالفوا أمري، وأصروا على كفرهم، فسدوا مسامعهم، وتغطّوا بثيابهم، حتى لا يسمعوا قول الداعي ولا يبصروه، وهذا معنى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي واتبع الضعفاء منهم، الرؤساء الضالين الذين أبطرتهم الأموال والأولاد، ولم تزدهم النعم التي أنعم الله بها عليهم إلا جحودا وضلالا في الدنيا وعقابا في الآخرة، فهلكوا وخسروا في الدارين.

كما قال تعالى ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ المزمل:١١] .

والذين يتبعونهم، يكونون مثلهم في الخسارة، وهم يحسبون أنهم أرشدوهم إلى النجاح، ولكنهم كانوا أسوة لهم في الضلال.

ثم إن الزعماء من قوم نوح لم يكتفوا بتحريض غيرهم على الكفر، بل إنهم أضمروا الكيد لنوح عليه السلام، فكانوا يدبرون الحيل لكيده، ويحرّشون الناس على إيذائه وإيذاء من اتبعه ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي ومكر رؤساء الضلال بنوح مكراً عظيماً متناهياً في الكبر، كما مكروا بالضعفاء من قومه مكْراً عظيماً، فصدوهم عن الدين، وحرّضوهم على أذى نوح عليه السلام.

ويوم القيامة يقول الأتباع للمتبوعين ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] .

أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ الْخَمْسَةِ

٢٣ - ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا [١] وَلَا سُوَاعًا [٢] وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا [٣]﴾

أي وقال الرؤساء للضعفاء من قوم نوح: لا تتركوا عبادة آلهتكم إلى عبادة الله وحده، التي يَدْعُوكم إليها نوح عليه السلام، فدعوهم إلى التعصب والاستمرار على ما هم عليه من الشرك، وألا يتركوا عبادة مَنْ قبلهم، فاحذروا أن تتركوا عبادة آلهتكم التي وجدتم عليها آباءكم، واستمروا على ما أنتم عليه، ومن ذلك عبادة الآلهة الخمسة على وجه الخصوص وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً، وهذه أسماء لرجال صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أقيموا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها، تماثيل لهم، وسمُّوها بأسمائهم، ليكون هذا أَدْعى إلى التشبُّه بهم في العبادة، فصوَّرُوهم، ولما مات هذا الجيل وجاء جيل ثان وثالث، نسي الناس أصل المسألة، وعبدوا هذه التماثيل من دون الله، وهكذا يحدث مثل هذا، أو قريباً منه في مواطن من العالم.

والآية تقتضي أن هذه الأنصاب عُبدت قبل الطوفان، ثم إنها قد اندثرت، وجرفها الطوفان زمن نوح ﷺ ولكن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجَوْا مع نوح من المؤمنين، فكانوا يعظون أبناءهم بما حلّ بأسلافهم بسبب عبادة تلك الأصنام، وأخذ العرب الأقدمون يتحدثون بها، حتى جاء عَمْرو بن لُحَيّ الخزاعي، فأعاد لهم عبادتها، وسمى لهم أصنامهم، بأسماء أصنام قوم نوح وغيرها:

١- فكان في دومة الجندل، بلاد كلب، صنم اسمه «ودّ» وكان هذا الصنم على صورة رجل، مصنوعاً من رصاص.

---

(١) قرأ نافع وأبوجعفر بضم الواو من ﴿وَدًّا﴾ والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد، اسم صنم

(٢) ترك الحمصى، والكوفي ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾، فليست آية عندهما، وهى آية عند بقية أهل العدد.

(٣) عد الحمصى والكوفي والمدني الأخير قوله تعالى ﴿وَنَسْرًا﴾، آية، وتركها غيرهم.

٢- وكان لهذيل صنم اسمه «سواع».

٣- وكان لقبيلة مراد، وغُطَيف، وهي بطن من مراد بالجرف عند سبأ، كان لهم صنم على صورة أسد، اسمه «يغوث» عبدتْه غطفان وأهل جرش وبعض قبائل طيء.

قال عثمان النهدي: رأيت يغوث من رَصاص، وكانوا يحملونه على جَمَل أمرد، أي يخبط بيديه إذا مشى، ويسيرون معه ولا يُهيِّجونه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم هذا المنزل، فيضربون عليه بناء، ينزلون حوله.

٤- وكان لهمدان صنم اسمه «يعوق» وهو على صورة فرس.

٥- وكان لحِمْير، وذي الكلاع منهم، صنم اسمه «نَسْر» على صورة النّسْر من الطير[1].

وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحِمْير، لآل ذي الكلاع.

وكانت هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبواْ إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم عُبدت[2].

وقال محمد بن كعب، عن «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً»: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا، كان لهم أتباعاً يقتدون بهم، ويأخذون مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صوّرْتُم صورهم، كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا قبلكم، كانوا يعبدونهم، فعبدوهم[3].

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٩/٢٠٨) وغيره.

(٢) صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٠) وفتح الباري (٨/٦٦٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٩/١٢) وتفسير الخازن (٤/٣١٣).

وروى البخاري عن ابن عباس قال: (كان اللات رجلاً يَلتُّ السَّويق للحجاج)[١].

وقال ابن الكلبي: واللات بالطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مُربّعة، وكان يهوديّ يَلتُّ السّويق عندها[٢].

وكان للعرب أصنام أخرى مثل: العزى، لقبيلة سُلَيم وغَطَفان وجُشيم. ومناة كانت لخزاعة بقديد، وإساف ونائلة وهبل، كانت لأهل مكة.

وسَمّت العرب أنفسها بأسماء هذه الأصنام، فقالوا: عبد العزى، وعبدوُدّ، وعبد يغوث وهكذا.

وعبادة الأصنام، هي السبب في تحريم صنع التماثيل، وتحريم بناء القباب على القبور، لأنها تصير مع تطاول الزمن معبوداً للجهال.

وهذا أمر حاصل عند أصحاب الأضرحة، حيث يعتقد العامة فيهم، فيذبحون لهم، أو عندهم وينذرون لهم، ويسألونهم كشف الضر وجلب النفع، ويطلبون منهم العون والمدد.

ولا يرفع هذه الغمة عن الأمة بعد الله تعالى، إلا جرّةُ قلَمِ حاكم مسلم مُوَحِّد، يبتغي بها وجه الله تعالى. **قال سبحانه حكاية عن قول نبي الله نوح عليه السلام:**

٢٤- ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا [٣] وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾

واصل نوح مناجاته لربه بعد أن يئس من إيمان قومه فقال ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي أن الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا من العرب والعجم وسائر بني آدم، ولذا دعا إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها فقال ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم:٣٥]

أو يكون المعنى أن زعماءهم قد أضلوا كثيرا من الناس، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال، فحبّبوهم في الكفر وكرّهوا لهم الإيمان.

ثم سأل نوح ربه أن يزيد الكافرين ضلالاً على ضلالهم فقال ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٩).

(٢) كتاب الأصنام (ص ١٦) عن ابن عباس.

(٣) عدّ المدني الأول والمكي لفظ (كثيراً) آية، فيكون متروكاً لغيرها.

لأنفسهم بالكفر والعناد ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: بُعْداً عن الحق، فهم لا يزيدون بدعوتهم إلى الحق إلا كُفْرًا وعناداً، فلم يبق مجال لصلاحهم واستجابتهم، واستحقوا بهذا الضلال العقوبة في الدنيا والآخرة.

وكان دعاء نوح على قومه بعد أن قال له ربه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦] وهذا كدعاء موسى على قومه حين قال ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] .

استجابة الله تعالى لدعاء نوح على قومه

٢٥- ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ[1] أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟[2] نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾

وقد استجاب الله تعالى دعاء نوح عليه السلام، فأغرقهم بالطوفان في الدنيا، وأدخلهم النار في الآخرة، وكان ذلك بسبب كفرهم وذنوبهم، قال تعالى ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي فبسبب ذنوبهم وإصرارهم على الكفر والطغيان ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان الذي أحاط بهم ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي أدخلوا عقب الإغراق ناراً عظيمة اللهب والإحراق، فذهبت أبدانهم في الغرق، وذهبت أرواحهم للنار والحرق، وكان هذا بسبب طغيانهم لمَّا لمْ يقبلوا دعوة نبيهم.

وقد فعل الله بهم ذلك ليُعْلَم أن الله تعالى لا يقرُّ عباده على الشرك، بعد أن يرسل إليهم رسولاً، وقد أظهر الله تعالى كرامة نوح عند ربه، فأجاب دعوته فيهم، كما أجاب دعوة موسى على قومه فأنزل بهم عقوبته.

ثم إن هذه الأصنام، لم تدفع الكوارث عمن عبدوها، حين نزل بهم عقاب الله تعالى، فعندما نزل بهم الطوفان الذي أهلكهم، لم تُغْنِ عنهم آلهتم من الله شيئاً، وعندما ينزل بهم عذاب الله في الآخرة، لن يجدوا أحداً ينصرهم أو يُغيثهم ويدفع عنهم عذاب الله

---

(١) قرأ أبوعمرو (خطاياهم) والباقون ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ والأول جمع تكسير لخطيئة، والثاني جمع بالألف والتاء لخطيئة أيضاً.

(٢) لم يعد الكوفي ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ آية، فيكون معدوداً لغيره من علماء العدد.

تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا من الأصنام ولا من غيرها، كما قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣] فلم يجد المغرقون أحدا سوى الله تعالى ينصرهم ويصرف عنهم بأسه وانتقامه.

واستدل بعضهم بهذه الآية على عذاب القبر، لأن الفاء من قوله تعالى ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ للتعقيب، أي أن دخول النار كان عقب الإغراق، وهذا لا يكون إلا في القبر، أما بالنسبة للآخرة فإن المعنى: سيدخلون ناراً.

وهذه الآية معترضة بين دعاء نوح على قومه، وهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمداً ﷺ بأنه تعالى قدّر النصر لنوح، والعقاب لقومه الذين عصوْه، وكان ذلك قبل أن يسأل نوح ربه استئصالهم.

نُوحٌ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَأْصِلَ كُفَّارَ قَوْمِهِ

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾

وواصل نوح مناجاته لربه بالدعاء على قومه بعد أن يأسه الله من إيمانهم، فقال: يارب لا تترك من الكافرين بك، أحداً حيّاً على وجه الأرض يدور ويتحرك فيها، فمعنى ﴿دَيَّارًا﴾ أي يدور في الأرض، فيذهب ويجيء، من الدوران، أو من الدار بمعنى: لا تترك أحداً نازلاً في دار من الدور حيّاً، فإن أئمة الضلال ورؤوس الكفر خطر على كل موحّد، وحجر عثرة في سبيل الإصلاح، فهم يُضلون العباد، وبقاؤهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦] فعندئذ دعا نوح عليهم، ثم دعا ربه دعوة عامة. **فقال تعالى:**

٢٧- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

ثم علّل نوح عليه السلام دعاءه على قومه بما أخبره به ربه: أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال ﴿إِنَّكَ﴾ إن تتركهم يارب دون إهلاك، فإنهم يضلوا عبادك الذين آمنوا بك.

وقد أعلم الله تعالى نوحاً بأن أبناءهم سيكونون مِثْلهم على دينهم، فقال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا

﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي ولا يأت من أصلابهم وأرحامهم إلا صادّ عن الحق، شديد الكفر بك، والعصيان لك، فإن أولادهم ينشؤون على الشرك، ويتربّوْن على الكفر، وكان نوح قد استقرأ أحوال قومه بحكم إقامته بينهم أكثر من ألف عام.

قال ابن عباس رضي الله عنها وغيره: كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي حذّرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك.

وكان دعاء نوح على قومه قبل نزول الطوفان بهم بأربعين سنة، وقيل: أكثر، بعد أن أخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمناً، فدعا عليهم وأهلكهم الله تعالى استجابة لدعائه.

جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنها: لو رحم الله من قوم نوح أحداً، لرحم امرأة لَمَّا رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء، صعدت به مَنْكِبها، فلما بلغ الماء مَنْكِبها، وضعتْ ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها، رفعت ولدها بيديها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة. وفي حديث عائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»[1].

نُوحٌ يَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَدْعُو عَلَى الْكَافِرِينَ

٢٨- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ[2] وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ[3] مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾

ثم ختم نوح عليه السلام مناجاته ربّه بالدعاء لنفسه ولوالديه، ولكل أهله وذويه، من كل من دخل بيتَه وسكن دياره، من كل مؤمن ومؤمنة، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ما صدر

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وشاهده حديث عائشة في المعجم الأوسط للطبراني برقم: (٣٥٩١) والحاكم في المستدرك بنحوه (٢/٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله إسناده مظلم، وموسى بن يعقوب المذكور في إسناده ليس بذاك، وقال ابن كثير: حديث غريب ورجاله ثقات.

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ بخلف عنه.

(٣) قرأ هشام وحفص بفتح ياء الإضافة وصلا من ﴿بَيْتِيَ﴾ والباقون بإسكانها .

مني من ذنب، أو من مخالفة الأولى ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وكانا مؤمنين به.

وكان بين آدم ونوح عشرة آباء لنوح، لم يكن منهم أحد كافراً، ثم دعا لكل من دخل بيته فقال: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ من كل من يسكُن المعمورة من الأرض آنذاك، وهو من أهل الإيمان بأن كان ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي واغفر يارب لكل من آمن بالله إلهاً واحداً في أرجاء المعمورة، إنه سميع مجيب الدعاء.

في حديث أبي سعيد ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[1].

أما الكافرون، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، فلا تزدهم يارب إلا هلاكاً وخسراناً في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي دماراً وهلاكاً.

وكان نوح عليه السلام قبل أن يوحَى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، يتحمل الأذى طمعاً في إيمانهم، فربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) ولذا فإن الله تعالى استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته كفار أهل الأرض، ورحم المؤمنين بدعوته.

روى محمد بن كعب، والربيع وابن زيد: أن نوحاً عليه السلام لم يَدْعُ بهذه الدعوة إلا بعد أن أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم، وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة[2].

وفي كلام نوح عليه السلام ما يشير إلى أن الرسل والمصلحين يهتمون بإصلاح الجيل الحاضر ويضعون أسس إصلاح الأجيال القادمة، وأنهم لا يعملون لأنفسهم ولا لأهليهم، إنما يعملون لصالح الأمة والأجيال المتعاقبة.

تم تفسير (**سورة نوح**) ولله الحمد والمنة

---

(١) المسند (٣/٣٨)، برقم (١١٣٣٧) بإسناد حسن، وأبوداود برقم (٤٨٣٢)، والترمذي برقم (٢٣٩٥)، وأبو يعلى (١٣١٥)، وابن حبان (٥٦٠)، والبغوى في شرح السنة (٣٤٨٤)، والطيالسى (٢٢١٣).

(٢) تفسير ابن عطية(٥/٣٧٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ (٧٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الجن) هي السورة الثانية والسبعون في ترتيب المصحف، والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعراف) وقبل (سورة يس).

وهي ثمان وعشرون آية باتفاق، ومئتان وخمس وثمانون كلمة، وثمان مئة وسبعون حرفاً.

وسميت سورة الجن: لانفرادها بالحديث عنه.

وتَرْجَم لها البخاري في كتاب التفسير: سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

وهي سورة مكية باتفاق، أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: نزلت سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ بمكة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سوة الجن بمكة[1]. نزلت سنة عشر من البعثة، عندما ذهب النبي ﷺ إلى سوق عكاظ، وصلّى بأصحابه صلاة الفجر في نخلة، واستمع إليه فريق من الجن، فرجعوا إلى قومهم يقولون ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ كما سيأتي.

وحدث مثل ذلك عندما سافر النبي ﷺ إلى الطائف يطلب النُّصرة من ثقيف، فآذوه وأعرضوا عنه، وفي عودته إلى مكة، أرسل الله إليه نفراً من الجن، يستمعون إليه، ويجيبون دعوته، وكان هذا تطييباً لخاطر النبي ﷺ وتعويضاً له عن إعراض أهل الطائف عنه، وكأن الله تعالى يقول له: إن أعرض عن الإيمان بك عالم الإنس، فقد أرسلت لك عالماً آخر - هو عالم الجن - يؤمن بك ويصدقك.

موضوع السورة: وفي ذلك ستة مباحث:

أولاً: سورة الجن تعالج موضوعات القرآن المكي الثلاث: وهي الوحدانية، والرسالة،

---

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧)، والنحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٧).

والبعث والجزاء، وقد جاء ذلك في صورة موجهة إلى الجن، كما جاء في سور أخرى كثيرة موجهة إلى الإنس، للدلالة على أن محمداً ﷺ قد أُرسل إلى الجن كما أُرسل إلى الإنس، فهو رسول الثقلين.

١- أما ما يتعلق بالتوحيد فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الآية:٢].

ب- وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية:٣].

ج- وقوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الآية:١٨].

د- وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الآية:٢٠].

هـ- وقوله ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الآية:٢٢].

٢- أما ما يتعلق باليوم الآخر، فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية:٧].

ب- وقوله ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الآية:١٥].

ج- وقوله ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الآية:١٧].

د- وقوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الآية:٢٣].

٣ – أما ما يتعلق بالرسالة والوحي، فقد جاء في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ-﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الآية:١].

ب- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الآية:١٣].

ج- ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الآية:١٩].

د- ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الآية:٢٧].

ومحور السورة الأساس يدور حول عالم الجن، وما يتعلق بهم، وقد بدأت ذلك بالإخبار عن استماع فريق منهم للقرآن، وتأثرهم به، وإيمانهم بخاتم المرسلين، ودعوتهم أقوامهم إلى الإيمان به، وتمجيدهم لله تعالى. وإفرادهم له بالعبادة، ومنعهم

من استراق السمع، بإرسال الشهب عليهم وإحراقهم، وبينت السورة أن الجن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الأذكياء والأغبياء.

و بمقتضى الآيات السابقة، فإن في هذه السورة شهادة من الجن بوجوب إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده، ووجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ وباليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب.

وقد كان العرب يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض بالنفع والضر، وأنهم يعلمون الغيب، فصحح القرآن هذه المفاهيم.

وقد أعطت السورة صورة واضحة عن عالم الجن، وصححت عقيدتهم التي أخذوها عن النصارى، في جعل المسيح ابناً لله، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة. فقد انتشرت هذه الفرية، في أرجاء الأرض، وبلغت الجن فعرفوها، ثم إنهم لما استمعوا إلى القرآن عرفوا ما يناقضها، وعرفوا أن الله تعالى واحد أحد، ليس له والد ولا ولد، فآمنوا بربهم قائلين ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الآية:٢].

ولما عرفوا خطأ ما كانوا يعتقدونه، رجعوا عنه مقرين أن الله تعالى ليس له زوجة وليس له ولد: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية:٣].

ولكن رجالاً من الإنس، استمعوا إلى هذا اللغو الذي ينطوي على عقيدة التثليث أو البنوة، فنشروه في الأرض، وضللوا به الجماهير الغفيرة.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: والواقع أن الخطأ إذا سلّحتْه الدّوْلة بعنفوانها، وأقامت له أبراجاً تدرسُه وتحميه، ترَكَ ظلاله في النفوس، واستقرت أوضاعه قروناً، وقد نشر الاحتلال الروماني عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطّىء لها الأكناف، ولولا أن محمداً ﷺ درّع الحق الذي بُعث به، وفداه بالنفس والمال، لجعله الرومان في خبر كان، ومن أين كان يَعْلم الجن أن الله واحد، لا ولد له ولا والد، لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك، وقرعوا به الآذان[1].

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٨٢).

وقد ختمت السورة ببيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، وإحاطته بجميع ما في الكائنات والتبرىء إلى الله تعالى من الحول والطول.

وتنتهي السورة بما بدأت به من إخلاص التوحيد لله تعالى، فقد بُعث النبي ﷺ لمجاهدة الشرك والخرافة ومقاومة الضلال والانحراف.

ثانياً: عالم الجن:

وعالم الجن من المخلوقات الخفية اللطيفة، فهو عالم غير مرئيٍ لنا، مخلوق من عنصر ناري، وله حياة وإرادة وإدراك، وهو منتشر في أماكن مجهولة، ليست على سطح الأرض ولا في السموات، وهو من عالم الغيب، لا تراه الأبصار، ولا تدركه الأسماع في العادة، وقد أعطى الله الجن قدرة على التشكل بأشكال مختلفة.

وكان العرب يعتقدون في الجن، وينسبون إليهم بعض التصرفات، فيعتقدون أن لهم سلطة وقدرة على النفع والضر، ولذا فقد كانوا يتّقُونهم، ويتعوّذُون منهم، ويذبحون لهم القرابين، ويعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحي إليه بالشعر، ومن العرب من زعم أن الملائكة بنات الله، أمهاتهم سرَوَات الجن - أي أشرافهم - وهم قريش وجُهينة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مُليْح.

وبعض مجوس العرب عبدوا الشيطان، وزعموا أنه إله الشر، والتاريخ يعيد نفسه، فها نحن نجد عبدة الشيطان في زماننا، قالوا: مادام الشيطان يوسوس للإنسان ويتسلط عليه، فلماذا لا نرضيه ونعبده؟!

قال القرطبي: واختلف الناس في أصل الجن، فعن الحسن البصري: أن الجن ـ أي المتمردون منهم ـ ولد إبليس، والإنس ولد آدم.

ومن هؤلاء، وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان كافراً فهو شيطان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الجن هم ولد الجان، وليسوا بشياطين، ومنهم

المؤمن والكافر، والشياطين هم ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس[1] عند النفخة الأولى.

وقد أخبر الله تعالى أن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن منهم الصالح والطالح، والعاقل والأبله، ومنهم المسلم والكافر، كما جاء على لسانهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الآية:١١] وهم قادرون على الأعمال الشاقة، و على فعل الخير والشر.

وقد سخر الله الشياطين لسليمان، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ومنهم مردة الجن، كمردة الإنس، ومنهم الشيطان المارد، العاتّ الطاغية، ومنهم العفريت سريع الحركة والتنقل، وهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون كالإنسان.

ثالثاً: رسول الثقلين:

وقد بُعث النبي ﷺ إلى الجن، كما بعث إلى الإنس، فدعاهم إلى التوحيد، وأنذرهم، وبلّغهم القرآن، وبلّغهم أنهم محاسبون على أعمالهم يوم القيامة كما يحاسب الناس، كما صرح بذلك الكتاب والسنة، مما يفيد القطع بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، وأن من دخل منهم في الإسلام فهو من المؤمنين، ومن لم يدخل فيه فهو من الكافرين.

وقد تعددت الروايات في لقاء النبي ﷺ بالجن، منها ما يفيد أنهم استمعوا إليه صُدْفة دون أن يراهم، ومنها ما يفيد أنه التقى بهم قَصْدا وقرأ عليهم القرآن.

قال الألوسي: وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن على النبي ﷺ كانت ست مرات، ويُجمع بذلك بين اختلاف الروايات في عددهم، وأسمائهم، وأماكن الالتقاء بهم، وأنه كان تارة قصدا، وتارة مصادفة.

رابعاً: من الأحاديث الواردة في قصة الجن:

١- ما جاء في الصحيحين عن علقمة أنه سأل عبد الله بن مسعود ﷺ عن لقاء النبي

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٥).

ﷺ بالجن، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، وقلنا: إنه اغتيل، فبتْنا شرّ ليلة، فلما أصبحْنا إذ به قدم علينا من جهة جبل حراء، فلما سألناه قال: «**أتاني داعي الجن، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن**»، ثم أخذهم النبي ﷺ فأراهم آثارهم، وسألوه عن زادهم فقال: «**كل عَظْم ذُكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعْرة أو روْثة، عَلَفٌ لدوابكم**» قال ﷺ: «**فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**»[1] فالعظم يتحول في أيدي الجن إلى لحم.

وهذا الحديث يفيد أن النبي ﷺ كان وحده حين قرأ القرآن على الجن وأن هذه الحادثة مختلفة عما:

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، وأُرسلتْ عليهم الشهُب، فلما حدث ذلك قال لهم سيدهم: لابدّ وأن يكون قد حدث أمر، حالَ بينكم وبين خبر السماء، فانطلَق الشياطين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما حدث؟ فتوجّهُوا إلى تِهامة، فوجدوا رسول الله ﷺ قد قصد سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه الفجر، في مكان اسمه نخلة بين مكة والطائف، فلما سمعوا القرآن، تسمّعُوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم يقولون لهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وأنزل الله سورة الجن[2].

٣- وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنها قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً وتسعين، فأما الكلمة

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٤٥٠،١٥١)، والبخاري (٣٨٥٩)، وأبوداود (٨٥)، والترمذي (٣٢٥٨)، والكبرى للنسائي (١١٥٥٩،٣٩)، والمسند (٤١٤٩)، وابن حبان (١٤٣٢).

(٢) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٢١،٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، والترمذي برقم (٣٣٢٣،٤٢٧)، والمسند بتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٤٣١)، وبتحقيق د/ التركي وغيره (٢٢٧١)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٤،١١٥٦٠)، والحاكم (٥٠٣/٢)، والطبراني في الكبير (١٢٤٤٩).

فتكون حقا، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، أُراه قال بمكة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض[1].

٤- وروى الترمذي وغيره عن جابر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رداً منكم، كلما أتيتُ على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»[2].

٥- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله آية الأحقاف[3].

قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذي لقوه بنخلة، فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة، فجن نصيبين[4].

٦- وأخرج ابن المنذر عن عبد الملك قال: لم تُحرَس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ حُرِسَت السماء الدنيا، ورُمِيتْ الجن بالشهاب، فاجتمعت إلى إبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، فتَعرَّفُوا، فأخْبِرُونا ما هذا الحدث؟ فبعَث هؤلاء النفر إلى تِهامة، وإلى جانب اليمن، وهم أشراف الجن وسادتُهم، فوجدوا النبي ﷺ يصلي صلاة الغداةِ بنخلَة، فسمعوه يتلوا القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ

---

(١) سنن الترمذي (٤٢٧/٥) برقم (٣٣٢٤)، والنسائي (٦٤٦)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٦)، وصححه محققو المسند (٢٤٨٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٨/١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، والطبراني (١٢٤٣١).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٢٩١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢٧٣/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٤)، وفي الدلائل (٢٣٢/٢) ورجاله ثقات.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٩٦/٨).

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني بذلك أنه فرَغَ من صلاة الصبح ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] مؤمنين، لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: سبعة من أهل نَصيبين[1].

٧- وفي سيرة ابن إسحاق وابن هشام: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وهم - فيما ذكر لي- سبعة نفر من جن نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته، وَلّوْا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه.

فهذه الروايات إلى جوار غيرها، مما هو في الباب، تفيد كثرة التقاء النبي ﷺ بالجن، لدعوتهم إلى الإسلام، وأن أعدادهم كانت تختلف في كل مرة، وكان النبي ﷺ يقصد دعوتهم أحياناً، وكانوا يستمعون إليه مصادفة أحياناً أخرى، ويخبره ربه بذلك، كما يَظْهَرُ من مطلع هذه السورة.

والأحاديث يفسر بعضها بعضا، فالرواية التي تقول (ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم)[2] توضحها الروايات الأخرى، بتعدد لقائه بهم ووفادتهم عليه ﷺ.

والمعنى: أن النبي ﷺ لم يكن عنده علم حين استمع الجن إليه وهو يقرأ القرآن، فهو لم يرهم ولم يقصد القراءة عليهم في هذه المرة.

خامساً: مصير الجن:

واختلفوا في جزاء الجن يوم القيامة:

فقال أبوحنيفة: ليس للجن ثواب، إلا أن يُجازَوْا من عذاب النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثل البهائم.

---

(١) الدر المنثور (٦/١٥)، وأخرجه الطبري (٢١/١٦٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٤١)، وكلاهما عن ابن عباس.

(٢) كما جاء في رواية ابن عباس عند الترمذي (٥/٤٢٦)، وصححه الألباني وأحمد شاكر في المسند (٢٤٣١) وسبق تخريجه في آخر سورة الأحقاف.

وقال مالك والشافعي: كما يُجْزَوْن على الإساءة، يُجزون على الإحسان، ويدخلون الجنة[1].

سادساً: لا يوجد رسل من الجن:

ورسل الله تعالى إلى الإنس والجن، لا يكونون إلا من الإنس، ولم يثبت أن الله تعالى أرسل رسلاً من الجن إلى البشر، ولا إلى الجن ورسالة النبي ﷺ إلى الجن من خصائصه ﷺ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ ﴾[الأنعام:١٣٠] أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم، و﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِنكُمۡ﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي ﴿مِن﴾ الاتصالية، مثل قولهم (لست مني ولست منك).

* * *

(١) التحرير والتنوير (٦٢/٢٩).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

إيمَانُ الْجِنِّ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ

١ - ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ[1] ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

بدأت السورة بأمر الله تعالى لرسوله محمداً ﷺ أن يُعْلِم الناس إلى يوم القيامة، بأنه قد أُوحى إليه بحدث عظيم في تاريخ الدعوة، وهو أن الله تعالى قد سخر له جماعة من الجن يستمعون القرآن الكريم وهو يتلوه في صلاته، دون أن يشعر بهم، ولا باستماعهم إليه، وأن الدعوة قد بلغتْهم، فألهمهم الله الرشد والصواب، فأقلعوا عن الشرك، وآمنوا بالله تعالى ووحدوه، وآمنوا بالبعث والجزاء، ورجعوا إلى قومهم ينذروهم، ويبلغوهم مجيء الرسالة الخاتمة التي نَسخت ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، ومن لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ فهو كافر لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لأمتك ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي أوحى الله إليّ أن جماعة من الجن قد استمعوا لتلاوتي، وأنا أقرأ القرآن في صلاة الفجر ببطن نخلة، لتقوم عليهم الحجة، وتتم عليهم النعمة، ويكونون نذراً إلى قومهم، وأمر الله رسوله أن يقص خبرهم على الناس، وكان ﷺ يقرأ بسورة العلق، وقد أخبره الله تعالى بذلك عن طريق أمين الوحي، جبريل عليه السلام.

أخرج البخاري عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقاً: مَنْ آذن النبي - أي أعلمه- بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد الله - أنه آذنَتْ أي أعلمتْ بهم شجرة)[2].

---

(١) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بفتح همزة ﴿أَنَّهُ﴾ في هذا الموضع وأحد عشر موضعاً بعده، عطفاً على الضمير قبله من غير إعادة الجار، وقرأ أبوجعفر بالفتح في ثلاثة منها هي: (وأنه تعالى) (وأنه كان يقول) (وأنه كان رجال) جمعا بين اللغتين، وقرأ الباقون بالكسر في الجميع عطفا على ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في أول آية من السورة، فيكون الجميع مقولاً للقول.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٥٩).

أي أن الذي أعلم النبي ﷺ بحضور الجن واستماعهم إليه، شجرة من الأشجار، يا سبحان الله!!

والنفر من الثلاثة إلى العشرة، فلما استمع الجن إلى القرآن قالوا لقومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ بديعاً في بلاغته وفصاحته، وحسن نظمه، ومواعظه وبركته، فهو قرآن جليل الشأن، عظيم القدر، بديع الأسلوب.

والجن مع تمرُّدهم تأثَّروا بالقرآن، وعرفوا إعجازه، فاهتدوا بهديه، وقال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه وتأثروا به ووصلتْ حقائقه إلى قلوبهم، فرجعوا إلى قومهم يخوفونهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

وفي هذا توبيخ وتقريع لمن كفر بالقرآن من الإنس، فشتان بين موقف الإنس الذين نزل القرآن بلغتهم فكذبوه واستهزؤوا به، وبين موقف الجن الذين أسرعوا إلى الإيمان به وكانوا رُسُل خير إلى قومهم بعد سماعهم إلى القرآن مرة واحدة.

وجاء في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢] .

وهذه الآيات من سورة الأحقاف تُذكّر النبي ﷺ بما حدث ليلة نزول سورة الجن إذ أن النبي ﷺ لم يعلم بحضور الجن واستماعهم للقرآن إلا بإعلام الله له.

وبهذا فقد حصل لكل من آمن من الجن شرف المعرفة بالله تعالى، وصِدْق رسوله ﷺ وصدْق القرآن، فصاروا من خيرة الخلق، ولم يكونوا ممن ذرأهم الله تعالى لجهنم من الجن والإنس.

وَصْفُ الْجِنِّ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ كِتَابُ هِدَايَةٍ

٢- ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾

أي إن القرآن كتاب يدعو الناس إلى التوحيد والإيمان والصواب والرشاد، وقد استمعنا إليه ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا بهذا القرآن تصديقاً لا يخالطه ريب ولا شك.

والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، وقد جمع الجن بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة، وبين التقوى المنضمنة لعدم الشرك بالله، فقالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي لن نعود إلى ما كُنَّا عليه من الشرك بعد اليوم، ولن نجعل لله شريكاً من خلقه بعد اليوم، وهذا يفيد أنهم كانوا مشركين، وأن الأحرى بالإنس أن يوحدوا الله تعالى وينبذوا الشرك وأهله، وأن يكون لهم أسوة في مؤمني الجن!

الْجِنُّ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ كَافَّةِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ

٣- ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

ثم أخذ هذا النفر من الجن في الثناء على الله تعالى، والتبرؤ مما كانوا عليه من الشرك، وبيان أنه لا يسوغ أن تكون لله تعالى صاحبة، ولا أن يكون له ابناً فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمته وجلاله، وتقدمت أسماؤه، فالجدُّ هو العظمة والجلال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عظمت قدرة ربنا.

ومن ذلك قول أنس ﷺ: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا. أي عظُم قدْرُه، وكبُر في أعيننا، وجاء (الجَدّ) بمعنى الغنى، كما في الحديث «**ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ**»[1] أي لا ينفع صاحب الغنى غناه، ومن شأن الغنِيّ أنه لا يحتاج إلى صاحبة ولا ولد، فلا يفتقر إلى الولد، ولا يتلذذ بالزوجة، ولا يحتاج إلى عون من أحد، والله

---

(١) من حديث المغيرة بن شعبة في صحيح البخاري (٨٤٤)، وصحيح مسلم (٥٩٣).

تعالى غَنِيّ غِنىً مطلقاً لا يحتاج إلى غيره أبدا، ولذلك فقد نفى الجن الشرك بأنواعه عن رب العالمين فقالوا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾ أي زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الجن والإنس، لأن اتخاذ الزوحة والولد ينافي الكمال المطق، ويضاد الغني الكامل سبحانه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١].

وَصْفُ الْجِنِّ لِكَبِيرِهِمْ بِالسَّفَهِ وَالْحُمْقِ لأَنَّهُ أَشْرَكَ بِاللهِ تَعَالَى

٤- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

ثم إن الجن تبرؤوا مما يقوله كبيرهم على الله تعالى حين نسب له سبحانه الشريك، حُمْقاً وسفهاً وجهلاً منه بقدْر الله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وهو إبليس، وكذا كل كافر متمرد من الجن موصوفاً بالحمق والسفه، يقول ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً بعيداً عن الحق والصواب، لا يليق بجلال الله وقُدْسيته، كنسبة الصاحبة والولد له سبحانه.

والشطط هو مجاوزة الحد في كل شيء، وهو من باب الكذب والعدوان، وقد حسب الجميع، أن أبواب السماء قد أغلقت، وأنه لن ينزل وحي من السماء يكشف زيفهم، فقالوا ما قالوه.

اعْتِذَارُ الْجِنِّ عَنْ قَبُولِ الشَّائِعَاتِ

٥- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ[1] ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾

ثم اعتذر الجن عن غفلتهم في قبول الشائعات، بأنهم لم يكونوا يتصوّرُون أن يَجْرُءَ أحد بالكذب على الله تعالى فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي وأنا كنا نحسب أن الإنس والجن لا يكذبون على الله تعالى وكنا مغترين بما قاله لنا رؤساء الجن والإنس، فأَحْسَنَّا بهم الظن، وظننا ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لن يكذب أحد على الله تعالى، ويتجرأ عليه لا من الإنس ولا

---

(١) قرأ يعقوب بفتح القاف وتشديد الواو من ﴿تَقَوَّلَ﴾ مضارع تقوّل، على حذف إحدى التاءين والأصل تتقول، والباقون بضم القاف بعدها واو مدية، مضارع قال.

من الجن، فينسب له الشريك والولد، وكان ذلك قبل سماعنا للقرآن، فلمَّا تحققنا أن الله تعالى واحد أحد، علمنا أن الجن قد كذبوا على الله تعالى، فلن نبال بقول أحد بعد اليوم يعارض الحق والهدى، ولم يكن يخطر ببالنا أن أحداً يجترىء على الله تعالى بالكذب، كما صنع دعاة الشرك بالله تعالى.

وهذا اعتذار منهم عن كفرهم السابق، لأنه كان بسبب اتّباعهم لسفهائهم، وكان الجن يظنون أن إبليس صادق فيما يقوله قبل أن يتبين لهم كذبه، فلما أيقنوا أنه كاذب سمّوه سفيهاً.

لَيْسَ لِلْجِنِّ تَأْثِيرٌ عَلَى الإِنْسِ بِنَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ

٦- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

وقد كان العرب - وهم أول من نزل عليهم القرآن- كانوا يعتقدون أن للجن تأثيراً وسلطاناً في الأرض، فكان أحدهم إذا نزل بواد أو مكان موحش استعاذ بعظيم الجن من شر هذا المكان، وكانوا يتوهمون أن الجن يسكنون هذه الأماكن فيقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم يتوهم أنه قد بات آمناً، وقد علم الجن أن ذلك ضرب من السفه ومجاوزة الحد، وأول من سن لهم ذلك قوم من أهل اليمن، ثم بنو حنيفة، ثم فشا ذلك بينهم، وإلى جوار ذلك، فإن قوماً من المشركين كانوا يعبدون الجن اتقاء شرهم، ويعتقدون فيهم القدرة على النفع والضر ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ أي يستجيرون و﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فيلتجئون إليهم، ويعبدونهم ويستعيذون بهم عند المخاوف ليدفعوا عنهم الأضرار التي يزعمون أنها تقع عليهم من صغار الجن، فزاد الجن الإنس خوفاً وذعراً.

قال قتادة: إن الجن كانت تحتقر بني آدم وتزدريهم لما ترى من جهلهم، فكانوا يزيدونهم خوفا، ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهى طاقاتهم ويُغْوُونهم، ويزيدُوهم بلاءً وخوفاً وضعفاً لما رَأوْا من قلة عقولهم، فهذا هو الرهق.

وقال أبوالسعود: كان الرجل إذا أمسى في وادٍ قفْر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد

هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد الجن وكبيرهم- فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا: سُدْنا الإنس والجن، فزاد الرجال الجن تكبرا وعتُوا، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وكان بعضهم يصيح بأعلى صوته وهو خائف يقول: يا عزيز هذا الوادي، إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيُخيّل له أن كبير الجن بهذا الوادي يمنعه، فإذا رأى الجن ضعفهم وخوَرهم زادوهم خوفاً على خوف، ورعباً على رعب، وزادُوهم رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم، وفي الوقت نفسه فإن الجن يزدادون طغياناً وتسلُّطاً على الإنس[1].

وعلى هذا فإن الضمير من ﴿فَزَادُوهُمْ﴾، إما أن يعود على الإنس، فيكون المعنى: فزاد الإنس الجن طغياناً وتكثراً، وإما أن يعود على الجن، فيكون المعني: زاد الجن الإنس ذُعراً وتخويفاً لَمّا رأوْهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم.

قلت: وهذا هو المختار.

وهذه الاستعاذة بغير الله تعالى غير مشروعة، وهي من التوجه بالعبادة لغيره تعالى، فهي من باب الشرك، وفي الآية تحذير شديد من اللجوء إلى الكهنة والمشعوذين وأشباههم.

إيمَانُ الْجِنِّ بِالْيَوْمِ الأَخِرِ

٧- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾

إما أن يراد بالبعث في الآية: أن كفار الجن ظنوا كما ظن كفار الإنس أن الله تعالى لن يبعث رسولاً إلى البشر.

أو يراد بالبعث في الآية بعث الناس من قبورهم بعد الموت.

بمعنى أن الجن تحدثت عن البعث والنشور، فأخبروا قومهم بأن من الإنس من لا يؤمن باليوم الآخر ومافيه من بعث وحساب وجزاء، كما هو الحال عندهم ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أي أن كفار الإنس حسبوا كما حسبتم - يا معشر الجن- ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت، بما يفيد أن الجن كانوا ينكرون البعث ككفار الإنس، وأنهم آمنوا به بعد أن

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٠٠).

استمعوا للقرآن، وهذا الظن من الطرفين خاطىء، فإن البعث حق، والحساب حق، والجزاء حق.

وفي هذا تعريض بمن أنكر البعث من الإنس، من الدهريين والملحدين ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويصح أن يكون المراد بالآية: أنهم حسبوا ألن يبعث الله إليهم رسولاً، وكلا الزعمين فاسد، فإن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، ولو لم يكن هناك بعث ولاحساب ولاجزاء، لكان خلق الناس لَهو وعبث، وضرب من الباطل.

مَنْعُ الْجِنِّ مِنَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٨- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ[1] حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

ثم إن الجن قبل مبعث النبي ﷺ كانت تسترق السمع، فلما بعث الله محمداً، وأنزل عليه القرآن، أراد سبحانه أن يحفظ هذا القرآن من استراق السمع، لئلا يسرقوا منه شيئاً يُلقوه على ألسنة الكهنة، فيختلط القرآن بغيره.

لذا: فبمجرد بعثة النبي ﷺ ومع بدء نزول القرآن مُنعت الشياطين من استراق السمع.

وقد تبين لهم ذلك عندما ذهبوا كعادتهم يتلمسون السماء لالتقاط أخبار أهل الأرض من وحي الله تعالى إلى الملائكة بتصريف أمور الخلق، فوجدوا السماء قد ملئت بالشهب لإحراقهم، كما ملئت بالحرس الشديد من الملائكة.

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الجن كانوا يستمعون وحي الله تعالى إلى الملائكة، بتصريف أمور العباد، فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا، فقالوا: ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض، فأخذوا يبحثون عن السبب فوجدوا النبي ﷺ قائماً يصلي بمكة، فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً، وأوحى الله إلى رسوله بقول الجن.

﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي أردنا الوصول إليها لاستماع كلام أهلها كما

(١) قرأ الأصبهاني وأبوجعفر بإبدال همزة ﴿مُلِئَتْ﴾ ياء وصلا ووقفا، وكذا حمزة وقفا.

كنا نفعل من قبل ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، كما أنها ملئت بالشهب المحرِقة التي يُرمى بها مَنْ يُحاول الاقتراب منها، فتنقضُّ عليه فتُحرقه، وتقع في الجو أو البحر أو على الأرض، فعَلِمتِ الجن، وعَلِم الإنس، أن الوحي النازل من السماء يحيط به حرس شديد حتى يصل إلى الرسول ﷺ دون أن يحدث له أيّ تغيير أو نقص أو زيادة.

والعجيب أن الحراسة التي صاحبت نزول القرآن من السماء لم تتركه في الأرض، بل تحولت هذه الحراسة إلى تواتر السند، وتدوين القرآن في ملايين الصدور، وملايين المصاحف، صيانة له حرفاً بحرف، وحركة بحركة، وغنة بغنة، ومدّاً بمد، وهكذا.

قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الْجِنِّ

٩- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ[1] يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾

ثم ذكر الجن ما كان يحدث منهم قبل البعثة، وأن كل واحد منهم كان يَرْكَب فوق الآخر، حتى يصلوا إلى السماء، فيستمعوا إلى الكلمة الواحدة من الملائكة، ثم يزيدون عليها تسعة وتسعين كذبة، ويُلْقون ذلك إلى الكهنة، فتكون الكلمة الواحدة الصحيحة سبباً في قبول بقية الكلام الكذب، ولكنهم لا يستطيعونه الآن بعد بعثة محمد ﷺ، ومن يحاول ذلك يُحْرَق بالشهب.

﴿وَأَنَّا﴾ يا معشر الجن ﴿كُنَّا﴾ قبل بعثة محمد ﷺ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ﴾ نستمع إلى الأخبار التي يوحي الله بها إلى الملائكة مما يتعلق بشؤون العباد، فنتلقف من أخبار السماء ماشاء الله، ونُلْقيها إلى الكهان، وذلك باتخاذنا من السماء مواضع خالية من الحرس والشهب، وقد انقضى هذا الوقت وانتهى بمبعث النبي ﷺ ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ﴾ بعد بعثة النبي ﷺ ويحاول الاقتراب من السماء والاستماع إلى كلام الملائكة ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي يجد له شهاباً بالمرصاد ينتظره فيحرقه ويهلكه.

(١) قرأ ورش وابن وردان بخلفه بالنقل في ﴿ٱلْءَانَ﴾ وللأزرق تثليث البدل.

وفي هاتين الآيتين إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يزعمون أنهم يعرفون شيئا من الغيب، ويغررون بضعفَة الإيمان والعقول كذبا وافتراء، والجن بهذا يؤكدون إيمانهم بالغيب، ويؤكدون صيانه الوحي المنزل.

وهل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل مبعث النبي ﷺ أم لا؟

١ ـ قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ﷺ ولكنه لم يكن في شدة الحراسة التي كانت بعد بعثته، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ مُنعوا أصلاً[(١)].

٢ ـ وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد ﷺ حُرست السماء، ورُميت بالشهب، ومُنعت الشياطين من الدنوّ إلى السماء[(٢)].

٣ ـ وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة، تَسمع فلا تُرمى، فلما بُعث رسول الله ﷺ رُميت بالشهب[(٣)].

ومختلف الآثار تفيد: أنها كانت تُرمَى بالشهب قبل البعثة، وأنهم مُنعوا أصلاً من استراق السمع بعد البعثة، ومن يحاول منهم استراق السمع بعد البعثة، تحرقه الشهب من على بُعد، كما قال ابن قتيبة.

اعْتِرَافُ الْجِنِّ بِأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الْغَيْبِ

١٠ - ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

ومنع الشياطين من استراق السمع حدثٌ جسيم، ولهذا فإن الجن جزموا بأن الله تعالى أراد أن يُحدِث في الأرض حدثاً كبيراً، هو منعهم من استراق السمع بسبب بعثة محمد ﷺ.

ثم ذكر الجن أنهم لا يعلمون شيئا من الغيب، ولا يدرون هل أراد الله بأهل الأرض خيراً أم أراد بهم شرا، وأنهم قبل ذلك كانوا يعرفون بعض تصريف الأمور، بما كانوا

(١-٣) فتح القدير للشوكاني (٥/٣٠٣).

يتلقّفُونه من خبر السماء، أما الآن فلا سبيل لهم إلى معرفة شيء من ذلك، بعدما حرس الله الوحي المنزل من السماء، من أن يطّلع عليه أحد قبل أن يصل إلى الرسول الموحى إليه، فقالوا ﴿وَأَنَّا﴾ يا معشر الجن ﴿لَا نَدۡرِيٓ﴾ أي لا نعلم بعد هذه الحراسة المشددة للسماء، والحيلولة بيننا وبين خبر السماء، فلا نعلم: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

لأنهم رأوا أن الأمر قد تغير، فعرفوا أن هذا التغيير لأمر يريد الله إحداثه في الأرض، من خير أو شر.

قال ابن زيد: قال إبليس: لا ندري أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً، أي هل المقصود بمنْع استراق السمع شرٌّ يراد بأهل الأرض، أم يراد بهم الصلاح والخير، وكانت الشهب يرمى بها الشياطين قبل ذلك، فأخذ الجن يبحثون في مشارق الأرض ومغاربها عن السبب الذي منعهم من استراق السمع، فرأوا النبي ﷺ يصلي ويقرأ بأصحابه فعرفوا أن السماء قد حُفظت من أجله، فأسلموا.

وفي قول الجن هذا: تأدب مع الله تعالى حيث صرّحوا بنسبة الخير إلى الله تعالى، ولم ينسبوا له الشر، وهذا حُسْن أدب، وحُسْن اعتقاد منهم.

ويستفاد من الآية: أن الجن يعتقدون أن الله تعالى أراد الخير بأهل الأرض، حينما صرفهم عن استراق السمع، وأكرمهم بهذا الدين، لأنهم قالوا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ فهم يعلمون أن منْعهم بالشهب، فيه الخير للبشرية، لأنهم قالوا بعد ذلك ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

فهم يقولون كما ذكر الله عنهم في الآية التالية:

الجنُّ طوائفُ وفِرَقٌ وطِباعٌ مختلفةٌ كالإنسِ

١١ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾

ثم إن الجن بعد أن بلَغتْهم الرسالة الخاتمة، أذركُوا أنهم أصبحوا فريقين، فريق مؤمن، وفريق غير مؤمن ﴿وَأَنَّا﴾ يا معشر الجن ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأبرار المتقون، وهم يصفُون

أنفسهم بالصالحين ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ كفَّاراً وفُسَّاقاً، ولم يصرِّحواْ بذلك تلطفاً مع بعضهم.

وغير الصالح يدخل فيه الكافر وغيره ﴿كُنَّا﴾ أي قبل الإسلام ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فرقاً شتى، ومذاهب مختلفة، وجماعاتٍ متفرقة، وأهواء متباينة، كل حزب بما لديهم فرحون، منا الصالح ومنا الطالح، ومنا الفاسق، ومنا الفاجر، وهنا الكافر ومنا المؤمن ومنا الشقي ومنا السعيد، ومنا العاقل ومنا الأبله، قال سعيد: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً.

والجن بهذا يذمّون الاختلاف والتفرق، ويدعون إخوانهم إلى وحدة الاعتقاد، واقتفاء هذي الإسلام، فقد كنا قبل الإسلام، مذاهب مختلفة في حُسْنها وقُبْحها واستقامتها واعوجاجها، أما الآن فقد وفقنا الله إلى الإيمان، وإخلاص العبادة له وحده، فالآية تذم الطالحين، وتمدح الصالحين، وتدعو إلى الوحدة، ونبذ الفرقة.

الْجِنُّ يُعْلِنُونَ عَجْزَهُمْ الْمُطْلَق أَمَامَ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

١٢ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾

ثم ذكر الجن عجزهم المطلق، أمام قدرة الله تعالى، فأخبروا أنهم يعلمون علم اليقين، أنهم في قبضة الله تعالى وتحت سلطانه، وأنه إذا أراد بهم أمرا فلن يفلتوا من عقابه.

﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وأنا أيقنا في وقتنا هذا، بعد أن آمنا بالله ورسوله وتبيَّن لنا أن المستحق لعقاب الله تعالى لن ينجو من الجزاء، فهو تحت قهره تعالى وقدرته، ولن يفلت من يده وسلطانه، وهو لا يستطيع أن يهرب من السماء أو الأرض، إن أراد الله به سوءا، وهذا معنى: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾أي فلن نعجز الله تعالى في الأرض ولا في السماء، ولن نفوته بهرب ولا غيره، ولن نغلبه بقوة، فإن نواصينا بيده، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، مهما أخذنا بأسباب الفرار والخروج عن قدرة الله تعالى.

فالمقصود بالآية: إظهار عجز الجن وعدم تمكنهم من الهرب من قضاء الله تعالى، لا في الأرض ولا في السماء، وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢٢] .

المُؤْمِنُ لاَ يُنقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلاَ يُزَادُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ

١٣ - ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾

لقد آمن الجن بالله تعالى عن تصديق واقتناع، فشكروا ربهم على ما حباهم به من نعمة الإيمان، والاهتداء بسماع القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: لما سمعناً القرآن الهادى إلى صراط مستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ دون تردُّد ولاشك، وصدقْنا محمداً ﷺ في رسالته، ثم ذكروا ما يرغِّب العبد في الإيمان، وقرروا أن من يعبد الله وحده، ويصدق بالرسالة الخاتمة، فإنه لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة فيها ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ إلها واحداً إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي لا يُنقَص شيئاً من عمله وثوابه، ولا يُرهق ظلماً بزيادة سيئاته، فالبخس هو النقصان، والرهق هو الظلم والعدوان، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وإذ اسلم الإنسان من الشر حصل له كل الخير، وبالإيمان يحصل كل خير.

مَصِيرُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ مِنَ الْجِنِّ

١٤، ١٥ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

ثم بينت الآيات مصير كل من المؤمنين والكافرين من الجن، فقال تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَّا﴾ معشر الجن ﴿مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الذين آمنوا بالله والرسول، وانقادوا لأمر الإسلام، وخضعوا لطاعته ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون الظالمون، الذين حادوا عن طريق الحق، وعدلوا عنه إلى غيره.

وقَسَطَ بمعنى جار وظَلم، وأقْسط بمعنى عدل، فالقاسط هو الجائر الظالم، والمقسط هو الذي يحكم بالعدل.

ومن ذلك أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله، ما تقول فيَّ؟ قال: قاسط عادل، فقام القوم: ما أحسن ما قال! - ظنوا أنه وصفه بالقسط والعدل- فقال الحجاج: يا جهلة، إنه سمّاني: ظالماً مشركاً، وتلا لهم قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] .

وقال عن المشركين ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] أي يعدلون عنه إلى غيره.

وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى أن الجن منهم المسلمون ومنهم الكافرون، قالوا ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي أنَّ مَنْ آمن منّا بالله وخضع له، فقد قصد طريق الحق والصواب، واجتهد في اختيار الحق، وتوخّى سبب النجاة وما يحصل به من الثواب، فهداه الله إليه وفاز بالسعادة والنجاة.

ويمكن أن تكون هذه الجملة وما بعدها من كلام الله تعالى، وليست من كلام الجن.

وأما الجائرون الظالمون الذين كفروا بالله ورسوله، فهم حطب جهنم يوم القيامة.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الذين عدلوا عن الإسلام إلى الكفر ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقودا للنار، كما قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] .

وقال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] وإلى هنا ينتهي كلام الجن.

الرَّبْطُ بَيْنَ الاسْتِقَامَةِ وَالرَّخَاءِ وَالْبَلَاءِ

١٦- ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أن الإنس والجن الذين عدلوا عن طريق الحق إلى طريق الباطل، لو أنهم استقاموا على منهج الله تعالى، والتزموا بما جاءهم به رسول الله ﷺ لفتح الله عليهم أبواب الخير والرزق، وأغدق عليهم بالماء الكثير، لأن الاستقامة على أمر الله تعالى، تؤدي إلى السعادة التي ليس بعدها سعادة، أما رخاء العيش وشظفه فهو

لون من ألوان الابتلاء والاختبار ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي ولو أن القاسطين من الجن على وجه الخصوص، استقاموا فأسلموا، لفتح الله عليهم أبواب الرزق والخير، وخصَّ المطر بالذكر، لأن الماء سبب الأرزاق.

وفي الآية إنذار للجميع - أي الإنس والجن - أنْ يحبس الله عنهم الرزق، إذا لم يستقيموا على طريق الحق والهدى.

وقد حدث هذا عندما دعا النبي ﷺ على كفار قريش في القنوت، وهو بالمدينة بعد الهجرة، أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف، فأصيبوا بالقحط والجوع مدة سبع سنوات، وكانوا قبل ذلك في بحبوحة من العيش، ونخيل وجنات، ولو أنهم داومُوا على الاستقامة لأدام الله عليهم نعمته، ومنها الماء الغَدق، ولو سلكوا طريق الاعوجاج، فإنه يوشك أن يمسك الله عنهم رزقه.

والمعنى: لو أن الكفار من الإنس والجن ساروا على طريقة الإسلام، ولم يحيدوا عنها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لأنزلنا عليهم ماء كثيراً هنيئاً مريئاً، ولوسّعنا عليهم الرزق في الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣] ، ولم يمنعهم من ذلك إلا الظلم والعدوان.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [الأعراف:٩٦] وقوله عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة:٦٦] .

والآية تربط بين استقامة الأفراد والجماعات والأمم، وبين إغداق النعم، وتهيئة أسباب الرزق. قال تعالى:

١٧ - ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ[1] عَذَابًا صَعَدًا﴾

أي: لأسقيناهم ماءً غدقاً لنختبرهم ونمتحنهم فيه ليظهر الصادق في إيمانه من الكاذب،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بياء الغيبة في ﴿يَسْلُكْهُ﴾ والفاعل ضمير يعود على ربه، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

وتربط هذه الآية بين الرخاء والابتلاء، فإن شُكْر النعمة والقيام بحق الله فيها، ابتلاء من الله تعالى لعباده، كما أن الصبر على القحط والجوع، ابتلاء من الله جل شأنه أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥] وقال تعالى هنا ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم ونظهر في عالم الوجود كيف يشكرون نعمة الله عليهم، فنعطيهم ما نعطيهم من الخيرات والنعم ليَظْهر للملائكة وغيرهم، جحودهم وبطَرهم، مِنْ شكْرهم وحَمْدهم، فيسجَّل ذلك عليهم في صحائف أعمالهم.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: أينما كان الماء، كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أكثر ما أخاف عليكم، ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض**»، قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**»[1].

وفي الحديث ـ أيضاً ـ عن المِسْوَر بن مخرمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتُهلككم كما أهلكتهم**»[2].

وقد ربط سبحانه بيْن فتنة الابتلاء بالرخاء، وبيْن الإعراض عن ذكر الله تعالى، وبيَّن أن ذلك يؤدي إلى عذاب الله سبحانه، فقال ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي أن من يعرض عن طاعة الله تعالى، والاستماع للقرآن وتدبره والعمل بما فيه فلم يتبعه ولم يستجب له، بل غفل عنه وأعرض ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يدخله يوم القيامة عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه، ومن عذابه يوم القيامة أنه يكلف الصعود في نار جهنم، فإذا انتهى إلى أعلاها انحدر منها، وفي هذا من المشقة ما فيه.

---

(١) من حديث طويل في البخاري برقم (٦٤٢٧)، ومسلم برقم (١٠٥٢).

(٢) من حديث طويل في البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

لاَ يُدْعَى غَيْرُ اللهِ فِي بُيُوتِ اللهِ وَلاَ فِي غَيْرِهَا

١٨- ﴿ وَأَنَّ[1] ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

أي: ومما أوحاه الله تعالى لرسوله: أن بيوت العبادة مختصة بالله وحده، لا يُعبد فيها غيره، ولا يسأل إلا الله، لا سؤال عبادة، ولا سؤال مسألة، لأن المساجد وهى محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله تعالى:

أسباب النزول:

١- عن سعيد بن جبير ﷺ أن الجن قالوا للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد، ونحن ناؤون عنك؟ وكيف نشهد الصلاة، ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت الآية[2].

٢- وقال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهُم، أشركوا بالله فيها، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا عبادتهم لله تعالى، إذا دخلوا المساجد كلها، أو سجدوا لله تعالى في كل مكان من الأرض[3].

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد، إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس[4].

٤- وقال سعيد بن جبير: نزلت في أعضاء السجود، كما صح في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أمِرتُ أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة - وأشار بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين، ولا تكفف الثياب، ولا الشعر**»[5].

٥- وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سجد العبد، سجد معه سبعة آراب: وجهُه وكفاه وركبتاه وقدماه**» والآراب هي الأعضاء.

---

(١) اتفق القراء على فتح همزة ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ ﴾.

(٢) تفسير الطبري (٧٣/٢٩)، والخازن (٣١٨/٤).

(٣،٤) ينظر تفسير ابن كثير (٢٤٤/٨)، والخازن (٣١٨/٤)، والطبري عن قتادة، وعبد الرزاق (٣٢٣/٢).

(٥) صحيح البخاري برقم (٨١٢)، وصحيح مسلم (٤٩٠).

وإذاً: فهذه الآية، نزلت جواباً للجن الذين سألوا: كيف يصلون مع النبي ﷺ وهم ليسوا معه، فبين سبحانه أن كل مكان أُعِدّ للصلاة والعبادة فيه فهو مسجد، وأن الأرض كلها مسجداً وطهوراً.

ولما كان الجن قد أَلِفُوا الشرك بالله تعالى في بيوت العبادة، من أهل الكتاب قبل الإسلام، فقد وبّخهم الله تعالى على هذا، وبيّن أن المساجد لا يُدْعَى فيها غير الله تعالى.

ومن ذلك توبيخ المشركين الذين وضعوا الأنصاب في المسجد الحرام، ومنها صنم هُبل، وصنما إساف ونائلة، على الصفا والمروة، ولم يكن في الأرض وقتئذ إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي لعبادة الله وحده ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تعبدوا غير الله فيها، ولا تدعوا غير الله، وأخلصوا له الدعاء والعبادة، فإن المساجد لم تُبن إلا لهذا، ولا تطلبوا العون من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فإن الدعاء عبادة، وفي هذا وجوب تنزيه المساجد من كل ما يشوب الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ ووجوب تطهيرها من الأضرحة والقبور، حتى تخلص العبادة لله وحده.

والأماكن التي نُهي عن الصلاة فيها هي: المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفوق الحمام، ومعاطن الإبل، والبيَع، والمكان المغصوب.

واختص المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد قباء، بمزيد أفضلية ليست في بقية المساجد.

ازْدِحَامُ الْجِنِّ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِلاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ

١٩ - ﴿وَأَنَّهُۥ[١] لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا[٢]﴾

---

(١) قرأ نافع وشعبة بكسر همزة ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ والباقون بفتحها.

(٢) قرأ هشام بخلف عنه بضم اللام من ﴿لِبَدًا﴾ جمع لُبده، كغرفة وغرف، والباقون بكسر اللام جمع لِبده، كسدرة وسدر وهو الوجه الثاني لهشام.

ثم بين سبحانه وتعالى حرص الجن على الاستماع للقرآن، وازدحامهم عند النبي ﷺ وهو يصلي الفجر في بطن نخلة، تعجُّباً من صلاته، وحُسن تلاوته، واقتداء أصحابه به، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي وأُوحي إليّ أنه ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يَدۡعُوهُ﴾ أي يعبد الله تعالى ويقرأ القرآن في صلاة الصبح، كاد الجن يركب بعضهم بعضا من الازدحام عليه، وهذا معنى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أي جماعات متراكمة بعضها فوق بعض من شدة الازدحام، لسماع القرآن فيه، والموحى إليه هو النبي ﷺ، والموحى به هو دعوة الإنس والجن إلى عبادة الله وحده، وكان ذلك حال ازْدحام الجن حوله وتألُّب العرب عليه، وقد وُصف النبي ﷺ بالعبودية دون ذكر اسمه الصريح تشريفاً له.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، فعجبوا من طواعية أصحابه له[1]، والضمير في ﴿كَادُواْ﴾ يعود على الجن في الأرجح.

قال الزبير بين العوام: هم الجن حين استمعوا القرآن من النبي ﷺ كادوا يركب بعضهم بعضا ازدحاما عليه[2].

وقال الحسن في معنى الآية: لما قام رسول الله ﷺ يقول: (لا إله إلا الله) ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبَّدُ عليه جميعاً.

أَرْبَعَةُ أَوَامِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلأُمَّةِ، مُصَدَّرَةً بِلَفْظِ (قُلْ)

٢٠- ﴿قُلۡ إِنَّمَآ[3] أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ قرب نهاية السورة بأربعة أوامر:

أولها: وجوب توحيد الله تعالى وتوجيه العبادة إليه وحده.

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢٦٤٧)، والطبري (٢٣/٣٤٤)، والحاكم (٢/٥٠٤).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/٤٣).

(٣) قرأ عاصم وحمزة وأبوجعفر ﴿قُلۡ إِنَّمَا﴾ فعل أمر والباقون ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ فعل ماض.

وثانيها: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًا ولا نفعاً.

وثالثها: أن النبي ﷺ لا يملك أن يدفع العذاب عن نفسه ولا عن غيره، والذي يملكه فقط هو البلاغ والإنذار.

ورابعها: أن قيام الساعة، ووقت حلول العذاب بالمكذبين، عِلْمُه عند رب العالمين.

أما الأمر الأول: وهو عدم الإشراك بالله تعالى:

فقد ورد أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا، فنحن نجيرك وننصرك، فنزلت الآية[1].

والمعنى: قل يا رسولنا لجميع من أرسلناك إليهم من الإنس والجن، مُبيناً حقيقة ما تدعو إليه: إني أعبد الله وحده، وأتوجه إليه بالدعاء والطلب، ولا أشرك معه أحداً في عبادتي أو صلاتي أو نسكي من بَشَرٍ أو صنم، أو كوكب أو حيوان، وكل ما يتخذه المشركون إلهاً وكل ما يُعبد من دون الله.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلاَ لِغَيْرِهِ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا

٢١- ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾

إن الذي يقدر على دفع الضر وجلب النفع هو الله و حده: ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: إني لا أستطيع أن أرفع عنكم ضَرا ينزل بكم، ولا أسوق إليكم رَشَدا، فإنى عبد ليس لى من الأمر شيء، وإنما الضار والنافع والمرشد هو الله تبارك وتعالى.

والرَّشَد هو الخير والنفع، وهو في مقابلة الضر، وقد يراد به الرشاد والصواب في مقابلة الضلال، فتقدير الآية: إني لا أملك لكم ضرا ولا نفعاً، ولا ضلالاً ولا رشَداً.

أي ولا أملك لكم شيئاً، والذي يملك ذلك هو الله تعالى.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٢٥٧/٤)، وتفسير الخازن (٣١٩/٤).

الأمْرُ الثَّالِثُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لاَ يَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْ نَفْسِهِ لَوْ كَانَ عَاصِيًا لِرَبِّهِ

٢٢- ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ(١) وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا(٢) ﴾

قل ـ يا رسولنا ـ لن ينصرنى ويمنعنى من عذاب الله أحد من خلقه ولو كان رسول الله ﷺ، وهو أكمل الخلق، ولن أجد أحد أفِرُّ إليه إلا الله سبحانه، ولو أراد الله بأحد سوءا فليس بقدرة الرسول ﷺ أن يحول دون وقوعه.

﴿ قُلْ ﴾ يا رسولنا للناس جميعاً ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ﴾ أي لن ينقذني ويحميني ﴿مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ إن أنا عصيته، ولن أجد لي نصيراً ولا ملجأ أفِرّ إليه من عذابه، فكيف أُجيبكم إلى ما طلبتم؟

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ الملتحد: هو الملجأ والمكان الذي يأوي إليه العبد فراراً من العذاب، أي ولن أجد غير الله تعالى ملجأً ولا نصيراً يمنعني من عذابه.

الْبَلاَغُ مُهِمَّةُ الرِّسَالَةِ

٢٣- ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

أي لكن الرسول المرتضى عند الله تعالى: هو الذي يُظْهِر الله له بعض علوم الغيب المتعلقة برسالته من باب المعجزة الدالة على صدق رسالته، وإذا كان النبي ﷺ لا يملك لأحد ضَرًا ولا نفعاً، ولا يملك أن يمنع نفسه أو غيره من عذاب الله تعالى إن كان مستحقاً له، فماذا يملك ﷺ؟

لقد حددت هذه الآية مهمة النبي ﷺ وهي البلاغ، فالذي يملكه ﷺ هو أن يبلغ الإنس والجن عن الله تعالى ما أُمر بتبليغه، ويوصّل لهم الرسالة التي أرسله الله بها.

والمعني: ليس لى مزية على الناس إلا أن الله تعالى قد خصنى بالبلاغ ودعوة الخلق إلى الله كى تقوم عليهم الحجة.

---

(١) عد المكى وحده لفظ﴿أَحَدٌ ﴾ آية، وتركها غيره.

(٢) لم يعد المكى لفظ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ آية، فيكون آية عند غيره.

فاستثنى الله سبحانه مما ذكر في الآيتين السابقتين، من عدم القدرة على دفع الضُّر أو جلْب الخير، أو الحيلولة دون وقوع العذاب بمن يستحقه، استثنى من ذلك بيان مهمة الرسول ﷺ وهي تبليغه رسالة ربه، مبشراً من أطاعة بدخول الجنة، ونذيراً لمن عصاه بدخول النار، وهذا البلاغ هو واجب الرسالة، وليس في مقدور أيِّ رسول التقصيرفيه، فقال تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي لن يجيرني أحد من عذاب الله تعالى إذا لم أبلِّغ رسالة ربي، وفي قيامي بواجب البلاغ عن ربي الملجأ والملاذ الآمن، والنجاة من عذاب الله تعالى.

أما من لم يؤمن بالله تعالى، وأعرض عن رسالة ربه، ولم يُصدِّق بالجنة والنار، فإن هذا لا نجاة له من عذاب النار، ولا خروج له منها إن مات على ذلك.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فأعرض عن دين الله، ولم يقبل ما جاء به محمد ﷺ فهو من أهل النار، فالمراد بالمعصية في الآية: معصية الكفر، كما دل على ذلك الوعيد بالعذاب المخلّد في نارجهم، كما هو مذكور في آخر الآية، وهو لا يكون إلا للكافر، قال تعالى في وصف عذابه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يلْقى فيها جزاء كفره، ويُخلّد فيها خلوداً أبدياً، فهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يحولون عنها ولا يزولون.

أما سائر المعاصى عدا الكفر والشرك والنفاق الاعتقادى، فإنه لا يوجب الخلود في النار كما هو مقرر شرعاً.

إِمْهَالُ الْعُصَاةِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

٢٤- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾

وهذا العذاب الذي أعده الله تعالى في الدار الآخرة لكل من كفر به، وكل من لم يؤمن بخاتم الرسل من الجن والإنس، واقع لا محالة، وهو حق وصدْق، وعندما يروْا هذا العذاب بأعينهم، سيعلمون علم اليقين، مَنْ مِن الفريقين - المؤمنين أو الكافرين- يؤيده الله بنصره يوم القيامة، فيفوز برضاه في جنات النعيم؟

والمكذبون بالبعث والنشور يسخَرون من عذاب الآخرة، وإذا سمعوا الوعد به كذّبوه.

فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥] وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨].

وقالوا أيضا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك:٢٥].

وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

وقد أمهل الله القائلين بهذا إلى يوم لقائه ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي حتى إذا تحقق وعد الله لهم بالعذاب فشاهدوه عياناً وجزموا أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلوله بهم حق المعرفة ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ ومعينا ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ حين لا ينتصرون بأنفسهم ولا ينصرهم غيرهم.

أي: سيعلمون من هو أقل نفرا وجندا، أهم، أم المؤمنون؟ وكثيراً ما كانوا يستبعدون وقوع العذاب بهم.

وكان النبي ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم وحذّرهم من قيام الساعة أظهروا الاستخفاف به وسألوه: متى هذا العذاب؟ فأمره الله أن يقول لهم: لا أدري متى يقع.

الأَمْرُ الرَّابِعُ: أَنَّ عِلْمَ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

٢٥- ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي[١] أَمَدًا﴾

أي أن الرسول ﷺ على جلالة قدره لا يدري أقريب قيام الساعة، أم بعيد؟ فهو لا يدري موعد حلول العذاب بالمكذبين أقريب هو أم بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا للجاحدين المنكرين للبعث والنشور: إن سألوك عن قيام الساعة أو عن وقت حلول العذاب بهم ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري، أهذا العذاب الذي وعدكم الله به قريب هو أم بعيد قد جعل الله له مدة طويلة، فنصْرُ الله تعالى قريب، والعذاب نازل بالكفار قطعاً، ولكن موعده عند الله تعالى، ولا يعلم وقت مجيئه إلا هو سبحانه.

ولما سئل النبي ﷺ عن موعد قيام الساعة قال «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[٢].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر بفتح ياء الإضافة من ﴿رَبِّيَ أَمَدًا﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) جزء من حديث عمر الطويل في صحيح مسلم برقم (٨).

وقد وجه النبي ﷺ نظر من يسأل عن قيام الساعة، إلى ما هو أهم من السؤال، وهو العمل لها والإعداد لهذا اليوم، فقد نادى أعرابي جهوريّ الصوت، قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: (**ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟**) قال: (أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله) قال: (**فأنت مع من أحببت**)، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث[1].

وعن أبي ثعلبة الخُشني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم**»[2].

فعِلْمُ وقت نزول العذاب غيب لا يعلمه إلا الله.

عِلْمُ الْغَيْبِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

٢٦- ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾

وهو سبحانه علام الغيوب، ولا يُطْلِع أحداً من خلقه على غيبه، بل انفرد سبحانه بعلم الظواهر والبواطن والسرائر والضمائر ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي كل ما غاب عن الأبصار، وخَفِيَ عن الأنظار ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه، فقد اقتضت حكمته تعالى أن ينفرد بعلم الغيب، ولا يطلع أحداً على شيء منه، ومن ذلك: الأرزاق، والأعمار، ونزول الغيث، وقيام الساعة، وما في الأرحام، وماذا يكون غداً، إلخ.

إِخْبَارُ اللهِ إِلَى بَعْضِ رُسُلِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ يُحَاطُ بِحِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ

٢٧- ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾

ثم استثنى الله تعالى من هذا النفي، المتعلق بمعرفة علم الغيب مَن اختاره من رسله وارتضاه لرسالته، فإنه يُطلِعه على شيء من الغيب، ليكون هذا معجزة له، فإن الرسل

---

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم برقم (٢٦٣٩)، وفي صحيح البخاري برقم (٣٦٨٨).

(٢) أبوداود برقم (٤٣٤٩)، والمستدرك (٤/٤٢٤)، قال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

يؤيَّدون بالمعجزات، ومنها: الإخبار ببعض المغيَّبات، وفي هذه الحالة فإن الله تعالى يحيط هذا الغيب بالملائكة الحرّاس من أمام هذا الرسول ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، كي يحفظونه من الجن، حتى يصل الغيب مضبوطاً إلى الرسول، بلا زيادة ولا نقص، والرسل وحدهم، هم المخصوصون بالمعجزات، أما الأولياء فقد يَظْهَرُ على أيديهم بعض الكرامات:

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء، وإن يكن في أمتي أحد، فإنه عمر بن الخطاب**»[1].

والفرق بين معجزة النبي، وكرامة الولي:

أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، ولا يجوز للولي أن يدّعي خرق العادة مع التحدي، ولو ادّعى ذلك لكفر من ساعته، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإن الله تعالى يظهر على يديه ما شاء من الغيب القليل، في حدود ما يعينُه على تبليغ الدعوة، وما يُثبِت صدق دعواه الرسالة، وفي هذه الحالة: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي أن الله تعالى يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس للحفظ والرقابة، يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغاته، ومن النسيان أو الانحراف، وسائر ما يعترض البشر من الضعف والنقص.

وما يدّعيه الكهنة والمنجّمون، فهو كذب وتخريص، وفيه دليل على أن من ادّعى علم شيء من الغيب يتعلق بالموت أو الحياة ونحوهما، فهو كُفر بما أنزل الله على محمد ﷺ.

وقد انسدّ باب الكهانة بمبعث النبي ﷺ فمن ادعى منهم شيئاً من الغيب فقد كفر ومن الغيب الذي أطْلع الله عليه رسوله: ما يحدث من الفتن وأشراط الساعة، وما يكون يوم القيامة من نعيم وعذاب.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤٦٩، ٣٦٨٩)، ومن حديث عائشة في صحيح مسلم.

وثبت أن عمر ﷺ سأل عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال ﷺ: «إن بينك وبينها باباً» قال عمر: هل يُفتح أو يُكسر؟ قال: «بل يكسر» فعلم عمر أنه الباب، وأن كسره قتله[١].

وكذا قوله ﷺ للحسين ﷺ: «ستقتلك الفئة الباغية» وهكذا.

الْعِلْمُ الشَّامِلُ وَالإِحْصَاءُ الدَّقِيقُ

٢٨- ﴿لِيَعْلَمَ [٢]أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾

وهذه الرقابة المحكمة للرسول ﷺ وهو يبلغ الرسالة، ليقع منه البلاغ مُصَاناً محفوظاً فيتعلق به علم الله تعالى في الواقع المشاهد، بعد أن حفظ الله هذا الوحي بملائكته حتى وصل إلى رسله، والله تعالى أعلم بما كان وما يكون، والمراد بالعلم: علم المشاهدة الذي يترتب عليه الجزاء.

فالضمير في ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعود على الله تعالى، أي يفعل الله ذلك ليبلغ ما يشاء من الغيب إلى الرسول المختار، دون أن يخالطه شيء آخر.

ويصح أن يعود الضمير على الرسول ، فيكون المعنى: ليعلم الرسول محمد ﷺ أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله، وأنهم قد بلغوا رسالات ربهم بكل أمانة ودقة، وأن الوحي كان محفوظاً ومحاطاً بسياج من الملائكة، يحرسونه من استراق السمع.

ذلكم قول الله تعالى ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وأن الوحي الذي أوحاه الله إليهم قد حُفظ من الجن، ولم يسترقوه، ويهمسوا به إلى الكهنة.

وقد ختم الله السورة بأمرين:

الأمر الأول: أن علم الله تعالى محيط بجميع خلقه، وشامل لما عندهم من ظواهر الأمور وبواطنها، من الشرائع والأحكام وغيرها، لا يفوته منها شيء، وهذا معنى

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم (٢٦/٢٨٩٣).

(٢) قرأ رويس بالبناء للمجهول في ﴿لِيُعْلَمَ﴾ ونائب الفاعل هو المصدر المؤول من أن وما بعدها، والباقون بالبناء للمعلوم، والفاعل هو النبي الموحى إليه.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي ما أمامهم وما خلفهم، وهذا تعميم بعد تخصيص.

الأمر الثاني: أن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، فلم يخْفَ عليه منه شيء، لقد أحصى الله ما خلق، وعرف دقائق ما خلق، ولا يغيب عنه منه شيء، حتى مثقال الذرة ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وهذا تعميم أشمل من سابقه، فهو علم ضَبْطٍ واستقصاء لجميع الأشياء في السموات والأرض، من القَطْر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار، وكل رطب ويابس، وكل ما في البر، والبحر والجو، لا يخفى عليه منه شيء، قال تعالى:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وإذا كان علم الله تعالى شاملاً محيطاً. فكيف لا يحيط علمه جل شأنه بما أَمر به رُسله أن يبلغوه إلى خلقه، وكيف لرسله أن يفرطوا في هذا الوحي، فيزيدوا فيه أو ينقصون؟! ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

هذا: ويعلم من هذه السورة، أن الجن عالم مخلوق كعالم الإنس، وأنهم مكلفون بالأوامر والنواهي كالإنس، وأنهم مجزيون بأعمالهم يوم لقاء الله، وأن النبي ﷺ مرسل إليهم كما هو مرسل إلى الإنس، وأنهم بميزون بين الصالح والطالع والخبيث والطيب، ومن ذلك أن الشياطين لا يسترقون السمع، وأن السماء محروسة محفوظة، وقد اشتملت السورة على الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك، وأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله إلا من خصه الله من الرسل بشيء منه.

تم تفسير (سورة الجن) ولله الحمد والمنة

تَفسِيرُ سُورَةِ المزمل (٧٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ـ (سورة المزمل) هي السورة الثالثة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول على الأرجح، نزلت بعد (سورة المدثر) وقبل (سورة القلم).

وعدد آياتها عشرون آية في العدد الكوفي[1]، وهي مئتان وخمس وثمان مئة كلمة، وثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، ولم يُعرف لها اسم آخر سوى سورة المزمل.

وهي سورة مكية بما فيها الآية الأخيرة على الأرجح، فقد قيل إنها نزلت بعد سنة، من نزول بقية السورة قبلها، وقيل: نزلت بعد عشر سنين.

٢ ـ موضوع السورة:

أ ـ تناولت السورة في أولها جانباً من تبتُّل النبي ﷺ في قيام الليل قبل أن تُفرض الصلاة عليه وعلى أمته، وقد تضمن ذلك طول تلاوة النبي ﷺ للقرآن في صلاته، وحُسْن ترتيله له، واغتنام ساعات الليل في التهجد والعبادة، فهي ممارسة شاقة على النفس، تُروّضها وتُهذّبها، وتشدُّ عزمها، وتشحذُ همتها.

وفي النهار وقت طويل متسع لشؤون الدنيا، وقد جاء هذا في الآيات التسع الأولى من السورة.

ب ـ وبعد هذا الإعداد الروحي والبدني، أمر الله رسوله أن يصبر على أذى المكذبين له، ويترك أمرهم لربه، فإنه المتكفل بنصره عليهم، والله تعالى سيتولى جزاءهم الذي توعّدهم به من النكال والعذاب يوم القيامة، فعند الله تعالى: ﴿أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآيتان:١٢،١٣] ويتم هذا في يوم ترجف فيه الأرض والجبال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتفطر فيه السماء.

---

(١) وتسع عشرة آية في العدد المكى والبصري والشامي، وثماني عشرة آية في العدد المدني.

فآمنوا ـ أيها الناس ـ بالله ورسوله حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه من العذاب بالغرق، حين كذبوا نبيهم موسى عليه السلام.

وقد جاء هذا من الآية العاشرة في السورة إلى الآية التاسعة عشرة.

والآية الأخيرة نزلت لتخفيف قيام الليل على الأمة، وتقليل القراءة فيه، وجَعْلِه نافلة بعد أن كان فريضة، والاكتفاء بقيام بعض الليل، مراعاة لمختلف أحوال الناس كالمرضى، والمجاهدين في سبيل الله، والساعين على أرزاقهم، ووعد الله تعالى بالجزاء العظيم على فعل الخيرات من فرائض ونوافل.

٣ ـ سبب النزول:

أ ـ جاءت روايات مشتركة بين سورتي المدثر والمزمل في سبب النزول، تتحدث عن نزول الوحي، وذلك أن النبي ﷺ كان يتعبد شهر رمضان من كل عام في غار حراء بجبل النور، قبل البعثة بثلاث سنوات، وبينما هو نائم ﷺ ذات ليلة، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، ومعه كتاب في نمط من ديباج، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فضمه جبريل إليه حتى بلغ منه الجَهْد، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، أي لا أعرف القراءة، فأعاد ذلك للمرة الثالثة، ثم قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥] قال: فقرأتُها، وابتعد جبريل، فسمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فكلما رفعتُ رأسي في الأفق وجدتُ جبريل، فما زلتُ واقفاً في مكاني حتى بعثتْ خديجة في طلبي، فرجعتُ، فقالت: يا أبالقاسم: أين كنت؟ فحدثتُها بالذي رأيت فقالت: أبشِرْ يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده: إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، وفتر الوحي مدة، إلى أن جاء مرة أخرى، فأدركتني رجفة، ورجعتُ إلى أهلي أقول: زملوني، دثروني، ففعلوا وهو يرجف، وإذا بجبريل يناديه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ وقيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1].

---

(١) مختصراً من رواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد، ومن الروايات الواردة في بدء نزول الوحي في الصحيحين وغيرهما.

ب ـ وورد أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تُدبّر كيداً للنبي ﷺ فاغتمّ لذلك، والتف بثيابه، وتزمّل ونام مهموماً فنزل عليه جبريل بالسورة[1] ما عدا الآية الأخيرة منها فقد تأخر نزولها عاماً كاملاً، بعد أن تورمت قدما النبي ﷺ من طول القيام، للتخفيف عنه وعن أمته[2].

جـ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«جاورتُ بحراء، فلما قضيتُ جواري، هبطت، فنُوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعتُ رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فرجعتُ فقلت: دثروني، زملوني»**[3].

وهذه الرواية تفيد أن جبريل عليه السلام نزل هذه المرة بعد أن قضى النبي تحنثه في غار حراء، وأنه ﷺ قد بنيء بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ كما في الرواية الأولى، وأرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ كما في هذه الرواية.

٤ ـ قيام الليل له معنيان:

الأول: قيام الليل، بمعنى صلاة التراويح في شهر رمضان، وهو سنة مستحبة، منذ كان، ولم يُفرض هذا القيام قط، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قام ليلة في رمضان خلْف حصير احتجره، فصلى، وصلى بصلاته ناس، ثم كثُروا في الليلة القابلة، ثم غصّ المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم، فغصُّوا ببابه، فخرج مغضَباً، وقال: **«إنما تركت الخروج لأني خفت أن يفرض عليكم»**[4].

---

(١) جاء هذا عن جابر عند البزار (٢٢٧٦)، كشف، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٦)، وأبونعيم في الدلائل، كما في الدر المنثور (٣٥/١٥)، وفي سنده مقال، ينظر: مجمع الزوائد (١٣٠/٧).

(٢) جاء هذا في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، وعند ابن أبي شيبة (١١٨/١٤)، والطبري (٣٥٨/٢٣)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢) عن ابن عباس.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٢٢) وما بعده، وصحيح مسلم (١٦١).

(٤) ينظر الأحاديث في صحيح مسلم عن عائشة (٧٦١،٧٨٢)، والبخاري (٧٣٠،١١٢٩،٥٨٦١،٧٢٩).

أما اجتماع الناس لها، فكان ذلك بالمدينة بعد أن فُرض الصيام في السنة الثانية

الثاني: أما قيام الليل بمعنى صلاة التهجد، فقد فُرض على الأمة في الأصح بنزول أول سورة المزمل، ثم خفف الله عنهم بعد عام أو أكثر، فجعله تطوعاً، وخفف من وقته، وكان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلاة،

وارتباط أول السورة بآخرها يشير إلى أن قيام الليل كان مفروضاً على الأمة أيضاً، لأن الله تعالى قال فيها ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية:٢٠].

ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد كان القيام تطوعاً، وقبل ذلك كان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى ثلثاه، فيقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة ألاّ يتم القدْر المطلوب، واشتدّ ذلك عليهم، حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله وخفف عنهم.

وكان بين نزول أول السورة وآخرها، سنة، أو ستة عشر شهراً، على قول، فنسخت فَرْضِيَّةُ قيام الليل بالنسبة للأمة، وَبقيتْ هذه الفرضيّة بالنسبة للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحوّ من سنة[١].

وفي حديث سعد بن هشام، أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قيامه ﷺ بالليل فقالت: ألست تقرأ: يا أيها المزمل؟ إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف، في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد الفريضة[٢].

---

(١) أبوداود (١٣٠٥)، وقد حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، والبيهقي في السنن (٢/٥٠٠)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٢/٥٠٥)، وابن أبي شيبة (١٤/١١٨).

(٢) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٧٤٦)، والمسند (٦/٥٤)، (٢٤٢٦٩)، وأبي داود (١٣٤٢،١٣٤٣)، والنسائي (١٦٠٠)، والبيهقي في السنن (١/٣٥٨).

ووصف الله قُوام الليل بقوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [السجدة:١٦].

وبأنهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٧،١٨].

ونفى القرآن التسوية بينهم وبين غيرهم في قوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر:٩].

وعدّهم سبحانه من عباد الرحمن فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[الفرقان:٦٤].

هذا: وصلاة التراويح تخصّ شهر رمضان وتكون بعد صلاة العشاء، أما صلاة التهجد أو صلاة القيام فتكون بعد منتصف الليل، ويطلق عليهما صلاة الوتر، لأن النبي ﷺ لم يزد في رمضان ولا في غيره عن أحد عشر ركعة، إلا أنها كانت صلاة طويلة، فمن زاد في عدد ركعاتها كان ذلك نظراً لخفّة الصلاة وقلة القراءة فيها، والله أعلم.

٥ ـ ومن الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل:

أ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1] .

فصلاة الليل من شكر المنعم سبحانه على ما أسبغ الله على العبد من نعم ظاهرة وباطنة.

ب ـ وصلاة الليل هي أفضل النوافل بعد الفريضة لحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد الفريضة، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[2].

جـ ـ وفي الليل ساعة إجابة: عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة**»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠)، وعن المغيرة بن شعبة برقم (٢٨١٩)، والبخاري (١١٣٠،٤٨٣٦).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦١٢،١١٦٣).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٥٧).

د ـ ويبدأ المسلم صلاة الليل بركعتين خفيفتين:

عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح الصلاة بركعتين خفيفتين**»[1].

هـ ـ وقيام الليل مسؤولية الزوجين: كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت الماء في وجهه**»[2].

و ـ وقد ربط النبي ﷺ بين الثناء على العبد وبين صلاة الليل:

فعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم الرجل (عبد الله) لو كان يصلي من الليل**»، قال سالم: فكان (عبد الله) بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[3].

ز ـ وتزيد عدد الركعات أو تنقص حسب طول الصلاة وقصرها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، فحرزتُ قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[4].

حـ ـ وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، عن إحدى عشرة ركعة[5]، وهذا بالنسبة لصلاة الوتر.

٦ ـ الحياة الجادة:

وقد حددت آية سورة الأنعام سيرة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

---

(١) صحيح مسلم برقم (٧٦٨)، وأبوداود (١٣٢٣،١٣٢٤).

(٢) أبوداود برقم: (١٣٠٨)، وابن ماجة برقم (١٣٣٦)، وابن حبان برقم (٦٤٦)، والمسند (٧٤١٠) بإسناد قوى (محققوه)، وأخرجه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (١/ ٣٠٩)، والبيهقي في السنن (٢/ ٥٠١).

(٣) البخاري برقم (١١٢١،٣٧٤٠)، ومسلم برقم (٢٤٧٩)، والنسائي (٣/٢٥٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٢١٦)، والبيهقي في السنن (٣/٨)، وسنن أبي داود (١٣٦٥).

(٥) البخاري (١١٤٧،٣٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آية:١٦٢].

فإذا كانت حياة بعض الناس خليط من الحق والباطل، والجد والهزل، والراحة والتعب، فإن النبي ﷺ كانت حياته كلها كدحاً موصولاً، وسبحاً طويلاً، ولم يكن ذلك استكمالاً لأمجاد النبوة، بل كان لتكوين جيل يغيّر مسار البشر إلى يوم الساعة، ويقيم للحق مناراً لا تطفئه العواصف.

إن السنوات التي قضاها النبي ﷺ في هذه الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين، بل كانت لإعداد رجال يحرسون عقيدة التوحيد في كل زمان ومكان.

إن محمداً ﷺ كان أخشى الناس لله، وأشدهم إحساساً بقرب لقاء ربه، وكان الجيل الذي يحفُّ به يتأسّى به، ويحيى على غراره، فليس غريباً أن يقوم الليل مثله، ويشد أزره في مكافحة الضلال.

ولكن الله سبحانه رحم الأمة، واستبقى فريضة قيام الليل على نبيه خاصة، واكتفى من المؤمنين بما تيسر[1].

قال الفخر الرازي: وإنما كُلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية الجسمية والروحية، على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والصعاب، وتجشُّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية بما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه التربية الروحية، أن مَلَكَ المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله[2].

* * *

(١) ينظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٤٨٥).

(٢) التفسير الكبير (١٧١/٣).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قِيَامُ اللَّيْلِ فِي مَطْلَعِ الدَّعْوَةِ

١ - ٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ[1] ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ[2] ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾

كان النبي ﷺ عندما يأتيه الوحي ويسمع صوت الملَك، تأخذه رعدة ورعشة، فيعود لأهله ويقول: زملوني، دثّروني، والمزمل هو المتلفف بثيابه.

وقد ابتدأت السورة بتوجيه النداء إلى النبي ﷺ وهو في باكورة الدعوة، فتؤانسه وتلاطفه، وتنبّه النّوام إلى قيام الليل، وتقول للنبي ﷺ: يا أيها المتلفف بثيابه: انفُض عنك ثيابك، وأعدَّ نفسك لحياة جديدة، هي: حياة العبادة، والدعوة، والجهاد الشاق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ الذي تَزمّل في ثيابه وتلَفف بها، لقد حُمِّلْتَ أمراً عظيماً فتهيأ للقيام به، ودع عنك زمان النوم، والتلفف في الفراش. وفي هذا النداء ملاطفة للنبي ﷺ وعدم معاتبة له.

وكانت العرب تسمي الإنسان باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كما قال ﷺ لعليّ ﷺ، وكان التراب قد لصق بجنبه، فقال: (قم أبا تراب) ملاطفاً له. وقال لحذيفة يوم الخندق (قم يا نومان) وكان عبد الرحمن بن صخر يحمل هرة صغيرة في كُمّه، فقال له النبي ﷺ (يا باهر)[3].

وفي الآية بيان أن الله تعالى غير عاتب على نبيه ﷺ في تزمله وتلففه بثيابه.

وابدأ - يا رسولنا - رسالتك بالإعداد الروحي والبدني، فانشط لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات طوال، ودع عنك هذا التزمّل والتلفّف ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ كله في الصلاة متعبداً.

---

(١) لفظ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ معدود آية عند المدني الأول والدمشقي والكوفي، وغيره معدود عند غيرهم.

(٢) قرأ عاصم وحمزة بكسر الواو من ﴿أَوِ ٱنقُصْ﴾ والباقون بضمها.

(٣) ينظر: حديث طويل في المسند عن أبي هريرة ﷺ (١٠٦٧٩)، وفيه (أباهر) وإسناده صحيح على شرط البخاري وانظر: صحيح البخاري (٦٢٤٦)، والترمذي (٢٤٧٧)، وغيرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا شيئاً يسيراً منه، استعداداً للمهمة الشاقة، وهي تبليغ دعوة ربك للعالمين وتبصيرهم بالدين الجديد، فقد انتهى زمان النوم المشبع، والاستجمام العميق، وإذا فرغت من قيام الليل فاستقبل كدْح النهار في تبليغ الدعوة ومجاهدة الخصوم.

ثم وضح الله سبحانه هذا القليل المستثنى في الآية، وهو المقدار الذي يجب أن يصرفه النبي ﷺ في عبادة ربه ليلاً فقال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ أي قم نصف الليل، واجعل النصف الآخر لراحتك ونومك، والأمر فيه سعة بالتقليل من هذا النصف: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ أي انقص من نصف الليل في التهجد إلى ثلث الليل بدلاً من النصف.

أو زد على النصف قليلاً إلى الثلثين، وهكذا فقد أمر الله تعالى في الآيتين بقيام نصف الليل، ثم ثلثه، ثم ثلثيه، فهذه أحوال ثلاثة، فيها توسعة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين لرفع الحرج في التحديد، حتى يتمشّى ذلك مع طول الليل وقِصَره صيفاً وشتاءً، ولا يضيع حظ النهار لأحوال الدنيا ومهام الدعوة.

وتخصيص الليل بالقيام دون النهار، لأن في الليل زيادة إقبال على الله تعالى بالمناجاة، حيث السكون والهدوء، ونوم الناس عادة.

والنصف الثاني من الليل، هو الأكثر قرباً من الله تعالى، لأنه وقت النوم والراحة، فتكون العبادة أكثر خشوعاً، وأدعى لصفاء النفس، وراحة القلب، وحُسْن الصلة بالله تعالى. وهكذا أمر الله نبيه بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف عنهم ورحمهم، كما جاء في آخر السورة.

وفي الآية تنبيه لكل راقد أو غافل أَوْ لاَهٍ بقيام جزء من الليل، فهي من أفضل النوافل.

قيام الليل كان فريضة:

وكان الله تبارك وتعالى قد فرض على الرسول ﷺ وعلى أمته قيام الليل كله في أول الدعوة قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه اثني عشر شهرا حتى انتفخت أقدامهم، ثم أنزل الله تعالى التخفيف في آخر السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فرضاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله تعالى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ثم نسخ بقوله ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة[1].

وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها.

وصار قيام الليل نافلة بعد ذلك في حق الأمة، كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ [الإسراء:٧٩].

ترتيل القرآن:

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقيام الليل، أتبع ذلك بأمره له بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلِّي من حضور القلب، ومن التفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها.

فعند وصول القارىء إلى ذكر الله تعالى في تلاوة القرآن، يستشعر العبد بقلبه عظمة الله تعالى وجلاله، فيذكره ويشكره

وعند ذكر الوعد والوعيد، يحصل له الخوف والرجاء.

وعند ذكر القصص والأمثال، يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله تعالى.

والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني. فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند التلاوة[2] للتدبر والتأمل، بالإضافة إلى حسن الأداء وإقامة الألفاظ، ومن ثم إلى التطبيق العملي بامتثال أوامر القرآن واجتناب نواهيه، فهذه ثلاثة معان لترتيل القرآن أو تلاوته، وهي: حضور القلب، والقراءة المرتلة المجودة، والتطبيق العملي لما يقرأ.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقرأ القرآن أثناء قيام الليل بتؤدة وترسُّل وتثبُّت، ليكون عوناً له على فهمه وتدبره فقال تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ والترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف.

---

(١) التفسير الكبير (١٧١/٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الخازن (١٦٥/٤).

اللحن الجلي في القراءة يجعل الكلمة ليست قرآناً وإن لم يغير المعني:

والأمة متعبدة بإقامة الألفاظ وصفة الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ كما نقله إلينا أئمة القراءة، كما هي متعبدة بفهم القرآن، وتدبره، والعمل بما فيه، ولا سبيل لفهم المعاني إلا بإقامة الحروف وتصحيح الألفاظ.

واللحن في كتاب الله تعالى، فيما يتعلق بالحروف، أو الحركات، أو الإخلال بحق التلاوة، يُخرج الكلمة عن كونها قرآنا، ولو لم يغير المعنى.

ولا يصح التجوُّز بالنسبة لِلَّحن الذي لا يُغير المعنى، لأن هذا تبديل وتحريف في كتاب الله تعالى يتناقض مع قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

حق التلاوة:

والإخلال بحق التجويد ردّ لما جاء به رسول الله ﷺ وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ قال: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١].

والمنسوب من التجويد إلى أئمة القراءة، هو القواعد التي ضَبطتْ الاستقراء المستخلص من صفة تلاوة النبي ﷺ أما التطبيق العملي فهو صفة تلاوة رسول الله ﷺ.

قراءة القرآن بالصوت والنغم محدثة:

والقراءة المرتلة، هي المأثورة عن رسول الله ﷺ، أما القراءة التي هي بالصوت والنغم، فهي محدثة، مأخوذة عن إنشاد الشعر الفارسي، وأول ما قرىء بها في مجلس هارون الرشيد.

التلقى والمشافهة:

والنبي ﷺ لم يترك الصحابة يتعلمون القرآن من المصحف، بل كان يُعيّن من يُعلِّم الناس القرآن في مكة والمدينة وغيرهما، ولم يتركهم لألسنتهم وصُحُفهم.

---

(١) من حديث عائشة عند الشيخين وأبي داود وابن ماجة، كما في صحيح الجامع الصغير (٢/٢٣٠) برقم: (٥٨٤٦)، والمسند (٢٨/ ٢٥).

وهكذا لما نسخ عثمان المصاحف، وأرسلها إلى الأمصار الإسلامية، لم يرسلها وحدها ليقرأها الناس منها، بل أرسل مع كل مصحف مُعَلماً، يقرأ بقراءتهم، وما ذلك إلا لأن القرآن يؤخذ بالتلقي والمشافهة، لمعرفة الغنة، والمد والقصر، والمخارج والصفات، وهي مصطلحات التجويد التي دُونت في القرن الثالث الهجري لتضبُط لنا الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ.

وعلى القارىء أن يتأمل عظمة الله تعالى، بحضور قلب وخشوع، عند ذكر الوعد والوعيد، والقصص والأمثال، والجنة والنار، ليحصل الخوف والرجاء، فيستنير القلب بنور الإيمان والمعرفة.

وقد كانت قراءة النبي ﷺ مفسَّرة حرفاً حرفاً، يمد المدود، ويقف على رؤوس الآي، ورجّع ﷺ سورة الفتح على ناقته يوم فتح مكة.

وتحسين الصوت بالقراءة أمر مطلوب، من غير مبالغة، ولا إفراط، ولا غلوّ بالتمطيط والتحوير في القراءة، بحيث يتولّد من الحركات حروف، ومن الحروف حركات.

ولْيحذر القارىء من الرياء، فإن أول من تُسعَّر عليهم النار يوم القيامة ثلاثة، هم: القارىء للقرآن رياءً، والمتصدق رياءً، والمقاتل رياءً، ومنهم الخوارج الذين لا تجاوز القراءة حناجرهم.

وإذا مرّ القارىء بآية رحمة، وقف، وسأل ربه، وإذا مرّ بآية عذاب، وقف، واستعاذ بالله، إذا كان يقرأ وحده أو يصلي وحده[1].

من ادلة حق التلاوة:

١ ـ وقد سئل أنس ﷺ عن قراءة النبي ﷺ فقال (كانت مدّاً، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمدّ ببسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم)[2] والمراد بالمد في الحديث: المد الطبيعي.

---

(١) ينظر للمؤلف: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٩٩٩م).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٤٦).

٢ـ أما المد المتصل (الواجب) فقد جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يُقرىء رجلاً، فقرأ ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ﴾ مرسلة ـ لم يمدّها ـ فقال ابن مسعود ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ، قال: وكيف أقرأكها؟ قال: أقرأنيها ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ فمدّها[١].

٣ـ أما الوقف على رؤوس الآي فقد جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقطع قراءته آية آية[٢].

٤ـ وقد شرع الإسلام تحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في مثل حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، يجهر به**»[٣]، فالتغني هو رفع الصوت بالقراءة.

وعن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود**»[٤].

٥ـ وفي حديث البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[٥].

٦ـ وفي حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ، وارتق، ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»[٦].

---

(١) صححه ابن الجزري في (النشر) (٣١٥/١)، وصححه الألباني في كتاب (دفاع عن القرآن) (ص ٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) ينظر: صحيح سنن الترمذي (١٣/٣)، وفي السنن (٢٩٢٧)، وأبي داود (٤٠٠١)، وأبي يعلى (٧٠٢٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٣٤٣) والحاكم (٢٣١/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والمسند (٢٦٥٨٣) بإسناد رجاله ثقات (محققوه)، قال الدارقطني: إسناده صحيح وكلهم ثقات.

(٣) البخاري (٧٥٢٧).

(٤) صحيح مسلم (٧٩٣)، وصحيح البخاري (٥٠٤٨).

(٥) صحيح سنن ابن ماجة (٢٢٤/١)، وأبو داود (١٤٦٨)، والأحاديث الصحيحة للألباني (٧٧٢)، والمسند (٢٨٣/٤) برقم (١٨٤٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٨)، والمستدرك (٥٧١/١).

(٦) أبوداود (١٤٦٤)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٠٠)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٩) بإسناد حسن صحيح، وابن حبان، الإحسان (٧٦٦)، والحاكم (٥٥٢/١)، والمسند (١٩٢/٢) (٦٧٩٩) قال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٢/٧): رجاله رجال الصحيح، والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦).

٧ ـ وجاء عن عليّ ﷺ في معنى الترتيل: بيّنه تبيناً، ولا تنثره نثر الدَّقَل، ولا تهذّه هَذّ الشِّعْرِ، قفوا عند عجائبه، وحَرِّكوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحَدِكم آخر السورة[1].

الْقَوْلُ الثَّقِيلُ يُتْلَى فِي قِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ نَوْمٍ

٥، ٦ - ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ[2] ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا[3] وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بترك النوم، وقيام الليل، وتدبُّر القرآن، بيّن السبب في هذه الأوامر الثلاث، حيث بين سبحانه السبب في الأمر بقيام الليل على النحو السابق، بأنه لإعداد الرسول ﷺ للقول الثقيل الذي سينزل عليه، أي إنا سننزل عليك ـ يا رسولنا ـ قرآناً عظيماً، له هيبة وروعة وجلال، وقدر عظيم، مشتملاً على الأوامر والنواهي، والأحكام الشرعية، والتكاليف الشاقة، والجهاد المضْني، فاستعدّ لتلقي هذا القول الثقيل، واستعنْ على ذلك بقيام الليل، فإن دعوة الناس تحتاج إلى جُهد ومصابرة، لحملهم على ترك ما ألفوه من العقائد الفاسدة، والعادات السيئة، فأنت - يا رسول الله -، معرّض لأخطار جمّة، ومتاعب كثيرة، فكيف يمكنك القيام بها مع ما أنت عليه من السكون والراحة والبعد عن المشاق، وجاهد نفسك بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبّر، فإن فيه مجاهدة النفس، ومصابرة العدوّ، وحَمْلها على ما ورثَتْهُ من فساد العقيدة والأخلاق.

ثِقَلُ القرآن:

فانشط من مضجعك - أيها الرسول - واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعداداً لتحمل مشاق الدعوة، وشمّر عن ساعد الجد، واستعد لهذا القول الثقيل، فالقرآن ثقيل بما فيه من تكاليف، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، وحدود، وأحكام، وفرائض، وأخلاق وآداب.

---

(١) أخرجه العسكري في المواعظ كما في الدر المنثور (١٥/ ٤١).

(٢) قرأ أبوجعفر بإبدال همزة ﴿نَاشِئَةَ﴾ ياء وصلاً ووقفا، ومثله حمزة عند الوقف، وأمالها الكسائي وقفا وحمزة بخلفه.

(٣) قرأ أبوعمرو وابن عامر ﴿وَطْـًٔا﴾ بكسر الواو وفتح الطاء وألف بعدها ممدودة، ثم همزة منونة منصوبة، فتكون من قبيل المد المتصل، والباقون ﴿وَطْـًٔا﴾ بفتح الواو وسكون الطاء ثم همزة منونة منصوبة مصدر وطيء، ووقف عليها حمزة بالنقل.

والقرآن ثقيل في حدّ ذاته ثِقَل حقيقي، كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة، تصف ثِقَل الوحي وهو ينزل بالقرآن على رسول الله ﷺ **ومن هذه الأحاديث:**

١ـ قول زيد بن ثابت ﷺ: (أُنزل على رسول الله ﷺ شيء من القرآن وفَخْذه على فخذي، فكادت تُرَضّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه)[1] ترض أي تكسر.

٢ـ وروى هشام بن عروة عن أبيه ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أُوحِيَ إليه، وهو على ناقته، وضعتْ جرانها ـ أي باطن عنُقها ـ فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه[2].

٣ـ وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننتُ أن نفسي تفيض**»[3].

٤ـ وسأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «**أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فَيُفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فَيُفْصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً[4].

٥ـ وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي، كرب لذلك وتربّد وجهه[5].

وفي لفظ له كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكّس رأسه، ونكّس أصحابه رؤوسهم، فلما أُتْلِيَ عنه، رفع رأسه[6].

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٥٩٢).

(٢) المسند (١١٨/٦)، وتفسير الطبري (٨٢/٢٩)، والحاكم في المستدرك (٥٠٥/٥)، والبيهقي في الدلائل (٥٣/٢)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٢٥٧/٧).

(٣) المسند (٢٢٢/٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٢)، وانظر (٣٢١٥)، وأخرجه مسلم مختصرا (٢٣٣٣).

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٣٤).

(٦) صحيح مسلم (٢٣٣٥).

٦ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُوحي إليه، لم يستطع أحد منا أن يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي[1].

٧ـ وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنْ كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها[2] والجران: باطن العنق.

ناشئة الليل: (الصلاة بعد نوم):

ثم إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن عيش الحياة، والاتصال بالله تعالى، وترتيل القرآن والكون ساكن، هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، الذي ينتظر صاحب الدعوة، وينير القلب للطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التّيه في ظلمات الطريق.

والسبب في ذلك أن الصلاة التي يُنشئها العبد بعد هدوء الليل، وينشئها بعد النوم الذي يكون بعد العشاء، أشدّ وقْعاً على النفس، وأقوى أثراً، وأوفق لاجتماع القلب واللسان، وتواطئهما على نطق الألفاظ وتفهم المعاني، وأعون على مزيد التذكير والتدبر.

ولما كان هذا القرآن الثقيل، عظيم المعاني، جليل الأوصاف، قوى التأثير، كان جديداً أن يتهيأ له المعلم كى يرتل ويتدبر، ويتأمل حكمة الله تعالى من قيام الليل.

وهذا معنى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي القيام لصلاة التهجد بعد النوم، والصلاة التي تنشأ في جوف الليل، حيث الفراغ والصفاء، وحضور القلب، لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، هي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، وما يُنشئه المرء من طاعة وعبادة، يقوم لها من مضجعه ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ أي أقوى تأثيراً في القلب، وأكثر موافقة لتهذيب النفس، وهي من الممارسات الصعبة التي تُقوّي النفوس، وتشدُّ العزائم، وتُصلّب

(١) قال الحاكم في المستدرك (٢/٢٢٢)، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وله شاهد عند مسلم كما في صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٦٢).

(٢) المسند (٦/١١٨)، والمستدرك (٢/٥٠٥)، والبيهقي في الدلائل (٢/٥٣)، قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٧/٢٥٧).

الأبدان، وتشحذُ الهمم، لأن مجابهة أعداء الله تعالى تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة، وهذه الصلاة من الليل أبين في القول، لفراغ القلب من مشاغل الدنيا، وهذا معنى ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أثبتُ وأَبْين قولاً وأعون على التدبّر والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده، حيث يتواطأ على القرآن: القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويصفو الذهن، ويقوى الاتصال بالله والقرب منه.

في النَّهَارِ مُتَّسَعٌ لِشُؤُونِ الْحَيَاةِ

٧- ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

أي فتفرغ ـ يا رسولنا ـ بالليل لعبادة ربك، ويكفيك النهار ذهاباً ومجيئاً، وإقبالاً وإدباراً، للتصرف والتقلب في مصالحك وحوائجك وأشغالك، وتبليغ الدعوة للناس ولك متسعاً بالنهار للاشتغال بأمور الرسالة، ومتسعاً لمطالب الحياة، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] .

وهذه الآيات نزلت قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، وثبت أن النبي ﷺ كان يصلي نوافل بالنهار من أول البعثة، كما أشارت إلى ذلك سورة الجن، وفيها أن الجن استمعوا إلى القرآن من النبي ﷺ وكان يصلي بأصحابه في وادي نخلة، وهو في طريقه إلى عكاظ.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق:٩،١٠] .

وكان أبوجهل قد تهدد النبي ﷺ لئن صلى في المسجد الحرام ليفعلنّ به كذا وكذا.

وسورتا الجن والعلق نزلتا قبل أن تفرض الصلاة.

التَّعَامُلُ مَعَ الْخَالِقِ بِالْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ

٨،٩- ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ[1] ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

(١) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بخفض ﴿رَبِّ﴾ بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ والباقون بالرفع على الابتداء، والخبر الجملة بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هو رب.

وبعد أن مهدت الآيات السابقة بالاستعداد للقيام بمهام الدعوة، أمر الله نبيه أن يبلغ دعوة ربه وعلّمه كيفية السير فيها عملاً:

أي واستعن ـ يا رسولنا ـ على تبليغ رسالة ربك، وعلى أمر المعيشة والتماس الرزق، بالمداومة والإكثار من ذكر الله تعالى ليلاً ونهاراً، واسأل الله تعالى في جميع أمورك بأسمائه الحسنى، وبتوحيده وتنزيهه، وتحميده وتهليله وتكبيره، وتفرغ لعبادته بعد تبليغ الرسالة والنظر في شؤون المسلمين، وأَقبِلْ على الله تعالى، وتوكل عليه، ولا تعتمد على غيره في شأن من شؤونك.

وهذا معنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وذلك بانفصال القلب عن الخلائق، والإنابة إلى الله سبحانه والاتصال به والقرب منه، وإذا فرغت مِنْ أشغالك فانقطع لعبادته تعالى وأخلص له التوحيد، كما قال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] .

وأعظم التبتل إلى الله تعالى: هو الانقطاع عن الشرك بالله، وهو معنى الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

وليس المراد بالتبتل: الإعراض عن تزوّج النساء، فإن هذا من الرهبانية المذمومة.

وقد صح من حديث سعد أن النبي ﷺ ردّ على عثمان بن مظعون التبتل، قال سعد: ولو أذن له لاختصينا.

كما أن التبتل لا ينافي تدبير أمور الحياة وتقلبات المعيشة.

والمراد بالآية: المداومة على الطاعة، وألا تخلو أوقات العبد من مراقبة الله تعالى، والإقبال عليه بالقلب واللسان، فالذكر يكون باللسان، والتبتل يكون بالقلب، والعمل يكون بالجوارح.

ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه مالك المشرق والمغرب، الخالق المتصرف في شؤون خلقه، والتبتل ومداومة الذكر لا يكون إلا إلى خالق هذا الكون فهو ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي جهة الشرق وجهة الغرب، وهو رب المشارق والمغارب، وهي ثلاث مئة وستون مشرقاً، وثلاث مئة وستون مغرباً.

وهو رب مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا رب غيره ولا معبود سواه، فهو الذى يستحق المحبة والتعظيم والإجلال.

ومادام الأمر كذلك ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اعتمد عليه، وفوض أمرك إليه، فهو القائم بشؤونك، المتولي جميع أمورك، الحافظ والمدبر لها.

والوكيل هو الذي يُوكَل إليه جميع الأمور، ويفوّض إليه تصرّفها.

وكان النبي ﷺ في بعض أحيانه قد اغتم لمّا بلغه ما قاله المشركون عنه، فتزمل وتلفف في ثيابه.

وهذا كقوله تعالى ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] .

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو سبحانه كفيل بنصر نبيه ورفع شأنه.

التَّعَامُلُ مَعَ الْخَلْقِ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ وَهَجْرِ الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ

١٠، ١١- ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾

ولمّا أمر الله سبحانه بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً وأنّ بهما معًا يحصل للعبد ملكة قوية في تحمُّل الأثقال من الأعمال.

لذا: أمر الله بعد هما بالصبر على أذى الأعداء، وهجْرهم، والمُضِيّ في طريق الدعوة.

فاصبر - أيها الرسول - واصبر يا من تدعو إلى الله ـ على ما يقوله أعداء الإسلام من أكاذيب وخرافات، وسبّ وشتم واستهزاء، وقولهم: ساحر وكاهن وشاعر... وخالفْهم في أفعالهم الباطلة، مع الإعراض عنهم، وعدم الانتقام منهم، أو الاشتغال بعقابهم، فإن الله تعالى مؤيدك، ومظهر دينك، وناصرك عليهم.

والهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه، ولا يصحبه شتم ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام:٦٨] .

وهذه الآيات بينت معاملة العبد مع ربه في عبادته والتبتل إليه، وبينت معاملته مع

خلق الله بالصبر على أذاهم عند مخالطته لهم، فإن كان مجانباً لهم فليهجرهم هجراً جميلاً بقلبه وهواه، ويخالفهم في أفعالهم المخالفة لشرع الله، مع الإغضاء عن هفواتهم وزلاّتهم، ولا يقابل السيئة بمثلها، بل يعفو ويصفح، وهذا معنى الصبر الجميل.

والصبر على أذى الأعداء من غير المسلمين يكون في حال ضعف المسلمين، وعدم القدرة على مواجهتهم فيما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، كما كان حال المسلمين في مكة، فلما اشتدّ حالهم، وصارت لهم دولة أمرهم الله بقتال مَنْ قاتلهم.

ويدل على ذلك أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يترك عقابهم له، فهو القادر عليهم في كل زمان ومكان، وعادة ما يكون الجاحدون المكذبون هم الطبقة المتْرفة من الناس، ولذا قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾ دعني – أيها الرسول - واتركني - أيها الداعية إلى الله - وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب النعيم والترف في الدنيا، وانتظر عليهم قليلاً من الوقت، فإن الأيام دول، وسوف أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، كما أن عذاب الله في الآخرة بانتظارهم.

وهذا معنى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي زمناً قليلاً حتى يبلغ الكتاب أجله، وسترى سوء عاقبتهم، ولن ينفعهم هذا المال ولا هذه النعمة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] ولفظ ﴿ٱلنَّعْمَةِ﴾ جاء بفتح النون المشددة وكسرها وضمها:

١- فالنَّعمة بفتح النون: اسم للتنعُّم والترف، ونضارة العيش، أي اسم للنعمة في حد ذاتها، وجمعها: أَنْعُم.

٢- والنِّعمة بكسر النون: اسم للحالة التي تلائم حال الإنسان وتُلَبي رغباته، كالعافية والرزق والأمن، وجمعها: نِعَم، فهي تشير إلى النعمة وإلى المتنعم بها، أما التي قبلها فهي تشير إلى النعمة فقط.

٣- والنُّعمة بضم النون: اسم للمسرّة وهي الفرح والسرور الذي يصاحب النعمة، فيقال: فلان في فرح وسرور، وجمعها: نُعْم أو نُعَم.

عَذَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ

١٢، ١٣ - ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١) ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ثم توعد سبحانه الجاحدين لتوحيد الله تعالى، والمكذبين لخاتم النَّبيين ﷺ، وَوَصَف عذابهم بأشد العقوبات يوم لقاء الله سبحانه، فتوعّدهم جل شأنه بالقيود والأغلال الثقيلة التي تلازمهم ولا تنفك عنهم، في النار المستعرة التي يُحْرَقون بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ قيودا من حديد، مقابل كفرهم بنعمة الصحة والعافية ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي نار جهنم المؤججة، مقابل ما كانوا عليه من لذة الظلال والهواء البارد.

أما طعامهم فإنه من الضريع والزقوم والغسلين، ينشب في الحلق ويغصُّ فيه، فلا ينزل ولا يخرج، ولا يكاد يسيغه ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ لا يستساغ، لبشاعته وكراهته ومرارته، زيادة على النكال والأغلال.

والغصة اسم لما يتردد من الطعام والشراب في الحلق، فلا يستطيع المرء بلْعه من سقم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: شوك من نار يعترض في حلوقهم، لا يخرج ولا ينزل(٢).

وفوق ذلك كله: العذاب المؤلم الذي ينتظرهم في الآخرة، مقابل ما تلذذوا به من نعم في الدنيا، لم يشكروا الله عليها.

زَلْزَلَةُ الأَرْضِ وَتَنَاثُرُ الْجِبَالِ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٤ - ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾

أي يوم تضطرب الأرض والجبال، وتزلزل وتتحرك، فتهتز بما عليها اهتزازاً شديداً بعد أن كانت حجارة صماء ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي تلاًّ من الرمل متناثراً، بعد أن كانت صلْبة جامدة.

---

(١) انفرد الحمصي بعدم عد ﴿وَجَحِيمًا﴾، وعدها جمهور أهل العدد آية.

(٢) البحر المحيط (٨/٣٦٤) وابن كثير (٨/٢٥٦).

وتلّ الرمل المهيل: هو الذي يُحرَّك أسفله فينهار أعلاه، ويتساقط بسرعة، بل إن الجبال تنسف نسفاً ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾[طه:١٠٥] وتكون كالصوف المنفوش لخفتها وتناثرها ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ ﴾ [القارعة: ٥] وفي هذا تهديد للمكذبين بمحمد ﷺ وتخويف لهم بأن الله تعالى سيعاقبهم إن بقوا على كفرهم به ، ثم أعقب سبحانه ذلك ببيان ما حل بقوم فرعون، لمَّا كذَّبوا موسى عليه السلام كي يعتبروا بهم، حتى لا يلحقهم من العذاب ما لحق من سبقهم.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ كَفَرَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

١٥ - ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا[1] شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾

ثم ذكَّر سبحانه أمة محمد ﷺ بما حلّ بالأمم التي كذبت رسلها، كما حدث لفرعون وجنده، فبيّن سبحانه أنه أَرسل إلى هذه الأمة، رسولاً عظيم الشأن، رفيع القدر، يشهد على الناس بما صدر منهم من الكفر والعصيان، ويشهد كذلك أنه بلّغ الناس رسالة ربه، ويشهد أيضا بصدقِ شهادة المسلمين في شهادتهم أن رسل الله قد بلّغوا أممهم مراد الله تعالى منهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ أيها الناس جميعاً إلى يوم القيامة ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ الذي ختم الله به النبوات ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ بإيمان من آمن، وكُفْر من كفر ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام أرسله الله إلى فرعون الطاغية، وإلى بنى إسرائيل.

وخُص موسى وفرعون بالذكر، لوجود الشبه في الإيذاء والاستخفاف الذي حدث لكل من موسى ومحمد عليهما السلام من قومهما.

فاحمدوا الله واشكروه على إرسال هذا النبي الأمي البشير النذير. الشاهد على الأمة بأعمالهم، وقوموا بهذه النعمة ولا تكفروها بمعصية رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسله الله إلى موسى، فدعاه إلى التوحيد فكفر وعصى، فأخذه الله أخذاً وبيلاً. قال تعالى:

---

(١) انفرد المكى بعد ﴿رَسُولًا﴾ آية، ولم يعدها غيره.

١٦ - ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾

ولما أرسل الله تعالى موسى إلى فرعون، كذّبه ولم يؤمن به، فاستهزأ به وتطاول عليه، وهذا معني: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ كما عصى من كذّب محمداً ﷺ من هذه الأمة، وقد كانت النتيجة بالنسبة لفرعون أن أهلكه الله إهلاكاً شديداً ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ بأن أغرقناه وجنده، وهي نهاية وخيمة وفظيعة.

وفي الآية تحذير من معصية الرسول محمد ﷺ حتى لا يُصابَ العاصُون بمثل ما أصاب فرعون وقومه، حيث لم ينفعه ملْكه وجبروته، ولم يدفع عنه شيء من عذاب الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥] .

هذا هو أخذ الدنيا: أي العذاب الذي لحق بفرعون وقومه فيها، حيث أخذناه أخذاً وبيلاً وجاء بعده أخذ الآخرة: يوم ترجف الأرض والجبال:

الكافِرُ لاَ يَتَحَمَّلُ نَارَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ يَصْبِرُ عَلَى نَارِ الآخِرَةِ؟

١٧، ١٨ - ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا[1] ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾

أي فكيف تنجُون بأنفسكم وكيف يحصل لكم الفكاك - أيها المكذبون لخاتم النبيين - في هذا اليوم، شديد الأهوال إن بقيتم على كفركم، ولو أنكم تحملْتم عذاب الدنيا، فكيف تتقون عذاب الآخرة، وأنتم مداومون على ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي كيف تقُون أنفسكم وتحفظونها من عذاب يوم القيامة، إن أنتم بقيتم على كفركم في الدنيا ووافيتم الله كفاراً، كيف تكون النجاة يوم لقائه؟

ومن صفات يوم القيامة، أنه يوم شديدٌ هوله، فظيعٌ أمره، عظيم قدره، ومن شدة كربه أن الأطفال يشيبون فيه ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ وتذوب له الجمادات فتتفطر السماء وتنتثر النجوم، وفي هذا وعيد وتهديد، لكل من بقى كفره وتكذيبه لخاتم النبيين ﷺ.

---

(١) انفرد المدني الأخير بعدم ﴿شِيبًا﴾ آية، وعدها غيره.

ومن أهوال يوم القيامة ما يقال لآدم: قم وابعث بعث النار، أي ميّز أهل الجنة من أهل النار، كما جاء في الصحيحيحن وغيرهما عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة، يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادَى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرِجَ من ذريتك بعث النار، قال: يارب، وما بعْثُ النار؟ قال: مِنْ كل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج:٢] فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم**» قالوا: يا رسول أينا ذلك الرجل؟ فقال ﷺ: «**أبْشروا، فإن مِنْ يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعاً وتسعين، ومنكم واحد، ثم قال: أنتم في الناس، كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبّرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا**»(١).

وقد تدرج النبي ﷺ من الربع إلى النصف، ليكون هذا أوقع في نفوسهم، وأبلغ في كرامتهم، وفيه بشارة بعد بشارة، وهذا الشيب للوِلْدان يكون عند قيام الساعة.

وبعد أن وصف الله تعالى يوم القيامة بأن فيه من الأهوال ما تشيب منه رؤوس الولدان الصغار، فيبلُغُون فيه أوان الشيخوخة، وصفه ثانياً بأنه من شدة هوله أيضاً تتصدع السماء وتتشقق، فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي أن السماء يوم القيامة تكون متصدعة لنزول الملائكة وعروجها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١].

و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥].

ثم إن ذلك اليوم متحقق الوقوع، فهو كائن لا محالة ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعد الله تعالى بمجيء ذلك اليوم، وبحصول الثواب والعقاب فيه أمر حاصل ولابد.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٢)، وانظر حديث عبد الله بن عمرو في سنن النسائي الكبرى (١١٥٦٥)، وصحيح مسلم (٢٩٤٠)، والمسند (٦٥٥٥)، وابن حبان (٧٣٥٣).

العاقل من اتعظ بغيره

١٩ - ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

وفي ختام هذه الآيات المخوّفة التي فيها القوارع والزواجر، بيّن سبحانه وتعالى أن هذه الآيات فيها عظة وعبرة للناس، فمن أراد طريق الخير، وسلوك سبيل النجاة، باتباع شرع الله سبحانه، فلا حائل يحول بينه وبين توحيد الله تعالى وطاعته، بعد هذا البيان الواضح، فإن ذلك أهم طريق توصله إلى رضوان الله تعالى وجنته.

وفي هذا تحريض على الإيمان، وتحذير من الكفر، فكل من كان غافلاً أو ساهياً، فعليه أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فيسلك الطريق الموصّل إلى الرحمن بالإيمان والطاعة، فالأسباب ميسرة، والسبل معبدة، وهذا من باب التحريض وليس من باب التخيير، وفيه دليل على أن الله تعالى جعل للعباد قدرة على اختيار أفعالهم ومكنهم منها.

التخفيف على الأمة في صلاة التهجد وأسباب التخفيف

٢٠ - ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ[(١)] ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ[(٢)] وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ ﴾

ثم عادت السورة للحديث عن قيام الليل الذي بُدئت به، لتبين أن ترك قيام الليل ليس إجازة مفتوحة، ولا عطلة سائغة، إنه تقدير لأعمال أخرى، وقد كان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أصحابه، حيث كلفهم الله تعالى أن يقوموا ساعات من الليل: لا تقلّ على ثلثه ولا تزيد على ثلثيه، لتقوية أبدانهم، وتزكية أرواحهم، وتربيتهم على الخشونة وشظَف

---

(١) قرأ هشام بسكون اللام من ﴿ثُلُثَىِ﴾ والباقون بضمها.

(٢) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب الفاء والثاء من ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ وهما معطوفان على ﴿أَدْنَىٰ﴾ المنصوب والباقون بخفضهما وكسر الهاء فيهما معطوفان على ﴿ثُلُثَىِ﴾ المجرور بمن.

العيش، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة، والانغماس في الشهوات والملذات، للقيام بأعباء الدعوة ونشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله.

وبعد أن استمر الحال على ذلك سنة أو أكثر، امتثل فيها النبي ﷺ أمر ربه، هو وطائفة معه من المؤمنين نزلت هذه الآية للتخفيف عن الأمة، وقد جاء في الحديث: عن عائشة رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه)[١].

وكان السبب في هذا التخفيف: كثرة أشغال النبي ﷺ بتدبير مصالح الأمة، وحماية المدينة، وتجهيز الجيوش.

وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ أنه سئل عن النبي ﷺ إذا أوى إلى منزله فقال: (كان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جُزْءا لله، وجُزْءاً لأهله، وجُزْءا لنفسه، ثم جزّء جُزْءه بينه وبين الناس، فيردُّ ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدّخر عنهم شيئاً، فمنهم ذوا الحاجة، ومنهم ذوا الحاجتين، ومنهم ذوا الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم، فيما يصلحهم ويصلح الأمة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم)[٢].

وقد نَسخَت هذه الآية، تحديد مدة قيام الليل بنصفه أو ثلثيه، بما يتيسر من القيام من غير تحديد مدة.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ في صلاة التهجد ﴿أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي أقل من ثلثيه حينا ﴿وَنِصۡفَهُۥ ﴾ حينا آخر ﴿وَثُلُثَهُۥ ﴾ حيناً ثالثاً، وهذا يدل على أن قيام النبي ﷺ كان متفاوتا في طوله وقصره، على حسب ما يتيسر له ﷺ وعلى حسب طول الليل وقصره.

وكان ﷺ يصلي معه طائفة من أصحابه كما قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ وبقية أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون في منازلهم.

وممن ورد أسماؤهم في أحاديث متفرقة في باب صلاة التهجد، من صحيح البخاري

---

(١) ينظر: الحديث في البخاري (٤٣٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٢٨٠).

سبعة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن عمر، والحولاء بنت ثويت الأسدية.

والله تعالى يَعْلَمُ مقادير الليل والنهار، بالزيادة فيها أو النقص منها، ويعلَم أن قيام ثلثي الليل أو نصفه قد يكون شاقاً، لاسيما في ليالي الصيف ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يحدد زمانهما وفق مقتضى حكمته ومشيئته، ويعلم ما يذهب منهما وما يبقى.

قيام الليل بصلاة ما تيسر:

وقد علم الله سبحانه أنكم لن تطيقوا المداومة على قيام هذه الساعات الطويلة من الليل، فقد انتفخت أقدام بعضكم من طول القيام، وشق ذلك عليكم ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تسطيعوا قيام الليل كله أو جله ولن تطيقوه ولن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي سهل عليكم غاية التسهيل، وخفف عنكم ويسّر عليكم القيام بقدر الطاقة، ورخص لكم في ترك القيام كله إن عجزتم عنه ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي صَلّوا ما تيسر لكم، بأن تقرؤوا في صلاة الليل ما تيسر لكم قراءته من القرآن، والمسلم يصلى مادام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعس فلْيسترح حتى تحصل الطمأنينة.

والسنة في ذلك أن يقرأ المسلم بعد الفاتحة بسورة قصيرة من المفصل، أو آية طويلة، كآية المداينة، أو آية البر، أو آية صلاة الخوف، أو ثلاث آيات على الأقل من أواسط السور.

ولم يُعرف عن السلف تجزئة السور القصيرة على ركعتين كسور: التكوير والانفطار والبلد والليل.

ولم يعرف عنهم أيضا قراءة بعض آيات من أواخر السور في الصلاة، كختام سور: البقرة وآل عمران والأنعام والتوبة والنحل ونحو ذلك، وعبّر عن الصلاة في الآية بالقراءة؛ لأن القراءة بعض منها.

جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألم أُخبَر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟**» قلت: بلى، يا رسول

الله، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير، قال: «فَصُم صَوْم داود، وكان أعبد الناس، واقرأ القرآن في كل شهر مرة»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشرة»، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»[1].

وقد جاءت هذه الجملة ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ في أحاديث الأحرف السبعة، ويراد بها: اقرؤوا بأي وجه من وجوه القراءات التي نزل بها القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فكلها صحيحة، وكلها قرآن، وذلك بالنسبة للقراءات العشر المتواترة، أما الأربعة الشواذ، التي بعد العشر فإنها تُعلم، ويؤخذ منها التفسير، ووجوه الإعراب، والأحكام الفقهية، ولا يقرأ بها على سبيل التعبد، ولا في الصلاة.

ويراد أيضاً بهذه الجملة من الآية: قراءة ما يتيسَّر من القرآن، أي القليل منه في الصلاة كما في حديث أبي سعيد قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر)[2].

أسباب التخفيف في صلاة القيام:

ثم ذكر سبحانه وتعالى أعذار الناس، والأحوال التي طرأت عليهم بعد وجوب قيام الليل عليهم، فذكر منها **ثلاثة أسباب** تقتضي الترخيص، ورفع وجوب قيام الليل عن الأمة، وهي: المرض والسفر للتجارة المشروعة أو التماس الرزق، والجهاد في سبيل الله، وبيانها فيما يلي:

الأول: أعذار اختلال الصحة: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ أي علم الله تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرض عن قيام الليل، فيشق عليه صلاة ثلثي الليل أو ثلثه، فخفف عنكم قيامه رحمة بكم، لأجل ضعفكم وعجزكم، والمريض لا يستطيع قيام الليل لمرضه.

الثاني: الأعمال التي تدعو إليها ضرورة العيش: من تجارة وصناعة وزراعة، ووظيفة

---

(١) مسلم (١١٥٩)، والبخاري (١٩٧٤،٥١٩٩) وغيرهما.

(٢) المسند (١٧/٣٠) (١٠٩٩٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في السنن (٢/٦٠)، وأخرجه أبو يعلى (١٢١٠)، وابن حبان (١١٩٠)، والبخاري في القراءة خلف الإمام (١٦)، وأبوداود (٨١٨)، والترمذي (٨٣٩) من طرق متعددة.

وولاية، وغير ذلك، وهي تتطلب السفر والتنقل، وقد خفف الله عن المسافر، فشرع له قصْر الصلاة الرباعية، ولأن العبد يكون مشغولاً في النهار بالأعمال الشاقة، ويشق عليه قيام نصف الليل أو نحوه ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويوجد قوم آخرون يتنقلون ويسافرون في جوانب الأرض طلباً للرزق.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وفَضْلُ الله المذكور في الآية، هو الرزق، أي يلتمسون رزق الله الحلال الطيب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

قال ابن مسعود ﷺ: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله، أحب إليّ من أن أموت بين شُعْبَتي رحْلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله، أحب إليّ من أن يأتيني وأنا بين شُعْبتي رحْلي، أَلْتمسُ من فضل الله تعالى، ثم تلا هذه الآية ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

الثالث: رعاية مصالح الأمة: كالقائمين على أمن البلاد، وحراسة الحدود، والرباط في الثغور، والوفود، والسفراء، والمجاهدو بن في سبيل الله لدفع الصائل، ورد العداون عن الأمة، أو لتأمين نشر الدعوة، وإزالة العوائق من طريقها، ويشمل هذا كله ونحوه قوله تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي ويوجد قوم آخرون مشغولون بالجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمته ونشر دينه، ولو لم يَنَم المسافر والمجاهد بالليل لتوالت عليه أسباب المشقة، فخفف الله عنهم، من

---

(١) تفسير الخازن (٣٢٥/٤)، والقرطبي (٥٥/١٩).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٥٦)، كما أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

غير أن يكلِّفهم تحديد وقت معين للصلاة.

فكل من الفرق الثلاثة يشُقُّ عليهم قيام معظم الليل، فخفف الله عنهم، وجعل قيامه على سبيل التطوع، وليس على سبيل الفريضة، وبالمقدار الذي يمكن للعبد أن يقومه، تخفيفاً على المريض والمسافر للتجارة أو الحج أو العمرة أو طلب العلم أو طلب الرزق، أو الجهاد ونحو ذلك، فلله الحمد والمنة أنه راعى أحوال العباد ومصالحهم ورفع عنهم الحرج والمشقة.

وذِكْرُ القتال في سبيل الله، يوحي بأن هذه الآية مدنية، وبه قال بعضهم، حيث قيل: إن هذه الآية نزلت بعد عشر سنين من نزول أول السورة.

وعلى القول بأنها مكية، فيكون المعنى: باعتبار ما سيكون عليه أحوال المسلمين في المستقبل.

والآية اقتضت رفع وجوب قيام الليل عن المسلمين، على القول بوجوبه عليهم أوّلاً، أو أنهم التزموه تأسّياً برسول الله ﷺ دون أن يُفرض عليهم.

ثَلاثَةُ أَوامِرَ تَعْقُبُ التَّرْخِيصَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

وقد أعيدت جملة ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ليأمر سبحانه بصلاة ما تيسر من الليل دون مشقة، وليأمر بقراءة ما تيسر من القرآن في صلاة الليل، ثم ليؤكد سبحانه الترخيص في قيام الليل، وليعطف عليها ما بعدها من **الأوامر الثلاثة** وهي:

إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصدقة التطوع:

وأولها: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة المفروضة على أكمل وجه، بأركانها وشروطها وسننها وواجباتها لأن الصلاة ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

والنص على الصلوات الخمس، يشير إلى أن قيام الليل نافلة وليس فريضة.

في حديث طلحة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**»

قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»[1].

وثانيها: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها. فالصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، والصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة عماد الدين بين العبد وخلق الله.

قال أبوبكر ﷺ: (والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة).

وثالثها: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان من أموالكم ابتغاء وجه الله تعالى.

والقرض هو الصدقة غير الواجبة، يقدمها العبد لوجه الله تعالى، لا يريد من ورائها نفعاً ولا فائدة دنيوية، وكأنه بهذا أقرض الله تعالى وهو يبتغي الأجر والجزاء منه وحده.

وهو قرض حسن، لأنه يسْلَم من المن والأذى والرياء والسمعة، كما قال تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥] وقوله ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن:١٧].

وَصِيَّتَانِ فِي خِتَامِ السُّورَةِ

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ثم ختم الله تعالى السورة بوصيتين:

الأولى: الحث على فعل الخيرات والمبرات بوجه عام:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ في وجوه البر وعمل الطاعات، وفي هذا حث على عموم الخير وأفعاله وأقواله ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي تلْقَوْا ثوابه وجزاءه عند الله تعالى يوم القيامة ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ مما قدمتم في الدنيا ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي أكثر ثواباً، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والخير والبر في هذه الدنيا هما مادة الخير والبر في

---

(١) صحيح البخاري برقم(٤٦)، وصحيح مسلم برقم (١١).

الآخرة وسبب السعادة فيها فإن الدنيا فانية، والآخرة باقية، وما عند الله خير وأبقى.

صح عن رسول الله ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال: «**أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟**» قالوا: يا رسول الله، ما مِنَّا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**اعلموا ما تقولون؟**» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنما مال أحدكم ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»[1].

أي أنّ ما يقدِّمه الإنسان لنفسه في الدنيا من وجوه الإنفاق في سبيل الله، هو مالُه الذي قدّمه لنفسه، والذي ينفعه يوم لقاء الله تعالى، أما الميراث الذي تركه خلفه، فهو مال وارثه، وليس له منه شيء بعد موته.

والمسلم لا يحتقر من المعروف شيئاً، ولو بكلمة طيبة، ولو بشق تمرة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة.

والوصية الثانية: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾:

أكثروا من ذكره، واطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، وواظبوا على التوبة والتضرع إلى الله تعالى، فإن في هذا ما يسد مسد قيام الليل، الذي قد يَعْرِض لكم تركه، وإذا انتبه المسلم من نومه في جزء من أجزاء الليل، فليستغفر الله، كما قال تعالى ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] .

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخر، فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[2].

وفي الحديث عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير،**

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ مسند أبي يعلى (٩/٩٧) وصحيح البخاري برقم: (٦٤٤٢) وسنن النسائي الكبرى برقم: (٦٤٣٩).

(٢) البخاري (١١٤٥،٦٣٢١،٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨).

الحمد الله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» ثم قال: «اللهم اغفر لي، أو دعا، اسْتُجيبت له، فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته»[1].

إنكم إن طلبتم مغفرة الله تعالى، فإنه سبحانه واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب إليه وأناب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

وقد أرشد الله المنفقين في سبيله أن يطلبوا العفو والصفح من الله تعالى، إذ ربما لم يُخلصوا له النية في الإنفاق، أو لم يضعوها في موضعها، أو أنفقوها في أغراض شخصية، فناسب هذا طلب المغفرة من الله تعالى، لجبر الخلل الذي قد يحدث في القرض، أو الصدقة، أو الزكاة، أو أعمال البر الأخرى.

وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الخير والطاعة جَبْر لما يكون في هذه الطاعات من نقص أو تقصير، والاستغفار يجبر هذا الخلل، والعبد يذنب آناء الليل وأطراف النهار، ومن لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فهو من الهالكين.

فاللهم اغفر ذنوبنا واسترعيوبنا وقنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

تم تفسير (**سورة المزمل**) ولله الحمد والمنة

---

(١) البخاري (١١٥٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّر (٧٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المدثر) هي السورة الرابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثانية في ترتيب النزول، فلم ينزل قبلها إلا صدر (سورة العلق) في غار حراء، وبها نبيء النبي ﷺ، ثم نزلت (سورة المدثر)، وبها أُرسل ﷺ وكان نزولها في السنة الأولى من البعثة.

وسميت سورة المدثر، باسم ثاني كلمة فيها، وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها ست وخمسون آية عند أهل البصرة والكوفة والمدني الأول، وخمس وخمسون آية عند المكي والدمشقي والمدني الأخير.

وهي مئتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف.

سبب النزول:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يُحدّث عن فترة الوحي قال: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملَك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثتُ منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، فزملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ ثم حَمِيَ الوحي وتتابع**»[1].

والحديث ينطق أن الوحي قد نزل بالمدثر بعد فترة انقطاع من نزول أول سورة العلق، وأن هذه هي المرة الثانية له، وكانت بعد أربعين يوما على الأرجح.

وفي حديث جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**جاورتُ بحراء، فلما قضيتُ جواري هبطتُ، فنُوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً،**

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم: (١٦١،٢٥٥) وصحيح البخاري برقم: (٤٩٢٤،٤٩٢٦،٤٩٥٤) والترمذي (٣٣٢٥) وأحمد في المسند (١٤٢٨٧) وعبد الرزاق (٣٢٧/٢) وابن أبي شيبة (٢٩٤/١٤) وابن حبان (٣٤،٣٥).

ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئا، فأتيت خديجة، فقلت دثّروني، وصُبّوا عليّ ماءً باردا، قال: فدثّروني، وصَبوا عليّ ماء باردا، قال: فنزلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»[1].

فهي أول ما نزل بعد فترة الوحي، وقد جاء جبريل هذه المرة وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ونزل فيهما بالرسالة على النبي ﷺ، أما المرة الأولى فقد نزل فيها بالنبوة، وكان ذلك في غار حراء.

موضوع السورة في خمس نقاط:

١ـ المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو تكليف النبي ﷺ بأعباء الرسالة، والقيام بالتبليغ، وإنذار المشركين بالله تعالى، للإقلاع عن شركهم، والصبر على الأذى في سبيل الله، والاستعداد لهذا الكفاح الشاق بترك النوم والتدثر، وذلك في الآيات السبع الأول من السورة.

٢ ـ وفي الآيات الثلاث التي تليها حديث عن يوم القيامة، تشير إلى النفخ في الصور وعُسر هذا اليوم على الكافرين، وقد تحدثت السورة عن تهديد ووعيد الجاحدين المنكرين للتوحيد، المكذبين للرسالة، بيوم عصيب يشتد عذابه وأهواله وشدائده.

٣ ـ والآيات من (١١ - ٣٠)، تتحدث عن الوليد بن المغيرة، الذي اغتر بماله وجاهه وولده، فكذب القرآن، وأنكر خاتمة الرسالات، وزعم أن القرآن من السحر الذي تعرفه البشر، فكانت ﴿سَقَرُ﴾ نهايته.

٤ـ ثم تحدثت آيات السورة عن النار التي توعد الله بها الكفار، و تحدثت عن زبانيتها وخزنتها وعددهم، وبينت الحكمة في تخصيص هذا العدد، وأقسم سبحانه

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٢، ٣٢٣٨) وصحيح مسلم (٢٥٦-٢٥٨) والطيالسي (١٧٩٣) والبيهقي في الدلائل (١٥٥/٢) وأبونعيم في الدلائل (٢١٥/١).

وتعالى بالقمر والليل والصبح، على أن النار أكبر البلايا وأعظم الدواهي التي يُنذر الله بها البشر، وذلك في الآيات من واحد وثلاثين إلى السابعة والثلاثين.

٥ ـ وبينت آيات السورة أن كل نفس مرهونة بعملها عدا أصحاب اليمين، فذكرت الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن أسباب استحقاق المجرمين لعذاب جهنم وهى أربعة أمور:

أ ـ عدم الصلاة. ب ـ وعدم إطعام المسكين.

جـ ـ والخوض مع الخائضين. د ـ والتكذيب بيوم القيامة.

وأنهم استمروا على ذلك حتى الموت، وكان هذا من الآية السابعة والعشرين إلى الآية السابعة والأربعين.

٦ ـ وختمت السورة ببيان أسباب إعراض المكذبين، وعدم استجابتهم للحق، فبين تعالى أنهم لم ينتفعوا بالمواعظ، فانصرفوا عنها كالْحُمُر الوحشية، وحسدُوا صاحب الرسالة، فطمعوا أن يكونوا مثله في الوحي والرسالة، وهم فضلاً عن ذلك لا يؤمنون بالبعث والنشور.

ولذا: فإنهم لا ينتفعون بشفاعة أحد يوم لقاء الله، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وبهذا فإن السورة تناولتْ موضوعات القرآن المكي، فأمرتْ بوحدانية الله تعالى، والتطهير من الشرك، وترك عبادة الأوثان، وهذا هو جانب التوحيد.

وتحدثت عن الوحي والرسالة: فأمرتْ النبي ﷺ أن يبلغ رسالة ربه، وهذا هو الجانب الثاني.

وتناولت اليوم الآخر ومافيه من نعيم لأهل اليمين، ونار سقر للمجرمين، وهذا هو الجانب الثالث من موضوعات القرآن المكي.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

سِتُّ وَصَايَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي ابْتِدَاءِ الدَّعْوَةِ

١ - ٤ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

نزل جبريل على النبي ﷺ في المرة الثانية ليأمره بتبليغ الرسالة إلى العالمين، فرآه النبي ﷺ بين السماء والأرض كالنور المتلألىء، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة رضي الله عنهما ودعا بماء فصبه عليه، وقال: دثروني، دثروني، فدثروه بقطيفة. والمزمل والمدثر بمعنى واحد.

وقد بدأت السورة بتوجيه نداء فيه ملاطفة ومؤانسة للنبي ﷺ حين رجع إلى خديجة رضي الله عنها، يرجف فؤاده، لمّا نزل عليه الوحي، وهو يقول: دثروني، دثروني، فتدثر، أي تغطّى بثياب فوق الثياب الملامس للجسد، أما الثياب الذي يلي البدن فيقال له: شعار، ومن هنا جاء الحديث: (الأنصار شعار والناس دثار).

والله تعالى ينادي رسوله ﷺ في أول خطاب له يكلفه فيه بالرسالة قائلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ يا أيها المتغطي بقطيفته يريد الراحة والنوم، لقد انقضى وقت الراحة، وجاء وقت تحمل أعباء الدعوة، وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب، إذ ناداه الله تعالى بوصفه ليستشعر اللين والملاطفة.

ومثل هذا النداء: لما خرج عليّ ﷺ مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها، فسقط عنه رداءه، وأصابه التراب، فناداه النبي ﷺ مداعباً وملاطفاً له قائلاً: (قم أبا تراب) ومثله (يا أبا هر) وهكذا، ليستشعر كلا منهما الملاينة والمداعبة والملاطفة فيستأنس وتزول عنه الوحشة ثم أمر الله تعالى نبيه بستة أشياء:

أولا: البلاغ وإنذار المشركين: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾:

أي: أنذر الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود.

والمعنى: يا أيها المدثر من آثار الرغب الذي لحق بك، لرؤية ملَك الوحي، فلا تخف، وأقبل على الإنذار، واصدع بأمر ربك، وحذّر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، فانهض - أيها الرسول - وبادر بعزم وتصميم، وجدٍّ ونشاط على إنذار الناس وتخويفهم من سوء عاقبتهم، إذا استمروا في كفرهم، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحداً.

والإنذار: هو الإعلام مع تخويف، وبدأ به دون التبشير، لأنه الأنسب لمجتمع الشرك والكفر، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

والمراد بلفظ ﴿قُمْ﴾ اشرع وابدأ في تبليغ ما آمرك به.

وسورة العلق ليس فيها أمر بتبليغ الدعوة، ولكنها تخبر باختيار النبي ﷺ خاتم النبيين، فقد نُبىء بـ (اقرأ) وأُرسل بالمدثر. وسورة المزمل تشير إلى أن الأمر بتبليغ الرسالة كان سابقاً على نزولها ولذا جاء فيها ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل١٥] وجاء فيها ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[المزمل:١١] فهذه أول آية من سورة المدثر تأمر النبي ﷺ بدعوة الناس إلى دين الله تعالى.

ثانيا: إعلان التوحيد: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾:

أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك وجه الله. ولا تفْتُر - أيها الرسول - عن إعلان التوحيد في كل زمان ومكان، وعلى كل حال، مهما يكن من شيء، ومهما يقابلك من إنكار وجحود وإيذاء، فلا يثنيك هذا عن وصف ربك بصفات التعظيم والجلال والتقديس، وتنزيهه سبحانه عما يقوله الجاهلون من وصفه بالشرك والولد ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ كَبّره في اعتقادك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان، وخُصّه وحده بالتوحيد والتعظيم والعبادة في أقوالك وأفعالك.

ومجيء هذه الآية بعد الأمر بالإنذار، تنبيهاً للنبي ﷺ في أول الدعوة، ألا يبالي ولا يكترث بمن لا يؤمن به، فإن نواصي الخلق بيد الله تعالى، ولا يُرهب سوى الله سبحانه، فإن جميع الخلق تحت قهر الله تعالى وكبريائه وعظمته.

ثالثاً: طهارة الثياب:﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾:

وهذا يشمل طهارة الثوب بالماء من النجاسات والمستقذرات، لمخالفة غير المسلمين الذين لا يتحرزون عن النجاسات، وقد جعل الإسلام إزالة النجاسة من الثياب شرط من الصلاة.

كما يشمل طهارة الثوب بتقصيره إلى الكعبين، فإنه أتقى وأنقى، حتى لا يصل إلى النجاسات التي يمر بها في الأرض، وطول الثياب من مظاهر الكبر والخيلاء.

ومن طهارة الثياب أن يكون من كسب طيب، وألا يكون مسروقاً ولا مغصوباً، فلا يدنسها بمكسب خبيث.

وكل هذا من الطهارة الظاهرة الحسيّة للثياب، ولا يوجد في القرآن أمر بطهارة الثوب إلا في هذه الآية، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهده أنه دنس الثياب، وإذا أوفى وأصلح قالوا: طاهر الثياب. فطهارة الثياب يعبر بها عن النقاء من العيوب والصفات الذميمة.

ويحتمل أن يكون المراد طهارة الأعمال بالإخلاص فيها، والإتيان بها على أكمل وجه، وتنقيتها من المبطلات والمفسدات، ومن الشرك والنفاق والرياء والعجب والتكبّر والغفْلة ونحو ذلك، ففى الآية أمر بطهارة الظاهر والباطن. قال تعالى.

٥ - ٧ - ﴿وَالرُّجْزَ[1] فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

رابعاً: طهارة العقيدة: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾:

وذلك بتطهير النفس من الذنوب، وتزكيتها من عبادة غير الله تعالى، فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ وهي الأصنام والأوثان وجميع أبواب الشرك ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي دم على هجرها، واترك مخالطة أهلها، ولا تقترب منهم، واترك جميع المآثم والمعاصي من الأقوال والأعمال، وقد قرئت هذه الكلمة بضم الراء وكسرها وهما لغتان.

قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

---

(١) قرأ حفص وأبوجعفر ويعقوب بضم الراء من ﴿وَالرُّجْزَ﴾ لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون بكسرها لغة أهل تميم.

والأصل في كلمة الرجز أنها تستعمل في العذاب كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٥] .

والمراد هنا الأصنام والأوثان والمعاصي التي يؤدي اقترافها إلى العذاب.

وعلى هذا فإن ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ الأوثان والأصنام وكل ما يعبد من دون الله، وهو يشمل جميع المعاصي والذنوب صغيرها وكبيرها، فأُمر المسلم في بداية الدعوة أن يتطهر من ذلك.

خامساً: الترفع عن أخلاق المعارضين للدعوة: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾

وهذا ينطبق على خمسة أحوال:

أحدها: المنّ في العطية، ويكون ذلك بتذكير المنعَم عليه بالعطية، بين الحين والحين، وإفشاء ذلك بين الناس، وكذا المراءاة أو المباهاة به، فإن المن يحبط العمل.

ثانيها: أن يستكثر الإنسان الصدقة أو فعل الخير الذي أداه لغيره، فيستعظمه ويستكثره، وكأن أحداً لم يفعل مثله، والكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً.

فابذل الكثير من مالك - أيها المسلم - فإن ثواب الله أعظم وأجزل، وكان النبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخش الفقر.

ثالثها: أن يعطي الإنسان غيره هدية أو عطية، ويُضمر في نفسه انتظار أن يُعطَى أكثر منها، فلا تعط عطية تلتمس أفضل منها، فإن العطاء يجب أن يكون خالياً من انتظار العوض، تعففاً وكمالاً، والإسلام يأمر بأشرف الآداب وأكمل الأخلاق.

رابعها: أن يستكثر الإنسان عمله الصالح، فيرى أنه أفضل من غيره، أو أنه هو وأمثاله على حق، وغيره من أهل الملة أيضاً على باطل.

خامسها: وقد يمتنُّ الإنسان على الناس بما يعلّمهم من أمور دينهم، ويتعالى ويترفع عليهم بعلمه أو ماله، خاصة لو كان ذو جاه ومنصب، وقد يمتن عليهم بما أسدى إليهم من معروف، ويرى أنه صاحب فضل عليهم.

ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط العطية لتلتمس خيراً منها، ولا تمن، واقصد وجه ربك، وتجنّب القبائح كلها، وأحسن إلى الناس ما أمكنك، واطلب

أجرك من الله، ولا تذكر إحسانك إلى الناس، واجعل من أحسنت إليه وغيره سواء.

سادسا: وجوب الصبر: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ على الأوامر والنواهي، واصبر على ما يصيب الداعية من أذى، وعلى ما يلْقى من مشاق ومتاعب.

فوطّن نفسك - أيها الرسول - على التكاليف التي تُكلَّف بها، وتحمّل الآلام في سبيل دعوة الحق، بعزيمة صادقة، وصبر جميل، وثبات لا يخالطه تردد ولا ضعف، واصبر على فعل الطاعات، وعلى ترك المحرمات، وعلى ما جرى به القضاء، وعلى ما تصاب به من أذى، فقد حُمّلْت أمراً عظيماً تنوء عن حمله الجبال.

فاحتسب أجرك عند الله، واقصد بعملك وجه الله، واصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى أقداره المؤلمة، وعلى قبول الحق من الناس.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

فهذه ست وصايا أوحى الله تعالى بها إلى رسوله ﷺ في مبدأ رسالته، وهي من جوامع كلام القرآن، أراد الله بها تزكية رسوله، وأن تكون قدوة لأمته، ومعظم هذه الوصايا يراد بها الأمه سيما في بدء الدعوة، فهم مأمورون بالطهارة الحسية والمعنوية، ومأمورون بترك عبادة الأصنام، وعدم المن على الأخرين، ولم يكن النبي ﷺ عابد وثن ولا نجس الثياب، ولا ماناً على أحد بشيء.

الإِخْبَارُ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ أَوَّلُ وَاجِبَاتِ الدَّاعِيَةِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ

٨-١٠ - ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾

أنذر - أيها الرسول - الناس، وبلّغهم رسالة ربك، وأخبرهم أن أمامهم يوم شديد الأهوال، لكل من كفر بالله ورسوله، وتبدأ مسيرة هذا اليوم بنفخ إسرافيل في البوق النفخة الثانية للبعث والنشور، حيث يقوم الناس لرب العالمين ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ أي إذا نفخ الملَك الموكل بالنفخ في القرن، نفخة البعث والنشور، والقيام من القبور وعبّر عن

ذلك بالنقْر في الناقور: لبيان أهوال الأمر وشدته، وهو يُطْلَق على الصوت إذا اشتد وصار مفزعاً، والملَك مستعد للنفخ في أي وقت، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**كيف أَنعَم، وصاحب القرن قد الْتقم القرن، وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر، فينفُخ؟**» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»[1].

وهذا اليوم الذي يَلْقى فيه المكذبون عاقبة تكذيبهم، يوم يشتد فيه الهول، ويعسُر فيه الأمر ﴿فَذَلِكَ﴾ الوقت ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ يشيب من هوله الولدان.

وهو يوم هيّن ويسير على المؤمنين، وغير يسير على الكافرين، فلا يسهل عليهم أن يخلُصوا مما هم فيه من مناقشة الحساب، وأخْذ كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وسواد وجوههم، وحشْرهم زُرق العيون، من شدة الكمَد والنكد، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وقد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلال والبوار.

قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يوم يسير على المؤمنين، لأنه قيّد عُسْره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيْظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[2].

قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، ومفهوم ذلك أنه يسير على المؤمنين.

أَرْبَعُ مِنَنٍ يَمْتَنُّ اللهُ بِهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَمْثَالِهِ

١١ - ١٥ - ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

هذه الآيات من الآية الحادية عشرة إلى الآية الثلاثين، أي في عشرين آية نزلت في

(١) ينظر: المسند (٣٢٦/١) برقم (٣٠٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٢/١٠)، والطبراني في الكبير (١٢٦٧١)، قال محققو المسند: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢٦٥/٤).

الوليد بين المغيرة، فتذكُر نعم الله عليه، وتُبيّن غروره، وتكذيبه لرسول الله وللكتاب المنزل عليه، وتذكُر مصيره الذي آل إليه في عذاب جهنم:

قال سعيد بن جبير: هو الوليد بن المغيرة بن هشام المخزومي، وكان له ثلاثة عشر ولداً، كلهم رب بيت، فلما نزلت ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ لم يزل في إدبار من الدنيا في نفسه وماله وولده حتى أخرجه الله من الدنيا[1].

هذا: وزعماء الكفر في كل زمان ومكان يقفون في وجه الحق، لتبقى لهم زعامتهم ومكانتهم بين الناس، ومن ذلك أنه لما فشا في مكة أن رسول الله ﷺ عاوده الوحي بعد فترة انقطاعه، وأن الله تعالى قد أرسله للناس بشيراً ونذيراً، وكان نزول الوحي في المرة الأولى في شهر رمضان، وانقطع أربعين يوماً على الأصح، ثم نزل بعد ذلك بالمدثر، وكان ذلك في منتصف شهر ذي القعدة، أي في موسم الحج، حيث يستعد أهل مكة لاستقبال وفود الحج، وسوف يسألونهم عن خبر محمد ﷺ، لذلك رأى المعارضون للدعوة أن يتفقوا على كلام موحّد ينفّرون به الناس منه، ويَصْرفونهم عن الاستجابة لدعوته.

فاجتمع نفر من قريش، فيهم هؤلاء السبعة: أبولهب، وأبوسفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، والمُطْعِم بن عدي، واقترحوا أن يصفوا محمداً ﷺ بالكذب أو بالشعر، أو الكهانة، أو الجنون، وكلما ذكروا وصفاً، نفاه الوليد بن المغيرة، قائلاً: إن محمداً ﷺ لا ينطبق عليه هذا الوصف.

وانصرف الوليد إلى بيته، فدخل عليه أبوجهل وقال له: ما لك يا أبا عبد شمس، أصبأت؟

فقال الوليد: فكّرتُ في أمر محمد، وقدّرتُ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه وأخيه وعشيرته.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد مرّ بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فأتى مجلس قومه وقال: والله لقد سمعتُ من محمد ﷺ آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما قاله السيوطي في الدر المنثور (٧١/١٥).

لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأنّ قريش، فقال أبوجهل: أنا أكفيكموه، فذهب وجلس إلى جنْب الوليد حزيناً، فقال له: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وكيف لا أحزن، وهذه قريش تجمع لك مالاً ليُعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد، وتنال من ماله، وعندئذ غضب الوليد، وقال: ألم تعلم قريش أني أكثرهم مالاً وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام، حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام الوليد مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟ قالوا: اللهم لا.

فقال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهّن قط؟ قالوا: اللهم لا.

فقال: تزعمون أنه شاعر، فهل نطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا.

قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جرّبتم عليه كذباً قط؟ قالوا: اللهم لا.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده؟ وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر، ثم فكر وقدر، واستقرّ على وصف النبي ﷺ بالسحر، وفيه نزلت الآيات[1] وفيها **أربع منن على الوليد:**

المنة الأولى: أن الوليد له شأن ومكانة بين الناس﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾:

أي: دعني – يا رسولنا – أنا والذي خلقتُه في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، فلم أزل أنميه وأعطيه حتى صار له أهل ومال وولد، وهو الوليد بن المغيرة، فقد كان يلقّب بين قومه بالوحيد، وريحانة قريش، ولم يكن له نظير في ماله وشرفه، لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهي كثرة الولد وسعة المال، وعظم

---

(1) ينظر فيما سبق سيرة ابن إسحاق وابن هشام، وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٣٠) عن عكرمة عن ابن عباس بسند صحيح، كما صححه الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٧) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل (٢/١٩٨)، وانظر تفسير القرطبي (١٩/٧٣)، والخازن (٤/١٧٦)، والتفسير الكبير (٣٠/٢٠١)، وعبد الرزاق (٢/٣٢٨)، والطبري (٢٣/٤٢٩)، وأبونعيم في الدلائل (١٨٦).

مجْده ومجْد أبيه من قبله، وكان الوليد مرجع قريش في أمورهم، لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان، وفيه نزلت آيات سورة القلم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ وهكذا كل من كان على شاكلته إلى يوم القيامة.

ولفظ ﴿وَحِيدًا﴾ في الآية بمعنى أن الله تعالى أوجده في هذه الحياة بلا مال ولا ولد، فهو مفتقر إلى الله تعالى في كل شيء، كما قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨].

وهكذا يعودون إلى الله تعالى بلا مال ولا ولد ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

وهكذا حال كل مخلوق يأتي إلى الحياة، وعندما يخرج منها أيضاً.

وهذا فضلاً عما كان للوليد من منزلة وجاه بين قومه.

المنة الثانية: كثرة الأموال﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾:

وتمضي الآيات في وصف الوليد بن المغيرة، فتُبين أن الله تعالى قد أغدق عليه من الرزق، وأعطاه مالاً مبسوطاً، ورزقاً واسعاً، فكان له بساتين وزرع وضرع، وثمر وتجارة، وإبل وخيل، وأغنام كثيرة، وعبيد وجواري، وكان له بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاءً، ذلكم قوله تعالى ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ ولكنه بدل نعمة الله كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها.

المنة الثالثة: كثرة الأولاد﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾:

أما فيما يتعلق بكثرة البنين، فقد امتن الله على الوليد بكثرة الذرية، فكانوا من الكثرة بحيث لا يغيبون عنه في مجلس من المجالس ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي حضورًا معه لا يفارقونه، ويحضرون معه جميع المحافل، قيل كانوا عشرة أو ثلاثة عشرة، منهم هؤلاء السبعة: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبد شمس، وقد أسلم منهم ثلاثة: خالد، وهشام، والوليد[1].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٤)، وحاشية الجمل على الجلالين (٤/٤٣٧)، وحاشية الشهاب (٨/٢٧٤).

وكان لهم عزة ومنعة، وكان أبوهم يستأنس بهم في سفره وحضره.

المنة الرابعة: تيسير سبل العيش له﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾:

وبعد أن امتن الله عليه بالمال والبنين، بيّن سبحانه أنه يَسَّرَ له سُبل العيش تيسيراً، وبسط له الجاه العريض، والرياسة في قومه، وهيأ له وسائل الراحة بدون عناء ولا تعب، وجعله نافذ الكلمة في قومه، بما يغنيه عن الأخذ والرد معهم، فقد أعطى الله الوليد جماع ما يحتاجه الإنسان في حياته، أعطاه المال الوفير، والبنين الشهود، والجاه التام، الذي وصل إليه بلا جهد ولا تعب، ومع ذلك فهو يطمع في المزيد من المال والمتاع، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، هذا معنى (ومهدت له تمهيد) أي مكّنتُه من الدنيا وأسبابها، حتى حصل له في دنياه كل ما يشتهي ويريد.

موازنة بين وصف الوليد في سورتي القلم والمدثر:

أي: ومع إمداد الله تعالى بالنعم الوفيرة للوليد بن المغيرة، فإنه يطمع في الزيادة، ومثله كل طاغية جبار، فإنه لا يشبع، بل يطمع في المزيد لشدة حرصه وشرهه، وهو مع ذلك يقابل هذه النعم بالكفر والجحود، وعدم إسنادها لله تعالى ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾.

ولما كانت هذه الآيات في مقام الامتنان على الوليد، فقد ذكر الله تعالى ألوان نعمه عليه في الدنيا تمهيداً لتوبيخه وتهديده بسوء المصير في الدنيا والآخرة.

أما الآيات التي في سورة القلم، فقد وصفت الوليد بجملة من النقائص، وهي أنه: حلاف، أي كثير الحلف، مهين، هماز، نمام، مناع للخير، ظالم، أثيم، غليظ وجاف، غير شرعي الولادة، لأن المقام هناك مقام تحذير من شره وغدره، والمقام هنا مقام امتنان عليه وعلى أولاده.

وَصۡفُ الۡوَلِيدِ بِالۡعِنَادِ وَالۡفُجُورِ

١٦ - ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾

قال تعالى ﴿كَلَّآۖ﴾ ليس الأمر كما يزعم هذا الفاجر الأثيم، فلن أزيده من النعم، ولن

أعطيه ما يتمنى، بل سأمحق هذه النعم وأزيلها عنه، والسبب في هذا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي كان معانداً مكذباً لآيات الله وحججه على خلقه، مقابلاً لهذه النعم بالجحود والبطر، وقد عرف الحق ثم أنكره وأعرض عنه وتولى، بل وأخذ يحاربه ويسعى في إبطاله، وكان عليه أن يحمد الله ويشكر فضله عليه.

ومن شكَر نِعم الله تعالى زادها، ومن لم يشكرها فقد عرضها للزوال، كما قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧] .

ومن شَكَر النعم، فقد قيّدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد عرضها للزوال.

وبعد نزول هذه الآيات لم يزل الوليد في نقصان من ماله وولده حتى هلك.

وبهذا فإن الله تعالى طمْأن النبي ﷺ بأنه سيقطع مدَدَه عن الوليد بن المغيرة، لئلا يكون فتنة لغيره، فيغتروا به في كفرهم وعنادهم، كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] .

وكان من عناد الوليد: محاولة الطعن في القرآن، ووصْفه له بالسحر، مع عِلْمه وتحقّقه بأنه ليس كذلك، وكان معانداً في دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة.

والكافر المعاند قد يعترف بقلبه وينكر بلسانه، وهو أقبح الكفر وأفحشه.

الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

١٧ ـ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

ثم بين سبحانه ما أعده للوليد وأمثاله من عذاب أخروي، فقال تعالى ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأُكلّفه وأُلجئه إلى عذاب مرهق شاق، تضعُف دونه قواه كما تضعف قوة من يصعد الجبل، أي أن حال الوليد سينقلب من راحة وتنعُّم إلى حالة سيئة في الدنيا والآخرة.

والإرهاق: الإتعاب الشديد وتحميل الإنسان فوق طاقته، والمرهق هو الذي حلّ به أمر لا يقْوى على دفعه، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس:٢٧] قيل: إن الوليد طال به النزع، فكانت نفسه تتصاعد ثم لا يموت، أو أن الصعود هو العقبة الشديدة التي لا يصل إليها الصاعد إلا بمشقة كبيرة.

وجاء في الأثر: (أن صعوداً: جبل في جهنم يتصعّد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوى فيه كذلك أبداً)[1].

وهكذا فقد بدّل الله غنى (الوليد) فقرًا، وبدَّل عزه ذلاً، ويوم القيامة يبلغ أشد العذاب.

قال مقاتل: مازال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقص من ماله وولده حتى هلك.

خُلَاصَةُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فِكْرُ الْوَلِيدِ

١٨-٢٥- ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

ثم علّل سبحانه لِمَا أصاب هذا الشقي، فبين تعالى أنه فكّر مليّاً، وأطال النظر والتأمل، ورتّب كلاماً وهيأه للطعن في نبوة محمد ﷺ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في نفسه ماذا يختلق من مقال ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي دبّر وهيأ ما يقوله في محمد ﷺ وفي القرآن، ليقول قولاً يبطل به القرآن، فاختار القول بأنه ساحر، وأن القرآن سحر.

وهو بهذا التفكير والتقدير قد استحق اللعن والطرد من رحمة الله تعالى، وهو مقهور معذب مستحق للعقوبة، هذا معنى ﴿فَقُتِلَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على حماقته وتفكيره وتقديره، فما أعجب تفكيره، وما أغرب تقديره، إذ ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ فوصف الرسول بأنه ساحر، ووصف القرآن بأنه سحر، إنه كلام بالغ السوء والتناقض، إذ كيف ينفى عن محمد ﷺ: فعل السحَرة ونفْثهم، وعُقدهم، وأنه لا يفعل فعلهم، وما رأينا منه ذلك، وبعد أن راجعه أبوجهل، فكّر وتأمل ثم قال ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وبهذا يكون قد ناقض نفسه.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٧٦ و٣١٦٤)، وأبو يعلى (١٣٨٣)، وابن حبان (٧٤٦٧)، وأحمد عن أبي سعيد الخدري برقم (١١٧١٢) بإسناد ضعيف (محققوه)، وقال الترمذي: حديث غريب، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٤٠٩).

ثم كرر سبحانه ذلك مبالغة في ذَمه، وإعادة للدعاء عليه ﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي عُذّب وقُهر ولُعن، والوقف على ﴿قُتِلَ﴾ و﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أمر جيد، إذ يبدأ القارئ بعد هما بالاستفهام: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وفي هذا توضيح للمعنى وكما أعاد القرآن الدعاء على الوليد، أعاد التساؤل مرة أخرى ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾؟ أي كيف دبّر وأعدّ مقالته من الطعن في القرآن، وفي رسول الإسلام، وارتقى مرتقى صعباً لا يرقى إليه هو ولا غيره.

لقد أجال الوليد بن المغيرة نظَره متفكراً في شأن القرآن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أعاد النظر والتروّي مرة أخرى متأملاً في وجوه قومه الحاضرين معه، يستنتج آراءهم، ويقرأ أفكارهم التي يصفون بها القرآن ونبي الإسلام.

ثم قطّب وجهه وقبض بين عينيه، كالمتهم الذي يفكر في شيء يدبره وقد استعصى عليه الحل ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ واشتد عبوسه لمّا ضاقت عليه الحيل، ولم يجد مطعناً يطعن به في القرآن، فكلح وجهه، وقبض ما بين عينيه، وتغيّر لونه، وارتعشت أطرافه ﴿وَبَسَرَ﴾ أي كلح وكرهت نفسه ذلك.

والبسور أشد من العبوس في تقطيب الوجه وكلوحه.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

ثم أعرض الوليد عن الإيمان والهدى بعد أن اقترب منه، وتعاظم عليه أن يعترف بالقرآن، وبخاتم النبيين.

أي فقال الوليد عن النبي ﷺ بعد أنْ فكّر وتأمل: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُنقل عن الأولين ويتداوله السحرة، فقصَر تعيين الأقوال التي جالت في نفسه والتي يقولها القوم على القول بأنه ساحر، وترك وصفه بأنه شاعر، أو كاهن، أو مجنون، وقال عن القرآن: ما هو إلا كلام سحرة!

ثم إن السحرة لهم أقوال وأفعال، وهذا من السحر القولي، فهو من كلام البشر - على حدّ زعمه - تعلّمه منهم محمد ﷺ ثم ادّعى أنه من عند الله وهو ليس وحياً من عند الله تعالى، فهو يقول: إن القرآن ليس بكلام الله، بل هو كلام البشر، وليس كلام

البشر الأخيار، بل هو كلام الفجار والأشرار من السحرة والكذابين.

وقد قال الوليد ذلك عناداً وحمية، جاهلية وتكبُرا عن اتباع الحق والهدى.

عَذَابُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٦-٢٩-﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾

ثم بين سبحانه مصير هذا الكافر يوم لقاء الله فقال ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ سأدخله جهنم يصلى حرها ويحترق بنارها، وهي نار متأججة شديدة الاشتعال.

وسقر: اسم لطبقة من طبقات جهنم، وهي لا تبقى شيئاً ممن يعذَّب فيها إلا ابتلعته.

ذكر ابن عطية أنها الدرك السادس من دركات جهنم، وقد وصف الله النار بقوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣] وقوله: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الليل:١٤،١٥] وقوله: ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:١٠].

ثم هوّل سبحانه في وصف هذه النار، وعظّم من أمرها فقال ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ أي ما أعلمك أي شيء هي جهنم؟ إنها شيء فظيع، إنها نار الله الموقدة، التي تطلع عليها الأفئدة، وهي مُطْبقة على من فيها.

فهي لا تُبقي شيئاً إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الكفار إلا دمّرته، ولا تُبقي لحماً ولا تترك عظماً إلا أحرقته، وكلما أُحرق أُعيد خَلْقه كما كان، ثم يعاد إحراقه من جديد، وهي في إحراقها لأهلها لا تبقي من اللحم والدم والعظم شيء إلا أهلكته ومحقته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٣].

ثم إن هذه النار تُسوِّد الجلد وتحرقه، وتغيّر لون البشرة، فهي ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي تُغيّر ألوان الجلود، فالمراد بالبشَر على هذا المعنى: البشرة.

وقيل المعنى: إنها تَلُوح وتَظْهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة، وهي بارزة لأنظارهم يرونها عياناً من غير عناء ولا استشراف، ولا مد أعناق، كما قال تعالى:

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٦] .

نُقَبَاءُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلُون بِالْعَذَابِ

٣٠- ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ[1] ﴾

ويتولى هذه النار خزنة لها، يتسلَّطون على أهلها بالعذاب، تسعة عشر ملَكاً من الزبانية الأشداء، هم نقباء الملائكة الموكلون بالعذاب، قيل إنهم بعدد حروف (بسم الله الرحمن الرحيم) التسعة عشر، وهم موزّعون على دركات جهنم، لكل درَك ملَك، وكل درَك منها لشعبة من شعب الكفر، والدرك الأسفل منها لمنافقي العقيدة الإسلامية.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥] .

ومن أحوال الناس في الكفر: من يُنكر وجود الله تعالى، ومنهم من يقول بتعدد الآلهة، ومنهم من يقول بالبنوّة، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم عبدة الشيطان والجن والبقر، ومنهم من ينكر إرسال الرسل بشكل عام، ومنهم من يُنكر رسالة خاتم الرسل على وجه الخصوص.

ومن طوائف الكفر: المجوسية، والمانوية، والمزْدكية، والزنْدقة، ومن الناس من يعبد الملوك كالفراعنة، وهكذا، فدركات جهنم لهذه الشُّعَب المختلفة من ألوان الكفر.

وقيل: المراد بالتسعة عشر: تسعة عشر صَفاً، أو تسعة عشر صِنفا من الملائكة.

وقد وصف الله خزنة النار بقوله ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] .

وجاء عدد خزنة جهنم، بأنهم تسعة عشر في الحديث النبوي أيضاً[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية، قال أبوجهل لقريش: ثكلتكم

---

(١) قرأ أبوجعفر بإسكان العين من ﴿عَشَرَ﴾ حال وصلها مع ما قبلها، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٢) وذلك في سنن الترمذي برقم (٣٣٢٧) عن جابر وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن الترمذي (٦٥٨)، وفي المسند (٣/٣٦١) عن علي بن المديني عن سفيان.

أمهاتكم، أسمع من ابن أبي كبشة - يريد النبي ﷺ - يُخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، فقال: أبو الأشد بن أُسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، واكفوني أنتم اثنين(١).

وورد أن أباالأشد قال: أنا أمشي بين يديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة(٢).

ويلغ من قوة أبي الأشد الجُمحي أنه كان يقف على جِلْد البقرة، فيجْذبه عشرة من الناس لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه(٣).

قال السهيلي: وهو الذي دعا إلى مصارعة النبي ﷺ وقال: إن صرعْتني آمنتُ بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن، ونسب ابن إسحاق هذه المصارعة إلى ركانة بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب(٤).

تَحْدِيدُ خَزَنَةِ النَّارِ بِأَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ، مِنْ بَابِ الْفِتْنَةِ وَالابْتِلَاءِ

٣١- ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

ولما قال أبوجهل لقومه عن خزنة النار: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم، أنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ غلاظ شداد، وليسوا من البشر، حتى يمكن مصارعتهم أو مغالبتهم، وإن ملَكاً واحداً منهم لو أمره الله تعالى لا قتلع هذه

(٢،١) ينظر: تفسير الخازن (٣٢٩/٤) وتفسير الألوسي (١٢٩/٢٩) وتفسير الشوكاني (٣٢٧/٥) وغيرهم وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن السُدّي بنحوه كما في الدر المنثور (٧٨/١٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٩/٧).

(٤) الروض الأنف (٢٠٠/١).

الأرض وقلَبها على مَنْ فيها، وقد نزع الله من قلوبهم الرحمة والشفقة، وما بين منكبي أحدهم مسيرة عام، وليس في قدرة أحد من البشر أن يغلب واحدًا منهم، فهم أشد بأسًا وأقوى بطشًا من كافة الإنس والجن، وما جعل الله عدد الخزنة تسعة عشر إلا فتنة وابتلاء للخلق.

الناس أربعة أصناف تجاه هذا الابتلاء:

والناس تجاه هذا الاختبار أربعة أصناف هم:

الكفار الوثنيّون، واليهود والنصارى (أهل الكتاب)، والمؤمنون، والمنافقون:

١- **أما بالنسبة للكفار:** فإن الله تعالى جعل هذا العدد فتنة لهم، حيث استقلّوا عددهم، واستهزؤوا بهم، وظنوا أن بالإمكان مغالبتهم.

والفتنة، قد يراد بها العذاب، أي: وما جعلنا عدد الملائكة تسعة عشر إلا لعذاب الكفار وعقابهم في الآخرة، فالعذاب يسمى فتنة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾وقد يراد بها اختبار الصادق من الكاذب قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عدد ملائكة العذاب ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقد زادهم هذا الاختبار جحوداً وضلالاً، حيث قالوا: لِمَ لَمْ يكونوا عشرين، بدلاً من تسعة عشر، وقالوا: كيف يمكن لهذا العدد القليل، أن يعذب العدد الكثير من الإنس والجن؟ ولم يعلموا أن جبريل اقتلع بجناحه مدائن قوم لوط، وجعل عاليها سافلها، وظنوا أن أحوال الآخرة تقاس على أحوال الدنيا.

٢- **أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى:** فإن هذا العدد موجود في كتبهم، فإذا بحثوا وجدوه بعينه في التوراة والإنجيل، وعلموا أن محمداً ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، وعلموا أنه رسول من عند الله.

وهذا معنى قول الله تعالى ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي ليحصل لهم اليقين بأن ما جاء في القرآن حق، وما قاله محمد صدق، لأنه نطق بما في أيديهم، فإذا وافق هذا العدد ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالجن.

أخرج الترمذي وابن مردُويه عن جابر ﷺ قال: قال ناس من اليهود لأناس من

المسلمين، هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فقال: «هكذا وهكذا، في مرة عشرة، وفي مرة تسعة»(١).

وقد حدث هذا السؤال مِنْ يهودي لصحابي، لعله اجتمع به في سفر، ولا يعني هذا أن الآية مدنية.

فقد كان اليهود في المدينة يترددون على أهل مكة، ويتردد أهل مكة على أهل المدينة، للتجارة والميسرة، فيسأل بعضهم بعضاً عما يقوله محمد ﷺ، لعل المشركين يجدون عند اليهود ما يُكذّبون به محمداً ﷺ، وكان الأجدر بهم أن يصدقوا محمداً ﷺ، لأن الإنسان إذا تيقن شيئاً آمن به، كما حدث من عبد الله بن سلام وأمثاله ممن أسلموا، فقد أعقب كفرهم إيماناً، وقد لا يحدث التصديق مع وضوح البراهين، لمكابرة أو حسد، أو خوفاً من ضياع سلطان أو جاه أو مال، وهو شأن كثير من اليهود الذين عرفوا محمداً ﷺ أكثر مما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لم يؤمنوا به مكابرة وعناداً.

٣- أما المؤمنون المصدقون بالله ورسوله، العاملون بشرعه، فإن عدد خزنة النار، يزيدهم إيماناً على إيمانهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًاۙ﴾ فهم يؤمنون إيماناً مطلقاً بكل ما يصدر عن الله ورسوله، ويعتقدون بأن لله تعالى حكمة في هذا العدد، وإن لم تدركها عقولهم، فكلّما أنزل الله آية فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم.

ثم أكد سبحانه ما سبق تقريره، من أن شأن أهل الكتاب ألا يكون في قلوبهم أدنى شك أو ريبة فيما يقوله القرآن، لأنه موجود عندهم، فيزول عنهم الريب والشك، وقد جعل الله ما أنز له على رسوله مميزاً للكاذبين من الصادقين.

أي: ومن شأن المؤمنين وأهل الكتاب أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم، فيما يتعلق بعدد خزنة أهل النار وغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ﴾ فانتفاء الريب عن أهل الكتاب في صدق ما جاء به محمد ﷺ هو الذي يجب أن يكون، ولا يصح

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٧)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٦٥٨).

منهم أن يكذبوه، ولكنهم علموا وعاندوا فكانوا من الضالين.

أما المؤمنون حقاً فإنهم علموا وعملوا، وازدادوا يقيناً على يقينهم، وإيماناً على إيمانهم، فهذه الجملة من الآية تعود على أهل الكتاب والمؤمنين معاً.

٤- أما النوع الرابع فهم مرضى القلوب، وهم المنافقون الذين يتعجبون من هذا العدد، ويقولون: ما المراد به؟ ولماذا لا يكون أكثر أو أقل؟ وهؤلاء في قلوبهم سوء نية للقرآن ورسول الإسلام، وهم في تردد بين الإسلام وبين ما هم فيه من شرك، وحالهم كحال الكفار سواءً بسواء، ولذا: قرن الله المنافقين بالكافرين في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك وشبهة ونفاق ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فهم في حيرة وتردد وكفر بآيات الله، وكل هذا من هداية الله لمن أراد هدايته، ومن إضلاله لمن أراد أن يضله.

وكما ضل هؤلاء الكفار والمنافقون عن طريق الحق، يُضل الله من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هداه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي بمثل ما ذكر ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وإسناد الضلال والهدى إلى الله تعالى، لأنه خالق أسبابهما الأصلية، ولكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، فمن هداه الله جعل ما أنزل الله على رسوله رحمة له وزيادة في إيمانه، ومن أضلّه الله جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء في حقه، والواجب هو تلقى ما أنزل الله على رسوله بالتسليم والاذعان.

ثم أجاب الله سبحانه إجابة جامعة، تُبطل تخرصات الضالين، ومرضى القلوب، بأن عليهم أن يقفوا عند سماع الأخبار عن عالم الغيب والشهادة وأمور الآخرة، ويتركوها إلى الله تعالى، فهي فوق مداركهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يعلم عدد الملائكة وقوتهم وضخامتهم وكثرتهم، إلا رب العالمين، فمنهم سبعون ألف ملك يطوفون كل يوم بالبيت المعمور، لا يعودون إليه أبداً، ولا يوجد في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، إلا وفيه ملَك قائم، أو ملَك ساجد، أو ملَك راكع، فإذا كنتم جاهلين بجنود الله، فقد أخبركم بها علام الغيوب، فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب.

والملائكة جند من جنود الله، والجن جند من جنوده، والريح جند من جنوده، وإلقاء

الرعب في قلب العدو جند من جنود الله أيضاً.

وهكذا فالله تعالى إذا أراد أن ينصر عبده سخّر له أضعف المخلوقات لتكون سبباً في نصره.

أما ورود ذكر النار في القرآن، فهو للاتعاظ والاعتبار والابتعاد عن محارم الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي النار ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾أي: ليخافوا الله تعالى ويطيعوه، ويتذكروا ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

ثَلاثَةُ أَيْمَانٍ عَلَى أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ إِحْدَى الدَّوَاهِي الْكِبَار

٣٢-٣٥-﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ[1] أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾

ثم أقسم سبحانه ثلاثة أيمان بمالك الملك، وخالق الكون، ونور السماوات والأرض، على أن (سقر) التي يَسْخر منها المجرمون ويتهكّمون بها ويخزنتها، هي إحدى الأمور العظام، والدواهي الكبار، قلَّ أن يوجد لها نظير في شدة عذاب من يصطلي بنارها.

فليرتدع هؤلاء المستهزؤون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم.

﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً أو بمعنى (ألا) الاستفتاحية، ويصح أن يكون المعنى:

أي ليس الأمر كما زعموا من تكذيبهم لرسول الله ﷺ فيما جاء به من عند الله.

ثم أقسم سبحانه بالقمر، وبالليل إذا ولّى وذهب، بسبب إقبال النهار.

وأقسم سبحانه بالصبح إذا أضاء وانكشف نوره وسطع في الصباح الباكر وقت الإسفار.

أقسم سبحانه بهذه المخلوقات الثلاث لأنها من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته - ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس للخلق أن يقسموا إلا بالله

---

(١) قرأ نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف ﴿إِذْ﴾ بسكون الذال، ظرف لما مضى من الزمان، و ﴿أَدْبَرَ﴾ بهمز قطع مفتوحة، ودال ساكنة، فعل رباعي على وزن أكرم. والباقون ﴿إِذَا﴾ بفتح الذال وألف بعدها، ظرف لما يستقبل من الزمان، و﴿دَبَرَ﴾ بدون همزة قبل الدال، وفتح الدال، فعل ثلاثي على وزن ضرب، وهما لغتان بمعنى واحد.

تعالى - والمقسم عليه هو أن النار إحدى الأمور العظام، والدواهي الكبار، والخطوب الجسام، فيكف تستهزؤون بها وتسخرون منها؟ **قال تعالى في بيان مهمة جهنم :**

٣٦، ٣٧- ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾

والله تعالى يخوف عباده بهذه النار ليتّقوه ويُفردوه بالعبادة، فقد أوجدها الله تعالى إنذاراً وتخويفاً للناس، كما جاء في وصف رسالة النبي ﷺ في قوله تعالى له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي خوفهم عذاب النار إن لم يؤمنوا.

وهذا الإنذار يتوجَّهُ لكل إنسان، سواء آمن أو كفر ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الإيمان ويعمل ما يقرِّبُه من ربه ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه، فيعمل ما يقرِّبه من النار، أي لمن أراد أن يتقرب إلى ربه بفعل الطاعات، أو يتأخر عنه بفعل المعاصي، كقول تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف:٢٩] فالتقدم هو السبق إلى الخيرات، والتأخر هو التخلف عنها.

الْكَافِرُ مَرْهُونٌ بِعَمَلِهِ السَّيِّءِ وَالْمُؤْمِنُ قَدْ فَكَّ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ بِالإِيمَانِ

٣٨-٣٩- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾

وكل إنسان يوم القيامة مرتهن بما كسب، مما قدم لنفسه أو أخر، فنفسه محبوسة بعملها، مرهونة عند الله تعالى بكسبها أعمال السوء والشر، فهي موثقة بسعيهما لا تنفك من الموقف إلا إذا أدت ما عليها، وأخذت ما لها من عقوبات وحقوق وواجبات.

وهذه النفس المرهونة بكسبها السيء هي النفس الكافرة التي حقت عليها كلمة العذاب.

ولا يرتهن أحد بعمله من أهل الجنة، لأنه لم يكتسب ما هم مرتهنون به.

لأن الله تعالى استثنى المسلمين المخلصين، الذين يأخذون صحف أعمالهم بأيمانهم، فإنهم قد فكوا رقابهم بالطاعة وخلّصوها من هذا الرهن بالإيمان والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهم لم يرتهنوا. بل أطلقوا وفرحوا وهم أهل الخير والكرامة، ولهم علامات يُعرفون بها في أرض المحشر والمنشر، منها أنهم يكونون عن يمين العرش، بيض الوجوه، ويتناولون الصحف بأيمانهم.

كما أن أهل الشر يكونون عن شمال العرش، سود الوجوه، ويتناولون صحفهم بشمائلهم من وراء ظهورهم.

المؤمنون يتساءلون عن أسباب عذاب أهل الشقاء وأهل اليمين

● ٤٠-٤٢ - ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ [1] ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ [2] ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾

وأصحاب اليمين وهم في الجنات التي لا يُدرك وصفها، يسأل بعضهم بعضاً عن الذين أجرموا في حق أنفسهم، وظلموها بالكفر والمعاصي، ما الأسباب التي أدت بهم إلى دخولهم النار؟ وهذا السؤال فيه تبكيت لهم، وإدخال للحسرة على نفوسهم.

وهو سؤال من أهل اليمين عن مصير الكافرين، ويكون هذا السؤال قبل أن يرؤهم وهم في النار، فإذا رَأوْهم سألوهم عن أحوالهم، وعن سبب وُلوجهم النار، وهو سؤال توبيخ وتحقير، وإلا فهم يعلمون السبب الذي أدخلهم النار.

أربعة أسباب لدخول المجرمين النار

● ٤٣-٤٧ - ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾

أي أن أهل النار يجيبون أهل اليمين معترفين ومقرّين على أنفسهم أنهم قد استحقوا دخول النار لأسباب أربعة:

أولها: أنهم لم يكونوا يؤدون الصلاة في الدنيا، والصلاة رمز الإيمان، وإنكارها كفر، وهي فرق المسلم من الكافر، ويدخل في ترك الصلاة نفي الإيمان بالله تعالى، ويدخل فيها ترك جميع العبادات، لأن الصلاة تشمل تعظيم الدين وامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وما يتعلق بأمور العقيدة.

---

(١) قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معددة آية عند جميع علماء العدد ما عدا المدني الأخير فليست بآية عنده.

(٢) قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، غير معدود آية عند الدمشقي والمكي، فيكون آية عند غيرهما.

وثانيها: قولهم: لم نكن ونحن في الدنيا نتصدق ونطعم الفقراء والمساكين، فلم نعبد ربنا ولم نحسن إلى خلقه، وهذا الإطعام يشمل الزكاة وصدقة التطوع في وجوه الخير والبر.

وثالثها: قولهم: وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلال، فنجادل بالباطل، ونخوض في الأقوال السيئة والأفعال الباطلة، مع الخائضين فيها دون أن نتورع عن ترك شيء منها، أو ننهاهم عنها.

ورابعها: قولهم: إنا كنا في الدنيا ننكر يوم البعث والحساب، وننكر الجزاء على الأقوال والأعمال، والمكذب بيوم الدين، تختل في يده جميع الموازين، وينتهي إلى شر مصير، وهؤلاء قد جمعوا بين الكفر بتكذيبهم بيوم القيامة، وبين الكفر بفروع الشريعة، وهي الصلاة والزكاة وإطعام المساكين، فالكافر مطالب إلى جوار القيام بأصول الشريعة، القيام بفروعها، ولا تقبل الفروع إلا بعد وجود الأساس، وهو التوحيد والإيمان الجازم بالله ورسوله وباليوم الآخر ومافيه من بعث وحشر وحساب وجزاء.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وخاض مع الخائضين، له نصيب من عذاب سقَر بمقدار ما ضيّع وخاض، وفق ما يكون من معادلة حسناته وسيئاته.

وقد ظل المجرمون على التكذيب بيوم الدين، وترك الصلاة والزكاة، واستمروا على الخوض في الباطل حتى جاءهم الموت وهو معنى ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ وهو الموت فاستحقوا بذلك عذاب النار.

ويصح أن يكون معنى اليقين، أنهم قد علموا وأيقنوا صحة ما كانوا يكذبون به في الدنيا، من عذاب النار، وأن الريب والشك فيه قد زال عنهم، فأيقنوا الآن باليوم الآخر، ومافيه من بعث وحساب وجزاء بعد أن رأوه بأعينهم.

لا شفاعة لكافر

٤٨ - ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

وهؤلاء المجرمون الكافرون، حرّم الله قبول الشفاعة فيهم، وسيظلون مرتهنين بأعمالهم في سقر ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ والآية تفيد أن هناك شفعاء، كما جاء في الحديث أن الملائكة تشفع، ثم النبيون، ثم العلماء، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم يقول الله تعالى: شفع عبادي، وشفع الجميع، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

ولا شفاعة لأهل النار، ولو شفع فيهم أهل الأرض جميعاً ما قُبلت شفاعتهم.

وكل من اتصف بالصفات الأربع السابقة لا تنفعه شفاعة شافع، لأن من وافى الله تعالى كافراً فهو مخلد في النار، وليس محلاً لقبول الشفاعة فيه، وإنما ينتفع بالشفاعة عصاة المؤمنين، وكل من رضي الله قبول الشفاعة فيه، وأذن لشفيعه أن يشفع له، سواء أكان من الملائكة أو النبيين أو من غيرهم.

الكافر ينفر من أسباب الهداية

٤٩-٥١ - ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ[(١)] ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾

ثم إن الفرصة لم تزل متاحة لهؤلاء المجرمين وهم في الدنيا قبل مواجهة عذاب سقر، وإن إعراضهم عن مواعظ القرآن وإرشاداته، هو السبب الذي أخذ بأيديهم إلى النار، ولهذا فإن إصرارهم على الكفر أمر يدعو إلى العجب، فما لهؤلاء المكذبين منصرفين عن الحق الذي دعاهم إليه محمد ﷺ؟

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من شدة نفورهم ﴿حُمُرٌ﴾ وحشية شديدة الهرب من أهلها، فهي، أي هذه

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر بفتح الفاء من ﴿مُّسْتَنفَرَةٌ﴾ اسم مفعول، أي ينفرها القناص، والباقون بكسر الفاء، اسم فاعل، أي نافرة.

الحمر ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شاردة هائجة عند رؤيتها للأسد الكاسر قد ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أى هربت من الأسد القوي الضاري الذي يطارد الحمُر الوحشية، وهذا يفيد ضعف عقولهم، وأنهم كالحمار الذي يحمل أسفاراً.

ومن شأن الحمر الوحشية أنها إذا رأت الأسد هربت منه، وكذلك هؤلاء المكذبون، إذا سمعوا القرآن نفروا منه وأعرضوا عنه.

الْمُعَارِضُونَ يَطْلُبُونَ نُزُولَ كِتَابٍ عَلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٥٢- ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾

ثم ذكر سبحانه سبباً من أسباب عدم إيمان المكذبين بمحمد ﷺ وهو أنهم يخافون على زعامتهم ومنزلتهم بين الناس، فيحسدون محمداً ﷺ على الرسالة، ويطمعون أن يَنزل على كل زعيم منهم قرآناً مثل الذي نزل على محمد ﷺ والقرآن الكريم يرد عليهم زعمهم:

أي أيطمع كل واحد من المشركين والمكذبين برسول الهدى أن ينزل الله عليه كتاباً منشوراً من السماء، كما أُنزل على محمد ﷺ؟ فهو يزعم أنه لن يؤمن إلا إذا نزلت عليه صحف من السماء، والله تعالى يكذبهم، فإنهم لوجاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وأن الله تعالى يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويعلم أنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آيات.

سبب النزول:

ومما ورد في أسباب النزول، أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: (لن نتبعك حتى تأتي لكل واحد منا بكتاب من السماء، عنوانه: من رب العالمين، إلى فلان بن فلان، نُؤمر في هذا الكتاب باتباعك)[1].

وقالوا: إن كان محمد صادقاً فلْيُصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٩٢/١٥).

وأمّنه من النار [(١)].

وقالوا: يا محمد، بلغَنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يُصبح وعند رأسه ذنْبُه وكفارتُه، فأْتنا بمثل ذلك، وهذا كقوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣] .

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

السَّبَبُ فِي عَدَمِ إِيمَانِ الْمُكَذِّبِينَ: اسْتِيلاءُ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ عَلَى قُلُوبِهِمْ

٥٣-٥٥- ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

ثم بيّن سبحانه أن هذه المقترحات التي يقترحونها ليست هي السبب في عدم إيمانهم، بل السبب هو استيلاء الكفر والعناد على قلوبهم، فقال تعالى ﴿كَلَّا﴾ إبطال لمزاعمهم وردع لهم، فليس ما اقترحوه إلا تنصُّلا من الإيمان، ولو أنهم أُجيبوا إلى ما طلبوا، ما آمنوا، بل الحقيقة أنهم لا يخافون الله تعالى، ولا يصدقون بالبعث والحساب والجزاء، وهذا معنى: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ولو أنهم خافوا لقاء الله، لا ازتدعوا عما قالوه، ولآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، فالذي أفسدهم أنهم كانوا لا يصدقون بالآخرة ولا يخافون عذابها.

ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن الذي أعرضوا عن سماعه ونفروا منه، فيه الموعظة البليغة الكافية لاتّعاظهم، ولكنهم لا ينتفعون ﴿كَلَّآ﴾ حقا ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ ينتفع بها من كان عنده استعداد لذلك.

فمن أراد الاتعاظ، اتعظ بما فيه وانتفع بهداه، فإنّ نفْع ذلك يعود إليه، ثم إن الانتفاع بهذي القرآن طَوْعَ مشيئتكم أيها الناس، وهو مشتمل على ما يُسعد المرء في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١] .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد والطبري وابن المنذر عن السّدي عن أبي صالح. المرجع السابق.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل:١٩] .

كُلُّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى

٥٦ - ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ[1] إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾

ثم ختم الله تعالى السورة بما يدل على نفاذ مشيئته تعالى وإرادته، وأنه لا يندّ عنها قليل ولا كثير، وبيان أن التذكّر والانتفاع بالموعظة يتم بمشيئة العبد، وفق مشيئة الله تعالى وإرادته ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي وما ينتفعون بهذي القرآن، ولا يتعظون بما فيه، إلا أن يشاء الله لهم الهدَى، فيتذكروا وينتفعوا، وهذا موافق لاختيارهم وإرادتهم.

وذلك أن للناس مشيئة، يتعلق بها ما يكتسبونه من الطاعات والمعاصي، ويتعلق بها الجزاء في الدنيا والآخرة، ولله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمنعها مانع، ولا يحول دونها حائل، وهذه المشيئة هي توفيق الله تعالى للعبد، ولا تخرُج أفعال العباد عن مشيئة الله أبداً، لأنها تقع وفق علم الله الأزلي لما يكون عليه العبد من الإيمان أو الكفر، ومن الطاعة أو العصيان.

١ - كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩] .

٢ - وقال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] .

٣ - وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢] .

٤ - وقال عز وجل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٨، ٧٩] .

وما دام الأمر كذلك، فعليكم بالتذكير وتقوى الله، فإنه سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي هو أهل لأن يُتقى ويطاع ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي وهو أهل لأن يَغفِر لمن آمن به وأطاعه.

---

(١) قرأ نافع بتاء الخطاب في ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ على الالتفات، والباقون بياء الغيب جرياً على الساق.

فمغفرة الذنوب من خصائص الله سبحانه، لمن أقلع عن كفره أو شركه، أو معاصيه وذنوبه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] وذلك بالنسبة لمن لم يمت على الكفر، أما من مات على الكفر والشرك فلا توبة له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال الله تعالى: «**أنا أهل أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها، فأنا أهل أن أغفر له**»[1].

وأخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة في معنى: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

(ربُّنا محقوق أن تُتقى محارمه، وهو أهل المغفرة، يغفر الذنوب).

وأيضاً فالله تعالى أهلٌ بصفاته العلى، ونعمه التي لا تحصى، ونقمه التي لا تُدفع، لأن يتقى، ويُحذر معاصيه، ومخالفة أمره، وهو بفضله وكرمه أهل لأن يغفر لعباده إذا اتقوه.

تم تفسير (**سورة المدثر**) ولله الحمد والمنة

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وفي سنده سهيل، ليس بالقوي، وهو برقم (٣٢٢٨)، وأخرجه أحمد في المسند (١٤٢/٣) (١٢٤٤٢،١٣٥٤٩) بإسناد ضعيف، وابن ماجة برقم (٤٢٩٩)، ومسند أبي يعلى (٦٦/٦)، والبغوي في التفسير (٢٧٦/٨)، وتفسير النسائي (٤٧٥/٢)، وفي السنن الكبرى له (١١٥٦٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ (٧٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القيامة) هي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثلاثون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة القارعة) وقبل (سورة الهُمزة).

وعدد آياتها في المصحف الكوفي والحمْصي أربعون آية، وتسع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وهي مئة وتسع وتسعون كلمة، وست مئة واثنان وخمسون حرفاً.

وتسمى (سورة القيامة) لذكر هذا اللفظ في أولها، وسماها بعضهم (سورة لا أقسم).

وهي سورة مكية خالصة، نزلت في أوائل العهد المكي.

موضوع السورة:

١- المحور الأساس للسورة: هو الحديث عن يوم القيامة ومافيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال، وما يلقاه الناس، لاسيما الكافر، من الأهوال والشدائد، ومن علامات هذه الأهوال: خسْف القمر، وتحيّر البصر، وجمْع الشمس والقمر.

والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، والحديث عنه من علامات القرآن المكي.

إلى جوار الحديث عن الوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[الآيات: ١٦-١٩].

وتخلُص السورة إلى توحيد الخالق سبحانه في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية:٤٠].

وهذه العناصر الثلاثة، هي مكونات القرآن المكي.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بالقيامة، والقسم بالنفس اللوامة، عن أن البعث حق لاريب فيه، ومضت الآيات في الحديث عنهما من مطلع السورة إلى ختامها، وفي ثنايا

ذلك ذكرت السورة، ثلاثاً من علامات الساعة، هي: تحيُّر البصر، وذهاب نور القمر، وطلوع الشمس والقمر معاً من المغرب.

وفي ثنايا السورة أيضاً أربع آيات عن اهتمام النبي ﷺ بتلقي الوحي، وإجهاد نفسه في متابعة جبريل عليه السلام. واهتمام النبي ﷺ بتلقِّي القرآن عند تلاوة جبريل عليه حرصاً على حفظه وضبطه، فأمره ربه ألا يُسرع في تلقيه، ولا يَعْجَل في ذلك.

٣- وفيما عدا ذلك فقد بينت السورة أن القيامة حق، وأن الإنسان يُنبأ فيها بما قدم وأخر، وأن الناس فيها إما سعداء، تتلألأ وجوههم نوراً، ويَحْظَوْن بالنظر إلى وجه الله الكريم، وإما أشقياء، وجوههم قاتمة مظلمة يعلوها الذل والقتَرَة.

٤- وتحدثت آيات السورة عن وقت الاحتضار، والإنسان يعالج سكرات الموت، ويبحث الناس له عن علاج دون جدوى، حيث تيقن أنه مفارق للدنيا، مقبل على ربه.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [الآية:٢٩] إلى أين؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [الآية:٣٠].

فإن كان المحتضر من الكافرين، فإنه يَلْقى من الشدائد عند خروج الروح، ومن العذاب يوم القيامة، ما لا يعلمه إلا الله، ذلكم لأن الإنسان لم يُخلق عبثاً في هذه الحياة، بلا هدف ولا غاية، فقد أوجده الله تعالى من العدم، ومنَحه نعمة الحياة، وقال له: افعل، ولا تفعل، لئلا يستوي يوم القيامة من أطاع ومن عصى، ومن آمن، ومن كفر، والذي بدأ خلْقه من نطفة، قادر على إعادته بعد الموت، للحساب والجزاء، حيث يكون الناس فريقان: سعداء وأشقياء، إلى جنة أو نار.

٥- قال عمر بن الخطاب ﷺ: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها، فليقرأ هذه السورة[1].

وقال المغيرة بن شعبة ﷺ: يقول الناس: القيامة، القيامة، وإنما قيامة المرء موته[2].

---

(١) من تفسير ابن عطية (٥/٤٠١).

(٢) من تفسير ابن عطية (٥/٤٠١).

وحضر ابن جبير جنازة رجل، فقال: أما هذا فقد قامت قيامته[1].

وقد ذُكر لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في السورة خمس مرات.

وهكذا فإن السورة تعرضت إلى حقائق خمس:

أولها: **حقيقة النشأة الأولى**، حيث لا يدّعي أحد ممن يكّذب باليوم الآخر أنه خلَق الإنسان، أو شارك في صنعه ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾؟ [الآية:٣٤].

ثانيها: **أهوال القيامة**، ومشاهد خراب العالم عند قيامها، وما يعتري الإنسان من الاضطراب والحيرة في مواجهة أحداث القيامة.

ثالثها: **أدب تلقّي الوحي**، والتأنّي في الاستماع إليه، واتباع تلاوته في صفة قراءة القرآن بإقامة حروفه وحركاته، وصفة الأداء المتواتر، وهو ما عُرف فيما بعد بالغنة والمد والقصر والإخفاء والإدغام، وما إلى ذلك.

رابعها: **التعرض لحقيقة الموت التي لا تخطىء الإنسان**، والنهاية المحتومة لجميع البشر، وهي حقيقة تتكرر كل يوم، ويواجهها الكبار والصغار، والفقراء والأثرياء، والرؤساء والمرؤوسين، ويقف الجميع من الموت موقفاً واحداً، فلا حيلة ولا وسيلة لدفعه أو تفاديه!

خامسها: **مشهد أصحاب النفس المطمئنة واللوامة والأمارة**، يوم لقاء الله تعالى، وهو يتمثل في حال السعداء والأشقياء، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه.

ومع أن الناس قد تقدموا كثيراً في مجال العلم التجريبي والحضارة المادية في القرن الأخير، إلا أنهم فيما يتعلق بالعلم بالله تعالى والدار الآخرة والاستعداد لها شيء لا يذكر، فهم في علم ضحل، وغفلة وإهمال!

وقد ختمت السورة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية.

* * *

(١) من تفسير ابن عطية (٥/٤٠١).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ عَلَى بَعْثِ النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

١ - ٣ - ﴿لَآ أُقْسِمُ[1] بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ[2] ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾

في مطلع السورة، ومن باب براعة الاستهلال، أقسم الله تبارك وتعالى باليوم الآخر، وما اشتمل عليه من بعث وحساب وجزاء، وهذا هو القسم الأول لتعظيم يوم القيامة وتفخيمه.

وأقسم سبحانه ثانياً بالنفس التقيّة المؤمنة، التي تلُوم صاحبها على التقصير، وعلى ترك الطاعات وفعل الموبقات.

والمقسم عليه بهما: أن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق.

ومن شأن المؤمن إذا وقع في خطأ أن يُصاب بهمّ ثقيل، وتضيقُ عليه الأرض بما رحُبت، فيلوم نفسه على فعل الشر، ويلومها على عدم الاستكثار من الخير.

والإيمان الكامن في النفس، يأخذ بيد صاحبه إلى التسامي، ويزجُره عن الإسفاف والتردِّي، ويلُومه على ما بدَر منه أوّلا بأوّل، لأنه لا يألف النقائص، وسُرعان ما يتجاوزها إلى عالم أزكى إذا ألمّ بشيء منها.

وقد أقسم الله تبارك وتعالى بهذه النفس، لِمَا وَقَر فيها من الإيمان بالله واليوم الآخر.

أما النفوس التي لا تعرف الله تعالى، ولا تنتظر لقاءه، فإنها لا تكترث برذيلة، ولا تخاف من يوم الحساب، وهذا هو شأن غالب الناس اليوم.

---

(١) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام من ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ فيقرؤها (لأقسم) على أنها لام الابتداء للتأكيد، والباقون بإثبات الألف على أن لا نافية لكلام مقدر كأن الكفار قالوا للنبي ﷺ: إنما أنت مُفْترٍ في الإخبار عن البعث، فرد عليهم بلا، ثم ابتدأ فقال: أقسم، وهو الوجه الثاني للبزي، ولا خلاف بين القراء في إثبات الألف في الموضع الثاني وهو ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر بفتح السين من ﴿أَيَحْسَبُ﴾ والباقون بكسرها.

النفوس أنواع ثلاثة:

النوع الأول: النفس اللوامة: وهي التي تلوم صاحبها عل ما حصل منها من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو على غفلة وسهو عن بعض الواجبات والمستحبات، فهي إن فعلت خيرا تقول: هلاً ازددت؟ وإن فعلت شرا تقول: يا ليتني لم أفعل، فالمؤمن يلوم نفسه على كل حال، ويحاسبها على التقصير، وهي التي تلوم صاحبها على عدم ثبوتها على حال من الأحوال.

قال الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكْلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قُدُما ولا يعاتب نفسه. وفي يوم القيامة تظهر أحوال النفس اللوامة، من الشقاء أو السعادة للنفس اللوامة.

وتشريفاً لها قرنَها الله تعالى بيوم القيامة في القسَم.

النوع الثاني: النفس الأمارة: وهي التي تأمر صاحبها بفعل المعاصي والذنوب، فتقع فيها دون اكتراث بها، ولا ندم عليها، لأن الهوى والشيطان قد استولى عليها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣].

النوع الثالث: النفس المطمئنة، أي التي لا تقع في شيء من المعاصي والذنوب، كأنفس الأنبياء والصالحين، وهي التي يقال لها عند الاحتضار ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٨-٣٠].

﴿وَلَآ﴾ من ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ﴾ حرف نفي، يقصد به المبالغة في تحقيق القسَم، فلا يقصد به نفي القسم، بل يقصد به تأكيد القسم، وتقوية الكلام، وهذا على عادة العرب في الإتيان بـ ﴿لَآ﴾ لتعظيم المقسم به وتفخيمه، من غير قصد لمعناها الأصلي، ويؤتى بها - غالباً - للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ويكثر الإتيان بها مع اليمين.

وقد جاء تأكيدها للكلام كثيراً في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد:٢٩] أي ليعلم، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء:٦٥] أي فوربك، وقوله أيضاً: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه:٩٢،٩٣].

أي: أن تتبعني، وهذا أرجح ما قيل فيها.

ودليل جواب القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ أي أيظن الكافر المكذب بالبعث والنشور، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرُّقِها وصيرورتها رميماً ورفاتاً، مختلطة في التراب، وما عَلِمَ هذا المكذب أن القادر على البدء قادر على الإعادة:

سبب النزول:

نزلت هذه الآية في عدي بن أبي ربيعة، والأخنس بن شريق، وكان النبي ﷺ يقول عنهما: اللهم اكفني جارَيِ السوء، وذلك أن عديّاً أتى النبي ﷺ فقال: حدثْني متى تقوم القيامة، وكيف أمْرُها وحالها؟ فأخبَره النبي ﷺ عنها، فقال عدي: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أومن بها! أوَيجمع الله العظام، فأنزل الله هذه الآية[1].

وعودة الإنسان إلى الحياة بعد تناثُر الجسد، لا يستقيم إلا باستواء العظام، لأنها قالَب البدن وبها قوامه، فالمراد بالعظام: الجسد، كما قال تعالى حكاية عمن أنكر البعث: ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨] وقال سبحانه عن المكذبين بالبعث: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء:٤٩] .

وقد احتج المنكرون للبعث، على استحالة قبول العظام بعد البلى والتفتّت، على أن استحالة إعادة اللحم والعصب من باب أولى.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، ولكن الكافر يستبعد عودته إلى الحياة مرة أخرى لجهله وكفره وعناده.

قُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ إِعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتَى

٤ ـ ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾

قال تعالى رداً على من أنكر البعث والنشور: ﴿ بَلَىٰ ﴾ إن الله قادر على تسوية أطراف

---

(١) تفسير الخازن (٤/٣٣٣)، وتفسير القرطبي والبغوي والبحر المحيط للآية.

أصابعه وعظامه، وهذا يستلزم إعاده جميع أجزاء البدن، لأن الأ نامل والبنان إذا وُجدت فقد تمت أجزاء البدن، فالله تعالى قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة مرة أخرى بالملامح نفسها، وبآلاف الخطوط الموجودة في الأصابع، التي لا يتشابه فيها اثنان على ظهر الأرض ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي قادرين على أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً مستوياً، كخفِّ البعير، وقادرين على أن نعيد السُّلاَميات، على صِغَرها إلى أماكنها.

قال قتادة: لوشاء لجعله كخف البعير، أو كحافر الدابة، ولكن جعله الله خلْقاً سوياً حسناً جميلاً، تَقْبِض به وتَبْسِطُ يا بن آدم.

وقال الحسن: إن الله أعفّ مطعم ابن آدم، ولم يجعله خُفًّا ولا حافرًا، فهو يأكل بيديه، ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

والتسوية: إعادة خلق البنان مقومة متْقنة، ومَنْ يُسوِّي أطراف الأعضاء التي في نهاية الجسد، يسوي بالضرورة ما قبلها من أعضاء الجسد. ومن يسوّي أدق الأعضاء وأصغرها، يسوي كبارها من باب أولى.

وقد ثبت عِلْمياً أن بشرة الأصابع فيها خطوط وتجاويف متناهية الدقة، على أشكال مختلفة، لا يمكن أن يتشابه فيها إنسان بآخر، ولهذا فهي أقوى دليل في تحقيق الشخصية، وتمييز الإنسان عن غيره ببصمة أصابعه، فهي تشتمل على المفاصل والعظام الدقيقة، والأظافر والعروق، وفي هذا تنبيه من الله تعالى على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولوشاء تعالى لجعلها متوافقة.

السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥، ٦ - ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

بين سبحانه وتعالى السبب الحقيقي في إنكار الكافر للبعث والنشور، وهو أنه يريد الاستمرار على كفره وفجوره فيما بقى من أيام عمره ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي يُكَذِّبُ بالحساب، ويداوم على كفره وإنكار البعث والجزاء، كي يبرّر لنفسه

الاستمرار على الشهوات والمعاصي فيما يُستقبل من عمره، فيسترسل فيها كالحيوان الهائج، ولذلك فهو ينكر يوم القيامة ويكذّب بها، ويفعل المعاصي ولا يتوب، ولا يذكر الموت، يُقدِّمُ الذنب، ويؤخر التوبة، يريد أن يفجُر ما امتد من عمره، فالفاجر يميل بطبعه إلى الاستكثار من اللذات، والاسترسال في الشهوات، ولا يقرّ ببعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء.

والدليل على فجور الكافر، أنه يسأل عن يوم البعث على وجه التهكم، ويطلب معرفة وقت حدوثه ﴿يَسْـَٔلُ﴾ هذا الكافر المنكر للبعث ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مستبعدا قيامها، قال تعالى ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

وقد شُغل الكافرون عن العمل ليوم القيامة، بالسؤال عنها، كما ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة؟ قال ﷺ: «**ماذا أعددت لها؟**»[1].

فلفت نظره إلى ما هو أهم من السؤال ومافيه نفعه وفائدته، وهو العمل والاستعداد له.

مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٧-١٠-﴿فَإِذَا بَرِقَ[2] ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾

والإجابة على السؤال عن يوم القيامة، يكون بتحديد وقت قيام الساعة، ولكن الله تعالى عدل عنه إلى بيان شيء من أهوالها، بأنه إذا قامت القيامة فإنه لا شيء يعصمهم من الله تعالى، لا حصن، ولا جبل، ولا ملجأ يفرون إليه من النار، بل إنهم يكونون في عرَصات القيامة مندهشين متحيرين، لا ملجأ لهم من الله إلا إليه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ زاغ وتحيّر وأُذهش، وشخَص أمامه فلا يَطْرِف، عندما يرى العجائب من أهوال القيامة، ومن بروز جهنم للناظرين وهذا كقوله تعالى ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء:٩٧] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ

(١) من حديث أنس في البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩)، ومسند أحمد (١٣٣٧١)، وأبو يعلى (٣٤٦٥).

(٢) قرأ نافع وأبوجعفر بفتح الراء من ﴿بَرَقَ﴾ والباقون بكسرها، وهما لغتان بمعنى واحد، هو التحير والدهشة.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

ومن أهوال يوم القيامة: انطماس القمر وظلمته، بذهاب نوره واختفائه، وهذا معنى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ إذ ليس المراد بذلك خسوف القمر المعتاد عندما تَحُول الأرض بينه وبين الشمس، لأن القمر ينزل يوم القيامة من مداره حول الأرض، فلا ينعكس عليه ضوء الشمس، ولا يظهر للناس نوره، فيختفي ويُظلم، ولا يعود كما كان في الدنيا.

ثم تختل الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي، فيلتصق القمر بالشمس، ويُجمع بينهما في جهة الغرب، وهما مُظْلِمين، حيث يقرن الله بينهما في الطلوع من المغرب، ثم يلقي بهما في النار، ليكونان عذاباً على الكفار، فيجمع بينهما بعد أن كانا متفرقين، ويلتصقان بعد أن كانا بعيدين، ويذهب ضوءهما بعد أن كانا نيّرين، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير:١،٢]، فهذا الجمع بين الشمس والقمر يحدث لأول مرة منذ خلقهما الله تعالى، فيُخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يُقذفان في النار، ليرى العباد أنهما من مخلوقات الله المسخرة، وأن من عبدهما في الدنيا كان على ضلال.

قال عطاء بن يسار: يجمعان يوم القيامة، ثم يقذفان في البحر، فيكونا نار الله الكبرى[1].

وعندما يرى الكافر أهوال القيامة يتساءل في نفسه: كيف ينجو، وإلى أين يفر؟ ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ عندما يشخص بصره، ويذهب نور القمر، ويُجمع بين الشمس والقمر يقول: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أين المهرب والخلاص من عذاب الله، وأين الفرار والمنجي من أهوال الساعة.

لا فرار ولا منجا من الله إلا إليه

١١-١٣- ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا[2] الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

يقول تعالى مجيباً على سؤال الكافر: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما تتمناه - أيها الكافر -

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/٤٨٢).

(٢) رسمت ﴿يُنَبَّؤُا﴾ بالواو تحت الهمزة، وفيها لحمزة وقفا وهشام بخلفه الإبدال ألفا والتسهيل بالروم والإبدال واوا على الرسم مع السكون والروم والإشمام.

من طلبك للفرار والنجاة من عذاب الله، فإنه لا سبيل إلى ذلك، فازْتدِع وانْزجِر، فإنه ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ لك ولا منجا إلا إلى الله وحده، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب من هذا الموضع، بل لا بد من وقوفه بين يدى الله عزوجل.

فالوزَر: هو المكان والملجأ الذي يحتمي فيه الإنسان مما يخاف.

والوزَر في الأصل هو الجبل المنيع المرتفع.

فالمعنى أنه لا يجد جبلاً يتحصن به، ولا يجد أى حاجز يحتمى خلفه.

والكافر ينظر يوم القيامة في جميع الجهات، فلا يرى إلا النار، كما ينظر الإنسان يوم القيامة عن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن خلفه، فلا يرى إلا ما قدّم (فاتقوا النار ولو بشق تمرة) ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى:٤٧] .

ومهما عمِّر الإنسان في الدنيا، ومهما رقد في قبره، فإن مصيره إلى رب العالمين، ومستقره بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى النار، فلا ملجأ ينتهي إليه الإنسان إلا إلى العذاب أو النعيم، وإلى الله وحده المرجع والمصير واستقرار العباد.

وفي يوم القيامة يُخبَر الإنسان بجميع أعماله من خير أو شر، أو حسن أو سيء، سواء ما فعله في أول حياته أو في آخرها من كل ما قدم وأخر، أي يخبر بأعماله كلها، قديمها وحديثها، وأولها وآخرها، وصغيرها وكبيرها، وهى أخبار لا تنكر.

ومما ينبؤ به الإنسان: ما سَنَّهُ في الناس من سُنّة حسنة أو سيئة كما في الحديث «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزرهم شيء**»[1].

قال ابن مسعود وابن عباس ﷺ في معنى الآية: ينبؤ الإنسان بما قدّم قبل موته مِنْ عمل صالح أو سيء، وما أخره بعد موته من سنة حسنة أو سنة سيئة يُعمل بها.

ومن ذلك ما قدمه الإنسان من ماله لنفسه قبل الموت، وما أخره من ماله لورثته بعد

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (١٠١٧).

موته، وكل ما عمله الإنسان من خير أو شر يجده مكتوباً يوم القيامة في صحيفته.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وعندما يجازَى الإنسان على عمله يقال له: هذا جزاء العمل الفلاني، وهذا جزاء العمل الفلاني، وفي هذا تقريع له وفضح لحاله، ولذلك فإن من نوقش الحساب فقد عُذب.

ومن الدعاء الذي علّمنا إياه رسول الله ﷺ «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[١].

ومنه أيضاً: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره وعلانيته وسره»[٢].

الإِنْسَانُ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ وَلاَ يُقْبَلُ اعْتِذَارُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

١٤، ١٥ - ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ[٣] ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

أي أن الإنسان يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج، والإنسان يوم القيامة لاسيما الكافر، لا يحتاج إلى أحد يخبره بما عمل في حياته، بل هو يشهد على نفسه، ولا يحتاج إلى شاهد آخر ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، فهو يعرف حقيقة نفسه، وجوارحه تشهد عليه يوم القيامة.

قال قتادة: إذا شئت رأيته بصيراً بعيوب الناس، غافلاً عن عيبه.

قال: وكان يقال في الإنجيل مكتوب: يا بن آدم أتبصر القذاة في عين أخيك، ولا

---

(١) صحيح مسلم (٧٧١) عن علي ﷺ.

(٢) صحيح مسلم (٤٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رقق الأزرق الراء من ﴿بَصِيرَةٌ﴾ و﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ و(ناضرة) و(باسرة) و(فاقرة) والباقون بتفخيمها، وأمالها الكسائي وقفا، وكذا حمزة بخلف عنه.

تبصر الجِذْل ـ أي جذع الشجرة ـ المعترض في عينيك؟

وصحيفة عمل الإنسان حجة واضحة على نفسه، تلزمه بكل ما فعل أو ترك، فالحجة تقوم عليه من نفسه حين يقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤].

وحين يقول ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف:٤٩].

وحين ﴿ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور:٢٤].

فالمعنى الأول للآية أن الإنسان يعرف حقيقة ما هو عليه.

والمعنى الآخر: أن جوارحه تشهد عليه.

والكافر يَعْلَم أعماله التي استحق عليها العذاب يوم القيامة، فيحاول الاعتذار والجدال عن نفسه ليبرِّر إجرامه وفجوره ويتنصل من أقواله وأفعاله، ولكن عذره غير مقبول، ولن ينفعه ذلك، ولو أفصح عن جميع أعذاره ما قُبل منه، هذا معنى ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي ولو اعتذر، فإن معاذيره لا تقبل، ولو جاء لكل ذنب بعذر يعتذر به عن إجرامه، فإنه لا ينفعه ذلك مهما جادل عن نفسه، لأن شاهده من نفسه يكذّب عذره، ولو أنه كان في دنياه قد أرخى الستور، وأغلق الأبواب ليُخفي ما يعمله، فلا يمكن للإنسان أن يهرب من نتائج عمله مهما حاول، لأن جوارحه شاهدة عليه، ولأن أعذاره غير مقبولة، لأنها جاءت في غير وقتها بعد أن فات وقت الندم والتوبة:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر:٥٢].

فالعبد إن أنكر أعماله أو اعتذر عنها، فإن هذا لا يفيده لأنَّ سمعه وبصره ولسانه وسائر جوارحه تشهد عليه بما عمل، ولو أنه طلب العتبى لا يقبل منه، لأنه قد ذهب وقتها ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧].

ومن معاذير الكفار يوم القيامة قولهم ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقولهم: ﴿ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة:١٩].

وقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [الأعراف:٣٨].

وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] .

وهكذا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

كيفية تلقي رسول الله ﷺ للوحي

١٦، ١٧- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ[1] (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ[2]﴾

جاء في أسباب النزول:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، مخافة أن يتفلّت منه، أو من شدة رغبته في حفظه، فكان يلاقي من ذلك شدة، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[3].

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه، وقال سعيد: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه، فأنزل الله الآية[4].

٣- وفي لفظ لهما: كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه، عُرف في تحريك شفتيه، يتلقّى أوله، ويحرك شفتيه خشية أن يَنْسى أوله قبل أن يَفْرغ من آخره، فأنزل الله الآية[5].

٤- قال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أداء الرسالة، والاجتهاد في ذات الله

---

(١) عد الكوفي والحمصي ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ آية، وتركها غيرهما.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة ﴿قُرْءَانَ﴾ إلى الساكن قبلها وكذا حمزة وقفاً.

(٣) ينظر: صحيح البخاري برقم (٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٨)، والطيالسي (٢٧٥٠).

(٤) المسند (١/٣٤٣) برقم (٣١٩١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والترمذي (٣٣٢٩)، والنسائي (٩٣٤)، والطيالسي (٢٦٢٨)، والبخاري (٥٧٢٤)، ومسلم (٤٤٨)، ألفاظه متقاربة.

(٥) ابن كثير (٤/٢٧٩)، والمراجع السابقة.

تعالى، ربما أراد النطق ببعض ما أُوحي إليه قبل كمال إيراد الوحي[1].

٥- وقال الضحاك: سببها أن رسول الله ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآن، فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق، فنزلت الآية في ذلك[2].

وفي الآية تعليم من الله تعالى لرسوله ﷺ في كيفية تلقي الوحي، فلا يبادره، ولا يسابقه، وقد تكفل الله له بجمعه في صدره، فلا تعجل يا رسولنا بالقرآن حين نزول الوحي عليك، مخافة أن يتفلت منك، بل تريّث وتمهّل حتى يفرغ جبريل من قراءته، ثم اقرأ بعده.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يتلقى القرآن على شيخه، عليه ألا يعاجله في النطق وسرعة التقاط الألفاظ قبل أن يكمل الشيخ قراءتها أو تصويبها له.

وعليه ألاّ يبادر ويسابق المعلم قبل أن يفرغ مما شرع فيه، فإذا فرغ وأكمل كلامه، سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في بدء كلام المعلم ما يوجب الرد أو الثناء عليه، فعليه أن ينتظر حتى يفرغ من كلامه حتى يتبين له أنه على حق أو على باطل فيما بداله.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن المفهوم من مقام التعجُّل بالقراءة.

معنى آخر للآية:

ونقل الفخر الرازي عن القفال: إن الخِطَاب في ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ يعود على الإنسان السابق ذكره في ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بمعنى أن الإنسان عندما يُخبَر بقبائح أعماله يوم القيامة، ويأخذ في قراءة كتابه، يتلجلج لسانه، فيقال له: إنا سنجمع لك أعمالك ونقرئك إياها، فإذا قرأناه عليك فاتبع قراءته بالإقرار بما فيه، وعلينا بيان مراتب عقوبته.

قال القفال: فهذا وجه حسن، ليس في العقل ما يدفعه.

قلت: هو تفسير يناسب سياق الآيات قبله، ولكن الأحاديث الواردة في سبب نزول الآية، توحي بأن هذه الآيات الأربع، معترضة في السورة، وهي في ثنايا الحديث عن يوم القيامة، لبيان الغرض الذي أُنزلت من أجله، وهو كيفية تلقي الوحي، فأمر الله

(١، ٢) تفسير ابن عطية (٥/٤٠٤).

رسوله ألا يسارع في أخذ الآيات من الوحي حتى يفرغ من قراءتها عليه، والقرآن هو الذى أعلمنا بأحوال يوم القيامة وما فيه، فالمناسبة قائمة.

ثم طمأن الله تعالى رسوله ﷺ بأنه سيحفظ القرآن كله، ويجمعه الله له في صدره، ويقرئه إياه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بتحفيظه حروفه وكلماته وألفاظه وعدم نسيانها، كما قال تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى:٦] واقرأْهُ بعد ذلك بلسانك ماشئت، وكان رسول الله ﷺ لا يعلم خَتْمَ السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم.

كَيْفِيَّةُ تَلَقِّي النَّاس الْقُرْآن الْكَرِيمِ

١٨، ١٩ - ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ(١) فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ(٢) ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾

أي: فإذا قرأنا القرآن عليك ـ أيها الرسول ـ بقراءة جبريل ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ فاستمع لقراءته وأنصت له، ثم اقرأه كما أقرأك إياه، وبهذا فإن جبريل عليه السلام هو الذي علّم الرسول ﷺ كيف يقرأ القرآن، والرسول ﷺ علّم أصحابه كذلك، وكان النبي ﷺ يوكِّل بكل من أسلم أو هاجر من يعلّمه القرآن.

وهكذا أرسل عثمان ﷺ معلماً مع كل مصحف مُرْسَلٍ إلى الأمصار، ليعلّمهم إياه بلسانهم، الذي هو وجه من وجوه القراءات التي نزل بها القرآن.

ونُقل القرآن بالتواتر من الصحابة إلى التابعين، وجاء عصر القراء في القرن الثاني الهجري، وأكثرهم كان بينه وبين الصحابي شخص واحد أو اثنين، وقد تفرغ هؤلاء القراء وتصدّوا للقراءة والإقراء، فنسبت القراءات إليهم لأنهم اشتهروا بها، وضبط لنا القراء الأداء المتواتر عن رسول الله ﷺ ووضعوا له القواعد التي تحفظ صفته المنقولة عن رسول الله ﷺ كما وُضعت قواعد اللغة والبلاغة وغيرهما، وهذه الآية لبيان كيفية تلاوة القرآن الكريم.

---

(١) قرأ أبوجعفر وأبوعمرو بإبدال همزة ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ ألفا وصلاً ووقفاً وحمزة وقفاً.

(٢) نقل ابن كثير حركة الهمز في ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ إلى الساكن قبلها، ووافقه حمزة وقفاً.

وبعد أن ضَمِن الله لرسوله حِفْظ ألفاظ القرآن ومَبْناه، تكفل له أيضاً ببيان وتوضيح ما أُشكل عليه فهمه من معانيه وأحكامه، وهذه الآية تتعلق بتفسير القرآن وتوضيح معانيه وأحكامه، فاتبع حلاله واجتنب حرامه، واعمل بطاعته واترك معصيته.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] وهكذا وعد الله رسوله بثلاثة أشياء هي:

١- جمع القرآن في صدره ﷺ. ٢- وتلاوته له كما أنزل. ٣- وتفسيره وإيضاحه له وفهم معانيه.

حُبُّ الدُّنْيَا وَالانْغِمَاسُ فِي الشَّهْوَاتِ هُوَ سَبَبُ إِنْكَارِ الْبَعْثِ

• ٢٠، ٢١- ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ[1] ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾

وبعد هذه الآيات الأربع المتعلقة بحفظ القرآن وتلاوته وتدبر معانيه، تعود السورة إلى تتمة الكلام عن معاذير الكفار الباطلة التي يُبدونها حين يُخبَرُ كل منهم بما قدم وأخر، وأن الحجة على الإنسان تقوم عليه من نفسه وليس من خارجه، وأنه مهما قدم من معاذير فلن يُقبل منه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

بعد ذلك قال تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم - أيها المكذبون- أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، وإنما السبب في تكذيبهم بيوم الدين، هو حب الدنيا والانغماس في شهواتها وملذاتها، والغفلة والإعراض، وعدم الإيمان بالآخرة والعمل لها ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي أنكم تحبون الدنيا وزينتها وتعملون لها، وتسعون في تحصيلها وتؤثرونها على الآخرة، لأن لذتها عاجلة، والآخرة لذتها آجلة، فلهذا غفلتم عنها، ولو أنكم آثرتم الآخرة على الدنيا ونظرتم في عواقب الأمور، لفزتم وسعدتم سعادة مابعدها شقاء. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

إنكم تتركون العمل لما بعد الموت، وتنسون دار القرار والنعيم المقيم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ويعقوب بياء الغيب في ﴿يُحِبُّونَ وَيَذَرُونَ﴾ والباقون بتاء الخطاب فيهما.

وحب العاجلة مع ترك العمل للآخرة هو المذموم، أما حب الدنيا مع محبة الآخرة، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي فهو غير مذموم، بل فيه الموازنة المطلوبة بين الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف:٣٢].

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يدعو إلى إيثار الآخرة على الدنيا، ببيان حال أهلها واختلاف جزاء من يحبون الدنيا ومن يحبون الآخرة:

الْوُجُوهُ النَّاضِرَةُ تَسْعَدُ بِرُؤْيَةِ رَبِّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٢، ٢٣- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

ثم وصف الله تعالى ما يكون في يوم القيامة من انقسام الناس إلى فريقين: أبرار وفجار، أو سعداء وأشقياء، حيث تشرق وجوه المؤمنين وتسوَدّ وجوه الكافرين، علامة لكل منهما على خاتمته ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ مشرقة حسنة مضيئة من بشاشة السرور وأثر النعيم، وهم أهل السعادة الذين قال الله فيهم ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[المطففين:٢٤].

من النضرة، وهي الحُسْن والجمال، وقد نضّر الله تلك الوجوه وحسّنها للنظر إليه سبحانه.

وهذه الوجوه الناضرة، تسعد برؤية خالقها، وتتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، حسب مراتبها، منهم من يتمتع بالنظر، بكرة وعشيا، ومنهم من ينظر كل أسبوع مرة، وهكذا فإذا رأوا ربهم أنساهم ذلك كل نعيم، وحصل لهم من البهجة والسرور ما لا يمكن وصفه فهي في يوم القيامة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وهذه الرؤية أعظم نعيم لأهل الجنة، كما قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس:٢٦] وفُسرت الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

وبهذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ:

١- كما في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما

أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانوا صَحْواً؟**» قلنا: لا، قال: «**فإنكم لا تُضَارُّون في رؤية ربكم يومئذ، إلا كما تضارُّون في رؤيتهما**»[1].

ومعنى تضارون: ينالكم ضرر، بحيث يراهما بعضكم ولا يراهما الآخرون.

٢- وفي البخاري وغيره عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذْ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا، ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾**»[2] [طه:١٣٠].

ومعنى لا تضامون أي لا ينضم بعضكم إلى بعض، ولا تزدحمون وقت النظر إليه وورد بتخفيف الميم، أي لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض.

وعلى هذا فإن معنى تضامون وتضارون واحد.

٣- وعن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعطاء بن يزيد الليثي، أن أبا هريرة ﷺ أخبرهما: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تُمارُون في القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟**» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «**فهل تُمارُون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»[3].

٤- وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إني قد حدّثتكم عن الدجال أنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»[4].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٤٣٧،٧٤٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٢)، والطيالسي (٢٢٩٣)، والمسند (١١١٢٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٤٣٤،٧٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٦٣٣).

(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) ينظر: المسند (٢٢٧٦٤)، وفيه ابن الوليد ضعيف، وانظر سنن أبي داود (٤٣٢٠)، والبزار في مسنده (٢٦٨١)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٤) وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٨) وغيرهم، وقد جاء وصف الدجال عن عدد كبير من الصحابة صحت بها الأحاديث منهم: جابر وأنس وابن عمر والنواس وعائشة وابن عباس وأبي بكرة وغيرهم، وبعضها في المسند بأرقام (٢٠٤٠،١٧٦٢٩،١٤١١٢،١٢٠٠٤،٤٨٠٤،٢١٤٨)، وغيرها.

٥- وروى مسلم عن صهيب بن سنان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيّض وجوهنا، ألم تُدخلْنا الجنة وتُنجّنا من النار؟ قال: فيكْشِف الحجاب، فما يُعطَوْن شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم**»[1].

٦- وفي الصحيحن عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**جنّتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[2].

والمؤمنون يرون ربهم في عرصات القيامة، وفي روْضات الجنات كما في صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك**»[3].

وفيه إثبات الضحك لله تعالى، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٧- عن أبي رُزَيْن قال: قلت: يا رسول الله، أكُلُّنا يرى ربه يوم القيامة، مُخْلِياً ـ أي مُنْفَرِداً ـ به؟ قال: «نعم» قلت: وما آية ذلك؟ قال: «**أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مُخْلِياً به؟**» قلت: بلى، قال: «**فالله أعظم**»[4].

٨- وعن عمار بن ياسر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهؤلاء الدعوات: (**اللهم بعلمك الغيب، وقُدْرتك على الخلق، أحْيني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحُكْم في الغضب والرضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، واسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بردَ العيش بعد الموت،**

(١) صحيح مسلم برقم (١٨١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٤٤٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠).

(٣) ينظر حديث جابر في صحيح مسلم (١٩١)، والمسند (١٤٧٢١)، والدارقطني في الصفات (٣٣).

(٤) أبوداود (٤٧٣١)، وابن ماجة (١٨٠)، وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٧).

وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضِرّة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[(١)].

وفسر بعضهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة، تتوقع ما يحكم الله به عليها، وتنتظر الثواب من ربها، وهذا تأويل بعيد، يصادم الأخبار المتواترة عن رسول الله ﷺ فيما يدل عليه سياق الآية.

كما قال الحسن: تنظر إلى الخالق، وحُق لها أن تنظرُ[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب.

وأجمع أهل السنة على أن رؤية الله تعالى غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا على أنها تقع في الآخرة، وأن المؤمنين يرون ربهم دون الكافرين لقوله تعالى عنهم ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] .

قال الشافعي: ما حَجَبَ الفجار، إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل.

وقد ثبتت رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين عن عشرين من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولا يشترط في هذه الرؤية مقابلة المرئي، ولا اتصال الأشعة، ولا الإحاطة بالمرئي، ولا نحو ذلك، بل ينظرون إلى ربهم بلا كيفية، ولا حدٍّ محدود، ولا صفة معلومة، وأكرم أهل الجنة على الله تعالى من ينظر إلى وجهه تعالى غَدْوَة وعشياً.

الْوُجُوهُ الْعَابِسَةُ تَتَيَقَّنُ الْهَلاَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةَ

٢٤، ٢٥- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

هذا هو الفريق الآخر، وهم أهل الشقاء، فإن وجوههم يوم القيامة تكون عابسة كالحة مسودّة، قد أدركها اليأس، وعَدِمتْ آثار النعمة والسرور، فهي شديدة العبوس،

---

(١) حديث صحيح، في صحيح النسائي (١٢٣٧، ١٢٣٨)، وفي سنن النسائي (١٣٠٤، ١٣٠٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٢٧، ٢٤٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ١١٩).

وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم.

وهذه الوجوه العابسة تتوقع أن تنزل بها مصيبة عظيمة تفصم فقار الظهر، وتتيقن أنها هالكة فلذلك تغيرت وجوهم وعبست، فهي ﴿تَظُنُّ﴾ أي توقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي تحل بها داهية.

١ ـ قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٣٨-٤٢].

٢ ـ وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢ ـ ٤].

٣ ـ وقال جل شأنه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:٨-١٠].

٤ ـ وقال أيضا: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

لاَ أَحَدَ يَمْلِكُ رَدَّ الرُّوحِ لِلْمُحْتَضِرِ إلاَّ اللهُ

٢٦-٢٨- ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ[1] مَنْ[2] رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾

وهذا اليوم، يوم حق، فيا من تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة، تأكدوا أن الدنيا دار فناء، وأنكم لن تخلّدوا فيها، بل لابد أن تتجرعوا كأس المنية، وذلك حين تصل الروح إلى أعلى الصدور، فلفظ ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقا ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا حشْرجت الروح أو النفْس في الحُنجرة، حيث تخرج الأنفاس الأخيرة، فلا يُسمع لها صوت إلا في جهة الترقُوة، فحينئذ يشتد الكرب، ويعظم الهول، وذلك في آخر حالات الاحتضار.

ولكل إنسان ترقُوتان عن يمينه وعن شماله في ثُغرة النحر، في العظام المحيطة بأعلى الصدر.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بالإشمام في ﴿قِيلَ﴾ والباقون بالكسرة الخالصة.

(٢) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على نون ﴿مَنْ﴾ سكتة لطيفة من غير تنفس، لئلا يتوهم أنها اسم فاعل من المروق، وقرأ الباقون بعدم السكت على الأصل، وهو الوجه الثاني لحفص.

تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٧].

وحين تبلغ الروح الحلقوم، يُبحث للمريض عن كل سبب، وكل وسيلة يحصل بها الشفاء، ويُطلب للمحتضر، الأطباء والعلاج، ويتلمس الحاضرون حوله سبل الشفاء بأية وسيلة، فيبحثون له عن راق يرقيه ليشفى ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ وذلك عند أول مرحلة من مراحل الآخرة، فاذكروا ـ أيها الناس ـ، وقت بلوغ الروح نهايتها، واتعظوا وتأملوا حين يقف من يهمهم أمر المحتضر، مستسلمين لقضاء الله تعالى، متلمسين له كل معالج بالطب أو الرقية لإنقاذه، مما هو فيه، ولكنهم لا يجدون من يحقق لهم آمالهم.

الرقية عادة قديمة:

والرقية عادة عربية قديمة، ورثها العرب، للتبرك بأهل الصلاح، وطلب الشفاء من الله تعالى، وأصلها وارد في الشرائع السماوية، ومن ذلك حديث الذين أتَوْا على حيّ من أحياء العرب وقد لُدغ سيدهم، فالتمسوا له راقياً، وسألوا أهل السرية، هل فيكم من راق؟ فقرأ عليه أحدهم سورة الفاتحة فشفاه الله[1].

وقد دخل على الرقية، كثير من البدع والشعوذة والسحر، واستغلها قوم فاتخذوها حرفة، وخلَوْا بالرجال تارة، وبالنساء تارة، واختلط فيها الخبيث بالطيب، وصارت مصدراً للتكسب ومهنة وحرفة، والأولى أن يقرأ الإنسان على نفسه، ويقرأ عليه من هم معه في البيت، إذ ليس للرقية أشخاص معينة، وإنما يتقبل الله من المتقن، والله أعلم بأهل التقوى والولاية.

وعندئذ يتيقن الإنسان أنه مشرف على الموت، مودّع للدنيا، مفارق أهله وأحبابه، فراق لا لقاء بعده إلى يوم الساعة، وهذا معنى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن وعلم الذي بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد، فقد شاهد ملائكة الموت وهو يحتضر، ورأى مقعده من الجنة لو كان مؤمناً، ومقعده من النار لو كان

---

(١) الحديث في البخاري، وغيره عن أبي سعيد وابن عباس في الرقيا بفاتحة الكتاب، ينظر نصه وتخريجه في تفسير الفاتحة، مبحث الرقية بالفاتحة.

كافراً، ويكون هذا في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله.

وعندما تنقطع الآمال من الأسباب العادية، ولا يبقى إلا الأسباب الإلهية، ولكن قضاء الله وقدره إذا جاء فلا مرد له:

في الطَّرِيقِ إِلَى الْقَبْرِ لاَ يَصْحَبُ الإِنْسَانَ إِلاَّ عَمَلُهُ

٢٩، ٣٠- ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾

وعندما يُدْرِكُ الموت الإنسان، تلتف إحدى ساقيه بالأخرى فتلتصق بها، وتُلوَى عليها، حيث تُلفّ الأكفان على ساقيه، وتوضع الساق على الساق في الكفن وهو في إدبار عن الدنيا وإقبال على الله تعالى، فيعظم الأمر ويشتد الكرب، وتتوالى على المرء الشدائد في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، حيث يكون السؤال في البرزخ، ويستشعر العبد مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار.

قال سعيد بن المسيب: (هما ساقا العبد حين تُلَفّان في أكفانه)(١).

لقد ماتت ساقاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوَّالاً.

لقد ألفت الروح البدن، وامتزجا وقتاً طويلاً، فعزَّ عليهما الفراق، وشق عليهما الافتراق، ولم تزل مع صاحبها وهو يساق إلى ربه، حتى يُسأل ويُجازَى بعمله ويقرر بأفعاله.

ثم يؤخذ بالميت إلى قبره، إلى أين يا عبد الله؟ يا من كنت تحب الدنيا، وتنكر الحساب والجزاء في الآخرة؟ إلى أين أنت ذاهب الآن؟ وقد التفت إحدى ساقيك بالأخرى، وتركْت المال والجاه والزوجه والولد، ورجعْت إلى ربك فردا وحيدا، عاريا من كل شيء إلا من الكفن الذي يستر عورتك، إلى أين أنت متجه؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ حيث تساق الأرواح إلى ربها بعد قبضها من الأجساد، إلى الله المرجع والمصير، وإليه ينساق العباد في يوم التناد، إما إلى الجنة وإما إلى النار، بعد الفصل والقضاء.

---

(١) تفسير الكشاف (٦٦٣/٤).

صحّ عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». قالت: عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت؟ قال: «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر، بُشّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه**»[1].

هذه الذكرى وهذه الموعظة، وهذا الردع والزجر، الذى جاء في هذه السورة، من شأنه أن يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، وتجنب ما فيه هلاكها، ولكن المكذب المعاند لا ينتفع ويظل مستمرا على كفره وبغيه وعناده:

مَصِيرُ الشَّقِيِّ الْجَاحِدِ لِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ الْمُكَذِّبِ بِلِقَائِهِ

٣١-٣٣- ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال الجاحد لوحدانية الله، المكذب بلقاء ربه، المنكر للحساب والجزاء، الذي لم يؤمن بقلبه ولم يعمل ببدنه، فلا هو آمن بالرسول والقرآن، ولا أدى لله تعالى فرائض الصلاة، وكان يحسب أن الله لن يجمع عظامه، فلم يستعد للحساب والجزاء.

وكذب هذا الشقي بالرسول الخاتم، وبكتابه المنزل عليه، وكذب بالبعث والنشور، وأعرض عن الاستجابة لشرائع الإسلام، وأعرض عن النظر والتدبر في آيات الله الكونية، وآيات الله المسطورة، وتولى عن الطاعة والإيمان.

ثم إن الكافر لم يكتف بعدم الاستعداد للآخرة، ولم يعبأ بدعوة رسول الله ﷺ فحسب، بل كان يعود إلى بيته وهو يتبختر في مشيته إعجاباً بنفسه وشعوراً بالزهو والخيلاء ﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾ أي مضى ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي يختال في مشيته، ويمدّ خُطاه فخراً وتكبراً وتبختراً، وتثاقُلاً عن داعي الحق وتكاسُلاً عن الطاعة والخير، ولم يُبال بشيء.

قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخزوم مشية تبختر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٣١] .

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق:١٣، ١٤] . **قال تعالى:**

٣٤، ٣٥- ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾

أصل هذه الكلمة: أَوْلاَكَ الله ما تكرهه، أي وَلِيَك الويل وتكرر عليك مراراً وتكراراً، فهي جملة وعيد، وردت في لغة العرب، وجرت مجرى المثل في التخويف والتحذير والتهديد.

ومعناها: ويل لك، دعاء عليه بأن يليه المكروه، و﴿فَأَوْلَىٰٓ﴾ أفعل تفضيل منها: أي أشد هلاكاً لك.

وقد توعد الله تعالى في الآية مَنْ كانت هذه صفته، فهدّده بالهلاك والويل، والدعاء عليه بأنه سيجد أمامه ما يكره، فهو الأجْدرُ والأحق بنزول العذاب به، فويل له ثم ويل له.

ويل له يوم يموت، وويل له في قبره، وويل له يوم يُبعث، وويل له في النار.

أي: أولى بك أيها الكافر، هذا العذاب الذي ينتظرك قريباً، فهو الأجدر بك، لأنك متّ مصراً على الكفر.

وقد أكد الله تعالى هذا الوعيد مرة أخرى، ليتنبه كل كافر، ويحْذر الآخرة قبل أن تنزل به العقوبة ﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ والآيات تعم كل من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ولم يؤد فرائض الصلاة.

سبب النزول:

ومما جاء في أسباب النزول أن أباجهل (عمرو بن هشام) كان يأتي إلى النبي ﷺ أحياناً يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يعود إلى أهله فخوراً مُعْجَباً بما ارتكب من شر.

وعن قتادة أن النبي ﷺ أخذ بخناق أبي جهل مرة، وهزه وهو يقول له:﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ فقال أبوجهل: أتتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعزّ مَنْ مشَى بين جبليها - أي بين جبلي مكة - فأخذه الله يوم بدر على يد

أصحاب محمد ﷺ[١].

وكان ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبوجهل**»[٢] .

وكم في كل عصر ومصر، من أبي جهل وفرعون؟

عن سعيد بن جبير قال: (قلت لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قِبَلِ نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله رسول الله، ثم أنزله الله)[٣].

الحِكْمَةُ مِنَ البَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ

٣٦- ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

ثم ختم الله تعالى السورة ببيان الحكمة من البعث والجزاء، وتذكير الأنسان بخلقه الأول، فهل يظن الإنسان أن الله تعالى يتركه مهملا كالبهائم المرسلة، فلا يُكلّفه في الدنيا بالأوامر والنواهي، ثم يتركه في الآخرة بلا حساب ولا جزاء، فيستوي من آمن بمن كفر، ويستوي من أطاع بمن عصى، ومن امتثل بمن عاند وطغى، لا ينبغي للإنسان ولا يليق به أن يظن هذا الظن، فإنّ عدْل الله تعالى يقتضي أن يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أيظن المنكر للبعث ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي أن يترك هملا، فلا يؤمر ولا يُنهى، ولا يحاسب ولا يعاقب؟ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥،٣٦] .

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨] .

وقال جل شأنه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٧١/٨)، والقرطبي (١١٤/١٩)، وابن عطية (٥)، والخازن (٣٣٧/٤)، وعبدالرزاق (٣٣٤/٢).

(٢) المصدران الآخيران.

(٣) النسائي برقم (٦٥٨) قال محققه: إسناده صحيح ورجال إسناده ثقات، وفي الكبرى (١١٦٣٨)، والطبري (٥٢٥/٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٢٩٨)، وصححه الحاكم في المستدرك (٥١٠/٢)، على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٣٢/٧) رجاله ثقات.

هذا حسبان باطل، وظن لا يليق بالله تعالى، فإن من العدل والإنصاف عدم التسوية بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي.

الْخَلْقُ الأَوَّلُ دَلِيلُ الْخَلْقِ الثَّانِي

٣٧-٣٩- ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ[1] (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾

ثم ذكر سبحانه دليلاً بارزاً على قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت، وليس في مقدور منكر البعث أن يرفضه، وهو بدء خلقه من نطفة، تُصَبُّ من ذكَر الرجل في رحم المرأة، وهو ماء مهين ضعيف يخرج من مخرج البول، ويُراق أو يُصَب في الأرحام، وهذه هي المرحلة الأولى في خلق الإنسان.

ثم صارت هذه النطفة علقة تشبه الدودة، وهي قطعة دم متجمد، وهي المرحلة الثانية في خلق الإنسان، ثم كانت قطعة لحم بمقدار ما يمضغه الإنسان ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الإنسان ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي فعدّله وأكمل نشأته ونفخ فيه الروح، وجعل صورته في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقد خلق الله من هذا الإنسان: الرجل والمرأة، لتنتظم الحياة، ويتم التناسل والتوالد منهما ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الإنسان ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي الصنفين من البشر وهما ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ بقدرته تعالى، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فهل يليق بهذا الإنسان الضعيف أن يتكبر على طاعة الله تعالى، ويتمرد على خالقه، وينكر البعث والنشور؟ **قال تعالى:**

٤٠- ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾

والنتيجة المستخلصة من هذا الدليل أن من خلَق الإنسان من نطفة، قادر على أن يعيد إليه الحياة بعد الموت، سواء بقي الجسم غير ناقص عند الموت، أو انتقص منه شيء عند الموت، أو تفتّتت أوْصاله، أو احترق، أو ذُرّي في الهواء، أو أكلته السباع، أو

---

(١) قرأ حفص ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء في ﴿يُمْنَىٰ﴾ على أن الضمير يعود على ﴿مَنِيٍّ﴾ والباقون بالتاء على أن الضمير يعود على النطفة، وهو الوجه الثاني لهشام.

أغرِق في المياه ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الذي أوجد الإنسان من ماء مهين ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير، وسيعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] وإعادة الخلق أهون من البداية بالنسبة لمفهوم الناس، ولذا قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

جاء في الأثر عن أبي هريرة ﷺ: من قرأ منكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى.

ومن قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فبلغ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله»[1].

وعن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك، بلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ[2].

تم تفسير (سورة القيامة) ولله الحمد والمنة

(١) سنن أبي داود برقم (٨٨٧)، والمسند (٢/٢٤٩) برقم (٧٣٩١) بإسناد ضعيف لجهالة الرواى عن أبى هريرة ﷺ (محققوه)، والترمذي (٣٣٤٧)، والحاكم (٢/٥١٠)، والبيهقي (٢/٣١٠)، وفي إسناده: يزيد بن عياض، كذاب، وهو في ضعيف سنن أبي (داود ١٨٨).

(٢) أبوداود برقم (٨٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٣١٠)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٧٨٦).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِنْسَانِ (٧٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الإنسان) هي السورة السادسة والسبعون في ترتيب المصحف، والثلاثون أو الحادية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت قبل (سورة القيامة) وبعد (سورة الرحمن).

وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية باتفاق، وهي مئتان وأربعون كلمة، وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

أ - وسميت سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في زمن الصحابة، وبهذا جاء حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر بـ (الم السجدة) و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[1].

ب - واقتصر السيوطي على تسميتها بـ (سورة الإنسان).

جـ - وتسمى في بعض المصاحف: (سورة الدهر).

ولفظاً: الإنسان، والدهر: وردا في الآية الأولى من السورة.

د - وسماها بعضهم (سورة الأمشاج). هـ - وسماها آخرون (سورة الأبرار).

فهذه خمسة أسماء لها هي: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ والإنسان، والدهر، والأمشاج، والأبرار.

وهي من السور المختلف في كونها مكية أو مدنية، وقد وردت آثار عن الزبير تفيد أنها مدنية[2].

والأصح أنها مكية كما جاء عن ابن عباس[3] فإن موضوعها ومقاصدها من خصائص السور المكية.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٨٠)، وصحيح البخاري (٨٩١،١٠٦٨)، وابن ماجة (٨٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٩،١١٣٢٩)، والمسند (٩٥٦١)، وهو عن ابن عباس في مسلم (٨٧٩)، وأبي داود (١٠٧٤)، وابن ماجة (٨٢١)، والترمذي (٥٢٠)، والكبرى للنسائي (١٠٣٠،١١٥٧٥)، والمسند (١٩٩٣)، وابن حبان (١٨٢٠).

(٢) كما في الدر المنثور (١٥/١٤٢).

(٣) وأخرجه النحاس (ص ٧٥٧).

موضوع السورة:

١- بدأت السورة ببيان قدرة الله تعالى في خلق الإنسان أطوارا، وتهيئته وإعداده ليقوم بما كُلِّف به من أنواع العبادة، وقد زوّده الله تعالى بالسمع والبصر وسائر الحواس وأرشده إلى طريقي الهدى والضلال.

والمحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو اليوم الآخر، حيث تتناول بوجه خاص: المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة، فهم في جنة يتّكئون فيها على الأرائك، تدنُو منهم الظلال والقطوف.

وتسْرُد آيات السورة نعيمهم في الجنة من مأكل ومشرب وملبس وخدمة مستمرة.

وذكرت السورة أهل السعادة بإسهاب، فوصفتْهم: بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله تعالى، خوفاً من عذابه، وأشادت بما لهم عند الله تعالى من الأجر والكرامة في دار النعيم، وبينت ما حباهم الله به من الفضل والنعيم يوم الدين.

وقد استغرقت هذه المعاني المتعلقة باليوم الآخر من الآية الرابعة إلى الآية الثانية والعشرين، وهو ثلاثة أرباع السورة غالباً.

٢- أما الآيات الثلاث الأول من السورة، فإنها تمهد للحديث عن اليوم الآخر، فتبدأ بلمسة عن الإنسان، أين كان قبل أن يجيء؟ مَنِ الذي أوجده؟ ومن الذي جعله يسمع ويبصر؟ ومَن الذي جعل له ذِكْر في هذا الوجود، ولم يكن له وجود من قبل؟ فإذا سأل الإنسان نفسه: أين كان قبل مئة عام؟ وأين كان هذا الجيل الذي هو فيه قبل مئتي عام؟ أدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وكما نحن نعيش فوق هذه الأرض، فإن أهل القبور كانوا مثلنا، وغداً نكونُ معهم، وهكذا دواليك إلى انتهاء الدنيا، وهذا ما تشير إليه الآية الأولى، أما الآية الثانية: فهي تتحدث عن أصل نشأة نسل الإنسان الأول، وحكمة الله في خلقه، وتزويده بالطاقات والمدارك.

وتشير الآية الثالثة: إلى سلوك الإنسان بعد أن أصبح سميعاً بصيراً، واختياره إما

طريق الهدى وإما طريق الضلال.

وتشير الآية الرابعة: إلى المصير المؤلم الذي ينتظر أهل الضلال في الآخرة من السلاسل والأغلال والسعير.

وتمضي السورة بعد ذلك في وصف نعيم أهل الجنة وصفاتهم في ثماني عشرة آية تليها.

٣- وتتوجه السورة في أربع آيات بعدها إلى تثبيت النبي ﷺ والرباط على قلبه، والاستعانة على جهاد الدعوة، بالإكثار من ذكر الله تعالى والسجود له وتسبيحه ليلاً طويلاً.

عن أبي ذر ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملَك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله»[1].

ولما سمع ابن مسعود ﷺ هذه الآية ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ الآية قال: يا ليتها تمت، فعوتب في قوله هذا، فأخذ عوداً من الأرض فقال: يا ليتني كنت مثل هذا[2].

وهكذا تذكر السورة حقيقة أن الإنسان لم يكن له وجود مدة من الزمن، ثم تذكر حقيقة أصل الإنسان ونشأته وتزويده بالطاقات والمدارك، ثم تتحدث عن هدايته إلى الطريق وعونه على الهدى.

وبعد هذه النقاط الثلاث تحذره من النار وترغبه في الجنة، وتذكُر العذاب والنعيم الذي أعده الله لكل منهما.

٤- وتُختم السورة بالتذكير باليوم الثقيل، وبيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، وفكر ثاقب يستضيء بنوره.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن لغيره، لأن (مُوَرِّق) لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه ابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٢/٥١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٨٢)، وهو في الترمذي (٢٣١٢)، والحاكم (٢/٥١٠)، وأبي الشيخ (٥٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٢٩٨).

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

آدَمُ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ كَانَ عَدَماً

١ - ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾

ذكر الله تعالى في الآيات الثلاث الأول أطوار حياة الإنسان من بدايتها إلى منتاها، فذكر أنه قد مرّ عليه وقت طويل كان فيه عدماً قبل وجوده، ولما أراد الله إيجاده في هذه الحياة، خلق أباه آدم من طين، ثم خلق نسله من نطفة الرجل وبويضة المرأة، وجعله إنساناً مكلفاً، فأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب، ورغّبه ورهّبه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ويوم القيامة يُجزى كل منهما بما يستحق، إما إلى نعيم وإما إلى جحيم.

تبدأ السورة بتذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان في العدم لا يعلم به أحد، ومضى عليه وقت طويل من الزمان، قبل أن تُنفخ فيه الروح، لم يكن شيئاً يُذكر ولا يُعرف له أثر.

ولفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يشمل جميع بني آدم، ولكن المراد به في هذه الآية، هو آدم عليه السلام على الأرجح، ولذا فقد جاء في الصحيح عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صوّر الله آدم في الجنة، تركه ماشاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيف به وينظر إليه، فلما رآه أجوف عَرف أنه خُلِق خلقاً لا يتمالك**»[(١)].

أي: أن إبليس أخذ يدور حول آدم، فلما رأى له بطناً مجوّفاً عرف أنه لن يَحْبس نفسه عن شهوات: البطن والفرج والغضب، ولا يملك دفع الوساوس عنها.

ومن المدة التي لم يكن الإنسان فيها شيئاً يُذكر، ما قيل: إن آدم عليه السلام ظل أربعين سنة طيناً، وأربعين سنة حمأً مسنوناً، وأربعين سنة صلصالاً كالفخار، ثم خلقه الله بعد مئة وعشرين سنة.

و﴿هَلْ﴾ حرف استفهام تقريري يفيد التحقيق، بمعنى (قد) كما تقول: هل رأيت

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦١١).

صنيع فلان؟ وأنت تعلم أنه رآه، ومقصودك أن تقرره بذلك.

والمعنى: قد أتى على الناس في شخص أبيهم آدم أنه كان معدوماً مدة طويلة، ليس له ذِكْر بين الخلق، فلا يُعرف له وجود، ولا يُدرى ما اسمه قبل أن يُنفخ فيه الروح.

ورد أن عمر ﷺ سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمت[١].

أي ليته بقي في العدم، وهذا من الإشفاق على النفس من المعاصي، ومن الورع والتقوى.

والغرض من الآية: تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان في العدم منسياً، ماء مهيناً، لا يعلم به إلا الذي يريد خلقه، وقد مرّ عليه وقت من الزمن كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله وأبدع تكوينه وإنشاءه، بعد أن كان جسدا مصوراً لا يُذكر ولا يُعرف، ولا يُدرى ما اسمه، ولا ما يُراد به.

فالمراد بالإنسان في الآية: هو آدم عليه السلام، والحين هو المدة التي بقي عليها تراباً ثم طيناً ثم صلصالاً وحماً مسنوناً قبل أن ينفخ الله فيه الروح.

أو أن يراد بالإنسان بنو آدم جميعاً، والحين هو مدة الحمل، وليس هناك ما يمنع من حمل الآية على المعنيين معاً.

خَلَقَ اللهُ جِنْسَ الإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ مُخْتَلطَةٍ للابْتِلاَءِ بِالْعِبَادَةِ

٢- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾

وعلى أن المراد بالإنسان في الآية الأولى هو آدم عليه السلام، وأنه قد مر عليه وقت يقدر بمئة وعشرين سنة، قبل أن يُنفخ فيه الروح ويكون بشراً سوياً، فقد تحدثت الآية الثانية من هذه السورة، عن جنس الإنسان الذي هو نسل آدم، كيف خُلق؟ وكيف نشأ؟ وكيف صار إنساناً له سمع وبصر؟ بعد أن مر بعدة أطوار هي: النطفة والعلقة والمضغة

---

(١) ابن المبارك (٢٣٥)، وأبوعبيد في فضائله (ص ٧٠).

والعظام، وكسوة العظام باللحم، ثم إنشاءه خلقا آخر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي خلقنا ذرية آدم وحواء ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مَنِيّ الرجل وبويضة المرأة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي إن ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في رحم المرأة، فيكون منهما الولد.

وماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا الآخر، خرج المولود شبيهاً به.

وما كان من عصَب وعظْم فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشَعْر، فمن ماء المرأة.

واختلاف لون المني بين الرجل والمرأة، من الأمشاج، أي اختلاف الألوان.

ومنِيّ الرجل يختلط بدم حيض المرأة، فإذا حملت المرأة ارتفع دم الحيض، وهذه النطفة تحمل الخصائص والطباع التي يكون عليها الإنسان بما هي عليه من الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة[1].

ويفسِّرُ هذا الخلط الذي يكون بين منيّ الرجل وبويضة المرأة قوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

حيث يتكون من ذلك عناصر قُوى الحياة: نباتية وترابية وكيميائية ..

ومادام الأمشاج، يعني الأخلاط، فهو يشمل تكوين النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، ويشمل عوامل الوراثة الكامنة في النطفة، والتي تُسمى (جينات) وهي الوحدة الوراثية التي تحمل الصفات المميزة للإنسان، ثم صفات الجنين العائلية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون. وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن[2].

---

(١) تفسير الخازن (٣٣٨/٤)، والشوكاني (٣٤٠/٥) وغيرهما.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٨٥/٨)، والدر المنثور (١٤٨/١٥)، وفتح الباري (٦٨٤/٨).

والحين الذي مر على ذرية آدم قبل أن يكون شيئاً مذكوراً، هو أربعون يوماً نطفة، ثم أربعون يوماً علقة، ثم أربعون يوماً مضغة، وهو في كل ذلك لم يكن شيئاً يذكر، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩] ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٧].

قال ابن مسعود ﷺ: إذا جئناكم بحديث أتيناكم بتصديقه من كتاب الله، إن النطفة تكون في الرحم أربعين، ثم تكون علقة أربعين، ثم تكون مضغة أربعين، فإذا أراد الله أن يخلق الخلق نزل الملَك فيقول له: اكتب، فيقول: ماذا أكتب؟ فيقول: اكتب شقياً أو سعيداً، ذكراً أو أنثى، وما رِزْقه وأثره وأجله، فيوحي الله بما يشاء، ويكتبه الملَك، ثم قرأ عبد الله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ ثم قال عبد الله: أمشاجُها: عروقها[1].

ولم يخلق الله الإنسان من نطفة أمشاج عبثاً ولا جُزافاً ولا لهوًا ولا تسلية، وإنما خلقه ليبتليه بالأوامر والنواهي وسائر التكاليف الشرعية، أي خلقناه من نطفة أمشاج لـ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بالطاعة والعبادة، ثم نحاسبه ونجازيه على ما قدّم، ومن أجل ذلك فإن الله تعالى زوّده بوسائل الإدراك ليتمكن من التلقي والاستجابة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي خلقنا له القُوى الظاهرة والباطنة حيث ركّبنا فيه الحواس ليعظُم إدراكُه فيمكن ابتلاؤه.

والسمع والبصر هما أنفع الحواس للإنسان، وعن طريقهما يكون العلم والفهم والتميز، والنظر في أدلة وحدانية الله تعالى، وصدق ما جاءت به رسل الله، فهما أصل التفكير والتدبير.

وَعِيدُ مَنْ كَفَرَ وَوَعْدُ مَنْ آمَنَ مِنْ بَنِي آدَمَ

٣- ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

وتخلُص الآية السابقة إلى وعيد من كفر، ووعد من آمن، نتيجة التكليف بالأوامر

---

(١) الدر المنثور (١٥/١٤٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وجاء أيضاً عن سعيد بن منصور كما في فتح الباري (٨/٦٨٤).

والنواهي، بعد أن زوّده الله تعالى بالعقل، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ودلّه على طريق الهدى والرشاد ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ عرّفناه وبيّنا له طريق الهدى والضلال، والخير والشر، والمنافع والمضار التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، وبعثة الرسل وإنزال الكتب ليختار الإيمان أو الكفر، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر وإما أن يكفر فهو ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ مؤمنًا تقيًا مطيعًا ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ جاحدًا شقيًا فاجرًا.

وهذا كحال رجلين يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة، فسار أحدهما في هذا الطريق ولم يتعثّر، أما الآخر فقد عرّض نفسه للهلاك، وبهذا فإنه لا ينبغي للإنسان أن يُعلّق أفعاله على قضاء الله تعالى وقدره، فيقول كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] لو أراد الله لي الهداية لهداني، فإن قضاء الله وقدرَه في علمه سبحانه، وليس للإنسان عليهما اطلاع، حتى يحكم أن الله تعالى قضى عليه ذلك أم لا؟

والله تعالى قد أمرنا بالخير ونهانا عن الشر، وبيّن لنا جزاء كل منهما، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب.

وبعد تمام وقوع الشيء، نعلم أن هذا هو قضاء الله وقدره، أما قبل وقوعه، فنحن مأمورون بفعل الخير، منهيُّون عن فعل الشر.

والآية تدل على أن للإنسان حرية واختياراً، وهما مناط التكليف قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤].

فلا إجبار لأحد على شيء، والإنسان يختار لنفسه الطاعة أو المعصية كما في حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[1].

---

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٢٢٣) وأوله (الطهور شطر الإيمان).

وفي الأثر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (كل مولود يولد على الفطرة، حتى يُعرِبَ عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً)[1].

جَزَاءُ الْكُفُورِ

٤- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ[2] وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

ثم بدأ تعالى بما أعده للأشقياء الفجار من: الأغلال والقيود والسلاسل والنار المحرقة المسعَّرة، واللهب، والحريق في نار جهنم، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ أي: هيأنا لمن كفر بالله وكذب رسله وتجرأ على معاصيه، قيوداً من حديد تُشدّ بها أرجلهم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ تغلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ أي ناراً شديدة موقدة يُحرقون بها، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١،٧٢].

وقال سبحانه عن أهل الشمال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٣] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وهو عذاب دائم يُخلَّدون فيه، واكتفت السورة بذكر هذا العقاب المجمل بالنسبة للكفار.

أما المتقون الأبرار فقد ذكرت جملة من نعيمهم وصفاتهم:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨٠٥) وقال محققوه: إسناده ضعيف، قلت: ويستأنس به من ناحية المعنى، وقد صح هذا الحديث عن أبي هريرة دون قوله (فإذا أعرب عنه ..) إلخ وهو في المسند برقم (٧٤٤٥) وفي غيره.

(٢) قرأ نافع وهشام وشعبة والكسائي وأبوجعفر بتنوين ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ وصلاً وإبدالها ألفاً وقفاً، والباقون بعدم التنوين وصلاً، واختلفوا وقفاً، فوقف أبو عمرو وروح بالألف، ووقف قنبل وحمزة ورويس وخلف بسكون اللام من غير ألف، ووقف البزي وابن ذكوان وحفص بالألف وإسكان اللام والوقف بالألف للتناسب مع بقية الآيات، وعدم التنوين على أنه من صيغ منتهى الجموع، ممنوع من الصرف، والتنوين لأن بعض العرب كبني أسد يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا أفعل التفضيل.

جَزَاءُ الشَّاكِرِينَ (الأَبْرَار)

٥، ٦- ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ[١] كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾

ذكرت السورة شراب أهل الجنة، وأعقبته ببيان أن الله تعالى قد أعطاهم هذا الشراب، مكافأة لهم لأنهم كانوا وهم في الدنيا يوفون بالنذر، ويخافون اليوم الآخر، ويُطْعِمُون المحتاج ابتغاء وجه الله تعالى، فهذه أوصاف ثلاثة للأبرار الذين وعدهم الله تعالى بهذا الشراب في دار النعيم.

والأبرار هم من برّت قلوبهم بمحبة الله ومحبة رسوله، وتحلّوا بالأخلاق الحميدة، فبرت أعمالهم وأقوالهم، وقد ذكرت أوصافهم في سورة البقرة الآية ١٧٧.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم أهل الإيمان والبر والطاعة والشكر والإخلاص، الذين يؤدون حق الله تعالى وحق العباد ﴿يَشْرَبُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ إناء فيها خمر، لا تغتال العقل، ولا تصدّع الرأس.

والكأس هو الإناء الذي يكون فيه خمراً، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر.

قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٧] وهذه الخمر قد مزجت بالكافور، كما قال تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي أنها ممزوجة بأحسن أنواع الطيب، وهو ماء الكافور، وهو في الدنيا طِيب معروف في الهند والصين وجاوه، وهو من أنفس الطيب عند العرب.

وقد خُلطت الخمر بالكافور، ليبرد ويكْسر حدّته، وهذا الكافور قد سلم من كل مكدر ومُنغِّص موجود في كافور الدنيا، فلا يوجد في الآخرة مما هو موجود في الدنيا إلا الأسماء.

والكافور: زيت يَخْرُج من شجرة - إذا طالت مُدَّتُه نحواً من مئتي سنة - فيُغلى حطبه

---

(١) أبدل أبو عمرو بخلف عنه وأبوجعفر همزة ﴿كَأْسٍ﴾ ألفاً، ومثلهما حمزة عند الوقف، وحققها غيرهم.

ويستخرج منه زيت الكافور، وقد يتصلّب فيكون كالزبدة، وإذا وقع حطَب شجرة الكافور في الماء، تخمّر وصار نبيذا مسكرا، والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش[1].

ويُختم على آنية الخمر بخاتم من مسك كما قال تعالى في صفة أهل الجنة ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ [المطففين:٢٥،٢٦] .

وقد ذُكِر الكافور والزنجبيل في هذه السورة لترغيب الناس في العمل للآخرة.

ونعيم الآخرة في دوَامه ولَذَّته لا يقاس على نعيم الدنيا، ولكن الله تعالى يقرب إلينا المعاني بما نعرف كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥] .

والمعنى: إن المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله تعالى الطاعة والعبادة والشكر، يكافئهم ربهم بأن يجعلهم يوم القيامة في جنات عالية، ويتمتعون بالشرب من خمر مخلوطة بالكافور الذي تنتعش له النفوس، لطيب رائحته وجمال شكله.

ثم بين سبحانه أن الكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة يشرب منها الأبرار المتقون ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ أي أن هذا الشراب الذي مُزج من الكافور هو عين في الجنة، يشرب بها عباد الله المؤمنون المتقون، فهم يشربون الخمر ممزوجة بماء تلك العين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: اسم لعين ماء في الجنة، يقال له (عين الكافور) تمتزج الكأس بماء هذه العين، وتختم بالمسك، فتكون ألذ شراب.

وهذه العين من السعة والكثرة والسهولة بحيث يتصرفون فيها كيف شاؤوا، فيتوجه ماؤها ويَتْبعهم حيث كانوا، وهي عين دائمة الفيضان والجريان لا تنقطع ولا يُخشى نفاذها.

فالكافور: اسم لعين في الجنة تجري فيها، كأنهار اللبن والعسل والخمر والماء، والينابيع تنفجر منها من غير حفْر ولا ضرْب كما قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف:٣٣].

وأهل الجنة يقودون هذه المياه من منازلهم وقصورهم، وهي لا تمتنع عنهم، فإن

---

(١) تفسير ابن عاشور (٢٩/٣٨٠).

شاؤوا صرفوها إلى البساتين، وإن شاؤوا صرفوها إلى جوانب مساكنهم، فيُجرّونَها إلى حيث أرادوا، وينتفعون بها كما شاؤوا، دون أن يكون لها شق في الأرض كشق النهر.

للأبرار صفات ثلاث

٧- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

ثم وصف الله تعالى هؤلاء الأبرار الذين استحقوا النعيم في الجنة بثلاثة أوصاف هي: أنهم يوفون بالنذر، ويخافون ربهم، ويطعمون الطعام.

الوصف الأول: الوفاء بالنذر: قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

أي يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من نذر، في طاعة الله تعالى، فإذا نذرُوا وفُّوا بنذْرهم، من صلاة أو صيام، أو حج أو صدقة، أو أعمال خير وبر، وإذا وفّوا بما أوجبوه على أنفسهم، وفّوا من باب أولى بما أوجبه الله عليهم.

والنذر غير مستحب في حد ذاته، وهو لا يقدّم ولا يؤخر، ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً، ولكن إذا أوجبه الإنسان على نفسه، وجب عليه الوفاء به إن كان نذْر طاعة، فإن كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به:

أحاديث في النذر:

١- في البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[1].

٢- وفي حديث عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**»[2].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٦٩٦،٦٧٠٠)، وأبوداود (٣٢٨٩)، وابن ماجة (٢١٢٦)، والترمذي (١٢٥٦)، والمسند (٢٤٠٧٥)، وابن حبان (٤٣٨٧)، والكبرى للنسائي (٤٧٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٤١)، وأبوداود (٣٣١٦)، والترمذي (١٥٦٨)، والنسائي في الكبرى (٤٧٣٥)، وابن (٢١٢٤)، والمسند (١٩٨٨٨)، وابن حبان (٤٣٩١).

٣- وعن عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كفار النذر كفارة يمين»[1].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ في نذر كان على أمه فتُوفيت قبل أن تقضيه عنها، فأمره أن يقضِيَه عنها، فكانت سُنَّة بعد)[2].

الوصف الثاني: الخوف من عقاب الله يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي أن عباد الله الأبرار، يخافون عقاب الله لهم يوم القيامة على ما اقترفوه من اللمم، أو خالفوا فيه الأولى، وهذا اليوم شديد الأهوال، ضرره خطير، وشره متفشي ومنتشر على الناس أجمعين، إلا من رحم الله فهم يخافون على أنفسهم منه.

والخوف من هذا اليوم، أمر عام، حيث يخافه من في السموات ومن في الأرض، فقد انشقت السماء، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكُوِّرت الشمس والقمر، ونُسفت الجبال، وغارت المياه، فهو يوم شره مستطير.

قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض[3].

الْوَصْفُ الثَّالِثُ لِلأَبْرَارِ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مَعَ الْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ:

أي أن عباد الله الصادقين في إيمانهم،من شأنهم أنهم يطعمون الطعام لكل من يحتاجه،مع حبهم له وحاجتهم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] فهم يواسون به أهل الحاجة، مع قلة الطعام واشتهائهم له لكنهم قدّموا محبة الله على محبتهم لأنفسهم، وتحرّوا أشد الناس حاجة له.

وخَص الله تعالى بالذكر ثلاثة أنواع من المحتاجين، هم أولى الناس بالرعاية والمساعدة، وهم ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ .

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٧٦١،٦٦٩٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٣٨)، والنسائي في الكبرى (٤٧٤٠-٤٧٤٢)، وأبوداود (٣٣٠٧)، وابن ماجة (٢١٣٢)، والترمذي (١٥٤٦)، والمسند (١٨٩٣)، وابن حبان (٤٣٩٣).

(٣) عبد الرزاق (٢/٣٣٦)، والطبري (٢٣/٥٤١).

النوع الأول: المسكين وهو: الفقير العاجز عن الكسب، الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، فهو محتاج إلى غيره لفقره وقعوده عن الحركة والكسب أو هو الذي يملك ما لا يكفيه من ضرورات الحياة.

والنوع الثاني: اليتيم، وهو الطفل الذي مات أبوه وهو دون سن البلوغ، وليس له مال يسد حاجته.

والنوع الثالث: الأسير، وهو العبد المسلم المملوك لغير المسلمين، فإن أمره بيد غيره، كشأن بلال وعمار وأمه، فالعبودية تنشأ من الأسر، ومثله المسجون من المسلمين عند غير المسلمين:

أحاديث وآثار في المعنى:

١- فقد جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**فكوا العاني وأطعموا الجائع، وعودوا المريض**»[١].

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله**»[٢].

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصدقة، أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأملُ الغنى وتخشى الفقر**»[٣].

٤- وقد يراد بالأسير: المرأة، كما في الحديث عن أبي حُرَّة الرقاشي عن أبيه:

---

(١) البخاري برقم (٣٠٤٦،٥٣٧٣،٧١٧٣)، وأبوداود (٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٧٤٥٠،٨٦١٣)، والمسند (١٩٥١٧)، وابن حبان (٣٣٢٤).

(٢) ابن ماجة (٢٥١٨)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي في الكبرى (٤٣١٣،٤٩٩٥،٥٣٠٧)، والمسند (٧٤١٦) بإسناد قوي ورجال ثقات، وابن حبان (٤٠٣٠)، وعبدالرزاق (٩٥٤٢)، وأبو يعلى (٦٥٣٥)، والبيهقي في الشعب (٤٢٨٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠٣٢)، وصحيح البخاري (١٤١٩،٢٧٤٨)، وأبوداود (٢٨٦٥)، والنسائي (٢٥٤١)، وابن حبان (٣٣١٢)، والمسند (٧١٥٩،٩٧٦٨).

«اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم»[١].

وقال الحسن: (ما كان أسراهم إلا مشركين، لأن كل كبد رطبة فيها أجراً)[٢].

وقال أيضاً: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: (أحسن إليه، فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه)[٣].

وعن نافع قال: مرض ابن عمر رضي الله عنهما، فاشتهى عنباً، فأرسلتْ امرأته صفية، فاشترت عنقوداً بدرهم، فأتبع الرسول الذي اشتراه سائلاً، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، وهكذا حدث مرة ثانية، وفي المرة الثالثة، قالت صفية للسائل: إن عدت، لا تصيبُ منه خيراً أبداً، وأرسلتْ بدرهم ثالث، فاشترت عنقود عنب[٤].

والشاهد أن ابن عمر أعطى السائل مرتين عنقود العنب الذي يشتهيه.

ومما ورد في سبب النزول:

أن رجلاً من الأنصار يقال له: أبوالدحداح، صام يوماً، فلما كان وقت الإفطار، جاء مسكين ويتيم وأسير، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيفاً واحداً، فنزلت هذه الآية[٥]. والآية عامة في كل من اتصف بهذا الإيثار.

قال أبوسعيد الخدري ﷺ، قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فقال: (المسكين: الفقير، واليتيم: الذي لا أب له، والأسير: المملوك والمسجون)[٦].

---

(١) من حديث طويل عن أبي حُرّة الرَّقاشي عن أبيه في مسند أحمد (٢٠٦٩٥)، وهو حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠٩)، والدارمي (٢٥٣٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٤١٠).

(٣) تفسير روح المعاني (٢٩/١٥٥).

(٤) ينظر سنن البيهقي الكبرى (٤/١٨٥).

(٥) تفسير الخازن (٤/٣٣٩)، والقرطبي (١٩/١٣٠).

(٦) ذكره القرطبي عن الثعلبي بدون سند (١٩/١٣٠)، وذكره الواحدي في أسباب النزول (٣٣١)، والبغوي بغير سند والدر المنثور (٦/٢٩٩).

الأَبْرَارُ لاَ يُرِيدُونَ بِعَمَلِهِمْ إلاَّ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى

٩، ١٠ - ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

ثم إن الله تعالى علم إخلاص الأبرار، وصِدْق نياتهم في بِرّهم وتَصَدُّقِهم، فأثنى الله عليهم وقال عنهم ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ نحسن إليكم ابتغاء مرضاته وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ لا نبتغي عوضاً منكم، ولا نقصد حمداً ولا ثناءً من أحد.

وقيل: إنهم قالوا ذلك في أنفسهم، أو قالوه علناً ليقتدي بهم غيرهم، وذلك لأن الإحسان إلى الناس:

١ - إما أن يكون لوجه الله تعالى لا يراد به غيره، فهذا هو الإخلاص وهو معنى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

٢ - وإما أن يراد به طلب المكافأة من الناس، وهذا معنى ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾.

٣ - وإما أن يراد به: حمدُ الناس وثناؤهم، وهذا معنى ﴿وَلَا شُكُورًا﴾.

إن الأبرار المتقين لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ممن يحسنون إليهم، إنهم يخافون يوماً شديداً تعبس فيه الوجوه، وتتقطب فيه الجباه من فظاعة أمره وشدة هوله فيقولون: إنا نحسن إليكم للخوف من يوم نلقى فيه ربنا، لا لطلب المكافأة، ولا لطلب الحمد والثناء.

ووصف اليوم بالعبوس: نظراً لما فيه من الشدة.

والقمطرير هو اليوم الكريه الذي يُقطِّب فيه الجبين، من كثرة مافيه من شدائد.

أَرْبَعَةَ عَشَرَ لَوْناً مِنْ نَعِيمِ الأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ

١١ - ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه أربعة عشر لوناً من النعيم المقيم حبى الله بها عباده المتقين الأبرار، وهي على وجه الإجمال:

١- الخوف من عذاب يوم القيامة. ٢- ما يعلو وجوههم من النضرة والسرور.

٣- مكافأة الأبرار على صبرهم. ٤- مساكنهم في الجنة.
٥- اعتدال المناخ في الجنة. ٦- ظلال أشجار الجنة.
٧- قرب ثمار الجنة لأهلها. ٨- آنية الجنة.
٩- خمرالجنة ممزوج بالكافور. ١٠- خدمة الأبرار في الجنة.
١١- وفرة النعيم واتساع الجنان. ١٢- ملابس الأبرار في الجنة.
١٣- حُليّ أهل الجنة. ١٤- شراب الأبرار في الجنة.

أولاً: الخوف من عذاب الله تعالى يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي أن الله تعالى حفظهم ووقاهم من أهوال اليوم العبوس القمطرير، فقد دفع الله عنهم شر يوم القيامة وجنّبهم عذابه فلا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

ثانياً: ما يعلوا وجوههم من النضرة والسرور:

قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي أن الله تعالى أكرمهم وأعطاهم بدل العبوس الذي في وجوه الكفار نضرة، أي: نوراً وحُسْناً وبهاءً في وجوههم، وأعطاهم فرحاً وبهجة وسروراً في قلوبهم فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

ثالثاً: مُكَافَأَةُ الأَبْرَارِ عَلَى صَبْرِهِمْ

١٢- ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

أي أن الله تعالى كافأ الأبرار، فأثابهم بصبرهم في الدنيا على طاعة الله تعالى التي فعلوها، وعن معاصيه التي تركوها، وعلى أقداره المؤلمة التي تحمّلُوها فلم يسخطوا، وأثابهم جنة عظيمة في الآخرة، ينعمون فيها بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ويلبسون فيها الحرير الناعم، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] صدق الله

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[الزخرف:٧١].

رابعاً: مساكن الأبرار في الجنة

١٣ - ﴿مُّتَّكِـِٔينَ[(١)] فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

ولما وصف الله تعالى شراب أهل الجنة وطعامهم ولباسهم، وصف مساكنهم فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي أن أهل الجنة يتكئون فيها على أَسِرَّةٍ مُزَينة بفاخر الكسوة والثياب.

والاتكاء: هو التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة والراحة.

والأرائك جمع أريكة، وهي السرير، يلقى عليه الشراشف والستور التي تزينه.

وكل ما يُفترش ويُتوسد عليه مما له حشو، فهو أريكة، وإن لم يكن في حَجَلة، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حَجَلة، والحَجَلة: هي ما زُيِّن بالثياب والنقوش والستور.

خامساً: اعتدال المناخ في الجنة:

وهواء الجنة معتدل، ليس فيه حر ولا برد، فهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس، ولا نور القمر، إنهم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لا شدة حر ولا شدة برد، فتتلذذ أبدانهم في جميع الأوقات، فلا يتضررون ولا يتألمون من حر ولا من برد.

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اشتكت النار إلى ربها فقالت: رَبِّ أَكَلَ بعضي بعضاً، فأَذِنَ لها في العام بنفسين: نفَسٍ في الصيف، ونفس في الشتاء، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون في الصيف من الحر، من سمومها»**[(٢)].

سادساً: ظلال الأشجار في الجنة

١٤ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

إن ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾.

---

(١) قرأ أبوجعفر بحذف همزة ﴿مُتَّكِينَ﴾ وصلاً ووقفاً، ولحمزة وقفاً وجهان: الحذف والتسهيل بين بين.

(٢) البخاري برقم (٥٢٧، ٣٢٦٠)، ومسلم برقم (١٨٥، ٦١٧)، ومالك (١/١٦)، وابن أبي شيبة (١٣/١٥٨)، والترمذي برقم (٢٥٩٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة برقم (٤٣١٩)، وعبد الرزاق (٢/٣٣٧)، والمسند (٧٧٢٢)، وابن حبان (٧٤٦٦).

أي أن أشجار الجنة تُظِلُّهم بِقُرْبِها منهم، وهو ظل طبيعي لا يضر ولا يكلّف.

سابعاً: قُرب ثمار الجنة وسهولة أخذها: قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أن ثمار الجنة قريبة منهم في متناول أيديهم، فهم يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين، يتناولونها كيف شاؤوا، على أي حال، وكلما أرادوا.

ثامناً: آنية الجنة

١٥، ١٦ - ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا[1] مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

ثم وصف الله تعالى آنية الجنة في قوله ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بأواني الطعام الفضية، وهي في صفاء القوارير من كثافتها وصفاء جوهرها وطيب معدنها، أما الأكواب التي يشربون فيها، فهي رقيقة شفّافة كالزجاج ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ والكوب: هو الذي لا عروة له ولا خرطوم. والقارورة: لا تكون إلا من زجاج.

وهي من صفاء اللون والرقة تَشِفُّ عما فيها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل:٤٤].

وفي آية أخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف:٧١].

والمعنى: أن الآنية تأتيهم في بعض الأوقات من فضة، وفي بعضها من ذهب، فهي متنوعة متزاوجة، لئلا يفوتهم ما في المعدِنين من الحُسْنِ والجمال، وما تشتهيه النفس مما كانوا يتمنوْه في الدنيا، ولِمَا في ذلك من إدخال السرور على أنفسهم، وهذا يحدث أيضاً فيما يُحلّون به، قال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

---

(١) قرأ نافع وشعبة والكسائي وأبوجعفر بالتنوين في ﴿قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا﴾ معاً، وإبدالهما ألفا وقفاً.

وقرأ ابن كثير وخلف بالتنوين في الأول وتركه في الثاني وصلاً، ووقفاً على الأول بالألف، وبإسكان الراء وحذف الألف في الثاني.

وقرأ أبوعمرو وابن عامر وحفص وروح بترك التنوين فيهما وصلاً، ووقفوا على الأول بالألف وعلى الثاني بالحذف إلا هشاماً فوقف بالألف على الثاني أيضاً.

وقرأ حمزة ورويس بترك التنوين فيهما وصلاً، وبالحذف وقفاً، وهما مِثْل (سلاسلا) في التوجيه.

وفي الآية الأخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١].

وهذه القوارير بيضاء في صفاء الزجاج وشفافيته، يُرى باطنها من ظاهرها.

والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة.

وهي مقدّرة بعدد الشاربين بلا زيادة ولا نقصان، وهذا معنى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدّرها السقاة الذين يطوفون على أهل الجنة على مقدار عدد الشاربين، وبمقدار ما يشتهون، بلا زيادة ولا نقص لأنها لو نقصت لا تكفيهم، ولو زادت لنقصت لذتها، وهي ما يوافق لذتهم وما هو مقدّر في خواطرهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أُتوا بها على قدر الحاجة، لا يُفَضِّلُون شيئاً عليها، ولا يشتهون بعدها شيئاً[1] وقد جعلت لهم على قدر إراداتهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، ولو أخذْتَ فضة من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة مع صفاء القوارير)[2].

تاسعاً: شَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

١٧، ١٨ - ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

أي إن الأبرار يشربون في الجنة كأسا مملوءة خمراً، مُزجت بالزنجبيل، وهي عين يشرب منها الأبرار، فيها طعم الزنجبيل، يشرب بها المقربون خاصة.

ويُمْزَجُ هذا الشراب لسائر أهل الجنة، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور، وهو بارد، وتارة يمزج بالزنجبيل، وهو حار، ليحصل الأمران معاً.

وقد كان العرب يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل لطيب رائحته وحُسْن طعمه.

والكأس هو الإناء المملوء من خمر ورحيق ولا يُسمى كأساً إلا إذا كان فيه خمر.

---

(١) تفسير الألوسي (٢٩/١٦٠).

(٢) تفسير الأوسي (٢٩/١٥٩)، وقد أخرجه عبد الرزاق (٢/٣٣٨)، والبيهقي في البعث (٣٤٨).

وعين الزنجبيل التي يشرب منها الأبرار المقربون في الجنة، تسمى عين السلسبيل، لسلامة شرابها وسهولة مساغه وطيبه ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي أن عين الزنجبيل في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت كذلك لسلاستها ولذة حُسنها.

والسلسبيل هو الماء العذب، سهل المذاق، سُمِّي كذلك لعذوبته وصفائه، وهو يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لَذْعَته ولا حُرَقَته، بل يكون سهل المساغ في الحلق.

في حديث ثوبان ﷺ أن حَبْراً من اليهود سأل النبي ﷺ قال له: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ قال ﷺ: «**هم في الظُّلْمَةِ دون الجسر**» قال: فمن أوَّل الناس إجازة؟ قال: «**فقراء المهاجرين**» قال اليهودي: فما تُحْفتُهم حتى يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادة كبد النون**» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «**يُنحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين فيها تسمى سلسبيلاً**»[1].

عاشراً: خِدْمَةُ الأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ

١٩ - ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا[2] مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

أما خدَم أهل الجنة، فهم غلمان كاللؤلؤ المتناثر هنا وهناك، حيث يدور على أهل الجنة غلمان في سن الصبا، دائمون على حالهم، لا يهرمون ولا يشيبون، يُنشِئهم الله في الجنة لخِدْمتهم، ويظلّون على حالهم من الشباب والنضْرة والحُسْن، ويبقون على سن واحدة على طول الأزمنة ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ في الجنة ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وإشراق وجوههم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي كأنهم لحسن منظرهم وتفرقهم وانتشارهم في الجنة لخدمة أهلها لؤلؤا مُضيئاً موزعاً في كل مكان يأتون لأهلها بما يطلبون ويشتهون.

---

(١) ينظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم برقم (٣١٥)، وانظر الحاكم (٤٨١/٣)، والبيهقي في الدلائل (٢٦٣/٦)، والطبري (٧٣٨/١٣) وغيرهم.

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وشعبة وأبوجعفر بإبدال الهمزة الأولى من ﴿لُؤْلُؤًا﴾ واوا ساكنة، وكذا حمزة وقفاً، وله في الثانية الإبدال أيضاً، وحققهما الآخرون.

قال الفخر الرازي: وهذا من التشبيه العجيب، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر، لوقوع شعاعه بعضه على بعض، فيكون أروع وأبدع.

وفي آية أخرى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

وإذا نُثر اللؤلؤ على البساط كان أكثر منه جمالاً فيما لو كان منظوماً.

حادي عشر: وفرة النعيم واتساع الجنان

٢٠- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ[1] رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

ثم شوّق الله سبحانه عباده إلى نعيم الجنة ورغّب فيها فقال ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي وإذا أبصرت - أيها المخاطب - وأول المخاطبين هو رسول الله ﷺ، إذا أبصرت أيّ مكان في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ أي أبصرت نعيماً لا يدركه الوصف، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيماً واسعًا لا نهاية له، فتجد الواحد منهم عنده من القصور والمساكن والغرف ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين والثمار والأنهار والفواكه والطيور ما يأخذ بالألباب، وعنده من الزوجات مَنْ هُنّ في غاية الحسن، والطاعة، ومن الخدم والولدان ما تتم به الراحة والسرور، وفوق ذلك رضا رب العالمين والنظر إلى وجهه الكريم، قيل: إن أدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام، يُرى أقصاه كما يُرى أدناه.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب ؓ على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثّر في جنبه، فبكى عمر، فقال ﷺ: **«ما يبكيك؟»** قال عمر: ذَكرتُ كِسْرى ومُلْكه، وهُرْمُز ومُلكه، وصاحب الحبشة ومُلْكه، وأنت رسول الله على حصير من جريد؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»** فأنزل الله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[2].

---

(١) وقف رويس بهاء السكت على ﴿ثَمَّ﴾ بخلف عنه، والباقون بدونها.

(٢) ينظر النيسابوري (ص ٣٦٤)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (١٥/١٦٦)، والحديث بدون الآية أخرجه أحمد في المسند عن أنس (١٢٤١٧) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٦٣)، وأبو يعلى (٢٧٨٢)، وابن حبان (٦٣٦٢) وغيرهم.

جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: **(أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**[1].

وفي الحديث: (أقل أهل الجنة منزلة، من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها) حيث يقال لآخر أهل الجنة دخولا: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)[2].

فقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها).

فإذا كان هذا عطاء الله تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بمن هو أعلى منزلة وأحظى عند الله تعالى.

ثاني عشر: ملابس الأبرار في الجنة

٢١- ﴿ عَٰلِيَهُمْ[3] ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ[4] وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

أي أن ملابس أهل الجنة الخارجية ظاهرها من الحرير الغليظ، وباطنها من الحرير الرقيق الأخضر ﴿ عَٰلِيَهُمْ ﴾ أي أن الأبرار، أصحاب النعيم المقيم، والمُلْك الكبير، يعلو

---

(١) المسند (١٠٠١٧،٨١٤٣)، والبخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣٩٩٢)، وابن ماجة (٤٣٢٨)، وابن أبي شيبة (١٣/١٠١).

(٢) هذا المعنى ثابت في الصحيح.

(٣) قرأ نافع وحمزة وأبوجعفر بسكون الياء وكسر الهاء من ﴿ عَٰلِيْهِمْ ﴾ على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، والباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قال: فوقهم ثياب.

(٤) قرأ نافع وحفص برفع ﴿ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ معا، على أن ﴿ خُضْرٌ ﴾ صفة لثياب و﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ عطف نسق على ثياب، على حذف مضاف، أي وثياب استبرق.

وقرأ ابن كثير وشعبة بخفض ﴿ خُضْرٍ ﴾ ورفع ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ على أن ﴿ خُضْرٍ ﴾ صفة لسندس، وجاز وصف المفرد بالجمع على رأي الأخفش، وقيل: إن ﴿ سُندُسٍ ﴾ اسم جنس، واسم الجنس يوصف بالجمع.

وقرأ أبوعمرو وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب برفع ﴿ خُضْرٌ ﴾ وخفض ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فخضر صفة لثياب، وإستبرق عطف نسق على سندس، أي ثياب خضر من سندس ومن إستبرق.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفضهما، فخضر نعت لسندس، وإستبرق عطف نسق على سندس.

أجسامهم ثياب ظاهرة، من أفخر الثياب، لأنهم يجمعون في لباسهم بين الديباج الغليظ، وهو الاستبرق، والديباج الرقيق وهو السندس، أخضر اللون، وهما أعظم أنواع الحرير ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ كما في سورة الكهف أيضاً ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية:٣١] والسندس هو الطيلسان الأخضر، واللون الأخضر أمتع للعين. والاستبرق فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر.

وكلمة سندس هندية في الأصل، والاستبرق كلمة فارسية الأصل.

وباستعمال القرآن لهما صارتا عزبيتين، وهما لباس الملوك والمترفين.

ثالث عشر: حُليّ أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي أن أهل الجنة يُحلّون في أيدهم بأساور من الفضة ذكوراً أو إناثاً وهذا وعد من الله لهم، وكان وعده مفعولاً.

وفي سورة الحج: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [آية:٢٣ ومثلها في سورة فاطر:٣٣].

وفي سورة الكهف: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [آية:٣١].

فتارة يلبسون الفضة، وتارة يلبسون الذهب، وتارة يلبسون اللؤلؤ.

قال سعيد بن المسيب: ما من أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور:

واحدة من فضة، وأخرى من ذهب، وأخرى من لؤلؤ.

رابع عشر: من شراب الأبرار في الجنة: قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

أي أن شراب أهل الجنة، شراباً لا رجس فيه ولا كدر، ولا دنس، فالأيدي لم تدنّسه، ولم ينجُس كخمر الدنيا، ومن طُهْره أنه لا يصير بَوْلاً نجساً، بل رَشْحاً من أبدانهم كرشح المسك، وهذا الشراب مطهر لما بطونهم من كل مرض وأذى.

جاء في تفسير الطبري: إن الرجل من أهل الجنة، يُقْسم له شهوة مئة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سُقي شراباً طهوراً، فيصير رَشْحاً يخرج من جلده أطيب ريحاً من

المسك الإذخر[1].

وخمر الآخرة، شراب لذيذ طاهر من كل خبث وقذر وسوء، كما أن قلوبهم تخلو من الغل والحقد والحسد والبغضاء والعداء.

تكريمُ الأبْرارِ والثَّناءُ عليهمْ

٢٢- ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

ويقال لأهل الجنة عند رؤيتهم وتذوقهم لهذا النعيم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على ما قدّمتموه في الدنيا من عمل صالح، أي: أعد الله لكم هذا النعيم المقيم، مقابل إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الدنيا، وهذا ثناء عليهم وتكريم لهم بما قدموه من تقوى الله تعالى وخوف لقائه، لقد كان عملكم عند الله تعالى مرضيًا مقبولاً ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فجُوزيتم أحسن الجزاء مع الشكر والثناء، وأعطاكم الله على السعي القليل من النعيم المقيم ما لا يمكن وصفه وحصره، فازدادوا أيها الأبرار سرورا على سروركم، وبهجة على بهجتكم.

لقد شكرتم فضل الله تعالى فأثاباكم أفضل منه، ورضي منكم بالقليل وأعطاكم عليه الكثير.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وقال سبحانه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢].

تثبيتُ قلبِ النبيِّ ﷺ

٢٣- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

(١) تفسير الطبري (١٣٧/٢٩).

وبعد أن فرغ سبحانه من ذكر نعيم أهل الجنة، شرع في تثبيت النبي ﷺ والربط على قلبه، لدفْع آثار الغم الذي قد يلحق بالنبي ﷺ من جرّاء كُفْر بعض الناس وتكذيبهم له ﷺ فإن هذا من شأنه أن يُوهِن عزيمة البشر من الدعاة إلى الله تعالى.

ومما قاله المكذبون الجاحدون للوحي والرسالة ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١].

وقالوا أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرْقان:٣٢].

فكان رد الله تعالى عليهم وعلى أمثالهم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا رسولنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ من عندنا، نزَّلناه عليك آية آية، وجملة جملة، مفرَّقاً حسب الوقائع والحوادث والأحوال، لحكمة بالغة، منها: تدرُّج التشريع، وتثبيت قلب النبي ﷺ وتيسير حفظه وفهمه، وللتذكير بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد من أمور دينها ودنياها، وفيه الأمر بالقيام بأوامر الدين وشرائعه، والسعي في تنفيذها والصبر على ذلك.

مَنْهَجُ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

٢٤، ٢٥- ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

الدعاة إلى الله تعالى يحتاجون إلى الصبر على تبليغ الدعوة، وتحمّل الأذى من المعارضين، والاستعانة على ذلك بكثرة العبادة من فرائض ونوافل، وعلى رأسها الصلاة والتسبيح.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها أَمَرَ الله تعالى إمام الدعاة ﷺ بأربعة أمور هي:

١- الصبر، ٢- وعدم طاعة المخالفين.

٣- والإقبال على الله سبحانه بكثرة الذكر والصلاة.

٤- وذكر الله جل وعلا في جوف الليل. وهذه كلمات عن كل منها:

أولاً: الصبر على جهاد الدعوة:

جاء في سبب النزول أن الله تعالى لما فرض الصلاة على نبيه ﷺ نهاه أبوجهل عن

الصلاة، وقال: لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأن عنقه[١].

وورد أن عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعتَ لأجل النساء والمال، فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: أنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية[٢].

قيل: والمراد بالآثم في الآية وقت التنزيل: عُتبة بن ربيعة، وبالكفور: الوليد بن المغيرة. والآية تتناول كل من كان على شاكلتهما إلى يوم القيامة.

والآثم هو: الذي يُقْدِم على المعاصي أياً كانت. والكفور هو: الجاحد لوحدانية الله تعالى، فكل كفور آثم، ولا عكس، لأن من عبد غير الله تعالى فقد عصاه وجحد نعمه.

وعلى هذا فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على جهاد الدعوة وتبليغ الرسالة:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر على قضاء الله تعالى وقدره، واصبر على أداء شرائع الله وأحكامه، واصبر على ما ينالك من أذى، وانتظر حكم الله فيمن خالفك، فلا بد أن ينتقم الله لك منهم، ويُقر عينك بإهلاكهم إن عاجلاً أو آجلاً، ولابد أن ينصرك عليهم، فلا تلتفت لمن يثنيك عن الدعوة ويصرفك عنها.

ثانياً: عدم طاعة المخالفين: قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ منغمساً في الشهوات، غارقاً في الموبقات، داعياً إلى الإثم والفجور، ولا تطع منهم من كان مبالغاً في الكفر والجحود، ممن لا ينزجر ولا يرتدع، فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لابد أن تكون في المعاصي وفي هوى النفس والشيطان.

والآية عامة في كل آثم كافر فاسق، وفيها تيئيس لمن عرض على النبي ﷺ وسائل، لِصَرْفه عن الدعوة، كي يستجيب لما عرضوه عليه.

---

(١) تفسير الخازن (٣٤٢/٤)، وعبد الرزاق (٣٣٩/٢)، والطبري (٥٧٢/٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠٤/٤٩)، والخازن (٣٤٢/٤)، والتفسير الكبير (٢٥٨/٣٠)، والقرطبي (١٤٧/١٩)، وحاشية الصاوي (٢٧٨/٤).

ثالثاً: الإقبال على الله تعالى بكثرة الذكر والصلاة:

ثم أرشد الله رسوله إلى ما يُعِينُه على الصبر والثبات، وهو الإقبال على الله تعالى بكثرة الذكر صباحاً ومساءً في الصلاة وخارجها ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ داوم على ذكر اسم ربك ودعائه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في أول النهار وآخره، فأول النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر، ويدخل في ذلك جميع الصلوات المفروضة وما يتبعها من نوافل وذكر وتسبيح وتحميد وتهليل وتكبير في هذه الأوقات.

رَابعاً: الصَّلَاةُ وَالتَّسْبِيحُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ

٢٦- ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

اسجد لربك في صلاتك، واخضع لعظمته وجبروته وأكثر من السجود له ولا يكون ذلك إلا في الصلاة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ متهجداً مستغرقاً في مناجاته في جناح الليل والناس نيام، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] فكُنْ عابداً لله تعالى، ذاكراً له في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبك ولسانك، لتقوى على مجابهة الأعداء.

وهاتان الآيتان تشتملان على الصلوات الخمس:

فقوله تعالى: ﴿بُكْرَةً﴾ يدخل فيها صلاة الفجر والظهر.

وقوله: ﴿وَأَصِيلًا﴾ يعني صلاة العصر.

أما المغرب والعشاء فيشملهما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾.

أما صلاة التهجد فتدخل في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتسبيح الليل الطويل مقيد بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ على نحو ما سبق في سورة المزمل.

ومن الآيات التي تشبه ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود:١١٤، ١١٥] .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر:٩٧،٩٨].

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى بالقول والاعتقاد، ويشمل الصلوات الخمس، والأقوال الطيبة وكل مافيه تنزيه الله تعالى.

تَهْدِيدُ وَوَعِيدُ مَنِ انْهَمَكَ فِي الدُّنْيَا وَنَسِيَ الآخِرَةَ

٢٧- ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم بيَّن سبحانه بعض الأسباب التي تجعل النبي ﷺ لا يُطِع منهم آثماً أو كفوراً، ومنها: أنهم منهمكون في طلب الدنيا معرضون عن الآخرة ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الكفرة الجاحدون المكذبون لك - أيها الرسول - بعد أن بينتَ لهم الآيات البينات ورغَّبتهم ورهَّبتهم، ومع ذلك فلا يزالون ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ أي يؤثرون الدنيا وينشغلون بها، وينهمِكُون في لذائذها الفانية، ويفضِّلونها على الآخرة، فهم يحبون الدنيا ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ أي أنهم يتركون خلْف ظهورهم العمل للآخرة، ويتركون مافيه نجاتهم في يوم عظيم الشدائد، هو يوم القيامة.

وهو يوم يقدر بخمسين ألف سنة مما تعدون، وهو يوم عسير على الكافرين، وكأنهم ما خُلقوا إلا للدنيا والاستمتاع بها والإقامة فيها.

وفي الآية توبيخ وتجهيل لهم، حيث آثروا الفاني على الباقي، والعاجل على الآجل.

ووصْفُ يوم القيامة بالثقل، لشدة ما يقع فيه من أهوال وكروب، فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطاع حمله.

وفي الآية أيضاً تحذير لكل مؤمن أن يتخلَّق بأخلاقهم.

قال تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [النساء:٨٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة:١٠٩].

وحب الدنيا بما لا يُلْهي عن الآخرة حب غير مذموم.

كما قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص:٧٧].

وعلْم الدنيا، مقطوع الصلة عن الله تعالى، فهو علم مذموم.

كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

٢٨- ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

وهؤلاء الذين يتركون وراءهم يوماً ثقيلاً، يتركونه لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولذا: فإن الله تعالى يذكّرهم ويذكّر كل منكِر للبعث إلى يوم القيامة، بأن الذي بدأ خلقهم وأحكمه أيّما إحكام، هو الذي يعيدهم للحساب والجزاء ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾ بقدرتنا وأوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ ﴾ أي أحكمنا خلْقهم، وقوّينا أجسادهم، ومنحْناهم السمع والبصر والفؤاد، وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطاً عجيباً، معجزاً متقناً بديعاً فزودناهم بالقوى الظاهرة والباطنة حتى استكمل الجسم قواه بعظامه وأعصابه وعروقه وأوتاره، وتمكّنَ من كل ما يريده.

والأسْر هو الحبل الذي تُربط به الأحمال، ويراد به في الآية: أن الله تعالى يمنُّ على عباده بأنه قد أحكم خلْقهم وأتقنه وربط بين مفاصلهم وشرايينهم وعروقهم وأعصابهم، ربطاً لا قبل للإنسان بمعرفة أسراره.

والشدّ هو الإحكام، وإتقان ارتباط أجزاء الجسد بعضها ببعض، بواسطة العظام والأعصاب والعروق، فكانت مشدودة بعضها إلى بعض.

ثم إن الله تعالى هدّدهم على إعراضهم وجحودهم للبعث، بأن يهلكهم ويستبدل بهم غيرهم مطيعين لله تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي وإذا أردنا عقابهم أهلكناهم، وجئنا بأطوعَ لله منهم، وبدَّلِناهم تبديلاً معجزاً لا يقدر عليه غير الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٦،١٧ وإبراهيم:١٩،٢٠].

وفي هذا تهديد ووعيد لكل من أنكر البعث والنشور، بتبديل (أَمْثَالَهُمْ) أي أشباههم ونظائرهم، في أشكالهم وقوة أجسادهم، بقوم آخرين مماثلين لهم في الخلق، ولكنهم أكثر طاعة لله تعالى.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

ويستدل بالآية على أن القادر على خلق الناس من العدم، قادر على أن يعيدهم بعد الموت لحسابهم وجزائهم، والذي خلقهم أطواراً في هذه الحياة، لا يتركهم سدى، بدون أمر ونهي، وثواب وعقاب، وجنة ونار.

يَنْتَفِعُ بِمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَنْ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ وَسَلِمَ عَقْلُهُ

٢٩- ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم ختم الله تبارك وتعالى السورة ببيان أن ما جاء فيها من آيات كريمات، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة عظة للعالمين، وتذكرة للناس أجمعين، فمن أراد الانتفاع بها والعمل بما فيها، من الترغيب والترهيب وأحب الخير لنفسه في الدنيا والآخرة، فعليه أن يسلك طريق النجاة بالإيمان والتقوى، للوصول إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه، وهذا معنى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى جنة الله ورضوانه بالتوبة والإنابة، وفي هذا حث على المبادرة والإقبال على صالح الأعمال، وتعريض بمن أصر على كفره وجحوده.

والله تعالى يخير الناس بين الاهتداء إلى سبيل الله أو النفور عنها.

واختيار طريق الرشاد يكون بما أودع الله في الإنسان من العقل وحرية الاختيار والتفكير، وما وضّحه له من سبيل النجاة، عن طريق الرسل والكتب، فللعبد مشيئته وإرادته وكسبه، ومشيئة الله نافذة، وله الحكمة البالغة في ضلال من ضل وهداية من اهتدى.

مَشِيئَةُ الْعَبْدِ مُرْتَبِطَةٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالى

٣٠- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ[1] إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾

وقد عَلِم الله تعالى اختيار العبد، وتوجُّه مشيئته، قبل أن يوجد في هذه الحياة، عندما يكون إنساناً بالغاً رشيداً، فتمّ تدوين ذلك في اللوح المحفوظ وفق انكشاف علم الله تعالى بما كان وما يكون، ومن هنا فإن مشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله تعالى لا تخرج عنها، فَعِلْم الله تعالى لا يتخلف، وهذا معنى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي وما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلا أن يشاء الله، وما تريدون أمراً من الأمور إلا بتقدير الله تعالى ومشيئته، فهو الخالق لكل شيء، وهو العالم بما خلق، وهو صاحب الخلْق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

فمن اختار سبيل مرضاة الله تعالى، يسّر له ما يعينه على ذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

ومَن اختار سبيل الشر، وكَلَه الله إلى نفسه وأحواله التي تعوّدها، فاقتحم طريق الضلال: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠].

وكل ذلك وفق علم الله تعالى وحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وهذه الآية قد جمعت بين مشيئة العبد ومشيئة الله تعالى، وبهذا فإنها أثبتت مشيئة للناس، وجعلت مشيئة الله تعالى شرطاً فيها، فمشيئة الله تعالى مستلزمة لفعل العبد، وجميع ما يصدر منه يكون بمشيئة الله تعالى وإرادته، فلا تشاؤون شيئاً إلا بمشيئة الله

(١) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر بخلف عنه بياء الغيب في ﴿تَشَآءُونَ﴾ لمناسبة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ والباقون بتاء الخطاب على الالتفات وهو الوجه الثاني لابن عامر.

تعالى، والعبد يُؤجَر على مجرد قصد الخير وإن لم يفعله، كما في حديث عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى**»(١).

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدى وَطَرِيقَ الضَّلَالِ

٣١- ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

وقد أعد الله تعالى لكلا الفريقين: - من اتخذ طريق الحق، ومن اتخذ طريق الضلال - منزله في الجنة أو النار ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ ورضوانه، من عباده المؤمنين فيوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المتجاوزين حدود الله تعالى الذي اختاروا طريق الشقاء ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ موجعاً في الدار الآخرة، لأنهم أصرُّوا على الكفر، وآثروا الباطل على الحق، وهو سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وفق الاستعداد الفطري لكل منهما، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

وهذا الختام للسورة يتوافق مع مطلعها ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والشاكر هو من يَدْخُل في رحمة الله، والكفور هو الذي أعد الله له عذاباً أليماً.

ومن الوقف الذي يغيّر المعنى: أن يقف القارىء على ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن هذا يدل على عدم فقه القاري وعدم فهمه للمعنى، حيث أشرك الظالمين في دخول الرحمة مع المؤمنين.

ومثله الوقف على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [فاطر: ٧]، والوقف على ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ [الرعد: ١٨] ونحو ذلك في القرآن.

وهذا معنى الحديث: «ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة».

تم تفسير (**سورة الإنسان**) ولله الحمد والمنة

---

(١) البخاري برقم (١)، ومسلم (١٥٥/١٩٠٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ (٧٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المرسلات) هي السورة السابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والثلاثون في ترتيب النزول.

نزلت بعد (سورة الهُمزة) وقبل (سورة ق)، عندما كان النبي ﷺ مختفٍ في غارٍ بمنى مع بعض أصحابه.

وسُميت في العهد النبوي (سورة والمرسلات عرفاً):

١ـ كما في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غارٍ بمنى، إذ نزلت عليه (سورة والمرسلات عرفاً) فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرَطْب بها، إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها، فذهبت، فقال ﷺ: «وُقيتْ شرَّكم، كما وقيتم شرها»[(١)].

٢ـ وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قرأت (سورة والمرسلات عرفاً) فسمعتْني أم الفضل (امرأة العباس) فبكتْ وقالت: (يا بُنَيّ أذْكَرْتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب)[(٢)].

٣ـ وجاء في رواية أبي داود عن ابن مسعود ﷺ تسميتها بسورة المرسلات قال: كان النبي ﷺ يقرأ النظائر، السورتين في ركعة: (الرحمن والنجم، في ركعة، واقتربت

---

(١) المسند (١/٣٧٧) برقم (٣٥٨٦)، والبخاري (١٨٣٠، ٣٣١٧)، ومسلم (٢٢٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٨٥٢، ١١٥٧٨)، وغيرهم.

(٢) الموطأ (١/٧٨)، والبخاري (٧٦٣، ٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢)، وابن ماجة (٨٣١)، وابن أبي شيبة (١/١٥٧)، والمسند (٢٦٨٦٨)، وأبوداود (٨١٠)، والترمذي (٣٠٨)، وابن حبان (١٨٣٢)، وعبد بن حميد (١٥٨٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٩٤).

والحاقة، في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات، في ركعة)[(١)] .

وفي هذه الأحاديث بيان لفضل السورة.

وتسمى أيضاً سورة العُرْف، لقوله تعالى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها:

١- والمرسلات عرفاً، ٢- المرسلات، وهو الأشهر، ٣- العُرْف.

وهي سورة مكية، وعدد آياتها خمسون آية باتفاق، منها عشر آيات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهي مئة وثمانون كلمة، وثمان مئة وستة عشر حرفاً.

موضوع السورة:

١ـ (سورة المرسلات) كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتقيم دلائل الوحدانية والقدرة، وتركّز على اليوم الآخر بوجه خاص.

وقد ابتدأت السورة بخمسة أنواع من القسم: بالرياح وتقلّباتها، أو بأنواع الملائكة المكلّفين بتدبير شؤون الكون، والمقسم عليه، أن البعث حق، والثواب والعقاب حق، وأن الهلاك واقع على المكذبين لا محالة.

ثم تذكر السورة أربعة من مظاهر القيامة، والوقت الذي يكون فيه قيام الساعة، والعذاب الذي وُعد به المجرمون، وهو اليوم الذي يكون فيه: طمس النجوم، وتصدّع السماء، ونسف الجبال، وموعد الفصل والقضاء بين الرسل والأمم، وهذا من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة منها.

٢- وقد ذُكر في السورة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، يأتي كل منها بعد مقطع من مقاطع السورة، وفي كل مقطع منها إخبار عن شيء من أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب ذلك أن يذكر عقب كل مقطع منها تهديد ووعيد بالويل والعذاب للمكذبين، وهذه المقاطع العشرة هي:

---

(١) أبوداود برقم (١٣٩٦)، وهو في المسند برقم (٣٩٦٨، ٣٦٠٧)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٨٥٥، ٩٨٥٧).

المقطع الأول: جاء ذِكْره في أربعة عشر آية، ذكر فيها خمسة أنواع من القسم على أن البعث حق، وأن مشاهد يوم الفصل حق، وهذا من [الآية ١-١٤].

والمقطع الثاني: فيه ذكر مصارع الغابرين، وهذا من [الآية ١٦-١٩].

والمقطع الثالث: فيه ذكر النشأة الأولى وتكوين خلق الإنسان، وهذا من [الآية ٢٠-٢٤].

والمقطع الرابع: فيه ذكر الأرض وهي تضم أبناءها إليها في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا من [الآية ٢٥-٢٨].

والمقطع الخامس: فيه بيان ما يلقاه المكذبون من عذاب وتأنيب في يوم الفصل، وهذا من [الآية ٢٩-٣٤].

والمقطع السادس: فيه بيان عدم الإذن للكفار في النطق يوم القيامة، وعدم قبول الاعتذار من المكذبين، وهذا من [الآية ٣٥-٣٧].

والمقطع السابع: فيه تحدى المنكرين المكذبين بخاتم النبيين، وبيان ما أخبرهم الله به من البعث والنشور، إن كان لديهم حيلة للتخلص من عذاب يوم الدين، وهذا من [الآية ٣٨-٤٠].

والمقطع الثامن: فيه ذكْر المتقين وما أعد الله لهم من نعيم، وهذا من [الآية ٤١-٤٥].

والمقطع التاسع: فيه تأنيب المكذبين على موقفهم من الدعوة، وهذا في [الآيتين: ٤٦،٤٧].

والمقطع العاشر: فيه ذكر السبب في عذاب المجرمين، وهذا من [الآية ٤٨-٥٠].

حديث المقاطع العشرة عن اليوم الأخر:

في المقاطع العشرة بيان قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم: فقد استدلت آيات السورة على ذلك كما يأتي.

أولاً: بمصارع الغابرين، ومَن بعدهم ممن يلحق بهم وهو على شاكلتهم.

واستدلت السورة **ثانياً** ببدء خلق الإنسان من ماء مهين، ومروره بأطوراً الخلق إلى أن صار بشراً سوياً بقدرة الله تعالى.

واستدلت **ثالثاً** على أن الله تعالى جعل هذه الأرض تضم أبناءها إليها، أحياءً وأمواتاً، وقد ثبتها الله تعالى بالجبال، وأجرى فيها المياه لحياة الإنسان والحيوان.

وقد تخلل هذه النقاط الثلاث: الويل لمن كذّب بكل منها.

واستغرق هذا من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين من السورة.

٣ ـ ثم تحدثت آيات السورة عما يلقاهُ المكذبون بيوم الفصل، من عذاب في نار جهنم، وبينتْ أن الشرارة التي تتطاير منها كالقصر العظيم، إلى جوار ما يلْقوه من التأنيب والتوبيخ، وعدم السماح لهم في النطق والاعتذار، ثم يقال لهم: هذا يوم الفصل والعقاب، فإن كان لديكم حيلة في الخلاص من العذاب فافعلوا.

وفي أثناء الحديث عن المكذبين المجرمين تأتي السورة بالوجه المقابل لاستحضار صورة المتقين، وهم على النقيض من أهل الجحيم، فهم في ظلال وعيون، وفواكه وتمتع.

ثم تعود الآيات إلى استكمال جزاء المجرمين، ومن ثم إلى بيان السبب فيما يلْقونه من عذاب، وهو أنهم كانوا لا يصلُّون وهم في الدنيا، ولا يؤمنون بهذا القرآن ومافيه، وإذا كانوا لم يؤمنوا به، فبأي كتاب آخر يؤمنون؟ ويتخلل كل فقرة مما سبق: الوعيد لمن كذب بلقاء الله تعالى.

وكما اهتمت سورة الإنسان فأطنبت في ذكر أوصاف المتقين ونعيمهم في الدار الآخرة، فإن هذه السورة أطنبت في ذكر أوصاف الكفار وعذابهم، إلى جوار ذكر الطرف المقابل بصورة مجملة موجزة في كل منهما.

وختمت السورة ببيان أسباب امتناع الكفار عن عبادة الواحد القهار، وهو عدم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبخاتم المرسلين.

وهي سورة زاخرة بالحديث عن أهوال القيامة، وعن مظاهر قدرة الله تعالى، وعن حسن عاقبة المتقين.

* * *

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقَسَمُ بِالرِّيَاحِ فِي أَحْوَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ

١ ـ ٧ ـ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا[1] أَوْ نُذْرًا[2] ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾

تعددت أقوال المفسرين في المراد بأنواع القسم الخمس التي أقسم الله تعالى بها في أول هذه السورة، كالقسم الذي في أول سورتي: الذاريات، والنازعات:

فبعض الأقوال المأثورة، يفيد أن المراد بها كلها: الرياح.

وبعضها يفيد أن المراد بها كلها: الملائكة.

وقال بعضهم: المراد بالمرسلات والعاصفات: الرياح.

أما الناشرات والفارقات والملقيات، فهم الملائكة.

على اختلاف في المراد بالناشرات، هل يراد بها الرياح أو الملائكة؟

ولعل الأرجح الذي لا يقطع المعنى ولا يفصله بين الآيات، أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، كلها وصف للرياح التي تخبرنا النشرات الجوية عن مصادر هبوبها، وتحديد وِجْهاتها.

والهواء أساس الحياة البشرية، سواء وقف ساكناً، أو هبَّ عليلاً، أو اشتد عاصفاً، فهو يتنقل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. وعندما يهدأ الجو تشعر بالهواء لطيفاً، وعندما يثور في الأقطار، تراه يقصف الأشجار، ويقذف بالسيارات من مكان لآخر، وهو يُبعثر السحب هنا وهناك، ويفرقها لتحمل الغيث حيث شاء الله.

---

(١) قرأ روح بضم الذال من ﴿عُذْرًا﴾ والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبوعمرو وحفص وحمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال من ﴿نُذْرًا﴾، وضمها غيرهم.

والرياح هي واسطة النقل للأمواج الصوتية التي تنقل القرآن هنا وهناك، ومن يستمعون إلى هذا الوحي، منهم المنتفع ومنهم المعرض.

ونقْل الأصوات بواسطة الهواء، حقيقة علمية لا ينكرها أحد في عالم يموج بوسائل الاتصالات المتعددة والمتنوعة.

وسوف نمضى في تفسير الآيات على أن المراد بأنواع القسم الخمسة: الرياح.

وعلى هذا: فقد أقسم الله تبارك وتعالى بالمرسلات، وهي الرياح المتتابعة في أحوالها العادية حين تهبّ لتنفيذ أمر الله تعالى بالعذاب وغيره، يقسم بها وهي متتابعة، يقْفُو بعضها بعضاً، وهذا معنى ﴿عُرْفًا﴾ أي أن الرياح يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس.

وقد جاء التعبير عن سوْق الرياح بلفظ الإرسال في آيات كثيرة، منها:

١ ـ قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر:٢٢] .

٢ ـ وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف:٥٧] .

٣ ـ وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم:٤٨] .

٤ ـ وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم:٤٦] وهكذا.

وقد أقسم الله سبحانه – **أولاً** –: في هذه السورة بالرياح في أحوالها العادية، حال هبوبها حين يتبع بعضها بعضاً، كعرف الفرس في التتابع، والله تعالى هو الذي أرسلها ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ يقسم الله تعالى بها وهي تحمل أمره تعالى ونهيه، ويقسم بها في أحوالها المختلفة، لا سيّما وهي تحمل الرحمة وتحمل العذاب.

وأقسم الله تعالى - **ثانياً** - بالرياح وهي شديدة الهبوب، عنيفة السير، تعصف بالأشجار فتقْلعها، وبالديار فتخربها، وبالآثار فتغيرها، وتثير الخوف والذعر في قلوب الناس. فتهلك وتدمر وهي أعتى الريح ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ والأنسب بالعاصفات أن يراد بها الرياح ولا يراد بها الملائكة.

وأقسم سبحانه **ثالثاً** بالرياح وهي تفرّق السحُب وتنشرها وتسوقها ليسقى بها بلدميت، وتُلقّح الشجر، وتحمل البذر، وتدفع السفن وتبدد الهواء هنا وهناك، فتنشرها

وتسوقها حيث شاء الله تعالى في أي جهة من العالم، فتأتي بالمطر وتُفَرقه وتذْرُو السحُب ذَرْوا، وتنشُره نشرا، فيحيي به الله العباد والبلاد، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾.

والواو لعطف القسم بالناشرات على القسم بالعاصفات، وهي الآية الوحيدة التي بُدئت بالواو، والأربعة الباقية بدئت بالفاء.

ولفظ ﴿نَشۡرٗا﴾ يُقرأ في الآيات التي تتحدث عن الرياح، ـ كآية سورة الفرقان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٨] بالنون وبالباء، وفي هذا دلالة على أنَّ الأليق بالناشرات، أنْ يراد بها الرياح التي تنشُر السحب.

جاء في الأثر أن الرياح ثمان: أربع منها عذاب، وأربع منها رحمة:

فالعذاب منها: العاصف، والصرصر، والعقيم، والقاصف.

والرحمة منها: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات.

فيرسل الله تعالى المرسلات فتثير السحاب، ثم يرسل المبشرات فتُلقح السحاب، ثم يرسل الذاريات فَتَحِمل السحاب، فتذُرُّ كما تذُرُّ اللقحة، ثم تمطر، وهن اللواقح، ثم يرسل الناشرات، فتنشر ما أراد[1].

وأقسم ـ رابعاً ـ بالرياح ـ وهي تنقل الأمواج الصوتية عبْر الأثير، وتوزّع أصوات القراء وهم يتلون كتاب الله تعالى في الآفاق وتنشره هنا وهناك ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾ أي الرياح وهي تحمل الأصوات بآي الذكر الحكيم في العالم، فتفرقه ﴿فَرۡقٗا﴾ بما يحمل من الحلال والحرام، والحق والباطل، والهدى والضلال.

وكما تنقل الرياح تلاوات القرآن الكريم إلى العالم فإنها تنقل أيضاً النشرات الأخبارية ونحوها، وتنقل أصوات اللهو ونحوها وتبثه هنا وهناك.

وقد يراد بالفارقات: الملائكة أو الرسل الذين يبلّغون وحي الله تعالى إلى خلقه، ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾.

---

(١) أخرجه ابن مردُويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كما في الدر المنثور (١٥/١٧٤).

وأقسم ـ خامساً بهبوب ـ الرياح، وهي تخمِل آي الذكر الحكيم، ونحوه فتُلْقيه في مسامع الناس، وتذكّرهم بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والجنة والنار ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي أُقسم بالذي يُلْقَى إلى الناس لترغيبهم وترهيبهم، وهو آيات القرآن الكريم لتبشّرهم وتنذرهم، وتعظهم وتذكّرهم وتهديهم وتثبتهم.

وقال قتادة في الملقيات: هي الملائكة تُلقي الذكر على الرسل، وتُلْقيه الرسل على بني آدم، عذراً من الله تعالى ونذرا منه إلى خلقه[1].

وأهل التأويل على أن المراد بالملقيات: الملائكة، ولعل هذا هو الأولى في هذا القسم، وحده، حيث يراد بها الملائكة وهي تُلْقي الوحى من الله إلى أنبيائه.

وهذا القرآن أنزله الله تعالى إلى خلقه لإزالة أعذار المعتذرين عن الإيمان، حتى لا يقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩] ولإنذار الكافرين حتى يُقْلعوا عن كفرهم، فهو إعلام لهم بقبول إيمان المؤمنين بعد كفرهم، وإعلام بقبول توبة التائبين بعد الذنب، وهذا معنى ﴿عُذْرًا﴾ أي إعذارا من الله تعالى للعباد ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

فالقرآن نزل إما عُذراً للناس، لئلا ينكروا الوحي والرسالة، ولئلا يكون لهم حجة في عدم الإيمان به ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ أي إنذارا من الله تعالى بالعقاب الوخيم، لكل من لم يؤمن بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر، فالخلاصة أن الوحي إعذار من الله إلى خلقه، وإنذار منه إليهم.

وقد أقسم الله تعالى في الآيات الست السابقة بخمسة أحوال لتصريف الرياح:

وهي تحمل الرحمة والعذاب، والخير والشر، لإعذار الناس أو إنذارهم.

والمقسم عليه في هذه الآيات، أن الساعة آتية لا ريب فيها ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي أن أمر القيامة حق لاشك فيه، وأن ما توعّد الله به المكذبين الجاحدين، من مجيء الساعة، والثواب والعقاب، أمر كائن لا محالة.

وهذا هو جواب القسم، أي: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ به في هذا اليوم، من قيام الساعة وما فيها

(١) ينظر: عبد الرزاق (٢/٣٤٠)، والطبري (٢٣/٥٨١).

من بعث وحساب وجزاء ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي لنازل بكم لا محالة، من غير شك ولا ارتياب، وإنكم لمبعوثون ومحاسبون ومجزيّون على أعمالكم وأقوالكم.

وهذا التأكيد: بالقسم، وإنّ، واللام، لأن القرآن يخاطب عند نزوله أقواماً ينكرون البعث ويكذبون به.

ولله تعالى أن يقسم بماشاء من مخلوقاته، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله تعالى.

أَرْبَعَةٌ مِنْ مُقَدِّمَاتِ السَّاعَةِ

٨-١٤-﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ[1] ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾.

ثم ذكر سبحانه أربعة من علامات الساعة عند قيامها هي من مقدمات البعث، التي يحدث معها من التغيير في العالم والأهوال الشديدة، ما يشتد له الكرب وينزعج له القلب، فتتناثر النجوم وتزول عن أماكنها، وتُنسف الجبال فتكون كالهباء المنثور، وتصير مع الأرض قاعاً صفصفاً، وهو يوم أُقّت فيه للحكم بين الرسل وبين أممها، **وهذه العلامات الأربع هي:**

أولها: طمس النجوم وزوال ضوئها ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي مُحقت ومُحي نورها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢] ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢] أي تناثرت وزالت عن أماكنها، وطَمْسُ النجوم يقتضي طمس نور الشمس، وزوال انعكاس أشعتها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المظلم من الأرض.

وثانيها: تصدع السماء وانشقاقها وفتح أبوابها لصعود الملائكة وهبوطهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ بانفطارها حتى يحدث فيها فروج، فصارت طرائق مختلفة الألوان، كأنها شقوق في الهواء، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

---

(١) قرأ أبوعمرو بالواو بدل الهمزة في (وقتت) مع تشديد القاف، على الأصل، من الوقت، وقرأ أبوجعفر بخلف عن ابن جماز بالواو وتخفيف القاف، والباقون بالهمزة ﴿أُقِّتَتْ﴾ ومعهم ابن جماز في وجهه الآخر، وهو من الوقت أيضاً.

[الانفطار:١]. وقال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ:١٩] .

وثالثها: تطاير الجبال وتناثرها حتى تصبح هباء منثوراً تذروه الرياح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي اقتُلعت وأُزيلت عن أماكنها، فتفرقت أجزاؤها، وخفّ وزنها وصارت كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥] وقال سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠] وقال أيضا: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥،٦] ، وتكون مع الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

ورابعها: مجيء الوقت الذي حُدّد للقضاء والفصل بين الرسل وأممهم ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي وإذا الرسل عُيّن لهم وقت وأجل، للفصل بينهم وبين أممهم، فبلَغت الأمم والرسل وقْتها الذي كانت تنتظره، وهو يوم القيامة الذي تشهد فيه الرسل على الأمم، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩] .

قال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

ويوم القيامة لا يُعفَى فيه أحد من السؤال، حتى الرسل والأنبياء، فإنهم يشهدون على أنفسهم بالبلاغ، ويشهدون على أممهم، مبرئين أنفسهم مِنْ تَبِعة التقصير في التبليغ.

قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] .

وقد أُجلّ وقت جمع الرسل والأمم ليوم خاص، هو اليوم الذي يتم فيه الفصل والقضاء بين الخلائق ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ هذا استفهام للتهويل والتعظيم من شأن هذا اليوم.

وكأن سائلاً سأل: لأي يوم عظيم أُخِّرت الأمور المتعلقة بالرسل والأمم؟ ولأي يوم أُجِّل إثابة من آمن وتعذيب من كفر، وإظهار أنّ من كانوا يدْعُون الناس إلى الإيمان والخير على حق فيما كانوا يدعونهم إليه؟

فكان الجواب ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي أن هذه الأحوال، قد أُخرت ليوم معين هو يوم الفصل والقضاء، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، بعضهم لبعض، ويحاسب كلا منهم منفرداً ويفصل فيه بين الأنبياء وأممهم المكذبين لهم، بحكمه العادل، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٦٩] .

ثم فخم سبحانه وهوّل من شأن يوم الفصل فقال ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي ما أعلمك أيها الإنسان ـ أي شيء هو يوم الفصل، وشدته وهوله، إنه يوم هائل لا يعلم حقيقة مافيه من أهوال جسام، إلا رب العالمين.

الآيَةُ المَذْكُورَةُ عَشْرَ مَرَّاتٍ فِي السُّورَةِ

١٥ -﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

أي الهلاك العظيم لمن كذب بهذا اليوم الموعود به، ولم يستعد للقاء ربه فيه، يا حسرته وياشدة عذابه وياسوءمنقلبه، ويل لمن كذب بالرسول الخاتم، وما أنزل عليه، وكذب بالبعث والنشور، ويل وهلاك له، وشدة عذابٍ يوم القيامة، لقد أخبرهم الله بهذا اليوم وأقسم لهم عليه فلم يصدقوه، ولذلك استحقوا هذه العقوبة الأليمة.

قيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾ وادي في جهنم يسيل منه صديد أهل النار، فجُعِل داراً ومستقراً للمكذبين.

قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات للتخويف والوعيد.

وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئاً، فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة[1].

قلت: وهذا ما اتبعناه في تفسيرنا للسورة، فلكل من الآيات العشر ارتباط بما قبلها، كما في آية سورة الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

وقد ذكرت هذه الآية عشر مرات، فهي تأتي أحياناً بعد نذير إلهي، وأحياناً بعد آية كونية، أو بعد مرحلة تاريخية، أو نصيحة إنسانية، وكل ذلك للترغيب والترهيب، والتذكير بأحوال الدنيا.

(١) تفسير القرطبي (١٦٧/١٩).

إن هذا الكون المحبوك، سيتمزّق شمله، وتبدأ إعادة تشكيله من جديد على نحو آخر، ففي أيام الدنيا كان الأراذل يرتفعون، والأنبياء يهانون ويكذبون! أما في الآخرة، فلا تكذيب لصادق، ولا تكريم لكذوب!

ثَلاَثُ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ

المجموعة الأولى: الاعتبار بما حدث للأمم البائدة:

١٦-١٩ - ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

في هذه الآيات تصدّي لإثبات البعث بثلاث مجموعات من الأدلة.

المجموعة الأولى: التذكير بما لَحِق بالأولين والآخرين من عذاب دنيوي، لَمّا كذبوا رسل الله تعالى وأنكروا البعث والنشور.

والمجموعة الثانية: الاستدلال ببدء خلْق الإنسان وتكوينه على إعادته مرة أخرى.

والمجموعة الثالثة: مع الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياءً وأمواتاً.

وبعد تهديد المكذبين، يأتي تذكيرهم بما لحق بأمثالهم في الدنيا من نكال وعقوبة، وبيان أن ما أصاب الأولين لن يفُوت الآخرين ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ألم نهلك مَنْ سبَق من الأمم الماضية ممن كذب الرسل، كقوم نوح وعاد وثمود.. ثم نُتبعهم بإهلاك من كذّب من الآخرين، فلم لا تعتبروا بما رأيتم؟ وسنة الله في خلقه لا تتخلق، فكل مجرم مكذب لابدّ أنْ يلق جزاءه. وهذا الاستفهام للتقرير واستخراج الاعتراف والإقرار من المكذبين بالبعث والنشور، ليُقِرُّوا بأن القادر على البدء قادر على الإعادة.

ثم نُلْحِق بالمهلكين السابقين مَنْ تأخر وكان مِثْلهم في الجحود والعصيان، ممن جاء من الآخرين بعد الأولين، كقوم لوط وشعيب، وفرعون وقومه، وكان إهلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين، لأنهم لم يعتبروا بمن سبقهم.

وكما فعلنا بهؤلاء وأولئك من الأمم السابقة واللاحقة، نفعل بكل مجرم مكذب بالله

ورسوله واليوم الآخر، وننزل به عقابنا في الدنيا قبل عقاب الآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الإهلاك الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أصروا على كفرهم وعنادهم حتى أدركهم الموت، فإجرامهم هو سبب هلاكهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٧، ٤٨].

فالهلاك والدمار يوم القيامة لكل جاحد مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب، والجنة والنار، لأنه لم يعتبر بما حدث لغيره من العقوبة والنكال.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِدْلالُ بِبَدْءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ

٢٠-٢٣- ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم[1] مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا[2] فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾

وكيف تنكرون البعث والنشور، وقد أوجدكم الله في الدنيا بعد العدم، إيجاداً متقناً دالاً على كمال الحكمة والقدرة الإلهية، فاستدلوا بذلك - أيها الناس - على أن إعادة الخلق للبعث والحساب، أيسر وأسهل بالنسبة لمقاييس البشر ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ يا معشر المكذبين لليوم الآخر ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي من جزء يسير من نطفة صغيرة ضعيفة، تلتقي ببويضة الدم في رحم المرأة، خرجت هذه النطفة من بين الصلب والترائب، ثم أودعها الله في رحم المرأة إلى وقت معين، ثم خرجت إلى الحياة وصارت بشراً سوياً مكلفاً.

وفي هذا تعجب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي أن مَنْ خلَقهم من النطفة الضعيفة، قادر على إعادة خلقهم للبعث والجزاء.

---

(١) لجميع القراء في ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ وجهان، هما إدغام القاف في الكاف إدغاماً كاملاً، فينطق القارىء بكاف مشددة ولا يظهر للقاف أثر، وهذا هو الأرجح، ويُعمل به على قصر المد المنفصل، والوجه الثاني بالإدغام الناقص وهو بقاء صفة الاستعلاء في القاف، ومن يقرأ من القراء بالإدغام الكبير ليس له إلا الإدغام المحض.

(٢) قرأ نافع والكسائي وأبوجعفر بتشديد الدال من ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التقدير، والباقون بتخفيفها من القدرة.

وهكذا بصق رسول الله ﷺ يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «**يقول الله عز وجل: ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتُك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدّلتك مشيتَ بين بُرديك وللأرض منك وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلَغتِ التراقي قلت: أتصدَّق، وأنّى أوان الصدقة؟**»[1].

ثم إن الله تعالى جعل هذا الماء المهين في مكان حصين محروز، وقرار محفوظ، هو رحم المرأة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي في مستقر أمين بحكمتنا وقدرتنا.

وأبقينا هذه النطفة في رحم المرأة إلى مقدار محدد من الزمن، معلوم عند الله تعالى، هو وقت الولادة، وانتهاء مدة الحمل، ومدته من ستة أشهر إلى تسعة، إلى أكثر من ذلك.

فقدَّرنا أطوار خلقكم في بطون أمهاتكم: نطفة فعلقة فمضغة، فعظاماً، ثم كسونا العظام باللحم، ثم النفخ فيه بالروح، ثم قدَّرنا أعضاءه وصفاته حتى كان إنساناً سميعاً بصيراً، وتم كل ذلك حتى أخرجناكم أطفالاً على الصفة التي أردنا ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على خلقكم وتصويركم وإخراجكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ نحن، حيث خلقناكم في أحسن تقويم وصورناكم في أحسن صورة، فنعم المقدِّر، وهو الله سبحانه. **قال تعالى:**

٢٤- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

وكل من كذب بهذه النعم المتعلقة بخلق الإنسان من العدم، له الهلاك وشدة العذاب يوم القيامة، وهكذا: فقد ذكّر الله تعالى الكافرين بإنعامه عليهم وقدرته على ابتداء خلقهم، وتوعَّدهم بالعذاب الشديد على جحودهم لوحدانية الله تعالى وتكذيب رسله.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَلائِلِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ تَتَعَلَّقُ بِالأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ

٢٥، ٢٦- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾

وتأتي مجموعة ثالثة في مقام الاستدلال على إمكانية البعث والنشور، وقد كانت

---

(١) المسند (٤/٣١٠) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٤) من حديث بسر بن جحّاش بإسناد حسن (محققوه)، وابن ماجة (٢٧٠٧)، والحاكم (٢/٥٠٢)، وحسّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢١٨٨)، وينظر السلسلة الصحيحة (١٠٩٩، ١١٤٣).

المجموعة الأولى تتعلق بإهلاك السابقين واللاحقين، والمجموعة الثانية تتعلق بأطوار خلق الإنسان في بطن أمه، ثم هذه المجموعة الثالثة مكونة من الأرض والجبال والماء.

وجاء التعقيب بعد كل منها بالويل والهلاك، لمن كذب بآيات الله تعالى ولقائه، وكلها جاءت بأسلوب الاستفهام التقريري، للامتنان على الخلق بما أنعم الله عليهم به، فقد امتن الله تعالى على عباده بهذه الأرض بأن جعلها مصيراً لكل من عليها، فهي صالحة لدفن الأموات فيها بعد أن كانت مستقرًا ومعاشًا لهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكفت هو الضم والجمع، وقيل: الكفت هو قلب الشيء ظهراً لبطن، فهم يعيشون على ظهرها زماناً ثم يكونون أمواتا في بطنها، تضمهم إليها وتجمعهم فيها، إنها تضم على ظهرها أحياء من البشر لا يُحْصَوْن، وتجمع في بطنها أمواتاً لا يحصوْن ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فالأرض كالأم بالنسبة للإنسان، تجمع الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها، وكما أنعم الله علينا بنعمة الدور والقصور، أنعم علينا بنعمة القبور رحمة بالأبدان وستراً لها من أكل السباع والكلاب ونحوهما.

قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[1] .

وقال بنان: خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة، فقال: هذه كفات الموتى. ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء[2].

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] .

وأول من دفن في الأرض هو هابيل بن آدم، حيث ألهم الله أخاه قابيل أن يدفنه فيها بعد أن قتله، وأرسل الله له غراباً يبحث في الأرض ليعلمه طريقة الدفن.

والدّفْنُ في الأرض هو الأصل، أما من يموت في البحر أو يُحْرق جثمانه، أو تُقطّع أشلاؤه في الحروب ونحو ذلك، فإنه يكون كالمقبورين في الأرض، في الفترة البرزخية،

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٨٠).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٤١٩)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد وانظر الطبري (٢٣/٥٩٦).

ويوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة:٣،٤] .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩،٥٠] . **قال تعالى:**

٢٧،٢٨- ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

وامتن الله على عباده بأن جعل لهم جبالاً ثوابت مرتفعاتٍ ارتفاعاً كبيراً، لئلاً تضطرب الأرض بالناس وهم على ظهرها، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد في المياه، كما تُثبت الأوتاد أركان الخيمة، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل:١٥] ، والجبال الشامخات هي: الطوال المرتفعات الشاهقات ناطحات السحاب.

ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض دائمة الاضطراب، كالريشة في مهب الريح.

وفي الجبال نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها.

ومن نعم الله تعالى عليكم - أيها الناس - أن أسقاكم ماءً عذباً زُلالاً سائغاً شرابه ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ وهذا الماء الحلو أنزلناه لكم من السحاب، وأخرجناه لكم من العيون والآبار، لتشربوا منه أنتم ودوابكم، وتَسْقُون منه زرعكم وأشجاركم.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ هلاك شديد ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين يكذبون بنعم الله تعالى، ويكذبون بيوم الدين، وويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم يستمر على تكذيبه وكفره.

المصير المؤلم الذي ينتظر المكذبين

٢٩-٣٤- ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟[1] إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا

(١) قرأ رويس بفتح لام ﴿ انطَلَقُوا ﴾ على أنه فعل ماض، والباقون بكسرها، فعل أمر، أما ﴿ انطَلِقُوا ﴾ التي قبلها فلا خلاف في كسر لامها.

يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ[1] كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ[2] صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

ثم شرعت السورة في بيان المصير المؤلم الذي ينتظر هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور حيث يقال لهم في يوم الحشر ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ توجهوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبونه في الدنيا، وسيروا إلى العذاب الذي توعّدكم الله به في الدنيا، تقول لهم الخزنة ذلك تأنيباً وتوبيخاً ودَفْعاً بهم إلى جهنم.

ثم بين سبحانه هذا العذاب فقال ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ من دخان نار جهنم يتَصاعد من وقودها، ثم يرتفع ويتفرق إلى ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي اذهبوا، فاستظلوا بدخان جهنم الكثيف، حيث يَسْطع، ثم يتفرع منه ثلاث قطع من النار، فإن النار إذا عظُم اشتعالها تصاعَد دخانها من طرفيها ووسطها، لشدة انضغاطه في خروجه منها، وهكذا النار يوم القيامة تكون لها ثلاث شعب، تمييزاً لها عن نار الدنيا، وهذه الشعب من النار تجتمع على مستحقيها، فتتناوب عليهم وتلتهمهم من كل جانب.

وقيل: يخرج من النار عنُق فيتشعب ثلاث شعب: على رؤوسهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم.

وتسمية نار جهنم ودخانها بالظل: من باب التهكم، لأن المكذبين في هذا اليوم في حاجة شديدة إلى ظل يأوون فيه، فيكون هذا الظل في سموم وحميم، وظل من يحموم، أي من دخان أسود قاتم.

---

(١) رقق الأزرق عن ورش، الراء الأولى من ﴿بِشَرَرٍ﴾ وفخمها غيره، وفخم الجميع الراء الثانية وصلا، أما في الوقف فقد رققها ورش مطلقا سواء أوقف بالسكون أو بالروم، وفخمها غيره إن وقف بالسكون، ورققها إن وقف بالروم.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الجيم وحذف الألف من ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جمع جمل، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقرأ رويس بضم الجيم وألف بعدها وهي الحبال الغليظة من حبال السفينة، والباقون بكسر الجيم وألف بعدها جمع الجمع لجمالة أو جمال، وهي الإبل، وكل من قرأ بالجمع وقف بالتاء كالرسم، أما من قرأ بالإفراد فكل على أصله، الكسائي يقف بالهاء مع الإمالة، وحفص وحمزة وخلَف يقفون بالتاء.

وهذا التهكم في مقابلة أن المؤمنين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون.

ثم إن الظل الذي يستظل به الكفار في نار جهنم ودخانها، لا يدفع حَرَّ ذلك اليوم، ولا يقي شيئاً من سموم اللهب ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي لا يظل مَنْ تَحتَهُ ولا يقيه حرّ النار، فلا راحة فيه ولا طمأنينة ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يدفع ألسنة النار المندلعة من كل جانب، فقد أحاط اللهب به يمنة ويسرة ومن كل جهة.

قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ٤١].

وشأن الظل أن يقي من يأوي إليه من ألم الحر، ولكن ظل جهنم قد سُلب منه خصائص الظلال، فهو ليس كظل الجدار أو الشجرة، وإنما هو ظل نار جهنم ودخانها المتصاعد منها، فهو ظل قد فقَد خصائصه المعروفة من البرودة والشعور بالراحة عنده، وهكذا وصف الله تعالى هذا الظل بثلاثة أوصاف:

١ـ فهو دخان عظيم كثيف يصعد إلى أعلى ثم يفترق إلى ثلاث شعب.

٢ـ وهو ليس بظل على الحقيقة، بل دخان خانق لا يقي من البرد.

٣ـ وهو لا يدفع عنهم حر لهب جهنم.

إن جهنم تقذف من النار بشرر عظيم، كل شرارة منه كالبناء المشيّد في العظْم والارتفاع، كأن شرر جهنم المتطاير منها: إبل سُود يميل لونها إلى الصفرة: ﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ من نارها ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ وفي هذا تشبيه للشرر بالقصر العظيم.

في البخاري عن عبد الرحمن بن عابس قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع، وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر، وقال في ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ حبال السفن، تُجمع حتى تكون كأوساط الرجال)[1].

وفي هذا تشبيه للشرر المتطاير من النار، في كثرته وسرعة حركته ولونه، بالإبل

(١) البخاري (٤٩٣٣)، وعبد الرزاق (٣٤١/٢)، والحاكم (٥١١/٢)، والطبري (٦٠٢/٢٣).

الصُّفْر ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي شرر النار ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جمع جمل، مثل حجر وحجارة، وهي جمال ﴿صُفْرٌ﴾ أي: سود تميل إلى الصفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء كريهة المنظر شديدة الحرارة، وإذا كان هذا حال الشرر؟ فيكف تكون حال النار الملتهبة؟ والجمالات: طائفة من الجمال، وهو اسم جمع.

والوقف على ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بتاء ساكنة وعدم مدّ اللام، تبعًا لرسمها بتاء مفتوحة.

والمعنى: إن جهنم ترمي المكذبين بشرر كبير متطاير منها، كأنه في لونه وهيئته، جمال لونُها أسود أصفر، والعرب تسمي سود الإبل صفر، لأن سواده يشوبه شيء من الصفرة.

وجاء في الأثر (إن شرر نار جهنم أسود كالقير).

وفي هذا ترويع وتهويل ووعيد لكل من كذب بالحساب والجزاء.

ويل للكافر من عذاب الله، وهلاك له يوم لقاء ربه، وكذا كل من كذب بيوم الحساب والجزاء.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ طَوِيلٌ تَخْتَلِفُ فِيهِ الْمَوَاقِفُ

٣٥-٣٧- ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

ويوم القيامة يوم تختلف فيه المواقف والأحوال، فتارة ينطق فيه الناس، وتارة لا ينطقون، وتارة يعتذرون، وتارة لا يقبل منهم اعتذار، ففي بعض المواطن بالنسبة للكفار يُسألون ويَنطقون، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٤].

ويتساءلون فيما بينهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧].

ويتلاومون على ما حدث منهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم:٣٠].

وفي بعض المواطن يُختم على أفواههم وتتكلم الجوارح:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

والآية التي معنا، من الآيات التي تُقرر أن الكفار لا يتكلمون في بعض المواطن.

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾.

وكذا في آية سورة النمل ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

فهم ينطقون أحياناً ويختصمون أحياناً ويختم على أفواههم أحياناً فلا ينطقون.

إنهم لا يقدرون على الكلام ولا يؤذن لهم في الاعتذار، فقد قامت عليهم الحجة ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥] .

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وكما أن من الناس من يدخل الجنة بدون حساب، ومنهم من يناقش الحساب، فإن أهل النار كذلك، منهم من بلغت ذنوبه مبلغاً كبيراً بحيث لا فائدة من الكلام معه، ولا يسمح له بالاعتذار عما سلف ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ إذ ليس هناك من حجة تنفعهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] ولا ينافي هذا أنهم يتكلمون في بعض المواطن، جواباً عن سؤال، لأن يوم القيامة يوم طويل ذو مواقف، فلا ينافي هذا آية ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وحين ينكشف الأمر لا يبقى لديهم كلام يكتمونه:

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] ويتوقف الكلام وعدمه على إذن رب العالمين.

كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨] .

والويل والعذاب لمن كذب بيوم القيامة ومافيه من ثواب وعقاب.

مَنْ عِنْدَهُ حِيلَةٌ لِلْخَلاصِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَفْعَلْ

٣٨-٤٠ - ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ[1] ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

ويقال يوم القيامة لمن في أرض المحشر والمنشر ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، والسعداء من الأشقياء ﴿جَمَعْنَـٰكُمْ﴾ فيه أيها الكفار من هذه الأمة، أنتم ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي مع الكفار السابقين من الأمم الماضية، فأنتم في صعيد واحد، ومصيركم واحد.

(١) أثبت يعقوب الياء من ﴿فَكِيدُونِ﴾ وصلا ووقفا والباقون بحذفها.

فإن كان لكم حيلة للخلاص من هذا المصير المؤلم، فاحتالوا وأنقذوا أنفسكم من عذاب الله وعقابه إن استطعتم ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿كَيْدٌ﴾ أي مخرج ومنفذ من العذاب الذي حل بكم ﴿فَكِيدُونِ﴾ افعلوا ما بوسعكم وأنقذوا أنفسكم، إن كنتم تستطيعون الخروج من مُلكي وتنجُون من عذابي، ولا قدرة لكم على ذلك.

وفي هذا تعجيز لهم، وبيان أنهم لا قدرة لهم على شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣].

وفي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني)[1].

وفي يوم القيامة تبطل حيل الظالمين، ويضمحلّ مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويتبين تكذيبهم لرسل الله وفي البعث والجزاء يوم لقاء الله.

ومن كذّب بيوم القيامة وأنكر لقاء الله تعالى في هذا اليوم العظيم، له الوعيد الشديد بالعذاب الأليم.

حَالُ الْمُتَّقِينَ وَنَعِيمُهُمْ

٤١-٤٣- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ[2] ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا[3] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وبعد أن بيّن سبحانه حال المجرمين في الدار الآخرة، بيّن حال المتقين ونعيمهم، فإذا كان المجرمون في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، وهو دخان جهنم الأسود الذي لا يقي حراً ولا يدفع عطشاً، فإن المتقين الذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه: في ظلال الأشجار الوارفة، وعيون المياه الجارية،

(١) من حديث طويل في صحيح مسلم (٥٥،٢٥٧٧) وأوله (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي..)

(٢) كسر العين من ﴿وَعُيُونٍ﴾ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي والباقون بضمها.

(٣) وقف حمزة بإبدال همزة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ ياء مع الإدغام في الياء قبلها.

يتنعمون في دار الخلد والكرامة، لا يصل إليهم شرر ولا لهب ولا دخان، وهم يتمتعون في أنهار الماء والعسل والخمر واللبن، وعيون جارية من الرحيق والسلسبيل.

وهم أيضاً في فواكه كثيرة من ثمار الجنة مما تشتهي أنفسهم بلا كد ولا تعب.

كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٣] .

وتقول لهم الملائكة تكريما لهم وحسن ضيافة ﴿كُلُوا﴾ أي أكلاً لذيذاً شهيًا ﴿وَٱشْرَبُوا﴾ شُرْباً هنيئاً من غير آفة ولا نغص وهو شراب دائم لا ينقطع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعة والأعمال الصالحة، فأعمالهم هى التي أوْصلتْهم إلى هذا النعيم.

قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣] .

ودخول الجنة محض فضل من الله تعالى، وليس بالأعمال كما في الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يُدْخِلَ أحداً عملُه الجنة**» قالو: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله عز وجل منه برحمة..**»[1].

أما مراتب الناس في الجنة وتفاوت درجاتهم ونعيمهم فيها فهو على وفق أعمالهم في الدنيا. **قال تعالى:**

٤٤، ٤٥ -﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

ويمثل هذا الجزاء العظيم يجزي الله كل مَنْ أخلص في دينه وأحسن في عمله وطاعته وقوله وفعله، وحَفِظَ نفسه عما يغضب الله تعالى، ومن شأننا أن نعطي هذا الجزاء الطيب للمؤمنين الذين أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم، فأحسنوا في عبادة الله وأحسَنوا إلى خلق الله.

وكل هذا النعيم يكون في يوم القيامة، لأهل التقوى والإحسان، ومن كذّب بهذا اليوم، فهو مهدد ومتوعد بعذاب الله تعالى. ولو لم يكن له من الويل إلا الحرمان من هذا النعيم لكفاه خسراناً.

---

(١) المسند (٢٤٩٤١) عن عائشة، وفي مسلم (٢٨١٨)، والبخاري (٣٤٦٧، ٦٤٦٤)، وأول الحديث «سددوا وقاربوا»، وفي الباب عن أبي هريرة في المسند (٧٢٠٣)، وعن غيره من الصحابة ﷺ.

ثلاثة أسباب لعذاب أهل النار

السبب الأول هو: التمتع الإجرامي

٤٦، ٤٧- ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

وإذا كان المتقون يتمتعون بنعيم الجنة أكلا وشرباً، وتُهنّئهم الملائكة بذلك، فإن المجرمين يقال لهم وهم في الدنيا ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ كلوا من لذائذ الدنيا واستمتعوا بشهواتها الزائلة زمناً قليلاً ومدة قصيرة إلى منتهى آجالكم، فإنكم ستلقون في آخرتكم أشد أنواع العذاب، وتساقون إلى نار جهنم. وهذا تهديد ووعيد للمكذبين.

والسبب الأول في ذلك: هو عدم الإيمان بالله تعالى: وذلك أنكم كنتم في الدنيا مصرون على الكفر والفسوق والعصيان ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ لأنكم أشركتم بالله وكفرتم به، وغفلتم عما يقربكم من الله، فكنتم مستحقين لما يستحقه المجرمون من العذاب وعدم التمتع بالملذات.

١ - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

٢ - وقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٦، ١٩٧].

٣ - وقال جل شأنه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

٤ - وقال عز وجل: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس:٧٠].

كلوا وتمتعوا الآن أيها المجرمون، وأنتم في الدنيا، وويل لكم يوم القيامة من عذاب شديد.

السبب الثاني: ترك الصلاة

٤٨، ٤٩- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

وهؤلاء المكذبون كانوا إذا طُلب منهم الإيمان بالله تعالى، وأداء ما يترتب على هذا الإيمان، من صلاة وخشوع لله تعالى، وخضوع لجلاله، لا يجيبون ولا يؤمنون، ولا يخشعون فهم يتحملون اليوم تبعات هذا الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي للمشركين المكذبين على سبيل النصح والإرشاد ﴿ارْكَعُوا﴾ أي صلّوا لله واخشعوا في صلاتكم لعظمة الله تعالى وجلاله، فهم ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ ولا يستجيبون، بل يصرّون على استكبارهم، فلا يخشعون ولا يخضعون، ولا

يصلون مع المصلين. لقد تمردوا على خالقهم ولم يستجيبوا لأمره ونهيه.

سبب النزول:

قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، لإنهم امتنعوا عن الصلاة، وقالوا للنبي ﷺ: حُطَّ عنا الصلاة، فإننا لا ننحني، إنها مَسَبَّة علينا، فأبى ﷺ وقال: «**لا خير في دين لا ركوع فيه**»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُدْعَوْن يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا(٢).

ومن لم يمتثل أمر الله تعالى فلا يؤمن ولا يخشع، ولا يؤد الصلوات المفروضة، فهو متوعد بالهلاك والعقاب الأليم. لقد سد على نفسه منافذ الخير وحرمها من التوفيق للهدى، بتكذيبه لله والرسول.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: عَدَمُ الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ

٥٠ - ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

فإذا لم يؤمن هؤلاء المجرمون بالبعث والنشور، وبالقرآن ومافيه من الهدى والنور، فبأي شيء يؤمنون ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ ﴾ أي بأي كلام وبأي كتاب بعد هذا القرآن المعجز الواضح ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن لم يؤمنوا بالقرآن، وسواء أكان هذا الحديث الذي يؤمنون به موجودا قبل القرآن، كالتوراة والإنجيل، أو موجوداً بعده من المواعظ والأخبار، فإن ذلك لن يفيدهم شيئاً، ولن تقوم لهم شبهة، فضلاً عن دليل.

والمعنى: أنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لن يؤمنوا بكل حديث، إذ ليس بعد النور إلا الظلام، ولا بعد الصدق إلا الكذب، فتبًا لهم، ما أشقاهم وما أعماهم وما أشد خسرانهم!

تم تفسير (**سورة المرسلات**) ولله الحمد والمنة

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٤٠٨)، والحديث في المسند (٤/٢١٨) برقم (١٧٩١٣)، رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه)، وأخرجه ابن خزيمة (١٣٢٨)، والطيالسى (٩٣٩)، وأبوداود (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبي العاص، وهو في مصنف ابن شيبة (٣/ ١٩٧).

(٢) الطبري (٢٣/٦١٣).